١٦٤ سلسلة كتب ثقافية
تصدرها وزارة الثقافة
المملكة الأردنية الهاشمية
كتاب الشهر



دراسات في الجغرافيا التاريخية لبلاد الشام

أ.د صالح موسى درادكه



2012



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

دراسات في الجغرافيا التاريخية

لبــــــلاد الشــــــام

● دراسات في الجغرافيا التاريخية لبلاد الشام
● الأستاذ الدكتور صالح درادكة
● وزارة الثقافة
● الطبعة الأولى ٢٠١١
عمان - الأردن
ص .ب ١٣٢ - عمان
تلفون : ٤٦٢١٧٢٤
تلفاكس : ٤٦٣٧٠٤١
www.jowirters.org
Email:info@jowiters.org
● الطباعة : مطبعة السفير هاتف : ٤٦٥٧٠١٥

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠١١/١١/٤١٨٥)

دراسات
في الجغرافيا التاريخية
لبلاد الشام

أ.د. الدكتور صالح درادكه



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من الغرائز الهامة في الإنسان حب التعرف على المكان، إذ يبدأ الإنسان طفولته في التعرف على ما يحيط به، ويكبر هذا المحيط مع نمو الإنسان، حتى يصبح طموحه معرفة كل الكون إذا أمكن.

وللمكان أهمية زائدة في حياة الإنسان العربي، تنقل فيه وتعرف على خصائصه وكل ما يحيط به أو يؤثر فيه، وليس أدل على ذلك من أن الشاعر العربي كان يبدأ قصيدته بذكر المكان. فهذا امرئ القيس أمير الشعر في الجاهلية يبدأ معلقته قائلاً:

قفا نبكي من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدَّخول فحوملِ

وقال النابغة الذبياني مستهلا قصيدته:

يـا دار ميــة بالعـليـاء فالسند   أقـوت وطـال عليها سـالـف الأمـد

وهذا عنترة يقول في مطلع معلقته:

هل غادر الشعراء من متردم   أم هـل عـرفـت الــدار بـعـد توهـم

وغير هذا كثير في الآدب العربي شعرًا ونثرًا.

لقد خبر الإنسان أهمية المكان، وارتحل طلبا للكلأ والماء، وعرف بالتجربة السحاب الماطر من السحاب العابر، وخبر التربة وبعد الماء فيها، كما خبر نبات الأرض ومكوناته وتأثيراته.

كانت الحاجة ولا زالت تدفع الإنسان إلى الرحيل من مكان إلى مكان، وأصبح للقبيلة روادها، يرتادون الأرض ليختارون المكان الأفضل للإقامة، وقد اتسعت رقعة البحث عن المكان الأفضل، كما تغيرت أهداف البحث وتعددت، حتى شملت المعمورة ممثلة بالاستكشافات الجغرافية، وظهور الرحالة العالميين.

كان للعرب إسهامهم في الرحلات المحلية والعالمية في العصور الوسطى، ولمع منهم رواد في هذا المجال، وأنتجوا أدبًا عرف بالأدب الجغرافي، هو خلاصة مشاهدات الرحالة في أسفارهم للأماكن والبشر حيثما ساروا، وأظهر هذا الأدب أثر المكان في الإنسان، وأثر الإنسان أيضًا في المكان، وهذا ما يطلق عليه (الجغرافية التاريخية) أي هي ناتج التفاعل بين الإنسان والمكان. وعندما نقول المكان نقصد به، المكان fعناصره الطبيعية والمناخية بجميعها، ونعني بالإنسان هنا الأنشطة البشرية التي قام بها البشر في المكان عبر الزمان.

إن الجغرافية التاريخية علم قائم بذاته له مستلزماته، فلا بد للمعني بهذا العلم من أسس معرفية لعلوم عديدة، أخصها الجغرافيا والتاريخ ووسائل الاتصال والأنثربوولوجيا وعلم الاجتماع والسياسة، ومبادئ في علم الخرائط، لذلك نجد أوائل الجغرافيين العرب هم الذين تتلمذوا على مدرسة بطليموس وآخرين من اليونان والرومان، ثم بعد نبوغهم واستقلالهم، أصبحت لهم مدرستهم الجغرافية العربية الخاصة، وعليها تتلمذ الأوروبيون في العصور الوسطى.

وفي العصور الحديثة حظيت الدراسات في الجغرافية التاريخية بجهود طيبة من قبل المستشرقين (للأسف) وليس من العرب، وأخذت هذه الجهود تتوالى إبتداء من المصنف الكلاسيكي للمستشرق الفرنسي رينو Reinaud، وفي بدايات القرن الماضي نما هذا المجهود بشكل ملحوظ، بفضل الأبحاث الممتازة لبارتولد ومينورسكي وكرامرس Kramers وروسكا Ruska وفيران Ferrand وغيرهم.

تفوق المستشرق الروسي كراتشكوفسكي على من تقدم بهذا المجال بمؤلفه الممتاز، (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) الذي طبع لأول مرة في موسكو سنة ١٩٥٧، ثم نقله إلى العربية المرحوم الدكتور صلاح الدين عثمان هاشم.

أدرك كراتشكوفسكي غنى الأدب العربي بعامة والأدب الجغرافي بخاصة بعد أن أتقن اللغة العربية، وأطلع على المكنونات العربية في هذا المجال.

لذا فقد رأى في الأدب الجغرافي بالذات عنصرًا أساسيًا في الأدب العربي يجب معالجته من وجهة نظر تاريخ الأدب العربي والحضارة العربية (كما يقول الناشر في مقدمة الكتاب).

ومدلول الحضارة العربية لديه واسع للغاية، وقد استعمله للتعبير عن أوجه النشاط الثقافي جميعها لشعوب الشرق الأدنى، فلم يقتصر على العرب وحدهم بل أدخل شعوب أسيا الوسطى والقوقاز كما أدخل الإيرانيين والأتراك والسريان وغيرهم.

أصبحت المصادر الجغرافية أساسية في البحث التاريخي، وبخاصة كتب الرحالة، فهذه مصادر تبرز دور المكان في صنع الحدث التاريخي الأمر الذي يستوجب على الدارس تحليل الخبر التاريخي واستخلاص أثر عناصر المكان في هذا الخبر، وعلى الأغلب تتصف المصادر الجغرافية بصدقية أكبر من غيرها، لأنها تقوم على المشاهدة والرواية المباشرة؛ وهذا لا يعني إغفال استخدام مناهج البحث، ومن المنطلقات السابقة رأيت أن أنشر هذا الكتاب بعنوان "دراسات في الجغرافية التاريخية العربية، وهي مجموعة بحوث نشر بعضها في مجلات محكمة وبعضها نشر في كتب مؤتمرات محلية أو دولية، وبعضها لم ينشر من قبل.

وادراكا مني لأهمية المكان في صنع الحدث رأيت نشر هذه الدراسات في كتاب بعنوان: (دراسات في الجغرافية، التاريخية لبلاد الشام) لعلها تسهم في القراءة السليمة للتاريخ.

تضمنت الدراسات موضوعات في الفتوح الأولى العربية الإسلامية يظهر فيها العامل الجغرافي، وهي:

١- مقدمات في فتح بلاد الشام، نشر في المجلد الثامن من أعمال الندوة الثانية، للمؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام عام ١٩٨٧م في عمان.

٢- واقعة اليرموك - المكان والزمان - إشكالية الروايات (لم ينشر).

٣- فتح دمشق - دراسة في الروايات، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد الثاني/ العدد الأول ٢٠٠٨م.

٤- الحملة الإفرنجية على أنطاكية والدروس المستفادة، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب ٢٠٠٩م.

٥- لمحات من تاريخ أيلة (العقبة) في العصر الإسلامي، دراسات تاريخية، العددان الخامس عشر والسادس عشر، كانون الثاني ١٩٨٤م.

٦- طريق الحج الشامي في العهد الأموي - قراءة في المصادر - المجلد الأول من أعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، عمان ١٩٨٩.

٧- البريد وطرق المواصلات في بلاد الشام في العصر العباسي منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، المؤتمر الدولي الخامس، عمان ١٩٩٠.

٨- سكة حديد الحجاز – موسوعة الحضارة الإسلامية، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) الفصلة التجريبية، عمان ١٩٨٩.

٩- أهمية حلب بين المتوسط والفرات على طريق التجارة العالمي (غير منشور).

١٠- المياه والزروع في رقعة الأردن الحالي من خلال كتب الرحالة العرب، دراسات تاريخية العددان ٤٣-٤٤، ١٩٩٢.

١١- كتب الرحالة كمصدر لدراسة تاريخ بلاد الشام في القرنين الرابع والخامس الهجريين، العاشر والحادي عشر الميلاديين (كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي نموذجا) (غير منشور).

١٢- رحالة القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وجهودهم بالتعريف بالأصقاع الشمالية للعالم الإسلامي، (غير منشور).

١٣- الرحلة والرحالة في حياة نقولا زيادة، كتاب نقولا زيادة في ميزان التاريخ، مؤسسة عبد الحميد شومان ٢٠٠٨م.

لايسعني في ختام هذه المقدمه الا أن ازجي بشكري وتقديري الى الأستاذ العلامة شيخ المؤرخين العرب ،الزميل عبد الكريم غرايبه الذي تفضل بالتقديم لهذا الكتاب.كما أسجل جزيل الشكر وجميل العرفان للطالبتين صفيه السلامين وروان السعيدات اللتين أعدتا الفهارس العامة للكتاب،والشكر موصول لإدارة المناهج والكتب المدرسيه في وزارة التربية والتعليم، وأخص بالشكر السيد نايف المراشده رئيس قسم التصميم الذي تولى مشكورا تنسيق الكتاب وتنظيمه واعداده للطبع .

لقد استأذنت هيئات النشر التي نشرت بحوثي سابقًا لإعادة نشرها، فتفضلوبالأذن لي مشكورين، آملا أن يكون في هذا العمل نفع، ولي فيه أجر، والحمد لله رب العالمين.

المؤلف

عمان ٢٠١١



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أستاذ الشرف الشيخ المعلم عبدالكريم غرايبه

شَرفني وأسعدني الزميل أستاذ الشرف الدكتور صالح درادكه عندما طلب مني تقديم مجموعة مقالات تقديمية عن بلاد الشام، والمقالات الثلاثة عشر منشورة باستثناء أربعة أبحاث وهي الأبحاث ١٢,١١,٩,٢. وقد سبقني أساتذة في تقويم الأبحاث التسعة الأخرى لذا أتردد في التحدث عنها إحتراماً لهم بعد أن زكوها للنشر والإلقاء...

وتتفاوت المقالات في الطول، وأطولها هو المقال السادس عن الحج الشامي المؤلف من سبع وثلاثين صفحة ، ويليه الأول وهو عن فتوح الشام، أما أقصرها فهو المقال الرابع وهو عن الحملة الافرنجية الصليبية على انطاكية ويليه في القصر المقال التاسع الذي لم ينشر عن حلب....

تعرضت الأبحاث الأول والثاني والثالث عن الفتح - فتح بلاد الشام- ، اليرموك، فتح دمشق. وتوقعت أن يشير الكاتب إلى الأسباب التي حملت العرب على التركيز على بلاد الشام بدلاً من العراق مع أن سورة الروم تظهر عطفاً إسلامياً على الروم البيزنطيين المسيحيين وما يشبه العداء للفرس الوثنيين، وهدد الرسول -صلى الله عليه وسلم- آخر أيامه الحدود البيزنطية، وأرسل حملة مؤتة إلى بلاد الشام، بينما لم يتعرض للعراق وفارس.. وقد تكون الأسباب جغرافية...

ووجه الخليفة الأول الجيوش إلى بلاد الشام الكتابية لا إلى العراق، إلا أن قبائل شرق الجزيرة ورطته في حرب فا رس على أرض العراق. ونسب إلى الخليفة الثاني قوله أن فتح خربة في الشام أحب إليه من فتح دسكرة في العراق.

أرسل الخليفة الأول جيوشه إلى بلاد الشام وإلى العراق ولكنه سحبها للقتال في الشام. و لم يرسل جيشاً إلى العراق إلا بعد أن ورطته قبائل شرق الجزيرة بالجهاد على أرض العراق ضد عبدة النيران.

وأجاد الزميل في تركيزه على الرواية والرواة. ولكن هذا البحث الدقيق والمعمق في الرواة يشتت القارئ الباحث عن المعلومات التاريخية لا رواتها. وتتداخل الروايات لتخلق بالضرورة تشويشاً للقارئ. وتمنيت لو أن الباحث الجليل وضع لهذه الروايات دراسة مستقلة نادرة وقيمة، وأفسح للقارئ متعة المعرفة بدون رواة، وروى الباحث عرضاً اعتبره هام جداً وينبغي إبرازه. قال: "معركة اليرموك كانت يمانية" مستنداً إلى الأزدي وابن أعثم.

وأود أن أضيف إلى ان اسماء حارات وأزقة الفسطاط القديمة تحمل أسماء قبائل يمانية. وعند الحديث عن ابن خلدون ومن عاصره من العلماء يذكر المؤرخون أنهم من أصول يمانية وحضرمية..

وذكر الباحث أن عمر بن الخطاب سأل غزاة من الأزد وبني كنانة أي الوجوه أحب اليكم فقالوا: الشام. فهل اتجه اليمانيون إلى الشام والشمال الافريقي والأندلس تاركين العراق والمشرق إلى القيسين بدون احتكار؟. وضمت المدن اليمانية ما يعرف بالقصبة، وهي كلمة سبأية يمانية..

ويلاحظ أن الطبري يسهب في الحديث عن فتوح العراق والشرق، وعند الحديث عن القادسية يصف الوقائع يوماً يوماً بينما لا يكثر عن اليرموك.. فهل كان الرواة عن الأحداث القيسية أكرم علينا من أحاديث اليمانية؟. هذا أمر متروك للباحث الذي أظهر عناية ودقة شديدة بين الرواية والرواة..

خصّ الباحث المقالات الثلاث بأكثر من ربع الدراسة (٢٧٪). ولو أضفنا مقال العقبة – ايلة وهو ٣٤ صفحة لبلغ حجم المقالات الأربعة أقل قليل من نصف الدراسة. وأشار الباحث إلى حدث سبق أن اهتم به المستشرق (الفرد جيوم) (عن الاستعانة بمائتي رجل من أهل ايلة فضبطها ضبطاً شديداً) مستنتجاً أن حرس المدينة كانوا نصارى وأيّده (ترتسون) لاحقاً. ويقصد من الإشارة نفي ما يشاع عن تحريم دخول المدينة على غير المسلمين. وحديث العقبة امتد مع الباحث ليشمل أحداثاً أخرى عن فتن مصر التي قام بها الحوفيون بزعامة ابي الندى. وأشار إلى الاحداث الطبيعية من زلازل وطواعين أو طغيان الماء على الطريق التجاري مما استدعى شق طريق جديدة. وأشار الباحث إلى أهمية ايلة في العهد الصليبي و لم يسمه الإفرنجي، و أوضح نشاط ارياط في هذا الصراع.

وتحدث عن الامير خاير بك المعمار و لم يذكر إذا كان هو أول ولاة العثمانيين على مصر للسلطان سليم بعد مقتل قانصوة الغوري. وختم الباحث كلامه عن عقبة بمجموعة تراجم لابرز رحالات العقبة.

أما المقال النفيس عن الحملة الافرنجية على أنطاكية، فقد ركز على الافرنج (الصليبين) في خمس عشرة صفحة. وأفرز ثلث المقال لاحداث انطاكية قبل مجيئ الافرنج. وتردد في استعمال كلمة صليبية وجعلها أحياناً بين قوسين. ولأمرما لم يشر الكاتب إلى صلة رجال الحملة الافرنجية بالأندلس.

وأشار بوضوح إلى محاولات قادة من المسلمين والعرب التعاون مع الافرنج ضد اخوانهم من المسلمين بسبب الفوارق المذهبية التي حملت في الوقت نفسه قادة الافرنج إلى النفور من البيزنطيين، و لم يركز الباحث على قصر الفترة التي حكم فيها المسلمون انطاكية(١٠٨٥- ١٠٩٨) بعد أن أصبحت بيزنطية أكثر من قرن، وبدت انطاكية مدينة مسيحية عندما وصلها الافرنج ويحكمها السلجوقي (ياغي سيان) الذي اشتهر (بقبح السيرة والظلم).

ولا صحة لأقوال ابن القلانسي عن تجميع قوات في الشام بأعداد كبيرة. فالأعداد الإسلامية والفرنجية كانت محددة وقليلة.

ويبرز في الدراسة مقالان لهما أهمية خاصة هما طريق الحج الشامي في العهد الأموي وسكة حديد الحجاز في العهد العثماني، بالإضافة إلى البريد في العصر العباسي، وتشغل أكثر من ثلث الكتاب. والمقال الأول هو أطول المقالات في المجموعة وأهمها. أما مقال طريق الحج الشامي فهو أطول المجموع. وتحدث الكاتب مطولاً عن الجغرافيين الذين وصفوا المنازل من ابن خرداذبة إلى حمد الجاسر مما شكّل قائمة طويلة. وأرفق الدراسة بجداول لمنازل الحج الشامي من دمشق إلى المدينة المنورة...

وجاء مقال البريد متمماً لهذه الدراسة، ووددتُ لو أن أستاذنا الكبير أشار إلى أول من تولّى منصب البريد في الإسلام وهو الصحابي «محمد بن مسلمة» الذي كان في الوقت نفسه المسؤول عن المخابرات ومكافحة الفساد. وقيل أن (محمد بن مسلمة) اطلع الخليفة (عمر بن الخطاب) على كل ما كان يحدث في الولايات، وقام بتكليف من الخليفة بالتحقيق

مع الفاسدين. أي أن صاحب البريد كان في واقع الأمر مدير المخابرات العامة. وشغل ابن مسلمة المنصب أكثر من نصف قرن ، وأبدع الكاتب في حديثه عن السكة الحجازية.

وأودُّ أن أُشير هنا إلى أن الأمير عبد الله (الملك المؤسس) وصل عمّان يوم الأربعاء الثاني من آذار ١٩٢١ قادماً من المدينة المنورة عبر معان بالسكة الحديدية. ولكن السكة أهملت بعد ذلك. ولا يمكن نسبة تعطّل السكة إلى أعمال الاعراب الحربية، وتوجيهات لورنس، بل إلى دول عربية بإيعاز غربي. ويذكر أن الولايات المتحدة الامريكية عارضت بشدة مد سكة الدمام – الخرج– الرياض، وعرضت على الملك عبد العزيز بدائل مغرية ولكنه أصرّ على رأيه – وتمنيتُ لو أن الكاتب أورد بعض الفتاوي التي صدرت حول السكة.

والبحث عن المياه والزرع في رقعة الأردن الحالي دراسة متميزة. وعرفت الاردن أحسن ايامها في العهدين الأيوبي والمملوكي. وبينت الدراسات الأثرية وجود عدد كبير من معاصر قصب السكر في وادي الأردن، كما أن مساحة الأرض المزروعة في الغور عام ١٩٤٠ كانت مساوية لتلك في العهد البيزنطي إذا ارتفع مستوى المياه في القنوات البيزنطية التي ازيلت منها العوائق عام ١٩٣٨، ووصل الماء إلى مستوى الماء القديم.

ولعلّ أطرف المقالات وأهمها هو المقال عن الأصقاع الشمالية، وهي دراسة عن وصف الجغرافيين للأصقاع الشمالية. وأبرز هذه المصادر هي وصف بلاد البلغار التي سجلها الرحالة السفير الاديب والشاعر أحمد بن فضلان الذي بدأ رحلته من بغداد في الحادي والعشرين من حزيران ٩٢١م ، ووصل نهر الفولجا بعد قرابة عام (١١ أيار/٩٢٢م).

إن هذه الدراسات التي قام بها أستاذنا الجليل أستاذ الشرف الدكتور صالح درادكه تمثل جهداً رائعاً يشكر عليه. وواضح انه بذل جهداً كبيراً في البحث والدراسات بجمع كل هذا الكم من المعلومات في ثلاثماية صفحة...

عبد الكريم غرايبه

عمان في ٢٠١١/١٠/١٠

مقدمات في فتح بلاد الشام

تحاول هذه الدراسة، استعراض مجموعة التحولات والتفاعلات التي حصلت داخل الجماعات العربية وتحليلها، والتي أدت عبر تاريخ طويل، وبفعل عوامل متعددة، إلى تكوين ما نسميه اليوم بـ «الأمة العربية». وفي هذا المسار التاريخي كان فتح بلاد الشام والأجزاء العربية الأخرى، حتمية تاريخية، كحلقة في مجموعة المقدمات "التفاعلات" التي أعطت الأمة العربية، خصائصها ومميزاتها وأهلتها لحمل رسالتها، وطبعت الأرض التي انساحت عليها بالطابع العربي الذي نشهده اليوم.

إن الدراسات التي سبقت حول تعليل ظاهرة الفتح العربي، وقفت عند عوامل وظواهر آنية تكررت في حالة الأمة العربية. فقد عزا أصحاب هذه الدراسات حركة الفتح إلى أسباب اقتصادية ترجع إلى فقر الجزيرة العربية وطبيعتها الصحراوية، ورد بعضهم أسباب هذه الحركة إلى توالي الهجرات القبلية نحو الشمال، وإلى ضعف الحاجز الرومي والفارسي في بلاد الشام والعراق، ثم ما ذكروه عن الصراعات المذهبية داخل المجتمع الروماني، وإلى سخط رعايا الروم بسبب كثرة الضرائب أو إلى تمرد قبائل الحدود بسبب امتناع الروم من تقديم المعونات المالية التي اعتادوا على تقديمها[1].

---

(١) انظر هذه الآراء عند: ونكلر وكايتاني وبيكر ودونر في E.M. donner, **The Early Islamic Conquests**, Princeton, New Jerrsey, p. 3-5.
سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Donner, The Early Islamic

وانظر عبد العزيز الدوري، **مقدمة في تاريخ صدر الإسلام**، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦١، ص٤٦. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الدوري، مقدمة، توماس ارنولد، **الدعوة إلى الإسلام**، ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوي، ط٣، مصر ١٩٧٠، ص٦٤، سيشار إلى هذا المرجع فيما بعد هكذا: توماس أرنولد. وانظر: A.N.Stratos, **Byzantium in the Seventh Century**, trans. By Harry F. Hionides, Vol.2, p. 39.
سيشار إلى هذا المرجع عند وروده هكذا: Byzantium

ي.أ.. بليايف، **العرب والإسلام والخلافة العربية**، نقله إلى العربية أنيس فريحه، وراجعه وقدم له محمود زايد، الدار المتحدة للنشر، ط١، بيروت، ١٩٧٢، ص٤، وما بعدها. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا بليايف، العرب؛ برنارد لويس، **العرب في التاريخ**، تعريب: نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٤، ص٦٦ وما بعدها. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: لويس، العرب؛ فيليب حتي وادوارد جرجي وجبرائيل جبور، **تاريخ العرب (مطول)** جـ٢، ط٤، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت ١٩٦٥، جـ١، ص١٨٩ وما بعدها. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: حتي؛ كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، نقله إلى العربية: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨، ص٩٣، وما بعدها. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: بروكلمان، تاريخ.

وذهب الأب لامنس إلى انكاره وجود خطة لفتح بلاد الشام، وأن ما حصل إنما جاء نتيجة توالي الأحداث[١]. ولم يحاول أحد ـ في حدود معرفتي ـ أن يربط بين حركة الفتح وحركة التاريخ العربي قبل ذلك أي أن حركة الفتح لم تدرس كظاهرة متصلة بحركة التكوين إذ أن رصد هذه الحركة وإدراك طبيعتها سيؤدي إلى فهم أكبر لحقيقة الفتح العربي بعامة وفتح بلاد الشام بخاصة.

ومصطلح بلاد العرب اتسع منذ القديم ليشمل جزيرة العرب والمناطق الممتدة إلى الشمال منها حتى جبال طوروس[٢]. وهذه المنطقة بمفهومها الواسع تشكل بتكوينها وموقعها ومناخها وحدة جغرافية، كونت البيئة الطبيعية لها، وطبعت بداياتها الحضارية بطابع متماثل[٣]. أي أنها كانت مسرحًا تفاعلت عليه عناصر التكوين العربي مشكلة بذلك فصلا مهمًا في تاريخ الإنسانية. والشعوب التي أدت أدوارها فوق هذا المسرح، إنما هي هذه الجماعات المنساحة من داخل الجزيرة إلى خارجها، بمقتضى أحوال طبيعية لا مفر منها[٤]. وقد رافق حركة الانسياح من الوطن الأصلي تحولات اجتماعية مرافقة، نقلت مجموعات كبيرة من حالة البداوة إلى التحضر والاستقرار، وتفككت اللغة الواحدة (الأم) إلى مجموعة من اللهجات، دون أن تفقد روابط الاتصال، ورافق ذلك محاولات سياسية تمثلت بقيام كيانات هنا وهناك، تصارعت فيما بينها، كما تصارعت مع قوى أجنبية مختلفة، إبتداء بالتطاحن التاريخي بين مصر وبلاد ما بين النهرين، وخلفاء الإسكندر، ومن ثم بين الفرس والروم.

ورغم ظاهرة الاضطراب هذه التي طبعت المنطقة السورية بشكل خاص، لم تغب وحدة

---

(١) انظر مقالته: «**لماذا فتح العرب سورية**». مجلة المشرق، م٣، السنة ٣٠ سنة ١٩٣٢. ص١٧٨–١٨٢. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : لامانس، لماذا فتح العرب.

(٢) جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ١٠م، ط١، دار العلم للملايين «بيروت ومكتبة النهضة» بغداد – بيروت ١٩٦٨. جـ١ ص١٤٤. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: جواد علي، المفصل.

(٣) عبد العزيز الدوري، **التكوين التاريخي للأمة العربية**: دراسة في الهوية والوعي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٨٤. ص١٦. سيشار إليه فيما بعد الدوري. التكوين.

(٤) انظر موسكاتي، سبتنيو، **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة يعقوب بكر، مراجعة محمد القصاص، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر – القاهرة ص٣٤. سيشار إليه فيما بعد: موسكاتي، الحضارات.

أصول شعوب المنطقة، فقد ذكر المسعودي أن الأمم التي سكنت العراق والشام وجزيرة العرب هم فروع مملكة واحدة كان يملكها ملك واحد، ولسانها واحد[١].

وفي خضم الوضع السياسي المضطرب استمرت القبائل العربية تتدفق بأعداد كبيرة من جزيرة العرب نحو الأطراف. وكان يرافق التفاعلات السياسية والحركات البشرية، تفاعل آخر ثقافي باتجاه تكوين (الأمة العربية)، ويتمثل ذلك بنمو بوادر حركة ثقافية تشير إليها مجموعة النقوش التي اكتشفت في جهات مختلفة من بلاد الشام، كالنقوش النبطية والصفوية والتدمرية، ونقوش أخرى كثيرة[٢] ويستفاد من هذه النقوش -وبخاصة النقش المعروف باسم (نقش النمارة)- بالإضافة إلى التطور اللغوي الذي حصل في المنطقة، دلالة سياسية، تساير التطور الثقافي نحو العربية الموحدة، فعبارة: (ملك العرب) -الواردة في النص المشار إليه- تفيد بأن العرب جماعة متميزة متجانسة وقد يستنتج أيضا الرغبة عند العرب في الوحدة السياسية. يمكننا اعتبار الفترة المبتدئة بالقرن الرابع الميلادي مرحلة جديدة، أو لنقل (مقدمة ثانية) في مسار التكوين العربي لغة وثقافة وسياسة. ومن هنا نرى وجهًا لتسمية الفترة الزمنية قبل القرن الرابع الميلادي (الجاهلية الأولى) والفترة المتبقية إلى ظهور الإسلام (الجاهلية الثانية) [٣] وهي مرحلة ازدادت فيها عوامل التعريب في المجالات المختلفة. لقد نظر عرب سورية إلى الرومان على أنهم غزاة غرباء، وسنورد في فقرات لاحقة الشواهد على ذلك.

---

(١) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م). **التنبيه والإشراف**، دار التراث، بيروت. ١٣٨٨-١٩٦٨. ص٦٨-٦٩. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المسعودي، التنبيه، الدوري، التكوين، ص١٦.

(٢) حول هذه النقوش انظر: ديسو، **العرب في سوريا قبل الإسلام**، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٩. ص٨، ٨٦ وما بعدها. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ديسو، العرب؛ جواد علي، المفصل، ج٣، ص١٤٢ وما بعدها؛ نسيب وهيبه الخازن، **من الساميين إلى العرب**، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٢م. ص٨٩، ص١٤١-١٤٦. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: نسيب، من الساميين؛ محمد عزة دروزة، **تاريخ الجنس العربي**، ٨ج، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ج٥، ص٣٩ سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: دروزة، تاريخ؛ جورجي زيدان، **العرب قبل الإسلام**، منشورات دار الحياة بيروت، ١٩٧٩. ص١٢٢، ص٢٦٩-٢٧٠. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: زيدان، العرب.

(٣) الدوري، **التكوين**، ص٢٧. وانظر معنى الجاهلية عند جواد علي، المفصل، جـ١، ص٤٠ وما بعدها.

تميزت المرحلة السابقة للإسلام في بلاد الشام باستقرار المجموعات القبلية التي دخلت البلاد منذ عهد بعيد، كما لم تنقطع الصلات بين عرب سورية وعرب جزيرة العرب، وبقيت الجزيرة موردًا لا ينضب للعرب، تدفع وبشكل مستمر بسيل من سكانها إلى بلاد الشام. وكان تغلغل هذه القبائل في سورية من طرفي البادية الجنوبي باتجاه حوران والبلقاء، ومن طرفها الشمالي باتجاه حاضر حلب وقنسرين، ولكن انتشارهم بالفتوح شمل بلاد الشام كلها[١]. ومن بين القبائل التي استقرت قديمًا في بلاد الشام (سليح) التي أوكل إليها الرومان وظيفة حماية جنوب سورية من تغلغل القبائل العربية، وملكوا عليهم رجلا منهم يدعى: (النعمان بن عمرو بن مالك)[٢]. واستعان الروم في حماية نفوذهم في سورية، وحراسة الطرق التجارية بمجموعة من القبائل العربية وبخاصة مجموعة القبائل اليمانية المكونة من: لخم وجذام وكلب وبهراء وبلقين وعاملة، وقضاعة وعذرة والغساسنة [٣].

---

(١) الدوري، "**العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام**"، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، الدار المتحدة للنشر، ط١، بيروت، ١٩٧٤. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الدوري، العرب.

(٢) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م)، **المعارف**، تحقيق ثروت عكاشة، ط٢، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م. ص٦٤٠. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن قتيبة، المعارف؛ وانظر الدوري، العرب، ص٢٧.

(٣) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ت٢١٣هـ/٨٢٨م) **السيرة النبوية**، ٢م، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها: مصطفى السقا، ابراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، ط٢، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٢٧٥هـ/١٩٥٥م. م١، ص١٣، ص١٥-١٦، ص٧٥، ص١٠٤. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن هشام، السيرة، الواقدي، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م)، **كتاب المغازي**، ٣ج، تحقيق مارسدن جونس، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، جـ٣، ص٤٠٢-٤٠٤. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الواقدي، مغازي؛ البكري، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، ٤جـ، تحقيق مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٥-١٩٥١، جـ١، ص١٧، ص٢٠، ص٢٨-٢٩، ص٤٩-٥٠. سيشار إليه فيما بعد: البكري، معجم؛ غيداء عادل خزنه كاتبي، **الردة**، رسالة ماجستير لم تنشر، الجامعة الأردنية. ص٣٩ وما بعدها، ص١٠٥ وما بعدها. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: غيداء، الردة؛ (نشرت بعنوان: أوليات الفتوح، حروب الردة في الإسلام، المدا الإسلامي، ٢٠٠٩م)، ناجي حسن، **القبائل العربية في المشرق خلال العصر الأموي ٤٠هـ/٦٦٠م - ١٣٢هـ/٧٤٩م**؛ منشورات اتحاد المؤرخين العرب ١٩٨٠، ص١٠٠، ص١٥، ص١٩، ص٣٦- ٣٨، ص٦١-٦٢. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ناجي، القبائل؛ ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري، (ت٢٣٠هـ/٨٤٤م)، **الطبقات الكبرى**، ٨ج دار بيروت - دار صادر، بيروت ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م، جـ٢، ص١٢٨ وما بعدها. سيشار إليه فيما بعد: ابن سعد، الطبقات،الأزدي؛ فتوح، أبو

وقد استقرت مجموعة أبناء كهلان: لخم وجذام وعاملة في فلسطين[١]، واستوطنت قبيلة كلب في دومة الجندل، ثم نزحت إلى تدمر وفي البادية جنوب شرق الشام[٢]. وكانت غسان في منطقتي دمشق وحوران، وقضاعة في البلقاء وإلى الجنوب الشرقي من الأردن، وتنوخ وطيء وسليم بجوار حلب وقنسرين[٣].

وكان عرب سورية في البداية وثنيين، فقد كان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان صنم يقال له (الأقيصر) في مشارف الشام[٤].

وتعرض العرب في سورية بخاصة إلى حملة تنصير واسعة النطاق، والمصادر النصرانية تذكر العديد من نشاط الدعاة وكثيرًا من الأديرة والكنائس في العصر الروماني[٥]. ومن الطبيعي أن تنتشر النصرانية في بلاد الشام أكثر من أية جهة أخرى من بلاد العرب، وذلك تبعًا للنفوذ

اسماعيل محمد بن عبد الله، **تاريخ فتوح الشام**، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٠، ص٢١٨ وما بعدها. سيشار إليه فيما بعد؛ الأزدي؛ البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م)، **فتوح البلدان**، تحقيق رضوان محمد رضوان، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، م. السعادة بمصر ١٩٥٩ ص١١٨، ص١٢٧، ص١٣١، ص١٣٣، ص١٣٦. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح؛ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) **تاريخ الرسل والملوك**، ١٠ ج، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٠. ص٣/٣٢-٣٧. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ؛ ابن حبيب، محمد (ت٢٤٥/٨٥٩م)، **كتاب المحبر**، رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، تحقيق ايلزه ليختن شتيتر، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. ص١١٤، سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: المحبر؛ لامنس، **جذام**، **دائرة المعارف الإسلامية**، ترجمة أحمد الشناوي ورفاقه، وزارة المعارف العمومية، ج٦، ص٣١٣، سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: «دائرة المعارف الإسلامية»، الدوري، التكوين، ص٥٨.

(١) الدوري، العرب والارض ص٢٧.

(٢) البلاذري، فتوح، ص١١٨؛ وانظر ابن عساكر، ثقة الدين أبو القاسم علي بن هبة الله الشافعي (ت٥٧١هـ/١١٣٥م)، **تهذيب تاريخ دمشق**، جـ٧، هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بدران، (ت١٣٤٦هـ/١٩٢٧م)، دار المسيرة، ط٢، بيروت ١٣٩٩هـ-١٩٧٩. جـ١، ١٧٥. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عساكر، تهذيب.

(٣) الدوري، التكوين، ص٥٨.

(٤) ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد (ت٢٠٤هـ/٨١٩م)، **كتاب الأصنام**، تحقيق: أحمد زكي، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٣٤٣هـ-١٩٢٤م، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٤-١٩٦٥م ص٣٨. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: كتاب الأصنام؛ جواد علي، المفصل، جـ٦، ص٢٧٥.

(٥) يوسف الدبس، **مختصر تاريخ سورية**، ط٢، بيروت، ١٩٨٤، ص٤٥٥ وما بعدها. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الدبس، مختصر.

السياسي الروماني. وقد اعتنق النصرانية كثير من أبناء القبائل العربية وبخاصة المجموعات القبلية التي كانت تسكن سورية والعراق، ومثال ذلك: جذام وكلب وعاملة وبلقين وبهراء وبلي ولخم والغساسنة، وقد استعان الروم بهذه القبائل لحماية حدودهم الجنوبية والشرقية من غارات القبائل العربية، ومن أبرز عمالهم الذين تذكرهم المصادر العربية غير أبناء جفنة (أمراء الغساسنة) فروة بن عمرو الجذامي(١). وذكرت المصادر العربية أن أول من تنصر تنوخ وسليم وغسان بالشام (٢)، ثم طيء(٣)ومذحج وبلي وبهراء ولخم وجذام(٤)، وأكيدر ملك دومة الجندل(٥). وتسربت النصرانية جنوبًا إلى اليمن، وأصبح لها أسقفية في نجران(٦).

---

(١) ابن سعد، **الطبقات**، جـ١، ص٢٨١؛ الطبري، **تاريخ** جـ٣، ص١٧٤؛ ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت٤٥٦هـ/١٠٦٣م)، **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر ١٣٩١-١٩٧١. ص٤٢١، سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حزم، جمهرة؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص١٣٢؛ أبو البقاء، هبة الله الحلي، **المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية**، ٢ح، تحقيق صالح درادكة ومحمد خريسات، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان ١٩٨٤. جـ١، ص٦٧-٦٨، ص٩٤، ص٢٧٠. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: المناقب المزيدية؛ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م) **تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، بتصحيح وعناية: علال الفاسي وعبد العزيز بن إدريس المغربي، تعليق الأمير شكيب ارسلان، مصر ١٣٥٥-١٩٣٦، جـ٢، ص٢٣٧. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خلدون، تاريخ؛ جواد علي، المفصل، جـ٤، ص٤٦٢.

(٢) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، المعارف، ص٢٧٨، ص٢٧٩، وانظر المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ٤ ح، تحقيق محي الدين عبد الحميد، ط٤، م.السعادة، بمصر ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، جـ١، ص٣٦٥-٣٦٦. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: المسعودي، مروج.

(٣) ابن هشام، السيرة، جـ١، ص٨٩؛ كتاب الأصنام، ص٦١.

(٤) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت بعد ٢٩٢هـ/٩٠٤م)، **تاريخ اليعقوبي**، ٣ح، قدم له وعلق عليه، محمد صادق بحر العلوم، النجف ١٣٨٤-١٩٦٤، جـ١، ص٢٥٧، سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: اليعقوبي، تاريخ.

(٥) ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص٥٢٦.

(٦) البلاذري، فتوح، ص٩٠-٩١؛ وابن سعد جـ١، ص٣٣٩؛ وابن قتيبة، المعارف ص٦٢١؛ الأصفهاني، حمزة بن الحسن (ت٣٨٠/٩٩٠م)، **تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء**، ط٣، بيروت ١٩٦١، ص١١٣. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الأصفهاني، تاريخ؛ واليعقوبي تاريخ جـ١، ص٢٢٧، ص٢٥٤؛ ابن حوقل، أبو القاسم محمد، **صورة الأرض**؛ مكتبة الحياة، بيروت، د. ت، ص٢٩. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: صورة الأرض؛ الأصطخري، أبو اسحق ابراهيم، **كتاب الأقاليم**، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت، ص١٤، ص٢٠. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: كتاب الأقاليم؛ السيوطي، جلال الدين أبو بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، عيسى البابي الحلبي ط٢، جـ١، ص١٠٥. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: السيوطي، المزهر؛ لويس شيخو، **النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية**، المطبعة اليسوعية، بيروت ١٩٢٣م، ص١٢٤. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: شيخو، النصرانية، الدبس، مختصر، ص٤٥٩-٤٦٣.

ويمكن القول بأن التأثير المسيحي في سورية وإن كان من الناحية الظاهرية واسعًا إلا أنه سطحي لا يتعدى مسايرة العرب لحكام سورية ورجال الدين النصارى، الذين كانوا منتشرين في بيوت العبادة النصراينة، ولحكام الروم نفوذ عليهم، كما كان البعض ممن تنصروا يرغبون في الحصول على المساعدات المالية أو ألقاب الرياسة أو طلب عون الروم ضد الخصوم من القبائل الأخرى. والذي يؤكد سطحية النصرانية بين العرب، أنه لم يكن لها تأثير يذكر في شمال جزيرة العرب حيث يكاد ينعدم النفوذ الروماني(١)، كما أن معظم المتنصرة من العرب تخلوا عن نصرانيتهم والتحقوا بالإسلام كما سنرى في حوادث لاحقة. ويجب أن لا يفهم من عبارات المصادر العربية حول تنصر بعض القبائل العربية، أن التنصر كان فيها شاملاً، إذ تفيد هذه المصادر نفسها أن المتنصرين لم يكونوا جل أفراد هذه القبائل، إذ نجد في القبائل نفسها أحناف ووثنيين، ويبدو أن هذا التعميم انما جاء نتيجة لتنصر بعض رؤساء هذه القبائل.

و لم يكن دعم الروم للنصرانية تقربًا إلى الله وحده، بل لتمكين سلطانهم في بلاد العرب، ولهذا كان من سياسة بيزنطة «الروم» نشر النصرانية بين أتباعها وفي الخارج وإرسال المبشرين والإغداق عليهم ومدهم بالأموال لنشر الدعوة وتأسيس مكاتب للتبشير(٢).

ويرى الأب لامنس في معرض حديثه عن جذام: "أن النصرانية لم تتغلغل في قلوبهم شأنهم في ذلك شأن القبائل البدوية"(٣). وذهب (ترتون) إلى أن النصرانية بين القبائل العربية كانت اسمية(٤)، وقال (ريتشارد بل): "إن الكنسية لم تنجح حقيقة في تثبيت قدمها بين العرب

---

(١) عبد المالك خلف التميمي، **التبشير في منطقة الخليج العربي**، الكويت ١٩٨٢، ص١٣-١٤. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: عبد المالك، التبشير، وانظر:
J.S. Trimingham, **Christianity among. Arabs**, in Pre-Islamic times, London – Newyork, p. 121-122.
سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Trimingham, Christianity وصالح الحمارنة، **دور الأنباط في الفتوح الإسلامية**، مجلة دراسات، العدد ١ م٧، ص١٦٨ الجامعة الأردنية، ١٩٨٩٠. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد حمارنة، دور الأنباط.

(٢) جواد علي، المفصل، جـ٦، ص٥٩٠.

(٣) «الموسوعة الإسلامية»، جـ٦، ص٥٩٠.

(٤) A.S. Tritton, **Caliphs And Their Non – Moslem** – Subjects, p. 76.
سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Caliphs. Tritton
وانظر محمد البطاينة، **العلاقة بين نصارى العرب وحركة الفتح الإسلامي في الجزيرة العربية والشام والعراق**، مجلة المؤرخ العربي، عدد ١٩٨٢/٢٢. ص٥٥/٥٦. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: البطاينة العلاقة.

اطلاقًا"[١]. وذهب إلى مثل ذلك (ولفنسون) فقال: "أن النصرانية لم تتغلب في وقت ما على النفوس العربية"[٢]. ويعزو (ترمنقهام) ذلك إلى (اتخاذ النصرانية الآرامية بدلا من العربية، وعدم وجود ترجمة عربية للإنجيل متداولة بين العرب، وغياب كنيسة وطنية بين القبائل العربية)[٣]. ويمكن أن يضاف إلى قول ترمنقهام في تعليل فشل النصرانية بين العرب، أن النصرانية كدين والنشاط السياسي الروماني، باستبداده وحروبه وضرائبه، كان صورة واحدة لا تتجزأ في عقل الإنسان العربي، فأدرك بفطرته أن اعتناق النصرانية يعني التبعية للحكم الروماني الأجنبي. هذا ما رافق انتشار النصرانية من صراعات مذهبية ومسلكيات غير أخلاقية.

تمثل هذه الفترة التي أطلق عليها القرآن اسم (الجاهلية) فترة خصيبة بإمكاناتها العربية، على الرغم من أن خريطتها السياسية لم تكن كذلك، فقد بلغ التطور اللغوي في المهاجر العربية مداه قبيل الإسلام بما لا يزيد على قرن ونصف القرن على الأقل، ويؤيد ذلك الشعر والأدب الذي وصلنا من تلك الفترة على الرغم مما قد يقال فيه. وقد أصبح اسم العرب شاملاً علمًا على هؤلاء الذين تكونت منهم الأمة العربية فيما بعد[٤].

وتأخر توطد اللغة الفصحى كلغة مشتركة للعرب جميعهم إجمالا، عن توطد التسمية (بالعرب) طبيعي لأنه لا يمكن أن يكون إلا بعد توطد مفهوم الوحدة الجنسية والاسم القومي، وشمولهما من جهة، وبعد تطورات في صلات العرب ببعضهم لا يمكن أن تتم إلا بعد توطد وشمول ذلك المفهوم والاسم من جهة أخرى[٥].

ومن الشواهد الثقافية في هذا المجال، ظهور الخط العربي، فقد ظهر للمرة الأولى في (زبد) شرقي حلب، ويرجع إلى سنة ٥١٢م، فهو أقدم خط عربي مكتشف حتى الآن -إذا استثنينا النقش السابق أي نقش النمارة المكتوب بخط نبطي- حروفه وسط بين النبطي

(١) R. Bell, The Origin of Islam in its Christian environment, Edinburgh University, 1925. p. 17, 79.
سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: The Origin of Islam.

(٢) إسرائيل ولفنسون، **تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام**، القاهرة ١٩٢٧، ص٣٧. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ولفنسون، تاريخ.

(٣) Trimigham, Christianity, P. 17. 79، وانظر البطاينة (العلاقة)، ص٥٥-٥٦.

(٤) دروزة، تاريخ، جـ٥، ص ٤٨.

(٥) دروزة، تاريخ، جـ٥، ص٥٦.

والكوفي ويسمى النسخي، وهو منقوش على عتبة وواجهة كنيسة مارسركيس جنوب غرب القلعة[١]. ونقش حران الذي عثر عليه في منطقة اللجا ويعود تاريخه إلى سنة ٥٦٨م وهو مكتوب بالكوفي[٢].

يؤكد نولدكه وحدة اللغة الفصحى عند شعراء الجاهلية بقوله: (إن شعراء العرب استعملوا لغة واحدة بالرغم من انتمائهم إلى قبائل كثيرة، فامرؤ القيس كان كنديًا – قحطانيًا- يمنيًا، وزهير وعنترة ولبيد كانوا من قيس، وطرفه وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة من ربيعة، وقيس وربيعة من قبائل نزار)[٣]. ورافق هذا التطور الثقافي المتمثل ببلوغ العربية مرحلتها الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم تطور آخر في المجال السياسي، إلا أن اللغة كانت أسرع في الوصول إلى أهدافها بينما تعثرت الوحدة السياسية ولكل أسباب. فالتطور اللغوي والثقافي سارعت فيه وعززته مجموعة من العوامل، منها الصلات الدائمة بين العرب في الجزيرة وخارجها، صلة اقتصادية وسياسية وثقافية تتمثل بالرحلات التجارية وما ترتب عليها من اتفاقات (الإيلاف مثلا) والأسواق الموسمية التي كانت تنعقد بشكل دوري في أرجاء مختلفة، من الجزيرة العربية، ومن أبرز هذه الأسواق، عكاظ وذو المجاز ومجنة، في منطقة الحجاز. وكان العرب يحضرون هذه الأسواق من كل صوب يتبادلون فيها السلع والأفكار، إذ كانت هذه الأسواق محجًا للخطباء والشعراء والفصحاء وكل ذي علم وفن من العرب[٤]. ومن هذه العوامل الحج إلى مكة – المحج الوطني للعرب – وقد قرر غير واحد من علماء العرب وغير العرب أنه كان للحج وتقاليده

(١) الخازن، من الساميين إلى العرب، ص١٧٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٧١.

(٣) المرجع السابق، ص١٧٢.

(٤) انظر حول الأسواق: المحبر ٢٦٣ وما بعدها؛ ياقوت الحموي، شهاب الدين عبد الله (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، **معجم البلدان**، جـ٦، بيروت. ١٩٧٧، مادة (أسواق). سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت، معجم؛ محمود شكري، الألوسي، **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، تحقيق محمد بهجة الأثري، ط٣ مصر ١٣٤٢هـ جـ١، ص٢٦٤ وما بعدها. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الألوسي، بلوغ؛ سعيد الأفغاني، **أسواق العرب في الجاهلية والإسلام**، ط٣، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٣٩٤ –١٩٧٤م، ص٢٣٢ (سوق دومة الجندل) وص٢٧٧ (سوق عكاظ) وص ٣٤٤ «سوق مجنة وص٣٤٧ (سوق ذي المجاز) وص ٣٦٤ (سوق بصرى) وص٣٧٢ (سوق أذرعات) وص٣٧٤ (سوق الحيرة). سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الأفغاني، أسواق.

وأسواقه أثر كبير في ذلك بعد أن غدا شاملاً لجميع العرب[١]. وضاعف هذه التطورات تعرض المنطقة العربية للأطماع الأجنبية متمثلة بالتنافس الذي حصل بين الفرس والروم. وقد راقب العرب هذا الصراع وأدركوا أنه يمسهم ويؤثر في سيرتهم، وأدركوا أيضًا أنه لا بد لهم من كيان عربي خاص بهم يقف في وجه الأطماع الفارسية والرومية[٢]. وقد حاولت دولة حمير لعب هذا الدور وأوكلت إلى (آل كندة) مهمة توحيد القبائل العربية في وسط جزيرة العرب وشمالها وشرقها، ونجح الحارث بن عمرو الكندي وأبناؤه في هذه المهمة فترة وجيزة، فكانت هذه السابقة حافزًا لمحاولات سياسية أخرى لاحقة. وقد شهدت فترة الصراع الفارسي الرومي على المنطقة العربية أساليب متعددة للفوز بهذه المنطقة ذات الموقع الاستراتيجي والاقتصادي - عقدة المواصلات التجارية في العالم القديم - فاتبعوا وسائل الغزو العسكري والفكري وألقوا على رؤساء العرب بالألقاب والامتيازات، كالردف، وذي الأكال، وذي التاج، وفلارك، وبطريق[٣].

جاء الإسلام متوجًا لكل العوامل الفاعلة لتكوين الشخصية العربية المتكاملة، فكان أقوى حدث في التاريخ العربي على طوله، فمن الناحية اللغوية والثقافية ثبّت القرآن قواعد اللغة شعرًا ونثرًا وكرس نقاوتها وحلق بها في أسمى الآفاق فباتت مقاطعه آيات تبهر المسلمين والمسيحيين[٤].

ومن الناحية السياسية دعا العرب إلى الوحدة في إطار الأمة الإسلامية، مميزة من دون

---

(١) دروزة، تاريخ، ٥٦-٥٧.

(٢) أبلغ شاهد على مراقبة العرب للأحداث التي تجري في المنطقة بشكل عام. والصراع الجاري بين الفرس والروم بشكل خاص قوله تعالى في بداية سورة الروم: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾.

(٣) مثال على الغزو العسكري: حملة ايليوس غالوس - حاكم مصر الروماني، على الحجاز واليمن، ثم احتلال تراجان لدولة الأنباط، وأورليان لدولة تدمر وحملات الفرس على منطقة الخليج العربي وأخيرًا حملة وهرز مع سيف بن ذي يزن واحتلال اليمن. بالإضافة إلى محاولة نشر النصرانية وفي أحيان المزدكية انظر صالح درادكه، الردافة على ضوء بعض العلاقات القبلية في شمال شرق جزيرة العرب في القرن السادس وبداية السابع الميلادي، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، عدد ١٩٨٢/١١، ص٤٠.

(٤) انظر: الخازن، من الساميين، ص١٧٣.

الناس[١]، تدعو للتي هي أقوم[٢].

ولما كان خارجًا عن أغراض هذه الدراسة الدخول في بيان تفاصيل أثر الإسلام في العرب، فيكفي أن نقول: أن الإسلام قاد العرب في المسارات السياسية والثقافية والاجتماعية والفكرية وحملهم رسالة قومية وإنسانية، فكانت حركة الفتوحات - التوحيد السياسي للعرب - بدءًا بالجزيرة العربية ومن ثم بلاد الشام والعراق. ويهمنا أن نعرف فيما إذا كان في الإسلام ما يحتم فتح بلاد الشام أو تحريرها واستكمال الوحدة السياسية للعرب؟

وسنعمد في الإجابة على هذا التساؤل إلى نصوص من القرآن والسنة والتراث الإسلامي ثم إلى المقدمات العملية التي حدثت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وكلها توحي بحتمية فتح بلاد الشام.

ومن أولى الأدلة على مكانة بلاد الشام في الفكر الإسلامي قوله سبحانه وتعالى في مستهل سورة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾. [الإسراء]

وقد اتفق المفسرون على أن المقصود بالمسجد الأقصى هو: بيت المقدس وسمي بالأقصى لبعد المسافة ما بين المسجد الحرام في مكة وبيت المقدس[٣].

وقال ابن الكلبي في تفسير الأرض المباركة بأنها الشام، وقال الحسن: هي الشام باركنا فيها بالماء والأشجار والثمار والخصب والسعة، وقال السهيلي: الذي باركنا حوله يعني الشام، والشام

(١) انظر قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾[المؤمنون].

(٢) انظر قوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء: الآية (٩)].

(٣) انظر الطبري أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، **جامع البيان عن تأويل القرآن**، تحقيق محمود محمد شاكر، ٣٠جـ، دار المعارف، القاهرة، جـ١٥، ص٣، وبهامشه تفسير النيسابوري ١٤/١٥. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تفسير؛ العليمي، أبو اليمن القاضي مجير الدين (ت٩٢٧هـ/١٥١٢م)، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ٢ح، المطبعة الوهبية، القاهرة ١٢٨٣هـ جـ١ ص٥-٦. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: العليمي، الأنس؛ انظر مناقشة روايات الإسراء عند الدوري. **(فكرة القدس في الإسلام)**، بحث قدم في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (مخطوط)، ص١. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الدوري، فكرة.

بالسريانية "الطيب" (سميت بذلك لطيبها وخصبها)[١] ويتضح في الآية السابقة الربط المكاني بين الحجاز وفلسطين، كما هو واضح بالمباركة الربط المعنوي بين المكانين من حيث القدسية والأهمية. وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾[الأنبياء].

فعند أبي بن كعب وسفيان الثوري، وقتادة أن المقصود بالأرض التي باركنا فيها أرض الشام، وهذا ما دعا ابراهيم عليه السلام أن يفارق أرض العراق إلى الشام[٢]. وجاء في السورة نفسها ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[الأنبياء].

ويروى في بعض الأقوال أن الأرض الموروثة يعني بها: الجنة، وأفادت الآثار أنها بلاد الشام إذ منها المحشر والمنشر[٣]. وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾[النور].

وقيل إن الذي عني بالبيوت والمساجد: (بيت المقدس)[٤]، وقال تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾[الحديد].

وعند ابن وهب عن ابن زيد أن ذلك السور بيت المقدس، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾[المؤمنين].

لقد تضاربت الأقوال حول المقصود بالربوة، فعند قتادة وكعب، أن الربوة هي الرملة من

---

(١) أبو هلال الدمشقي، أبو محمود أحمد بن محمد (ت ٧٦٥هـ/١٣٦٤م) **مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام**، مخطوط في جامعة برنستون، صورة عنه في مكتبة الجامعة الأردنية، شريط رقم ٣٨٥، ورقة ٢أ، سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: مثير الغرام.

(٢) الطبري، تفسير، جـ١٧، ص٣٤–٣٥، مثير الغرام، ورقة ٢ب.

(٣) الطبري، تفسير، جـ١٧، ص٨١ «رواية ابن عباس»؛ وانظر المكناسي أبي اسحق ابراهيم المكناسي ابن يحيى، **كتاب في فضائل بيت المقدس ويليه فضائل الشام**، صورة مخطوطة توبنجن، مكتبة الجامعة الأردنية رقم تصنيفها (٤٢١، ٩٥٦) ورقة ٤٣/أ. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا المكناسي؛ ومثير الغرام، ورقة ٣ ب – ٦ ب.

(٤) الطبري، تفسير جـ١٨، ص١١١–١١٤.

فلسطين وشايعهما البهزي، وقال آخرون هي دمشق ومنهم سعيد بن المسيب، وقيل غير ذلك[١].
وقال تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾[التين]، جاء في أقوال بعض المفسرين أن التين يقصد به مسجد دمشق والزيتون بيت المقدس[٢] وفي قول آخر أن التين وطور سنين ثلاثة مساجد بالشام[٣].

وعن ابن عباس: أن التين بلاد الشام والزيتون بلاد فلسطين وطور سنين الجبل الذي كلم الله موسى عليه السلام، وهذا البلد الأمين (مكة)[٤].

وقال تعالى في سورة يونس: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾[يونس: الآية (٩٣)].

بوأهم الشام وبيت المقدس، روى ابن عساكر هذا الحديث من عشرة طرق، وبصيغ مختلفة في الألفاظ متفقة في المعنى كلها تفيد تبشير الرسول صلى الله عليه وسلم بفتح الشام والاقامة فيه[٥].

وقد ذكر صاحب مثير الغرام، كما أوردت كتب التفسير وكتب فضائل القدس والشام، عددًا كبيرًا من الآيات تتضمن الإشارة إلى أماكن قالوا أنها تعني بيت المقدس أو مواقع في بلاد الشام ومن تلك الآيات[٦].

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[البقرة: الآية (٣٠)].

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[الزمر: الآية (٢٠)].

﴿مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾[القصص: الآية (٢٩)].

﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ۝٣١﴾[القصص].

---

(١) الطبري، تفسير، جـ١٨، ص٢٠؛ وابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص٤٦ «رواية ابن عباس»؛ ومثير الغرام ورقة ٣أ.

(٢) قال ذلك كعب وقتادة وابن زيد ووكيع وآخرون. انظر الطبري، تفسير، جـ٣٠، ص١٥٤.

(٣) انظر: الطبري، تفسير، جـ٣، ص١٥٤؛ وابن عساكر تهذيب، جـ١، ص٤٧؛ وابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، **فضائل القدس**، تحقيق جبرائيل جبور ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٧٠-٧١ سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الجوزي، فضائل.

(٤) ابن عساكر، تهذيب جـ١، ص٤٧؛ وانظر العليمي، الأنس الجليل جـ١، ص٦.

(٥) ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص٣٥.

(٦) انظر، مثير الغرام، ورقة ٣ أ، و٣ ب (وان المحشر سيكون في أرض الشام).

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا ... ﴾[طه: الآيتان (٩ – ١٠)].

﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ ﴾[طه].

﴿ يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ ... ﴾[الأنبياء].

﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٩٩ ... ﴾[الصافات].

وقد رويت أحاديث كثيرة من فضائل بيت المقدس والشام، منها الصحيح والحسن والغريب والضعيف والمحتمل والواعي والواهي والموضوع، والآثار القوية والواهية وغير ذلك، كما صنف آخرون كتبًا في فضائل الشام(١).

وعلى أية حال فإن كثرة هذه الأحاديث رغم ما يطعن في بعضها، تكمل الصورة السابقة لبلاد الشام، وتضع الجانب النظري – إن جاز التعبير – موضع التطبيق، وسنذكر مجموعة من الأحاديث مبتدئين بتلك التي بشر الرسول صلى الله عليه وسلم بها بفتح بلاد الشام، والتي تعكس أهمية هذه البلاد في العقيدة الإسلامية – كما ذكرنا سابقًا – وتحتم من هذا المنظور العقدي استكمال وحدة هذه البلاد مع وحدة الجزيرة العربية، كلبنة أولى في بناء الصرح الكامل للشخصية العربية الإسلامية.

ومن أشهر الأحاديث التي بشر فيها الرسول صلى الله عليه وسلم بفتح الشام، حديث الخندق، لما استعصت على أحد الصحابة صخرة أثناء الحفر، فاستعان بالرسول صلى الله عليه وسلم فضرب الصخرة بمعوله عدة ضربات، تخرج لمعة في كل ضربة تضيء المكان، فأخبر صلوات الله عليه وسلم بفتح الشام وفارس واليمن، والحديث معروف ومشهور(٢).

وعن معاذ أنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(يا معاذ أن الله عز وجل

---

(١) انظر محمد ناصر الدين الألباني، تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق، للربعي، ومعه: مناقب الشام وأهله، تأليف: شيخ الإسلام ابن تيمية، المكتب الإسلامي، ط٤، بيروت ١٤٠٥هـ، ص٥–٦٩.

(٢) انظر الحديث في ابن هشام، السيرة م٢، ص٢١٩؛ والطبري، تاريخ، جـ٢، ٥٦٨–٥٦٩؛ الواقدي، مغازي، جـ٢، ص٤٥٠؛ وانظر أجناس جولد تسيهر، **العقيدة والشريعة** ترجمة وتعليق: محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلي حسن عبد القادر، دار الكاتب المصري، القاهرة ١٩٤٦، ص٢٧. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: جولد تسيهر، وقد روى هذا الحديث أبو هلال الدمشقي، وهشام بن عمار عن معاوية بصيغة أخرى.

سيفتح عليكم الشام من بعدي، من العريش إلى الفرات، رجالهم ونساؤهم وإماؤهم مرابطون إلى يوم القيامة، فمن اختار منكم ساحلا من سواحل الشام أو بيت المقدس، فهو جهاد إلى يوم القيامة)[١].

ورويت في كتب الصحاح عدة أحاديث بلفظ يفتح الشام، وسيفتح عليكم الشام، وليفتحن الشام والروم، وغير ذلك[٢].

وجاء في حديث رواه ابن حنبل، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال يوم الفتح: (إني نذرت أن فتح الله عليك مكة، أن أصلي في بيت المقدس)[٣].

وروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لشداد بن أوس : (ألا ان الشام ستفتح وبيت المقدس سيفتح إن شاء الله تعالى، وتكون أنت وولدك من بعدك أئمة بها إن شاء الله تعالى)[٤].

وقال جزء بن سهيل السلمي للرسول صلى الله عليه وسلم: (ومن يستطع الشام وفيها الروم ذات القرون، قال: والله ليستخلفكم الله فيها ... حتى تظل العصابة البيض منهم قيامًا على الرجل الأسود منكم، وما أمرهم فعلوا ...)[٥].

وأورد الواقدي حديثًا مرفوعًا إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبره بفتح بيت المقدس وقيسارية[٦].

---

(١) الأنس الجليل، جـ١، ص٢٢٨.

(٢) انظر ونسنك، **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي**، ٧ ج، ليدن ١٩٦٥، ج٥، ص٤٣-٤٤، ص٤٨، ص٥٣، ص٥٥. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا ونسنك، المعجم؛ وانظر، ابن عساكر، تهذيب جـ١، ص٥٩؛ الامام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/٨٥٥م)، **مسند أحمد بن حنبل**، ٦ ح، المكتب الإسلامي بيروت. جـ٣، ص٣٦٣. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: مسند أحمد بن حنبل.

(٣) مسند أحمد ابن حنبل، جـ٣، ص٣٦٣، جـ٤، ص١٩٩.

(٤) العليمي، الأنس، جـ١، ص٢٤٤.

(٥) ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ٤ ح، ط١، دار احياء التراث العربي، بيروت- ١٣٢٨هـ-١/٢٣٤ رقم (١١٤٤).

(٦) الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م)، كتاب الفتوح، ط١ منشورات المكتبة الأهلية، بيروت ١٩٦٦. جـ٣-٢١٣. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الواقدي، فتوح.

وقال ابن اسحاق:"وحدثني من لا أتهم عن أبي هريرة أنه كان يقول حين فتحت هذه الأمصار في زمان عمر وزمان عثمان وما بعده: افتتحوا ما بدا لكم فو الذي نفس أبي هريرة بيده، ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله سبحانه محمدًا صلى الله عليه وسلم مفاتيحها قبل ذلك"[١].

ومن الآثار البينة التي تدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرى أن فتح بلاد الشام ودخول المسلمين بيت المقدس حاصل بإذنه تعالى، أنه اقطع بعض القطائع في بلاد الشام وهي تحت حكم الروم إلى بعض أصحابه. ومنها اقطاعه لتميم الداري وأخيه سنة تسع: حبرون أو «حبرى» وبيت عينون والمرطوم وبيت ابراهيم ومن فيهم إلى الآبد[٢].

وقد نقل أبو عبيد ما روى عن تميم الداري حين خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله :"إن الله مظهرك على الأرض كلها فهب لي قريتي من بيت لحم"[٣] فوهبها له وكتب له فيها كتابًا، ووعد رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق وعطاؤه حق[٤]. وما زال التميميون في منطقة الخليل حتى يومنا شاهد صدق على فعل الرسول صلى الله عليه وسلم. وتعطي الروايات المختلفة لوثيقة تميم التصرف في هذه المواطن وفيمن يسكنها، وتبيح له حق توريثها لأبنائه من بعده[٥].

---

(١) ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص٢١٩.

(٢) حول اقطاع تميم الداري انظر: ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص٣٥٤؛ ابن سعد، جـ١، ص٢٦٧، ٣٤٣، أبو عبيد، القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ/٨٣٨م)، **كتاب الأموال**، تحقيق محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص٢٧٤، ص٢٧٥، ص٢٨٩. سيشار إليه فيما بعد هكذا: الأموال؛ الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن، **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس**، المطبعة الوهيبية، القاهرة، ١٢٨٣هـ، جـ٢، ص١٤٦، سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت، معجم، جـ٢، ص٢١٢ مادة «حبرون»؛ محمد حميد الله، **الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة**، ط٣، دار الإرشاد، بيروت، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، رقم ٤٣-٤٥، ص١٠٠-١٠٣. سيشار إليه فيما بعد هكذا: حميد الله، الوثائق، **الإسلامية على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم**، دار الكتاب اللبناني، بيروت (١٤٠١-١٩٨١)، ط٢، سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: عون الشريف، نشأة، ص٢٦٢.

(٣) ذكر أبو عبيد أن تميم جاء بالكتاب لعمر بن الخطاب الخليفة بعد فتح الشام، وطلب إليه ما فيه، فقال عمر: أنا شاهد ذلك «أي الكتاب» فأعطاه إياها. انظر: الأموال ٢٧٤-٢٧٥.

(٤) الكتاني، الشيخ عبد الحي، التراتيب الإدارية، ٢ ح، بيروت، جـ١، ص١٤٩-١٥٠، وانظر عون الشريف، نشأة، ص٢٦٢.

(٥) انظر الوثيقة في المصادر السابقة.

وأقطع الرسول صلى الله عليه وسلم أرضًا لأبي ثعلبة الخشني وهي بأيدي الروم[١].

وفي ذكر فضائل بلاد الشام ومدنه، وبخاصة بيت المقدس ودمشق والخليل وغيرها، رويت أحاديث كثيرة وصنفت كتب.

عن أبي هريرة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أربع من مدائن الجنة، مكة والمدينة ودمشق وبيت المقدس)[٢]، ونلاحظ في هذا الحديث محاولة المساواة بين الحجاز والشام. وعن عبد الله بن حوالة أنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ستجندون أجنادًا، جندًا بالشام وجندًا بالعراق وجندًا باليمن)، قال: فقمت فقلت: «خر لي أي تخير لي يا رسول الله، قال عليك بالشام» وقد رواه ابن عساكر من عشرة طرق ورواه الإمام أحمد في مسنده بخلاف لفظي يسير[٣].

روى الواسطي (الخطيب ببيت المقدس)، عن الوليد بن مسلم عن ثور بن يزيد قال (قدس الأرض الشام، وقدس الشام فلسطين، وقدس فلسطين بيت المقدس وقدس بيت المقدس الجبل، وقدس الجبل المسجد، وقدس المسجد القبة)[٤].

ومن هذه الأحاديث قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (الجنة مطوية في قرون الشام) وأن الشام مهبط عيسى بن مريم قبل قيام الساعة، وأن أهل دمشق لا يزالون على الحق ظاهرين[٥].

ودعا الرسول للشام بأن يبارك الله في ثمرها وأرضها وصاعها ومدها[٦] وأثر عنه

---

(١) انظر: الأموال، ص٣٨٨-٣٨٩؛ حميد الله، الوثائق، ص١٠٣ رقم ٤٧ أ. وأقطع الرسول صلى الله عليه وسلم موضع دار للأزرق الغساني (حميد الله، ن.م، ص٢٦٣ رقم ٢١٥ أ).

(٢) ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص٤٧؛ العليمي الأنس، جـ١ ص٢٢٨؛ وطه الولي، **التراث الإسلامي في بيت المقدس وفضائله الدينية**، مطبعة دار الكتب، ص٦٧. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: طه الولي.

(٣) ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص٢٧.

(٤) ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص١٤١-١٤٢؛ وانظر الدوري، «فكرة»، ص٣٤.

(٥) ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص٤٨-٥٥.

(٦) ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص٣٤، ٥٨: مثير الغرام، ورقة ٥أ. أبو المعالي المشرف ابن المرجا المقدسي (من رجال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي). **فضائل البيت المقدس والخليل عليه الصلاة والسلام وفضائل الشام**، ص٢٠٧. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو المعالي فضائل.

صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ان دمشق من أبواب الجنة)[١] وقوله صلى الله عليه وسلم (طوبى للشام)[٢].

ووردت أحاديث كثيرة ترغب بسكن الشام والإقامة فيها منها:

(عليكم بالشام فإنها صفوة الله تعالى في أرضه، يسوق إليها صفوته من خلقه ...)[٣]

ومن الأحاديث المشهورة التي تأتي موازية في الغرض والأهمية لآية الإسراء، حديث: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجدي هذا والمسجد الأقصى)، وقد روي هذا الحديث بصيغ مختلفة لا تخرج عن هذا المعنى[٤].

والمسجد الأقصى وبيت المقدس جزء هام من بلاد الشام، تفرد أكثر من غيره من المدن الشامية بمركزه الروحي والتاريخي، وحسبها أن الله ربطها ربطًا روحيًا مع مكة والمدينة مما يؤكد إسلاميًا وحدة المصير.

وقد انعكست مكانة بلاد الشام وأهميتها في كتب التراث، فقد صنف في فضائل الشام ومدنها وبخاصة بيت المقدس، كثير من المؤلفات، تذكر خصائصها وتبرز فضائلها وبدأ المسلمون منذ زمن مبكر في تأليف مثل هذه الكتب التي تجسد أهمية هذه البلاد في

---

(١) ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص٤٧.

(٢) ابن عساكر، فضائل، ص٣٠٩، المكناسي، فضائل، ورقة ٣٥ب.

(٣) ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص٢٨؛ والمكناسي، فضائل، ورقة ٣٧ ب وما بعدها.

(٤) ٢٣٠؛ وانظر مناقشة الحديث عند الدوري فكرة ص٢٠ وما بعدها. وعن فضائل الشام انظر ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن ابراهيم، **مختصر كتاب البلدان**، نشره دي خويه، بريل، ليدن، ١٨٨٥/ ص٩٢ سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الفقيه مختصر؛ والمقدسي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مفلح، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، بغداد، مكتبة المثنى، د.ت، ص١٥١. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أحسن التقاسيم؛ العليمي، الأنس الجليل جـ١، ص٢٢٨، الصنعاني أبو بكر عبد الرزاق بن همام (ت٢١١هـ/٨٢٦م)، **المصنف** ، ١١ح، تحقيق حبيب الأعظمي، منشورات المجلس العلمي، باكستان، ١٩٧٢، جـ٥، رقم ٩١٣١، ٩١٣٢، ٩١٧٣، ١١٦٣. سيشار إلى هذا المصدر فيما بعد هكذا: الصنعاني، المصنف؛ ونسنك المعجم، جـ٢، ص٤٢؛ ابن الجوزي، فضائل، ص١٣٩-١٤٧؛ طه الولي، التراث ٤-١٠؛ جبرائيل جبور **مكانة القدس لدى المسلمين**، بحث للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام وفلسطين ١٩٨٠. (مخطوط) ص٣٠-٣٢. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: جبور، مكانة؛ عفيف عبد الرحمن، القدس ومكانتها لدى المسلمين وانعكاس ذلك من خلال كتب التراث، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، م٢ «القدس»؛ ص٢٢٧.

نظر المسلمين وتصور مدى تطلعهم إليها ... ونحن ذاكرون عددًا من هذه المؤلفات:

- الرازي البجلي، أبو القاسم تمام بن أبي الحسين محمد بن عبد الله (ت٤١٤هـ/١٠٢٣م) وهو من كبار رجال الحديث بدمشق، واشتهر بمعرفة فضائل الشام ودمشق، وقد كان ما رواه في هذا الصدد، نواة الكتب التي ألفت في هذا الموضوع من بعد، منذ الربعي إلى أولاد عساكر – الذين ألفوا كثيرًا في فضائل الشام – ومن بعدهم[١].
- الربعي، علي بن محمد المالكي (ت٤٤٤هـ/١٠٥٢م) وهو من محدثي دمشق، أتم سنة ٤٣٥هـ، جمع كتاب سماه: **فضائل الشام ودمشق**[٢].
- المقدسي القيسراني، أبو الفضل محمد بن طاهر (٤٤٨/١٠٥٦–٥٠٧/١١١٣) تاريخ **أهل الشام ومعرفة الأئمة منهم والأعلام**[٣].
- أبو المعالي المشرف بن المرجا بن ابراهيم المقدسي **فضائل البيت المقدس والخليل عليه الصلاة والسلام وفضائل الشام**[٤].
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي الدمشقي (٤٩٩/١١٠٥–٥٧٢/١١٧٦) **ألف في فضائل: دمشق، القدس، مكة، المدينة، الخليل، عسقلان**[٥].
- الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (ت٥٩٧هـ/١٢٠١م) **الفتح القسي في**

---

(١) شاكر مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، ٢ ح، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت، جـ٢، ص٢٤٣. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: التاريخ العربي. لقد أوردنا نماذج من المؤلفات في فضائل بلاد الشام ورتبناها حسب سني وفاة المؤلفين. ومن أراد معرفة المزيد من هذه المؤلفات عليه الرجوع للمراجع المشار إليها في الهوامش.

(٢) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩١م)، **الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ**، ط. روزنثال العربية، ص٢٦٣، سيشار إليه فيما بعد السخاوي، التاريخ العربي، كامل العسلي، **مخطوطات فضائل بيت المقدس**، دراسة وببليوغرافيا، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ط١، عمان ١٩٨١، ص٣٠. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: العسلي. مخطوطات، وقد طبع المجمع العلمي بدمشق الكتاب بتحقيق صلاح الدين المجد.

(٣) بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، ٦ ح، ترجمة عبد الحليم النجار وآخرون دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٧، جـ١، ص٣٩٨. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: بروكلمان، تاريخ الأدب.

(٤) العسلي ٣٤.

(٥) التاريخ العربي، جـ٢، ص٢٤٣.

الفتح القدسي[١].

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (٥١٠-٥٩٧) **فضائل القدس.**
- البغدادي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن أبي زيد (ت٥٩٧هـ) **مثير الغرام لساكني الشام**[٢].
- الضياء المقدسي، أبو عبد الله بن عبد الواحد بن أحمد الجماعيلي (٥٦٩-٦٤٣/١٢٤٦) **فضائل الشام.** وهو يشبه ما كتبه الربعي وابن عساكر قبله[٣].
- أبو اسحاق، ابراهيم بن يحيى بن أبي الحفاظ المكناسي، من علماء المغرب عاش في القرن السابع، وألف كتابه في أواخر القرن المذكور: **كتاب فيه فضائل بيت المقدس وفضائل الشام**[٤].
- مؤلف مجهول: **فضائل الشام وفضل مدنها**، بيت المقدس وعسقلان وغزة والرملة وأريحا ونابلس وبيسان ودمشق وحمص وذكر الأنبياء المشهورين فيها وذكر الصحابة المدفونين فيها[٥].
- الكنجي، شمس الدين محمد بن محمد بن حسين (ت٦٨٢هـ/١٢٨٣)، **فضائل بيت المقدس وفضائل الشام فيها**[٦].
- المقدسي الشافعي، شهاب الدين أبو محمود أحمد بن محمد بن ابراهيم بن هلال بن تميم بن سرور (ت٧٦٥هـ/١٣٦٤م) **مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام**[٧].
- شمس الدين أبو العباس، **تحفة الأنام في فضائل الشام**[٨].

ومما هو جدير بالذكر أن كتب السير والتواريخ، وفيه ذكرت فضائل بلاد الشام، وكتب الكثيرون في الرحلات ووصف البلدان والمسالك والممالك وطرق الحج وفضائل

(١) العسلي، ص٤١، مطبوع.
(٢) مثير الغرام، ص٦.
(٣) التاريخ العربي، جـ٢، ص٢٥٩.
(٤) العسلي، ص٥٧.
(٥) المصدر السابق، ص٦١.
(٦) المصدر السابق، ص٧١.
(٧) المصدر السابق، ص٥٥.
(٨) عفيف عبد الرحمن، ص٢٢٩، وما بعدها.

الأماكن المقدسة. ومن أقدم كتب التراث التي انتبهت لهذا الموضوع - غير كتب الحديث وعلوم الفقه- كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي[١]. ثم جاء أصحاب كتب الجغرافيا والبلدان فأبرزوا جوانب متعددة لفضائل بلاد الشام ومدنها مثل ابن خرداذبة (جاء قبل ابن عبد ربه بنحو ثلاثين سنة) فكتب كتابه المسالك والممالك[٢]وكان هذا الكتاب مصدرًا استمد منه المتأخرون بعده كابن الفقيه في كتابه: مختصر كتاب البلدان، وابن حوقل والمقدسي الذي جاء بعد ابن خرداذبة، وابن واضح اليعقوبي صاحب كتاب البلدان، وابن رستة الذي ألف كتاب الأعلاق النفيسة، وبعد ذلك جاء الأصطخري فكتب المسالك والممالك[٣].

ويتضح مما سبق أن مسلمين من مصر والمغرب والمشرق الإسلامي ألفوا في فضائل الشام وهذا يعكس مكانة بلاد الشام في قلوب المسلمين وعقيدتهم. ويمكن الاستدلال بمجموعة من الحوادث أن النبي صلى الله عليه وسلم اتجه بنظره إلى شمال الجزيرة نحو بلاد الشام قبل استكمال وحدة جزيرة العرب منذ السنة الخامسة، ومن خلال استقراء الحوادث يتبين أن من بين العوامل التي دفعت لعقد صلح الحديبية مع قريش التفرغ للقيام بنشاط دبلوماسي وعسكري في المنطقة الشمالية تمثل بالانفراد بخيبر، بعد عهد السلام مع قريش، وكانت خيبر معقلا يقوي من عزائم القبائل العربية في الشمال ضد الدعوة الإسلامية، كما استغلت هذه الحالة بعد الحديبية في نشر الإسلام وبخاصة بين القبائل الشمالية والقبائل المستقرة في بلاد الشام.

وسنتعرض بإيجاز لمجموعة الحوادث التي توضح غرضنا المتمثل في تصميم المسلمين على فتح بلاد الشام وأولى هذه الحوادث: غزوة دومة الجندل في السنة الخامسة أو السادسة للهجرة، ففي بداية السنة الخامسة للهجرة غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم دومة الجندل، وأراد أن يدنوا إلى أدنى الشام، وقيل له أنها طرف من أفواه الشام، فلو دنوت لها كان ذلك مما يفزع قيصر[٤]. وكانت دومة الجندل مركزًا تجاريًا هامًا، تستمد منه المدينة حاجتها من المواد

(١) جبرائيل، «مكانة»، ص١٨.

(٢) ليدن ١٨٨٩.

(٣) جبرائيل (مكانة)، ص٢٠.

(٤) الواقدي، مغازي، جـ١، ص٤٠٢-٤٠٣.

الغذائية، وقيل في سبب الغزوة أن الأعراب هاجموا دومة الجندل وعطلوا وصول ميرتها إلى المدينة، واعتبرت بعض المصادر أن غزوة دومة الجندل أول غزوات الشام[١]. وطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من عبد الرحمن بن عوف قائد السرية أن يتزوج من ابنة سيد قبيلة كلب إذا استجابوا للإسلام. ويذكر الواقدي أن الأصبغ بن عمرو الكلبي استجاب للإسلام وكان نصرانيًا، وتزوج عبد الرحمن بن عوف من تماضر ابنة الإصبغ رأس كلب. وهذا يوضح الأهمية التي يعلقها الرسول صلى الله عليه وسلم على كسب قبيلة كلب إلى جانبه، فقد كانت كلب أهم مجموعة عربية بالشام حين برز الإسلام كقوة سياسية، وتتمثل قوتهم في ثروتهم الحيوانية المتمثلة بقطعان الماشية - وبخاصة في منطقة دومة الجندل وتبوك وسواها من الواحات المتناثرة حول وادي القرى بنخيلها الغني، وكانت دومة الجندل بالإضافة إلى ما ذكر مركزًا تجاريًا غنيًا تلتقي فيه الطرق التجارية بين الحجاز والعراق وتدمر[٢].

وفي السنة السادسة للهجرة بعث الرسول صلى الله عليه وسلم سرية بقيادة علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفدك عندما علم بأنهم يريدون أن يمدوا يهود خيبر[٣].

وفي السنة نفسها بعث الرسول صلى الله عليه وسلم سرية زيد بن حارثة إلى حسمى وهي وراء وادي القرى، بسبب اعتراض نفر من جذام دحية بن خليفة الكلبي وهو راجع من عند قيصر[٤]، وكذلك سرية زيد بن حارثة سنة ست إلى أم قرفة، حيث بنو فزارة من بني بدر[٥]. وسرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بفدك في سنة سبع للهجرة[٦]. وقل مثل

(١) انظر أخبار هذه الغزوة في السيرة لابن هشام، ـ٣، ص٢٥٣، ومعه الروض الأنف للسهيلي، ضبط وتعليق طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، ومغازي الواقدي، جـ٢، ص٥٦٠؛ وابن سعد، الطبقات، جـ٢، ص٨٩؛ والطبري، تاريخ، جـ٣ـ ص٥٦٤ (جعلها من حوادث السنة الخامسة)؛ وابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص٩١؛ انظر ياقوت الحموي (دومة الجندل).

(٢) انظر: ياقوت، معجم، مادة «دومة الجندل»، عون الشريف نشأة، ص٢١٢.

(٣) الواقدي، مغازي، جـ٢، ص٥٦٢؛ ابن سعد، الطبقات، جـ٢، ص٨٩-٩٠؛ ابن سيد الناس، فتح الدين أبو الفتح محمد، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، ط٢، دار الجيل، بيروت ١٩٧٤، ١٠٩/٢. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: عيون الأثر.

(٤) الواقدي، مغازي، جـ٢، ص٥٥٥؛ ابن سعد، جـ٢، ص٨٨.

(٥) الواقدي، مغازي، جـ٢، ص٥٦٤؛ وابن سعد، جـ٢، ص٩٠-٩١؛ عيون الأثر، جـ٢، ص١١٠.

(٦) الواقدي، معازي، جـ٢، ص٧٢٣؛ وابن سعد ١١٨/٢؛ وعيون الأثر جـ٢، ص١٤٧.

ذلك عن سرية زيد بن حارثة إلى مدين[١]. وبعث غالب بن عبد الله الليثي إلى فدك[٢].

وتعتبر غزوة خيبر سنة سبع للهجرة من المقدمات لفتح بلاد الشام، إذا نظرنا إلى نتائجها، فقد كانت عقبة أمام المد الإسلامي إلى الشمال، فبزوالها ازداد انتشار الإسلام بين أبناء القبائل العربية، كما سارعت الكيانات اليهودية الأخرى في الشمال إلى طلب الأمان والصلح، كما كانت المقدمة لفتح مكة، هذا الحدث الهام في تاريخ الدعوة الإسلامية، فهو يمثل انهيار أقوى الموانع في وجه الدعوة الإسلامية ممثلة باستسلام قريش رأس العرب، ومن ثم وقوفها مع الدعوة الإسلامية. وليس غريبًا بعد ذلك أن نجد توافد العرب من كل صوب طالبين الدخول في الإسلام.

وقد ذكر ابن إسحاق أن العرب كانت تربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله[٣].

ومن السرايا ذات الدلائل الواضحة في اتجاه بلاد الشام، سرية كعب بن عمير سنة ثمان للهجرة إلى ذات أطلاح من أرض الشام، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يريد نشر الإسلام بين قبائل حدود الشام وكانت أول احتكاك لقوات المسلمين بالروم[٤]. وتمثل غزوة مؤتة مرحلة أكثر تقدمًا في مصارعة النفوذ الروماني، ذلك أن قوات المسلمين توغلت جنوب بلاد الشام ووصلت إلى البلقاء في سنة ثمان للهجرة، وكان هرقل قد حضر إلى فلسطين وأجلبت معه القبائل المتنصرة، بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام وبلي وبلقين، وقيل أن سببها مقتل رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك بصرى[٥]. وعلى الرغم من

(١) ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص١٠٩؛ تاريخ الخميس ١٥/٢.

(٢) مغازي، الواقدي، ٧٢٦/٢، عيون الأثر ١٤٩/٢؛ تاريخ الخميس جـ٢، ص٦٧.

(٣) ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص٥٦٠؛ وابن سعد، جـ١، ص٣٢٥.

(٤) انظر: الواقدي، مغازي، ص٧٥٢–٧٥٣؛ ابن سعد، جـ٢، ص١٢٧؛ والطبري، تاريخ، جـ٣، ص١٥٧؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص٩٢، «رواية الزهري»، وعيون الأثر، جـ٢، ص١٥٢؛ تاريخ الخميس، جـ٢، ص٧٠؛ أسد رستم، **الروم وصلاتهم بالعرب** ج١، ط١، بيروت ١٩٥٥. ص٢٣٤. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: أسد رستم، الروم.

(٥) أنظر أخبارها في ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص٣٧٣ وما بعدها؛ الواقدي، مغازي، جـ٢، ص٧٥٥؛ ابن سعد ١٢٨/٢، البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م)، **صحيح البخاري**، ٩ ح، في ٣م، دار إحياء التراث العربي بيروت، جـ٥، ص١٨١–١٨٣. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا:

الفشل العسكري الذي واجهته السرية المسلحة فاننا نلمس نتائج إيجابية تتمثل بانتشار الإسلام في القبائل المتنصرة كما تدل الحوادث اللاحقه، ويبدو أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان بهذه الغزوة وغيرها يريد أن يؤكد للعرب المتنصرة وغير المتنصر أن لهم قوة يمكنهم الاعتماد عليها.

ومن السرايا ذات العلاقة ببلاد الشام سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل (سنة ثمان للهجرة وقيل سنة سبع) وراء وادي القرى، وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص أن يستعين بمن يمر به من بلي وعذرة وبلقين، وهذا يشير إلى بداية تحول في مواقف هذه القبائل، وفي رواية عن الزهري أنه قال: "ثم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما هاجر وجاء الذين كانوا بأرض الحبشة بعث بعثين قبل الشام، إلى كلب وبلقين وغسان وكفار العرب الذين في مشارف الشام"[١] وبعث رسول الله بسرية للهجرة[٢]، أما الواقدي فذكر سرية إلى الجناب يقودها بشير بن كعب سنة سبع للهجرة[٣].

ويستفاد من المصادر العربية أن من أهداف هذه السرية، استنفار العرب إلى الشام وإظهار القوة لقبائل جذام وبلي وبلقين وكلب وغسان وعذرة وسعد الله، ومن يليهم من قضاعة. وتعتبر السنة التاسعة للهجرة، سنة الأعداد لفتح بلاد الشام، إذ تلاحقت الأحداث العسكرية والدبلوماسية بشكل كثيف ومركز، وتميز من هذه الأحداث، غزوة تبوك، التي

صحيح البخاري؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص٩٢؛ وعيون الأثر، جـ٢، ص١٥٣؛ تاريخ الخميس، جـ٢ـ ص٧٠، وابن كثير عماد الدين أبي الفداء اسماعيل (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، **البداية والنهاية** ١٤ح، ط١، بيروت، ١٩٦٦، جـ٣، ص٢٤١–٢٤٢. سيشار إليه فيما بعد هكذا: البداية والنهاية.

(١) ابن شهاب الزهري، محمد بن مسلم بن عبيد الله (ت١٢٤هـ/٧٤١م)، **المغازي النبوية**، تحقيق سهيل زكار، ط١، دار الفكر، ١٤٠٠–١٩٨٠، ص١٥٠. سيشار إلى هذا المصدر فيما بعد هكذا: المغازي؛ وانظر أخبار ذات السلاسل في ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص٦٢٣؛ الواقدي، مغازي، جـ٢، ص٧٦٩–٧٧٠؛ وابن سعد، جـ٢، ص١٣١؛ ابن عساكر، تهذيب جـ١، ص١٠٣–١٠٥: أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم (ت١٨٢هـ/٧٩٨م)، **الخراج**، المطبعة السلفية القاهرة، ص١٦. سيشار إليه، الخراج؛ صحيح البخاري، جـ٥، ص٢٨ وما بعدها؛ البداية والنهاية، جـ٣، ص٧٣؛ وانظر الدوري، **مقدمة في تاريخ صدر الإسلام**، ط٢، المطبعة الكاثولكية، بيروت، ١٩٦١ ص٤٥، سيشار إليه فيما بعد هكذا: مقدمة؛ تاريخ الخميس، جـ٢، ص٣٥؛ وعيون الأثر جـ٢، ص١٥٧، «وذات السلاسل» ماء لجذام.

(٢) ابن سعد، جـ٢، ص١٦٤.

(٣) الواقدي، المغازي، جـ٢، ص٧٣٧.

تعتبر متممة للأهداف التي أرادت أن تحققها غزوة ذات السلاسل، غير أنها أكبر حجمًا وأكثر أعدادًا وعددًا، وقد صرحت المصادر العربية بأن الرسول صلى الله عليه وسلم، إنما كان يريد الروم وكفار العرب بالشام(١).

وذكرت بعض المصادر أن الرسول صلى الله عليه وسلم، شاور أصحابه في مجاوزة تبوك شمالا، إلا أن عمر بن الخطاب أشار بعدم المجاوزة(٢).

وأمام سياسة التوجه نحو بلاد الشام، أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم، يعمل على ترتيب الأوضاع ما بين المدينة والشام، ولهذا قام بعدد من الإجراءات لضمان عدم عداء القبائل والحواضر في شمال الحجاز للجماعة الإسلامية، وذلك عن طريق ربط سكان هذه المناطق بالمواثيق والعهود وكتب الأمان، إن لم يكونوا قد ارتبطوا بالإسلام. وهذه الإجراءات ضرورية لحماية القوات الإسلامية في صراعها مع الروم الذي بدأ قبل ذلك.

طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من يحنه صاحب أيلة وسروات أهل أيله، أن يصالحوه، فقدموا إلى تبوك، وأمضوا الصلح المعروف والمشهور و لم يكن لهم خيار في ذلك، إذ أن أيلة مركز تجاري يقع على طريق الحجاز، الذي أصبح في أيدي المسلمين، كما أن المسلمين في السنة التاسعة أصبحوا أقوى قوة عسكرية وسياسية في المنطقة. وقد ذكر ابن سعد أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث برسالة ليحنة، وضح له المخاطر المنتظره في البر والبحر إذا لم يستجب للمصالحة(٣). وذكر الواقدي أن دومة الجندل و(أيلة) و(تيماء) قد خافوا النبي صلى الله عليه وسلم لما رأوا العرب قد أسلمت(٤). وتابع أهل جرباء وأذرح

---

(١) انظر أخبار هذه الغزاة في: ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص٥١٥؛ الواقدي، مغازي، جـ٣، ص٩٨٩؛ ابن سعد، جـ٢، ص١٦٥؛ الطبري، تاريخ، جـ٣، ص١٠٠-١١١؛ وصحيح البخاري، جـ٦، ص٢؛ وقدامة ابن جعفر، **الخراج وصناعة الكتابة**، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، بغداد ١٩٨١، ص٢٧٠. سيشار إليه فيما بعد هكذا: قدامة، الخراج؛ تاريخ الخميس، جـ٢، ص١٢٢، عيون الأثر جـ٢، ص٢١٥؛ البداية والنهاية جـ٥، ص٢.

(٢) الحلبي الشافعي، علي بن برهان الدين، **إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون المعروفة بالسيرة الحلبية، ٣ح. وبهامشة السيرة النبوية والآثار المحمدية**، لأحمد زيني دحلان، ط٣، المطبعة الأزهرين، مصر ١٣٥١-١٩٣٢م، ص١٦١. سيشار إليه فيما بعد هكذا: إنسان العيون.

(٣) ابن سعد، جـ١، ص٢٧٧-٢٧٨.

(٤) الواقدي، المغازي، جـ٣، ص١٠٣١.

ومقنا وحواضر شمال الحجاز ما عمله أهل أيلة، فصالحوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأقروا على أنفسهم دفع الجزية، وعدم المظاهرة على المسلمين أو مطالعتهم بشر مقابل تعهد الرسول لهم بالأمن والخير[١].

وآخر الغزوات العسكرية، إلى بلاد الشام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم سرية أسامة بن زيد، حيث أمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يوطيء الخيل تخوم البلقاء والداروم وأبنى - وهي أرض الشراة إلى ناحية البلقاء - من أرض فلسطين. ويقول ابن هشام ان هذا آخر بعث بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢]. ويبدو الغرض واضحًا من سرية أسامة بن زيد في قول السيوطي: (أن القبائل العربية كانت تقول عندما مر بها جيش أسامة، لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم)[٣].

ويبدو حرص الخليفة أبي بكر على مواصلة سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق ببلاد الشام، وبعث جيش أسامة، أنه أصر على بعث هذا الجيش رغم ردة القبائل ونصح بعض الصحابة باستبقاء هذا الجيش حفظًا للمدينة[٤].

ومن مظاهر النشاط الدبلوماسي الذي رافق النشاط العسكري بعد الحديبية أن الرسول صلى الله عليه وسلم، بعث إلى الملوك والناس من العرب وغيرهم يدعوهم إلى الإسلام[٥].

وبعد العودة من الحديبية، أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم ستة نفر في يوم واحد إلى هرقل وكسرى وحاكم اليمن، والمقوقس في مصر والنجاشي في الحبشة، وبعض عمال الروم من العرب في بلاد الشام، وإلى رؤساء آخرين داخل الجزيرة العربية. وتؤكد هذه الرسائل

---

(١) انظر هذه المعاهدات (كتب الأمان) ونصوصها ومصادرها عند محمد حميد الله ص٨٣ وما بعدها؛ صالح درادكه، (لمحات من تاريخ أيلة) (العقبة) (في العصر الإسلامي)، احد بحوث هذا الكتاب.

(٢) ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص٦٠٦، ص٦٤١-٦٤٢؛ الواقدي، مغازي، جـ٣، ص١١١٧؛ ابن سعد، جـ٢، ص١٨٩ وما بعدها وعيون الأثر جـ٢، ص٢٨١؛ وانظر أسد رستم، الروم جـ٢، ص٢٣٩-٢٤٠.

(٣) السيوطي، جلال الدين (ت ٩١٠هـ/١٥٠٥م) تاريخ الخلفاء، مطبعة المدني، ط٢، القاهرة ١٣٨٣هـ-١٩٦٤م، ص٧٤. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: السيوطي، تاريخ.

(٤) أفرد ابن عساكر بابًا سماه: «باب ذكر اهتمام أبي بكر الصديق بفتح الشام وحرصه عليه ومعرفة أنفاذه الأمراء بالحشود الكثيفة، تهذيب، جـ١، ص١٢٦.

(٥) انظر ابن سعد، جـ١، ص٢٨٨.

والجهات التي أرسلت إليها، أن صورة العالم الذي ستجري عليه الحوادث المقبلة، كانت واضحة في ذهن الرسول صلى الله عليه وسلم، ودليلنا أن كل الذين بلغتهم الرسائل، دخلت بلدانهم الدولة العربية الإسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أو في عهد خلفائه، كما تؤكد هذه الرسائل أن رسالة الإسلام لم تكن مقصورة على العرب وإنما هي للناس كافة[١].

ويهمنا في هذا الصدد معرفة الرسائل التي وجهت إلى ملوك أو رؤساء لهم صلة ببلاد الشام. فقد كتب الرسول عليه السلام في أواخر سنة ست للهجرة، أو بداية السنة السابعة للهجرة رسالته المشهورة إلى هرقل قيصر الروم يدعوه إلى الإسلام، وتذكر المصادر أن هرقل استقبل الرسول استقبالاً حسنًا وأجاب الرسول صلى الله عليه وسلم جوابًا رقيقًا.

وقد كتب الرسول إلى هرقل أكثر من مرة، إحداها في تبوك في السنة التاسعة للهجرة[٢] وكتب عليه السلام كتابًا مماثلاً إلى المقوقس حاكم مصر، وقيل ملك الإسكندرية – واسمه (جريج بن مينا القبطي) وقد أكرم هذا الرسول وأهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم هدية فيها جاريتان إحداهما مارية القبطية أم إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣]. وبعث الرسول بكتاب مماثل إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، صاحب دمشق وقيل ملك تخوم الشام، وذكر في بعض المصادر – اسم (المنذر بن الحارث)[٤]. وأرسل مثل الكتب السابقة إلى جبلة بن الأيهم، ويقال بأنه أسلم وأرسل بهدية إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وبقي على إسلامه حتى زمن الخليفة عمر بن الخطاب[٥]. وقد برهنت الأيام أن هذه

---

(١) انظر توماس أرنولد، ص٤٨.

(٢) حول رسائل الرسول انظر: المغازي، ص٦٠؛ ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص٦؛ الأموال ٣٢؛ الطبري، تاريخ، جـ٢، ص٦٤٤؛ ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت٣٢٨هـ/٩٣٩م). **العقد الفريد،** تحقيق محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، بيروت، جـ١، ص٢٦٠ سيشار إلى هذا المصدر فيما بعد هكذا: العقد؛ صحيح البخاري، جـ٦، ص١٠؛ تاريخ الخميس، جـ٢، ص٢٩–٣١؛ البداية والنهاية جـ٣، ص٢٦٤؛ أسد رستم، الروم، جـ١، ص٢٣٤. ولمعرفة النصوص والمصادر انظر حميد الله ص٨٠–٨٣، الأرقام ٢٦–٢٨ ب؛ عون الشريف، نشأة ص٧٣ وما بعدها.

(٣) حميد الله ص٨٢–٨٣، الأرقام ٢٧–٢٨ ب؛ عون الشريف، نشأة، ٧٧–٨١.

(٤) المصادر السابقة، الزرقاني، أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي، **المواهب اللدنية،** ٨ ج، المطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٣٢٥–١٣٢٩، جـ٣، ص٣٥٦. سيشار إلى هذا المصدر فيما بعد هكذا: المواهب اللدنية. حميد الله ص٩٧ رقم ٣٧؛ عون الشريف، نشأة ، ص٣٠٧.

(٥) ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص٦٠٦؛ ابن سعد جـ١، ص٢٦٥؛ تاريخ الخميس جـ٢، ص٦١؛ حميد الله

الرسائل لم تكن صادرة عن حماسة جوفاء[١]، وأن ما جاء فيها قد تحقق كما هو معروف ومشهور في زمن قصير.

ومما يجدر ذكره أن النشاط الدبلوماسي كان يشمل كافة أرجاء الجزيرة العربية، وبلاد الشام ومصر والعراق، ونلاحظ أن تركيزًا أكثر قد أنصب على بلاد الشام. تذكر لنا المصادر أن المراسلات لم تنقطع بين الرسول صلى الله عليه وسلم ورؤساء القبائل في الشمال، وأفرادًا من القبائل لم يكونوا بالرؤساء. وقد حصل هؤلاء على كتب أمان من الرسول صلى الله عليه وسلم، لهم ولقبائلهم، فيها العهد بنصرة الرسول وعدم المناصرة عليه. وتفيد هذه المصادر أن نفرأ قد أسلم في وقت مبكر وقبل فتح مكة. وكان هؤلاء عونًا للرسول وأصحابه في نشر الإسلام وتنفيذ سياسته بين أفراد قبائلهم، وتحويل مواقف هذه القبائل الموالية للروم إلى الصف العربي الذي يقوده الرسول صلى الله عليه وسلم.

فقد كتب الرسول إلى مالك بن أحمر الجذامي العوفي[٢]وبني الضبيب من جذام، وإلى رفاعة بن زيد الجذامي[٣]، وإلى بني جفال الجذاميين[٤]وإلى بطون أخرى وأفراد من جذام[٥]. وكتب عليه السلام إلى زهير بن قرضم[٦]من قضاعة. وكتب إلى زمل بن عمرو العذري أمانًا له ولقبيلته عذرة[٧]، وكتب إلى جزء بن عمرو العذري[٨]. وكتب مثل ذلك إلى بني جعيل من بلي من قضاعة التي كانت منازلها قرب وادي القرى. وكتب إلى فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على معان من أرض البلقاء[٩]. وكتب أمانًا لبني ثعلبة[١٠]من

ص٩٨ رقم ٣٨-٩٣.

(١) توماس أرنولد، ص٤٩.

(٢) حميد الله، ص٢٣٢ رقم ١٧٣أ، ١٧٤.

(٣) المصدر السابق، ٢٣٣ رقم ١٧٥.

(٤) المصدر السابق ٢٣٤ رقم ١٧٦.

(٥) المصدر السابق ٢٣٤ رقم ١٧٧.

(٦) المصدر السابق ٢٣٥ رقم ١٧٨

(٧) المصدر السابق ٢٣٥ رقم ١٧٨، ورقم ١٧٩.

(٨) المصدر السابق ٢٣٨ رقم ١٧٩

(٩) هون الشريف، نشأة ص٢٠٧.

(١٠) حميد الله ٩٨ رقم ٤٠؛ عون الشريف، نشأة ص٣١٣.

غسان، ثم إلى سعد بن هذيم[١]من قضاعة وإلى بني غاديا، ولبني عريض[٢]، ولبني جناب من كلب[٣]. وتشير مصادرنا إلى خمس وثائق موجهة إلى مجموعات مختلفة من قبيلة طيء، تؤمنهم على ممتلكاتهم وتمنحهم الذمة إذا ما أدوا ما عليهم، وفارقوا المشركين. وقد وجهت الرسالة الأولى إلى معاوية بن جرول الطائي، والثانية إلى عامر بن الأسود بن عامر بن جوين الطائي، والثالثة لبني جوين من طيء، والرابعة لبني معن الطائيين، والخامسة لجابر بن ظالم بن حارثة الطائي[٤].

وقد نجم عن نشاط الرسول صلى الله عليه وسلم، وصحبه الكرام، دخول أعداد كبيرة في الإسلام في وقت مبكر، وبخاصة من أفراد القبائل الموالية للروم، نذكر على سبيل المثال، أن دحية بن خليفة الكلبي، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد أرسله إلى هرقل في السنة السادسة للهجرة[٥]، وهو من قبيلة كلب المشهورة وكان ناقل الرسالة إلى المقوقس حاطب بن أبي بلتعة من لخم[٦]. ونقل الرسالة إلى الحارث الغساني، شجاع بن وهب من أسد[٧]. وقالت بعض المصادر أن رفاعة بن زيد الجذامي، أسلم وأجاب قومه للإسلام في هدنة الحديبية وقبل خيبر[٨]وأسلم فروة بن عمرو الجذامي، وكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[٩].

وأرسل عليه الصلاة والسلام لمن أسلم من حدس من لخم منهم زياد بن جهور اللخمي، وكانت هذه الكتب تشترط الدخول في الإسلام، ومفارقة المشركين[١٠].

---

(١) ابن سعد، جـ١، ص٢٧٠.

(٢) المصدر السابق، جـ١، ص٢٧٩.

(٣) المصدر السابق، جـ١، ص٢٨٥.

(٤) انظر حميد الله، ص٢٥٠-٢٥٣، الأرقام ١٩٣-١٩٦، ١٩٨؛ عون الشريف، نشأة ٢٢١.

(٥) المغازي، ص٣٣، ص٦٠.

(٦) ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص٦٠٦.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) المصدر السابق، جـ٢، ص٥٩٦؛ الطبري، تاريخ، جـ٣، ص١٦، ص١٤٠-١٤٣.

(٩) ابن هشام، السيرة جـ٢، ص٥٩١؛ عيون الأثر جـ٢، ص٢٤٤؛ حميد الله ٩٦ رقم ٣٥.

(١٠) ابن سعد جـ١، ص٢٦٦.

وفي السنة التاسعة للهجرة، وفدت على الرسول صلى الله عليه وسلم، وفود من بلي وبهراء، وعذرة وكلب وغسان وجذام وكلاب وطيء وغيرهم[١] من القبائل التي كان الروم يستنصرون بها على العرب. وكلما كانت تتزايد قوة المسلمين العسكرية، كان يرافق ذلك تزايد في الشعور القومي العربي يتمثل بتحول كثير من القبائل المتنصرة عن مواقفها السياسية السابقة، ودخول أعداد كبيرة في الدين الإسلامي، لا سيما وأن الإسلام يعزز العروبة، فالرسول صلى الله عليه وسلم يعتز بانتمائه إلى قريش، وقريش من العرب، وعن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أبغض العرب أبغضه الله)[٢]، ونذكر بعض الحوادث التي تؤيد التحول القومي عند العرب بفعل التغيير الذي أحدثه الإسلام.

ذكر البلاذري أن أبا زبيد الطائي الشاعر النصراني، أبلى في معركة الجسر مع المسلمين، وكان قتاله يعدل قتال جماعة[٣]. وفي معركة البويب قدم أنس بن هلال النمري ممدًا للمثنى بن حارثة الشيباني في أناس من النمر نصارى وجلاب جلبوا خيلا – وهو عبد الله بن كليب بن خالد – وقالوا حين رأوا نزول العرب بالعجم: (نقاتل مع قومنا)[٤]. وقد ذكر بعض الباحثين المحدثين أن العرب المسيحيين الذين كانوا يخفرون حدود الإمبراطورية البيزنطية (الرومية) الواقعة على أطراف الصحراء، ألقوا بجموعهم مع جيش الفتح الإسلامي، في حين رفض هرقل دفع الجزية التي تعود على دفعها لهم مقابل خدماتهم العسكرية التي كانوا يؤدونها باعتبارهم حراسًا للحدود[٥].

وذكرت بعض المصادر أن هرقل ملك الروم قال لرسول عمر بن الخطاب: (ألقيت ابن عمك هذا الذي ببلدنا)، (يعني جبلة بن الأيهم)[٦]. فهذا الحديث وأمثاله يبين لنا أن الروم

---

(١) ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص٥٥٩ وما بعدها؛ ابن سعد جـ١، ص٣٣٠ وما بعدها؛ عيون الأثر جـ٢، ص٢٣٦ وما بعدها؛ توماس أرنولد ص٥٩.

(٢) العقد، الفريد جـ٣، ص٢٤٥. وروي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ذكر أن قريشًا الجؤجو والعرب الجناحان. والجؤجو لا ينهض إلا بالجناحين، وقوله: (الا أن درع هذا الحي من قريش إخوانهم من العرب).

(٣) البلاذري، فتوح، ص٢٥٢.

(٤) الطبري، تاريخ جـ٣، ص٤٦٣.

(٥) W. Mure, **The Calliphate**, It,s rise, decline and fall, London, (1891), pp. 90 -94

سيشار إلى هذاا لمرجع عند وروده هكذا: The Calliphate ؛ وانظر توماس أرنولد ص٦٦.

(٦) العقد الفريد، جـ١، ص٢٦٠.

كانوا يعتبرون العرب أبناء عم، كما يعكس هذا القول النضج القومي الذي بلغه العرب في بداية العهد الإسلامي. وكان العرب حتى في وضعهم القبلي يشعرون بأنهم مميزون عن الأمم الأخرى، فهاهم نصارى بني تغلب بن وائل يرفضون دفع الجزية لعمر ابن الخطاب لأنها كجزية الأعلاج[١]، وهم قوم من العرب شديدة نكايتهم. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في معرض إظهار فرحة العرب بانتصارهم على الفرس في موقعة ذي قار المشهورة: (هذا أول يوم انتصف العرب من العجم، وبي نصروا)[٢]وذكر أبو يوسف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عامل الأرض المفتوحة من العرب معاملة خاصة فقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتتح فتوحًا من الأرض العربي فوضع عليها العشر، ولم يجعل على شيء منها خراجًا، وكذلك قول أصحابنا في تلك الأرضين، ألا ترى أن مكة والحرم لم يكن فيها خراج، فأجروا الأرض العربية كلها هذا المجرى، وأجرى البحران والطائف كذلك[٣]وقد رفض النعمان بن المنذر آخر أمراء الحيرة أن يزوج إحدى بناته أو أخواته من كسرى ملك الفرس أنفة[٤]وأورد الدينوري كتابًا منسوبًا إلى كسرى يبين فيه أسباب نقمته على النعمان ملك الحيرة جاء فيه: "فان النعمان وأهل بيته واطأوا العرب وأعلموهم توكفهم خروج الملك عنا إليهم"[٥]. وجاء في خطاب أبي بكر لما عزم على توجيه الجيوش إلى بلاد الشام: "(فالعرب اليوم بنو أم وأب) وقد رأيت أن استنفر المسلمين إلى جهاد الروم بالشام"[٦]وفي حصار خالد ابن الوليد للحيرة، استغرب موقف

---

(١) وهذا القول له دلالته إذ هم نصارى والأعلاج الذين يدفعون الجزية نصارى ومع ذلك لا يقبل بنو تغلب أن يعاملوا من العرب المسلمين معاملة الأعلاج غير العرب. أنظر: الخراج ص١٢٠؛ البلاذري، فتوح ص١٨٥-١٨٦؛ توماس أرنولد ص٦٧.

(٢) الطبري، تاريخ جـ٢، ص١٩٣، وما بعدها؛ أبو عبيدة، معمر بن المثنى (كتاب النقائض) (الطبعة الأوروبية) جـ٢، ص٦٣٨ وما بعدها؛ أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، ٢٤ ح، الهيئة المصرية القاهرة، ج٢٤ ص٥٣ وما بعدها. سيشار إليه فيما بعد: الأغاني؛ المناقب المزيدية جـ٢، ص٤٠٣ وما بعدها.

(٣) الخراج، ص٥٨.

(٤) الطبري، تاريخ جـ٢، ص١٩٣ وما بعدها.

(٥) أبو حنيفة الدينوري، **الأخبار الطوال**، تحقيق عبد المنعم عامر ومراجعة الدكتور جمال الدين الشيال، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط١، القاهرة ١٩٦٠ ص١٠٧-١٠٩. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده هكذا: الأخبار الطوال.

(٦) الأزدي ص٢؛ ابن عساكر، تهذيب جـ١، ص١٢٧.

أهلها وهم من العرب، فسأل وفدهم الذي حضر إليه للنظر في شروط تسليم المدينة: (ما أنتم! أعرب؟ فما تنقمون من العرب !؟ أو عجم؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل! وقد أجاب عدي بن عدي بن زيد باسم الوفد قائلا: "بل عرب عاربة، وأخرى متعربة"، فقال: لو كنتم كما تقولون، لم تحادونا، وتكرهوا أمرنا؟! فقال له عدي: ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية، فقال: صدقت)[١]. ولما دخلت جيوش الفتح الأردن وفلسطين كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب يقولون: (يا معشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا)[٢].

وأغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم[٣].

ويفهم من البلاذري أن البعض من القبائل اليمانية الموجودة في الشام من قبل أسلمت بعد الفتح بقليل كما حصل لأكثر تنوخ في حاضر قنسرين، ولطي، وكذا لتنوخ وغيرهم في حاضر مدينة حلب[٤]. وحصل ذلك للخم وجذام وتعاونوا مع الفاتحين[٥]، حتى أنهم طالبوا بالعطاء مثلهم[٦].

وذكر الأزدي في فتوحه أن لخمًا وجذامًا وغسان وعاملة والقين وقبائل من قضاعة دخلوا مع المسلمين في وقعة فحل فكثر عدد المسلمين، فكان من هذه القبائل جمع عظيم وكثير[٧]كما ذكر اشتراك قضاعة ولخم وجذام وغسان وعاملة وقبائل أخرى في معركة

---

(١) الطبري، تاريخ جـ٣، ص٣٦١؛ وانظر توماس أرنولد ص٦٩. في النص المذكور أمران. الأول استغراب قتال العرب للعرب، والثاني تأكيد عروبة أهل الحيرة.

(٢) الأزدي ص١١١؛ توماس أرنولد ٧٣.

(٣) توماس أرنولد ٧٣ نقلا عن فتوح البلاذري ١٣٧.

(٤) البلاذري، فتوح، ص١٢٧، ص١٣٣، ص١٣٤، ص١٤٧؛ وانظر الدوري، (العرب) ص٢٦.

(٥) البلاذري، فتوح، ص١٣١، ص١٣٦؛ الدوري. (العرب)، ص٢٦.

(٦) ابن عساكر، تهذيب جـ١ ص١٧٥؛ الدوري، (العرب) ص٢٦.

(٧) الأزدي، ص١١١، ١٣٠.

اليرموك إلى جانب المسلمين[١]. وفي رواية اللألكاني والبيهقي عن دخول خالد بن الوليد بلاد الشام: "وتسامع الأعراب الذين كانوا في مملكة الروم بخالد ففزعوا له"[٢].

ومما يجدر ذكره أن بعض المصادر العربية أطلقت على دخول المسلمين بلاد الشام تسمية (جهاد الروم بالشام)[٣].

كان سكان بلاد الشام يدركون أن الروم غرباء عنهم مغتصبون لبلادهم فساعدوا الفاتحين وكانوا عيونًا لهم[٤].

ومما يدل على قوة الشعور القومي عند العرب أن الذين تهودوا منهم في الحجاز ووردت أسماء قبائلهم في الوثيقة التي كتبت بين الرسول صلى الله عليه وسلم واليهود[٥]، لم نسمع بذكرهم بعد الفتح مما يشير إلى أن هؤلاء تخلوا عن يهوديتهم وانضموا للإسلام، بينما بقيت البطون اليهودية الكبرى على يهوديتها.

وفي صلح إيليا (العهد العمري) اشترط أهلها على عمر أن لا يسكن بإيلياء معهم أحدًا من اليهود، وعلى أهل إيليا أن يخرجوا منها الروم واللصوص[٦]واقتران الروم باللصوص له دلالة ما بعدها دلالة.

وقد اتحد مفهوم الإسلام (الدين) و (العروبة) (النسب واللغة) في مفهوم واحد تمثل في الدولة والسلطة السياسية العربية، ونظر إليها حتى من قبل المسلمين من غير العرب أنها دولة عربية، فقد اشترك الموالي في معارضة الدولة الأموية ابتداء بحركة المختار الثقفي إلى

---

(١) الأزدي، ص٢١٨، ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص١٦٣؛ وانظر الواقدي، جـ١، ص١٤٤.

(٢) ابن عساكر، تهذيب جـ١، ص١٣٥.

(٣) الأزدي، ص٢؛ ابن عساكر، تهذيب جـ١، ص١٢٧، ص١٣٠.

(٤) ذكرت المصادر العربية في مواضع متعددة أن المعاهدين بالشام والأنباط كانوا عيونًا لجيش المسلمين. انظر الأزدي ص٤٤، ٨٧، ١٢٦، ١٦١، ٢٥٣، ١٥٧؛ الطبري، تاريخ جـ٣، ص٣٤٦؛ وابن عساكر، تهذيب جـ١، ص١٩٢؛ والواقدي، فتوح، جـ١، ص٢٠٥، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٦٠، جـ٣٣، يذكر الواقدي أن بطارقة ورجال دين نصارى أعتنقوا الإسلام واحتالوا على أقوامهم في فتح مدنهم، كما حدث في فتح صور على يد باسيل الراهب ويوحنا الذي فتح قلعة اعزاز وأنطاكية وغيرها.

(٥) انظر الوثيقة عند حميد الله رقم (١) ص٣٩ وما بعدها.

(٦) انظر الطبري، تاريخ، جـ٣، ص٦٠٩؛ الأزدي ٢٤٦ وما بعدها؛ البلاذري، فتوح، ص١٤٤ وما بعدها؛ الواقدي، فتوح، جـ١ ص٢١٣ وما بعدها.

ثورة ابن الأشعث إلى ثورة الحارث بن سريج المرجيء إلى الدعوة العباسية، وهي حركات تسترت بالإسلام لهدم السلطان العربي والنظام القائم، وكذلك يقال عن الشعوبية[١].

سبقت العروبة (النسب واللغة) الإسلام (الدين) في بلاد الشام وكونت الأرضية التي حصل عليها التفاعل بين العرب والإسلام وكونت الأمة والنظام والمؤسسة العسكرية. فقد ذكر اليعقوبي أن حماة وحمص وشيزر وجبلة والأطم كان معظم سكانها عند الفتح من العرب اليمانية[٢].

ولما قدم غزاة الأزد وبني كنانة على عمر بن الخطاب في سبعمائة، قال لهم: أي الوجوه أحب إليكم، فقالوا: الشام، أسلافنا أسلافنا ...[٣]

وعن غير الواقدي أن قيسارية لما فتحت وجد فيها خلق من العرب وفتحت بدليل يهودي[٤]. وذكر أبو يوسف أن سكان مدينة الرها من الأنباط[٥]. ويرى لامنس أن العناصر الجنسية التي كانت تؤلف سكان سورية (بلاد الشام) متعددة ومتباينة ولكن يمكن ردها جميعًا، بطريقة إجمالية، إلى العنصرين الأصليين في الشعوب السورية، وهما العنصر الآرامي في الشمال والوسط والعنصر الكنعاني الفنيقي على الشاطيء والجنوب[٦]، ولكن المصادر العربية والبيزنطية لا تذكر العنصر الكنعاني - الفنيقي، وإنما تذكر العرب المتنصرة والنبط والروم كعناصر السكان في سورية زمن الفتح، وكانت هذه العناصر ما عدا الروم يتكلمون الآرامية قبل نضج العربية كما ذكرنا سابقًا.

وقد رافق الحركة الإسلامية بين العرب حركة تحضر موازية، فقد أكد القرآن الكريم على الفردية واعتبرها الأساس في الحياة الاجتماعية، أي أن الإسلام قام بتفكيك الأعراف القبلية - النظام الاجتماعي - لصالح كيان الأمة، وأكد في هذا التوجه على المسؤولية

---

(١) مقدمة ص٦٧ وما بعدها.

(٢) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت٢٨٤هـ/٨٩٧م) **البلدان**، نشر ضمن كتاب الأعلاق النفيسة، باعتناء دي خويه، بريل، ليدن، ١٨٩١. ص٣٢٤-٣٢٧. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده هكذا: البلدان.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٤، ص٧٢-٧٣.

(٤) قدامة، الخراج، ص٣٠١.

(٥) الخراج ص٣٩.

(٦) «**سورية في زمن الفتح العربي**»، مجلة المشرق، م ٣٠، ١٩٣٢ ص١٣. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: سورية.

الفردية في الأمور الدينية والقانونية[١]، وقد نزلت آيات كثيرة في ذلك، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[الأنعام: الآية (١٦٤)].

وقال ﴿ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾[لقمان: الآية (٣٣)].

وقوله: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ ﴾[الانشقاق].

وحث القرآن على الهجرة إلى المدينة، والمهاجر يقطع علاقاته بعشيرته وقبيلته ويضحي بعلاقات وتقاليد قبلية كثيرة، ونزلت في هذا المعنى آيات عديدة[٢].

وأطلق القرآن على المقيمين خارج المدينة تعبيرين هما: (البادون) و (الأعراب)[٣]، ومدح الإسلام التحضر وأثنى عليه، ووصف حالة التبدي (الأعراب) وصفًا مقرعًا، فكل الآيات التي وردت فيها كلمة (الأعراب) جاءت تقرع الأعراب وتذم التبدي وتصف أهله بالغلظة والجفاء[٤]، ووردت أحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم تصف الأعراب بالجفاء[٥].

---

(١) صالح العلي، (**الإسلام والبداوة**) مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، ع ٧، جمادى الأولى ١٣٩٥هـ/ حزيران ١٩٧٥ ص٣٣-٤٣، ص٢٤. سوف يشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: صالح العلي.

(٢) انظر سورة الأنفال، الآيات: ٢٠-٢٢، ٧٢، ٧٤-٧٥؛ وسورة محمد، آية: ٢٥؛ وسورة النمل آية: ٤؛ وسورة الحج آية ٥٨؛ وسورة الحشر آية ٨ وسورة التوبة ٢٠-٢٢.

(٣) سورة الحج آية: ٢٥، والأحزاب، آية: ٢٠، وسورة يوسف، آية: ١٠٠؛ وانظر صالح العلي ص٤٠.

(٤) صالح العلي ص٤١.

(٥) المصدر السابق ٤١ وما بعدها؛ ابن حنبل، جـ١، ص٦٨، جـ٢، ص٢٠٣، جـ٥، ص١٥٣، ١٨٦.

الخاتمة

من خلال العرض السابق، يتبين لنا أن الأمة العربية مرت بأدوار تاريخية في سنة تكونها وتطورها، وبرزت في معارج التاريخ تستكمل عناصر هذا التكوين ومع الزمن أطلق الآخرون عليها وعلى نطاقها الجغرافي، العرب أو الأعراب وبلاد العرب(Arabia)، ضمن هذا الإطار الجغرافي، وسكانها جزء من المصطلح العربي ونظرًا لموقع بلاد الشام الاستراتيجي تعرضت لموجات الغزو الخارجي وخضعت للسيادة الأجنبية وتعرضت لحملات من الغزو الثقافي إلى جانب الغزو العسكري، وكل ذلك لم يلغ التوجه العربي لأهل هذه البلاد. فلما جاء الإسلام بإمكاناته الجديدة والقوية تسارعت عوامل النمو العربي بشكل هائل وسريع في ميادين التحول الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والفكري، وفي فترة وجيزة تحولت جزيرة العرب إلى وحدة سياسية وثقافية واقتصادية وضعت ثقلها في اتجاه استكمال الشخصية العربية، فكان لا بد من دخول بلاد الشام وتحريرها من الغزاة الأجانب، ذلك كان حتمية تاريخية اقتضاها بحث العرب عن هويتهم واضطلاعهم بدورهم الذي تهيأ لهم بفضل موقعهم وفكرهم، وما كان لهذا الفتح أن يكون لولا هذه المقدمات التي سبقت هذا الحدث التاريخي الكبير.

واقعة اليرموك

الزمان والمكان وإشكالية الروايات

من المعروف أن العرب كانوا من أغنى الأمم في تسجيل أخبارهم وتداولها بالرواية المكتوبة والشفهية عن طريق السمر والقصص والشعر، ونظراً لكثرة هذه الروايات في ميادين الحياة المختلفة، حصل اختلاط واختلاف بين هذه الروايات، في كثير من الحوادث، وهذه حالة لا ينفرد بها العرب وحدهم، وإنما هي محصلة طبيعية ناتجة عن اختلاف الرواة في المكان والزمان واختلافهم أيضاً في الأهواء والغايات.

وهذه الأخبار والروايات على كثرتها واختلافها أو تباينها لا تلغي الواقعة التاريخية بل بالعكس تؤكد حدوثها، وإنما قد تتباين أو تختلف في زمان ومكان الواقعة وربما تفاصيل أحداثها.

وحركة الفتح العربي التي بدأت مع قيام الدولة الإسلامية من هذه الأحداث الهامة في التاريخ، وحصل في نقل أخبارها ما حصل من اختلاط بين روايات الاخباريين والمؤرخين القدامى في بعض التفاصيل والذي انعكس على كتابات المؤرخين المحدثين.

من بين أحداث الفتوح، اخترنا واقعة اليرموك، باعتبارها حدثاً بارزاً في سياق فتح بلاد الشام أو تحرير بلاد الشام كما يحلو للبعض تسمية هذه الحركة باعتبار أن البيزنطيين (الروم) طارئين محتلين لهذه البلاد، التي كان يقطنها سكانها العرب منذ أقدم العصور.

لن ندخل في كل تفاصيل هذه الواقعة التاريخية الهامة والتي ترتب على نتائجها تحرير كامل بلاد الشام من السيطرة البيزنطية (الرومية). ومع أهمية هذه الواقعة في التاريخ العالمي، فقد حصل بعض الاختلاف في تحديد زمان حدوثها ومكانه، وهذا ما سيحاول هذا البحث تجليته اعتماداً على المصادر الأولية المعتمدة.

إن أقدم المصادر التي يعتمد عليها في مثل هذه الحالة هي:/ كتب الفتوح الأولى وهي حسب الترتيب التاريخي، تاريخ فتوح الشام للواقدي (٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) وكتاب فتوح الشام للأزدي (٢٣١هـ/٨٤٥م) وكتاب فتوح البلدان للبلاذري (٢٧٩هـ/٨٩٢م) وكتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي (٣١٤هـ/٩٢٦م).

كما لا يمكننا إغفال كتب الحوليات والتاريخ الأولى التي نقلت لنا أخبار الواقعة عن مشارك في الحدث أو راوٍ عمن شارك أو سمع ممن روى عن مشارك.

وأهم هذه الكتب- مرتبة وفق أقدميتها - تاريخ ابن خياط (ت ٢٤٠هـ /٨٥٤م) وتاريخ أبي زرعة الدمشقي (ت ٢٨١هـ/ ٨٩٣م) وتاريخ اليعقوبي (ت٢٩٢هـ/ ٩٠٤م) وأخيراً تاريخ الرسل والملوك للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م) الذي يعود له أكبر الفضل في حفظ ونقل الروايات المكتوبة والمنقولة شفاهاً لمجمل التاريخ الإسلامي خلال القرون الهجرية الثلاث الأولى.

وهذه المصادر العربية الإسلامية توحي في أغلبها بالثقة بها، ومرد ذلك إلى أنها تعتمد على تسلسل السند الذي يوصل إلى صاحب الحدث، وأنها أيضاً تمتاز بتعدد المصادر للرواية الواحدة، وأن اختلاف هذه المصادر أو تباينها يغنيها ويمنح الباحث فسحة استقصاء الخبر الأدق والأصح، يضاف إلى ذلك أن نقلة هذه الأخبار كانوا في الأغلب معروفين بحرصهم على الصدق والتحقيق والدقة فيما يروون وكانوا يعاملون من قبل معاصريهم من النقاد معاملة المحدثين الذين لا يجوز لهم التقول على الرسول صلى الله عليه وسلم.[1]

أما المصادر الأجنبية القريبة من الحدث تكاد لا تقدم فائدة تذكر في هذا المجال، فثيوفانس Theopahns (ت نحو ٢٠٤هـ/ ٨١٩م) والذي أرّخ للدولة البيزنطية، لا يقدم معلومات تفصيلية لحركة الفتوح العربية الإسلامية، رغم قربه منها، كذلك لا نجد ما يشفي الغلة عند معاصرة نقفور(Nikephores أو Nikephorus) (ت٢١٤هـ/٨٢٩م)، الذي كان

(١) انظر ناصر الدين الأسد، **وقعة أجنادين - دراسة تحليلية للمصادر والروايات**، المجلد الثاني، بلاد اشام في صدر الإسلام، الندوة الثانية من أعمال المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، تحرير: محمد عدنان البخيت وإحسان عباس، عمان ١٩٨٣، الصفحات ٢٨٥-٣٢١، ص٢٨٨-٢٨٩، سيشار إليه عند وروده ، الأسد ، أجنادين.

بطريقاً للقسطنطينية من٨٠٦ إلى ٨١٥م كما كان مؤرخاً وكذلك ميخائيل السرياني الذي كان بطريقاً لانطاكية من ١١٦٦-١١٩٩م، ويعرف كتابه بتاريخ ميخائيل(١).

وقد خلص إلى هذه النتيجة كايتاني Caetani بعد دراسته لهذه المصادر وغيرها من المصادر الأجنبية المقاربة للحدث قائلاً "إن النص الذي أورده ثيوفانس كان مشوشاً تشويشاً مؤسفاً، ومن الصعب أن يرى المرء بوضوح في مثل هذا النسيج المضطرب من الأخبار الناقصة عن أحداث تلك المدة كلها: ما بين ١٢ و١٧هـ"(٢).

وقد درس فريد دونر (Fred MicGraw Donner) الفتوحات الإسلامية وخلص إلى أن المصادر اليونانية والبيزنطية والأرمنية لا تقدم إلا القليل في مجال الفتوحات الإسلامية(٣).

كان لابد من هذا التمهيد ونحن نتحدث عن إحدى وقائع الصراع بين العرب والروم البيزنطيين لنلفت النظر مسبقاً إلى الاعتبارات التي جعلتنا نعتمد اعتماداً كلياً على المصادر الأولية العربية في استجلاء تاريخ ومكان وقعة اليرموك(٤).

ورواة اليرموك بخاصة وفتوح الشام بعامة في المصادر العربية التي ذكرناها من قبل، هم كثر ونذكر أهمهم بالنسبة لبحثنا على التوالي: محمد بن اسحاق (ت١٥١هـ/ ٧٦٨م) والواقدي (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م) والمدائني (٢٢٥هـ/٨٣٩م) وأبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني (نجهله) وسيف بن عمر (ت ١٨٠هـ/٧٩٦م) وابن الكلبي هشام بن محمد (٢٠٤هـ/ ٨١٩م) وسعيد بن عبد العزيز الدمشقي (نحو ١٨٤هـ/ ٨٠٠م) والأزدي المؤرخ (٢٣١هـ/٨٤٥ أو ٢٣٧هـ/ ٨٥١م) والوليد بن مسلم(ت١٩٥هـ/ ٨١٠م)

وقد حدد ابن اسحاق تاريخ معركة اليرموك في شهر رجب من سنة ١٥ هـ/ ٦٣٦م، ويمثل ابن اسحاق مدرسة المدينة في كتابة التاريخ، ويأخذ من مصادر متعددة ومتنوعة، وقد وصل عدد

---

(١) انظر صالح درادكة، فتح دمشق، دراسة في الروايات، الندوة الدولية، دمشق في التاريخ، الجزء الأول، جامعة دمشق٢٠٠٦م، الصفحات (١٨٥-٢١٧) ص١٨٧-١٨٨، الأسد، أجنادين ص٢٨٦-٢٨٧.

(٢) Leone Caetani, Annali Dell Islam, 10 vol., Georg olms Verlage, Hildesheim, 1972, vol,111, p. 62.
الأسد أجنادين، ص٢٨٧.

(٣) The early Islamic Conquests, Princetion university Press, 1981, p. 116.

(٤) اعتمدنا المصادر الأولية التي لا تتجاوز القرن الثالث الهجري.

شيوخه إلىماية وأربع عشرة شيخاً منهم محمد بن شهاب الزهري (ت١٢٤هـ/ ٧٤١م) وصالح بن كيسان (ت بعد ١٤٠هـ/ ٧٥٧م) ومحمد بن عمر بن عطاء، وعبدالله بن أبي بكر الأنصاري (١٢٤هـ/٧٤١م) والعلاء بن عبدالرحمن وغيرهم.

وقد تباينت آراء اصحاب التراجم والمحدّثين بابن اسحاق بين موثق له ومثنياً عليه، وبين متهم له بالكذب والتدليس والوضع[١].

لقد وصلتنا روايات أبن اسحاق في الفتوح من مصادر متعددة، منها، تاريخ ابن خياط (٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) وعن طريق الطبري محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م) في كتابه تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري) ويعتبر هذا الكتاب الجامع لروايات ابن اسحاق وغيره في أخبار الفتوح.

وقد أورد الطبري الروايات التي تمكن من الوصول إليها حتى زمانه، وقد لفت نظره هذا الاختلاف الحاصل بتحديد أزمنة الأحداث وأماكنها إذ يقول: "ومن الأمور التي تستنكر وقوع مثل الاختلاف الذي ذكرته في وقته، لقرب بعض ذلك من بعض"[٢]، وهو يقصد توالي الأحداث في سير فتوح الشام.

نقل الطبري تاريخين لواقعة اليرموك، الأول جعلها سنة ١٣هـ اعتماداً على رواية سيف بن عمر التميمي (١٨٠ه/ ٧٩٦م) حيث قال: "وقد مضى ذكر ما ورد عن سيف عمن روى عنه، أن وقعة اليرموك كانت سنة ثلاث عشرة، كان المسلمون ورد عليهم البريد بوفاة أبي بكر باليرموك في اليوم الذي هزمت الروم في آخره"[٣]، وهذه لعلها الأساس الذي اعتمد عليه من ذهبوا إلى أن واقعة اليرموك كانت سنة ١٣هـ.

اما سند الرواية كما أورده الطبري هو: "كتب إليّ السري عن شعيب، عن سيف عن

(١) انظر جدول رواة فتوح الشام عند ابن اسحاق في كتاب **الطريق إلى دمشق**، لأحمد عادل كمال، دار النفائس، بيروت ص٦٤، سيشار إليه عند وروده، أحمد كمال، الطريق، وأحمد عرموش، كتاب الفتنة ووقعة الجمل، دار النفائس، بيروت،ص٧ ، وابن النديم، كتاب الفهرست، طبعة فلوجل– ص٢ وصالح درادكة، فتح دمشق،ص١٨٧.

(٢) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت. ٣١٠هـ/٩٢٢م) **تاريخ الرسل والملوك**، ١٠جـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف، مصر ١٩٦٢، ص٣/٤٤٢، سيشار إليه عند وروده ، الطبري، تاريخ.

(٣) المرجع السابق ص٤٤١.

ابي عثمان يزيد بن أسيد الغساني، عن عبادة وخالد.."[1] قالا: "لما هزم الله جند اليرموك وتهافت أهل الياقوصة، وفرغ من المقاسم والانفال، وبعث بالأخماس وسرحت الوفود، استخلف أبو عبيدة على اليرموك، بشر بن كعب بن أبي الحميري كي لا يغتال برده، ولا تقطع الروم على مواده، وخرج أبو عبيدة حتى ينزل بالصفر، وهو يريد اتباع الفالّة، ولا يدري يجتمعون أو يفترقون، فأتاهم الخبر أنهم أرزوا إلى فحل، وأتاه الخبر أن المدد أتى إلى أهل دمشق من حمص فهو لا يدري أبدمشق يبدأ أم بفحل، من بلاد الأردن، فكتب بذلك إلى عمر وانتظر الجواب"[2] وهذا يشير إلى أن سيف بن عمر جعل واقعة اليرموك قبل فحل، وقبل فتح دمشق.

وسيف بن عمر التميمي الأزدي (١٨٠هـ/٧٩٦م) هو مصنف "الفتوح الكبير" و"الردة" و"الجمل وسير عائشة" وهو من أبرز رواة الفتوح وأغزرهم مادة، ولكنه متهم بالاختلاق[3].

ورغم الحجم الكبير لروايات سيف في الفتوح وغيره، لا نجد له ذكراً في كتب التراجم يوازي أعماله، فلم يذكره ابن سعد (٢٣٠هـ/٨٤٤م) في الطبقات الكبرى، و لم يذكره ابن خلكان (٦٨١هـ/١٢٨٣م) في وفيات الأعيان، ولا الكتبي (٧٦٤هـ/ ١٣٦٤م) في فوات الوفيات، ولا الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ/١٠٧٠م) في تاريخ بغداد، ولا ياقوت الحموي (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) في معجم الأدباء، ولا الذهبي (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) في الثقات الذين ضمنهم كتابه تذكرة الحفاظ، و لم يذكره البخاري (٢٥٦هـ/٨٦٩م) في كتابه عن الضعفاء ولا النسائي (٣٠٢هـ/٩١٥م) في كتابه (الضعفاء والمتروكين) و لم يذكره ابن حجر العسقلاني (٨٥٢/١٤٤٧م) في الضعفاء الذين ضمنهم كتابه (لسان الميزان) ولكن ذكر عنه في تقريب التهذيب أنه ضعيف في الحديث عمدة في التاريخ[4].

ورغم ما قيل فيه، فإن الإمام الطبري أخذ معظم مادته في الردة والفتوح عنه، كذلك فعل

(١) الطبري تاريخ، ٣٩٤.

(٢) الطبري تاريخ، ٤٣٦/٣.

(٣) أنظر مرتضى العسكري، خمسون ومائة صحابي مختلق (ترجمة عدد من الصحابة، اعتماداً على رواية سيف في الطبري)

(٤) أحمد كمال، الطريق ص٦٥.

ابن عساكر (ت٥٧١هـ/١١٧٥م) في تاريخه المسمى تاريخ مدينة دمشق، كما وجدنا بعض المحْدثين يطمئنون لروايات سيف وبخاصة روايات فتوح العراق، ويمنحونها الثقة[١].

يعتمد سيف في رواياته على رواة كوفيين وبخاصة ممن هم من الازد قبيلته، وأحياناً نجده يطعم رواياته ببعض الروايات المدنية والشامية[٢].

ونقل الطبري في أحداث سنة ١٣هـ رواية للمدائني (ت٢٢٥هـ/٨٣٥م) مفادها أن المسلمين قاتلوا الروم بالواقوصة، بعد انتصارهم في أجنادين وجاء خبر وفاة أبي بكر وهم بالواقوصة[٣]،ويعتبر المدائني من شيوخ الاخباريين "استفاد ممن سبقه، وتوسع في مجال أخباره بدرجة من الدقة في البحث، حتى أضحى مصدراً لا يستغنى عنه المؤرخون"، فقدوصفه بعضهم بقوله "وأما المدائني فيجول في تاريخ العرب كله السياسي والأدبي والاجتماعي، مبتدءاً بالجاهلية ومستمراً حتى مطلع القرن الثالث الهجري"[٤].

نعود إلى رواة سيف في تاريخ الطبري وهم: أبو عثمان يزيد بن أسيد الغساني(لم يتيسر لنا الحصول على ترجمة له) أما عبادة بن نُسَيّ الكندي الشامي الأردني قاضي طبرية (ت١١٨هـ/٧٣٦م) فقد روى له الأربعة[٥]، ترجم له ابن سعد في الطبقات وذكره خليفة بن خياط في التاريخ والطبقات، وكذلك فعل الفسوي وابن دريد وغيرهم[٦] وثقه كل من

(١) أحمد كمال، الطريق، ص٦٥، وانظر كتابه الآخر الطريق إلى المدائن.

(٢) الدوري، عبدالعزيز، **نشأة علم التاريخ عند العرب**، دار الشرق، ش م م، ١٩٨٣، ص١٢٤، سيُشار إليه عند وروده، الدوري، نشأة.

(٣) الطبري، تاريخ، ٣/٤١٨، ٤١٩، ٤٣٤.

(٤) الدوري، نشأة، ص٣٩، ١٢٢.

(٥) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (٥٧١هـ/١١٧٥) **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق شكري فيصل وروحيه النحاس ورياض عبدالحميد مراد، مطبوعات مجمع اللغة العربية– دمشق، مجلد أحرف عبادة بن او في – عبدالله بن ثوب ص٤٠. سيشار إليه عند وروده، ابن عساكر، تاريخ دمشق.

(٦) ابن سعد محمد بن منيع البصري (٢٣٠هـ/ ٨٤٥م) **كتاب الطبقات الكبرى**، دار بيروت – دار صادر– بيروت، ١٣٧٧/١٩٨٥ ص٧/٤٥٦. سيشار إليه عند وروده، ابن سعد، الطبقات.
خليفة بن خياط (٢٤٠هـ/٨٥٤) **تاريخ خليفة بن خياط**، تحقيق أكرم ضياء العمري، ١٣ النجف الأشرف، ١٣٨٦/ ١٩٦٧. ٢/٤٦٥، ٥١٦، ط١، سيشار إليه عند وروده، ابن خياط، تاريخ.
الفسوي، أبي يوسف يعقوب بن سفيان،(٢٧٧ هـ / ٨٩٠م) **المعرفة والتاريخ**، تحقيق أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، ٢/٤٠٤،٣٢٩، انظر ابن دريد، أبي بكر محمد بن الحسن(٣٢١هـ/٩٣٣م)، **الاشتقاق** ، تحقيق عبد السلام هارون، مؤسسة الخانجي بمصر،١٣٧٨/١٩٥٨ ص٣٥٢ .

أحمد بن حنبل وابن أبي حاتم ويحيى بن معين، والعجلي وابن خراش وغيرهم.[١]

وخالد بن معدان بن أبي كرب أبو عبدالله الكلاعي الحمصي، كان يتولى شرطة يزيد ابن معاوية، وهو ثقة روى عن جماعة من الصحابة وكان من فقهاء التابعين، توفي حوالي ١٠٣هـ[٢]. وكما هو مبين فإن هؤلاء الرواة في إسناد سيف تغلب فيهم خاصية التوثيق من أهل العلم من القدماء.

لنرجع إلى رواية المدائني التي أوردها الطبري دون إسناد مباشر، وإنما أحالها على الإسناد السابق في لفظ (الذي ذكرت قبل) وبالرجوع إلى سلاسل سند المدائني وجدنا أن راويته الأشهر هو أبو زيد عمر بن شبة، يروي عنه عن أبي معشر تارة، وتارة أخرى يمد سنده فيذكر (عن أبي معشر ومحمد بن اسحاق وجويرية بن اسماء باسناده الذي ذكرت قبل).

وأبو معشر نجيح بن عبدالرحمن السندي (الراوي) توفي سنة (١٧٠هـ/٧٨٦م) وهو من أهل المدينة، مؤرخ ومحدث، الف كتاباً في المغازي .وآخر في تاريخ الخلفاء، تتلمذ عليه محمد بن عمر الواقدي،[٣] أما جويرية بن أسماء بن عبيد بن مخارق روى عن ابيه ونافع والزهري وروى عنه أناس مشهورون في الرواية، منهم ابن حبان في الثقات، وقال عنه ابن سعد وكان صاحب علم كثير وذكره المدائني في الطبقة السابعة من اصحاب نافع[٤].

وحتى يتصل خبر جويرية أو ابو معشر بصاحب الخبر الأول، لابد أن يكون بينهما ثلاث رواة على الأقل، فلماذا لم يكمل سنده؟ فهل اعتمد على معرفة العلماء لشيوخه، أم يصدق فيه قول عبدالله بن أحمد بن حنبل "نجيح المديني صدوق ولكنه كان لا يقيم

(١) أنظر ابن عساكر، تاريخ، المجلد السابق ص٤٠-٥٠.

(٢) انظر ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (٦٣٠-٧١١هـ) **مختصرتاريخ دمشق**، تحقيق محمد راتب خموش ومحمد ناجي العمر راجعه رياض عبد الحميد مراده ، ط. حيدر أباد (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م)،٣/ ١١٨، دار الفكر، ١٩٨٢، ص٧/٢٩٦.
ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي،(ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م . **تهذيب التهذيب**، طبعة حيدر أباد، ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩ م. سيشار إليه عند وروده، العسقلاني، تهذيب.

(٣) انظر ابن سعد، الطبقات ٤١٨/٥، ابن النديم، الفهرست ص١٠٥
أحمد أمين، **ضحى الاسلام**، ط٣، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧١/١٩٥٢م، ٣٣٣/٢-٣٣٤.

(٤) ابن حجر العسقلاني، تهذيب ١٢٤/٢-١٢٥ رقم (٢٠٢).

الأسناد"[١] وذكر البغدادي أن نجيح سمع محمد بن كعب القرظي ونافعاً مولى ابن عمر، وسعيد المقبري ومحمد بن المنكدر وهشام بن عروة،[٢] وفي كل الأحوال برغم أن المدائني شيخ الاخباريين، إلا أن إهمال الاسناد مأخذ عليه.

ننتقل للحديث عن مصدر آخر عني بأخبار المغازي والفتوح، وهو محمد بن عمر الواقدي (٢٠٧هـ/٨٢٢م) وله كتب كثيرة، منها المغازي، وكتاب تاريخ فتوح الشام، وهذا الأخير قيل فيه الكثير، ومن ذلك أنه منسوب للواقدي، والواقدي (٢٠٧هـ/٨٢٢م) أقدم من الأزدي (٢٣١هـ أو٢٣٧هـ/٨٤٥، ٨٥١م) صاحب كتاب فتوح الشام ايضاً، وأقدم من البلاذري (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م) وابن أعثم الكوفي (ت٣١٤هـ/٩٢٦م) وابن حبيش (ت٥٨٤هـ/١١٨٨م) صاحب كتاب الغزوات، وابو الربيع الكلاعي (ت٦٣٤هـ/١٢٣٦م) صاحب الإكتفاء في أخبار المصطفى والثلاثة الخلفاء.[٣] وتتشابه رواياتهم عن الفتوح مع ما أورده الواقدي وبخاصة في تحديد تواريخ الأحداث وأماكن وقوعها، وفي كل الأحوال لابد من الرجوع إليه في موضوعنا.[٤] ذكر الواقدي رواية عن تاريخ واقعة اليرموك في كتابه فتوح الشام،وسنده الرئيسي فيها، مكحول الذي سماه الزهري عالم الشام، وأحد العلماء الأربعة في زمانه. توفي سنة (١١٣هـ/٧٣١م)[٥] وعن مكحول أخذ ابي العلاء برد بن سنان (من أهل دمشق، سكن البصرة وثقه قوم وضعفه آخرون قليلون، وقيل أنه كان قدرياً توفي سنة (١٣٥هـ/٧٥٢م)، أما عبد الرحمن بن الفضل الذي أخذ الرواية عن برد بن سنان وعنه أخذ الواقدي، فلا ذكر له في المصادر التي اطلعت عليها، إلا أن يكون ابن الفضل بن دكين ابو نعيم المتوفى سنة ٢١٩هـ[٦] والله أعلم.

وتسلسل الرواية كما وردت في كتاب فتوح الشام "حدثنا عبدالرحمن بن الفضل عن

(١) الخطيب البغدادي، الإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي (ت٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) **تاريخ بغداد** دراسة وتحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ٤٣٣/١٣. سيشار إليه عند وروده، الخطيب، تاريخ

(٢) المرجع نفسه ص٤٢٩. ابن حجر، المرجع السابق.

(٣) لمن رغب في الاستزادة عليه الرجوع إلى مقدمة صالح درادكة، **المحقق لكتاب فتوح الشام**، دار حمادة، اربد، ٢٠٠٧، الأسد، اجنادين ص٢٩٧.

(٤) االواقدي، كتاب فتوح الشام، تحقيق ودراسة، صالح درادكة، ص٣١٨.

(٥) ابن سعد، الطبقات، ٤٠٠/٦-٤٠١

(٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان ١٦/٣ أحمد كمال، الطريق ص ١٠٨.

برد بن سنان عن مكحول قال: كانت وقعة اليرموك في رجب سنة خمس عشرة من الهجرة".

وقد أكد الطبري صحة خبر الواقدي برواية محمد بن اسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير أنه قال: "كان فتح دمشق في سنة أربع عشرة في رجب، وأما الواقدي فزعم أن فتح دمشق كان سنة أربع عشرة كما قال ابن اسحاق، وزعم أن وقعة اليرموك كانت في سنة خمس عشرة"[١] أما لماذا استخدم الطبري لفظ زعم الواقدي، وكأنه لا يثق به، مع أن ما ذكره الواقدي يتطابق مع رواية ابن اسحاق، والطبري أخذ عنه في مواضع كثيرة في كتابه، ولعل هذا الموقف يعود إلى موقف أهل الحديث منه، أو لحسد منهم له، لغزارة علمه ودقة معلوماته، وربما لأنه حُسِبَ على خالد بن برمك الذي استقدمه من المدينة وعينه قاضياً في بغداد، وكان من أهل الحظوة في بلاطه[٢].

وبعد الواقدي نتحول إلى مؤرخ للفتوح يماثل الواقدي في سعة علمه، لا بل يحظى بثقة أكبر عند الفقهاء والمحدثين، وهو أبو اسماعيل محمد بن عبدالله الأزدي (٢٣١هـ/٨٤٥م) وله تاريخ "فتوح الشام" ذكره المِزيّ (ت٧٤٢هـ/١٣٤١م) والذهبي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) وكان يلقبه بصاحب فتوح الشام، وابن حجر (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م) ووصفه بعضهم بأنه كان شيخاً صدوقاً، ووثقه نفر منهم ابن حبان (٣٥٤هـ/٩٦٥م)[٣] أما رجال سند رواية واقعة اليرموك عند الازدي هم: "أخبرنا الحسين بن زياد عن أبي إسماعيل محمد بن عبدالله، عن الصقعب بن زهير عن المهاجر بن صيفي عن راشد بن عبد الرحمن الازدي" أما الرواية التي ذكر فيها تاريخ واقعة اليرموك فهي:

"حدثنا الحسين بن زياد عن ابي اسماعيل عن ابي معشر، أن وقعة اليرموك في رجب سنة خمس عشرة لخمس ليال مضين من رجب"[٤] ونلاحظ أن في إسناد هذه الرواية نقص، لأنه يقف عند أبي معشر المتوفى سنة (١٧٠هـ/٧٨٦م) وهو بعيد عن الحدث بما لا يقل عن ثلاث رواه، لكن للأزدي روايات في سرد تفاصيل معركة اليرموك تصل إلى

(١) تاريخ الطبري، ٣/٤٧١، ٤٤١.

(٢) انظر مقدمة صالح درادكة لكتاب فتوح الشام للواقدي.

(٣) انظر مقدمة المحققين لكتاب فتوح الشام للأزدي

(٤) **كتاب فتوح الشام**، تحقيق عصام عقلة ويوسف بني ياسين دار حمادة للنشر والتوزيع، اربد، ٢٠٠٥م ص٣٨٥. سيشار إليه عند وروده ، الأزدي، تاريخ.

عبدالله بن قرط الثمالي (ت ٥٦هـ/٦٧٥م) وهو مشارك في أحداث اليرموك ودليل ذلك الرواية التالية: "حدثنا الحسين بن زياد عن أبي اسماعيل محمد بن عبدالله الازدي عن مخنف بن عبدالله عن عبد الرحمن بن السليك عن عبدالله بن قرط قال: كنت أنا القادم على عمر بكتاب أبي عبيدة[١] – أثناء أحداث المعركة–" ويظهر هنا بين الازدي وعبدالله بن قرط ثلاث رواة.

ومما يلفت النظر أن الأزدي كالواقدي أورد عدداً كبيراً من الروايات عن أحداث واقعة اليرموك، إلا أنه لم يذكر ابا معشر إلا مرتين الأولى تتعلق بتشاور قادة المسملين أثر تجمع جيوش الروم[٢] والثانية في حديثه عن وقائع أجنادين وفتح دمشق[٣].

ومن شيوخ الازدي الذين ورد ذكرهم في أسناده لأحداث اليرموك، أبو جهضم الأزدي الشامي، كان حياً سنة ٨٣هـ/٧٠٢م وهو في الغالب ينقل روايته عن عبدالملك بن السليك عن عبدالله بن قرط،[٤] كما نقل عن سفيان بن سليم الأزدي عن الحارث بن عبدالله الأزدي ثم النمري[٥] وفي رواية نقلها أبو جهضم عن رجل من الروم[٦]. وقيل عن أبي جهضم أنه ثقة صدوق صالح الحديث[٧].

ومن استعراض روايات الأزدي، يتبين لنا مدى غلبة البعد القبلي على رواياته، لذلك اعتبر من الرواة القبليين، وهذا لا يقلل من شأنه لاسيما وأنه يختار الثقات من قومه، وأن "معركة اليرموك كانت يمانية في أغلب مقاتليها، إذ لم تشارك فيها أسد ولا ربيعة ولا تميم"[٨]

(١) الأزدي، فتوح، ص ٢٨٠–٢٨١.

(٢) نفس المصدر، ص٢٦٧.

(٣) نفس المصدر، ص٣٨٥.

(٤) الازدي، فتوح، ص٢٤٤، ٢٤٦، وفي ص ٢٧٩، يرد عبدالرحمن بن السليك، بدل عبدالملك وليس لأيهما ذكر في كتب التراجم.

(٥) نفس المصدر ص٢٨٧.

(٦) نفس المصدر، ص٣١٠، ٣٨١.

(٧) أحمد كمال، الطريق، ص١٠٨.
انظر الدوري، وعصام ويوسف بني ياسين، في تقديمهم الكتاب فتوح الشام للازدي.

(٨) الازدي فتوح ص٣٢٢، ابن أعثم، ابي محمد (ت٣١٤هـ/٩٢٦م)، كتاب الفتوح، بيروت، ص١/٢٥٥.

لم نعثر على ترجمة لعبد الرحمن بن السليك، أما عبدالله بن قرط الثمالي الأزدي فهو صحابي من أعلام الفتح والي حمص في عهد عمر بن الخطاب (ت٥٦هـ/٦٧٥م)[١] والصقعب بن زهير الازدي الكوفي خال أبي مخنف، محدث صدوق، روى عن عمرو بن شعيب وروى عنه أبو مخنف وابو اسماعيل محمد بن عبدالله الازدي المؤرخ[٢].

ونعرج الآن على كتاب فتوح البلدان للبلاذري[٣] وهو يحظى بالثقة بين المؤرخين القدامى والمحدثين، أخذ عن عدد من الشيوخ منهم محمد بن سعد كاتب الواقدي (ت٢٣٠هـ/ ٨٤٤م) وارتحل بين العراق والشام، يسمع من علمائها. والبلاذري يخرج عن التطويل وتكرار الأسناد، وسادت عنده الرواية الجمعية، وفيما يتعلق بتحديد تاريخ واقعة اليرموك، فقد أوردها على النحو التالي: "قالوا، وكانت وقعة اليرموك في رجب سنة خمس عشرة"[٤].

وكتاب الفتوح الرابع هو لابن اعثم الكوفي[٥] المتوفى سنة (٣١٤هـ/٩٢٦م) وهو كتاب مفصل لأخبار الفتوح إذ جاء في سبع مجلدات، أورد فيها القصص والحوارات على طريقة الأزدي في نقل الروايات في إطار من العاطفة والحماسة كما هو حال محمد بن عمر الواقدي في سرده لأخبار الفتوح الأولى، ونجد ابن أعثم يتبع كتاب الأزدي صفحة صفحة كأنما وقع على كتاب الأزدي وقع الحافر على الحافر وإن لم نجد فيه ذكراً لرواته كما وجدنا في كتاب الأزدي، فقد كان يكتفي بقوله في مطلع كل خبر أو مجموعة من الأخبار "قال:..."دون أن يذكر لنا من هو هذا القائل![٦].

أورد ابن اعثم تفاصيل اليرموك إلا أنه وللأسف لم يذكر تاريخ وقوعها وإن كان يفهم من تتابع الأحداث أنه يتفق مع الازدي في حدوثها سنة١٥هـ.

---

(١) ابن حجر العسقلاني، تهذيب رقم ٣٦٢، ص٥/٣٦١.

(٢) انظر حاشية رقم (٥) ص١٣٥، من الازدي، فتوح.

(٣) هو احمد بن يحي بن جابر المتوفى سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م، **فتوح البلدان**، بعناية رضوان محمد رضوان، المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة السعادة، بمصر ١٩٥٩، سيشار إليه عند وروده، البلاذري، فتوح..

(٤) البلاذري، فتوح، ص١٤٢.

(٥) هو العلامة أبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي المتوفى نحو (٣١٤هـ/٩٢٦م)، كتاب الفتوح طبعة١، دار الندوة، بيروت.

(٦) الاسد، أجنادين، ص٢٩٦.

نعرض بعد ذلك إلى كتب الحوليات والتاريخ الأولى والتي لا تقل في أهميتها عن كتب الفتوح، لما تميزت به من حرص على استقصاء الخبر من أثبت المصادر وأصدقها، وفي طليعة هذه الحوليات يأتي تاريخ خليفة أبن خياط المتوفى سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م وهو أقدم ما وصلنا من الحوليات[١] ويمتاز بدقة وسلامة سنده، وشهرته بالصدق والأمانة، ذكر خبر تاريخ وقعة اليرموك بسطر واحد، نقلاً عن ابن الكلبي حيث قال: "كانت الوقعة يوم الاثنين لخمس مضين من رجب سنة خمس عشرة"[٢]، والكلبي هو محمد بن السائب الكوفي المتوفي سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م نسابة ومفسر واسع الحفظ حجة في انساب العرب وأيامهم ضعيف في الحديث[٣].

ومن الطريف أن اليعقوبي المؤرخ ذكر أجنادين لكنه لم يذكر اليرموك.

ويعتبر تاريخ أبي زرعة الدمشقي[٤] من المصادر التي لابد من الرجوع إليها في حوادث الشام الأولى، فبالإضافة إلى أنه من المحدثين المدققين المشهود لهم بالنزاهة، فهو ابن دمشق، وينقل معظم أخباره عن شاميين معاصرين.

أورد أبو زرعة خمس روايات في كتابه عن تاريخ واقعة اليرموك وهي على التوالي: حدثني عبدالرحمن بن إبراهيم قال حدثنا الوليد بن مسلم قال: "واليرموك سنة خمس عشرة" وروى مثل ذلك عن يزيد بن عبيدة، وجاء اسناد الرواية الثالثة: "أخبرني أبو زرعة قال: أخبرني الحارث بن مسكين عن ابن وهب عن ابي لُهيعة أن اليرموك سنة خمس عشرة" وكررت نفس الرواية في مكان آخر من الكتاب[٥].

وهكذا نجد أمامنا قولين في تاريخ واقعة اليرموك، الأول يقول بوقوعها سنة (١٣هـ/٦٣٤م) ويتزعمه سيف بن عمر التميمي، والثاني يقول بوقوعها سنة (١٥هـ/٦٣٦م)، ويتزعمه محمد بن اسحاق.

---

(١) الأسد، أجنادين، ص٣٠٤.

(٢) تاريخ ابن خياط ١/١٠٠.

(٣) الدوري، نشأة ص٤٠-٤١.

(٤) **تاريخ ابي زرعة الدمشقي** للحافظ عبد الرحمن بن عمرو بن عبدالله بن صفوان النصري المتوفى سنة ٢٨١هـ/٨٩٤م تحقيق شكرالله بن نعمة الله الفوجاني، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، سيشار إليه عند وروده، أبي زرعة، تاريخ..

(٥) أبي زرعة، تاريخ، الصفحات ١٧٦، ٢١٧، ٦٨٨.

وحتى نرجح تاريخ على آخر، علينا أن نضع مجموعة محددات، منها تواتر الخبر، وثانيها سلامة الروايات وثالثها ترتيب الحوادث المتتابعة.

فالتواتر يرجح تاريخ (١٥هـ/٦٣٦م)، حيث ذهب ابن اسحاق في الطبري وابن الكلبي عند ابن خياط والواقدي في فتوحه وعند الطبري في تاريخه، والازدي في فتوحه. وابن لهيعة في تاريخ ابي زرعة ويزيد بن عبيدة عند ابي زرعة ايضاً، وكذلك البلاذري في فتوحه في رواية جمعية.

اما بالنسبة إلى مصداقية الرواة وسلامة السند نجده في قائمة من حددوا تاريخ الواقعة (بـ ١٥هـ/٦٣٦م) هم أجدر بالثقة، لأن معظمهم من أبناء المنطقة، بالإضافة إلى ان الخبر عندهم جاء من موارد متعددة ومتنوعة.

يبقى أن نشير إلى مكان اللبس الذي جعل سيف والمدائني يخرج عن شبه الإجماع. فقد اعتمد سيف على الرواية التي تقول بورود البريد بوفاة أبي بكر وهم باليرموك في اليوم الذي هزمت الروم في آخره.[١] والمعروف المشهور أن أبا بكر توفي سنة ١٣هـ.

وفي رواية أخرى لسيف عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني[٢] عن عبادة وخالد قالا: "لما هزم الله جند اليرموك، وتهافت أهل الياقوصة، وفرغ من المقاسم والانفال.. سار إلى الصفر يتبع الفالّة ، فأتاه الخبر أنهم ارزوا (قصدوا) فحل، وأن المدد من الروم أتى إلى أهل دمشق، فهو لا يدري أبدمشق يبدأ أم بفحل[٣] فكتب إلى عمر بن الخطاب بذلك، وجاءه الجواب أن يبدأ بدمشق "[٤]، وفي رواية أخرى أن المسلمين قاتلوا الروم بالواقوصة بعد انتصارهم في أجنادين وجاء خبر وفاة أبي بكر وهم بالواقوصة.[٥]

وإذا أهملنا التفاصيل الصغيرة كالإختلاف بأيام الشهر الذي حصلت فيه الواقعة، نجد ابن اسحاق والواقدي وابن سعد والازدي وخليفة بن خياط والبلاذري وأبو زرعة

(١) الطبري، تاريخ، ٣/٤٤٢ سبق ذكر هذه الرواية بسندها.

(٢) المصدر نفسه،٣/ ٤٤٤ .

(٣) المصدر نفسه، ٣/٤٣٦.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه ٣/٤١٨، ٣١٩، ٤٣٤.

الدمشقي وابن أعثم الكوفي قد اتفقوا على أن ترتيب الوقائع جاء على التوالي، بصرى ثم أجنادين ثم فحل ثم دمشق ثم اليرموك[١]

أما رواية المدائني السابقة التي اتفقت مع رواية سيف فعمادها أبو معشر نجيح السندي يورد الخبر مقطوعاً، كما ان بعض كتب التراجم قالت بانه أمي لا يحفظ ولا يعلم الاسانيد[٢]، كما هناك رواية تقول بأن البريد بوفاة أبي بكر جاءهم وهم على حصار دمشق.

ونختم اجتهادنا بالقول أن وهماً أو سهواً واختلاطاً حصل بين الرواة ما بين تاريخ وقعة أجنادين واليرموك كما قال الطبري[٣]ولإزالة هذا الخلط لابد من إعادة ترتيب الأحداث الواقعة منذ قدوم خالد من العراق إلى الشام، وعند أول وصوله عَسْكر بالغوطة يحاذي دمشق ثم نتيجة تجمع الروم بأجنادين، غادر الغوطة إلى أجنادين، وبعد الانتصار في أجنادين تابعوا فلول قوات الروم إلى فحل وكل ذلك كان عام (١٣هـ/٦٣٤م)[٤].

بعد فحل حاصرت القوات الإسلامية دمشق (سنة ١٤هـ/٦٣٥م) وبعد فتحها انطلق المسلمون إلى حمص وفتحوها[٥].

عند ذلك شعر الروم بخطورة الوضع، وأمر هرقل بجمع الجيوش من جميع أنحاء الإمبراطورية البيزنطية، ولما علم المسلمون بضخامة الحشد الرومي، قرر قادتهم التخلي عن حمص ودمشق والتراجع إلى مكان ملائم في اليرموك، حيث حصلت معركة اليرموك (سنة ١٥هـ/٦٣٦م)، وعادوا إلى دمشق ودخلوها على نفس شروط الصلح السابقة. وهكذا يكون المسلمون فاتحين مرتين لدمشق (سنة ١٤ هـ/٦٣٥م) وبعد اليرموك (سنة ١٥ هـ/٦٣٦م). وبذلك يكون ترتيب الوقائع على النحو التالي: بصرى- غوطة دمشق- أجنادين- فحل- دمشق- حمص- اليرموك- دمشق[٦].

---

(١) انظر صالح درادكه، المرجع السابق، ص٢٠٧.

(٢) أحمد كمال، الطريق ص٢٩٨ .

(٣) أنجز الباحث بحثاً حول فتح دمشق- دراسة في الروايات، وانتهى إلى أن فتح دمشق حصل (سنة ١٤هـ/٦٣٥م) مع اختلاف بين الرواة في الأيام والشهور.

(٤) الطبري، تاريخ ٣/٤٤٢.

(٥) قام الأسد ببحثه المشار إليه في هذا البحث (أجنادين) بدراسة الروايات المتعلقة بتاريخ وقعة أجنادين وانتهى إلى تقرير حدوثها (سنة ١٣هـ/٦٣٤م).

(٦) صالح درادكة، المرجع السابق. Donner. Op. cit. p. 29 -128

مكان معركة اليرموك:

كما اختلفت الروايات في تحديد تاريخ واقعة اليرموك اختلفت في مكان حدوثها، وانعكس هذا الاختلاف عند بعض الباحثين المحدثين الذين أفردوا بحوثاً لهذا الموضوع[١].

لقد وردت أوصاف المكان الذي اختاره المسلمون ميداناً لهذه المعركة في مصادرنا، فالواقدي أورد المشاورة التي حصلت بين قادة فتوح الشام بالجابية حول المكان الأفضل لملاقاة الحشد الرومي (البيزنطي) وقال بأن رأي خالد بن الوليد كان الرحيل من الجابية إلى "مكان كأنكم مستقبلون عدوكم، وتجعلوا أذرعات خلف ظهوركم حتى تنزلوا اليرموك، ويكون المدد من أمير المؤمنين متلاحقاً بكم، وأنتم في قتال عدوكم على فسح لجولان الخيل"[٢]، فقام ابو سفيان صخر بن حرب وقال : "أيها الأمير إفعل رأي خالد وأنفذه إلى ماء الرقاد.."[٣].

ويتابع الواقدي الرواية، "بأن أبا عبيدة، نزل باليرموك وترك أذرعات من خلفه وكان هناك تل عظيم كأنه جبل، فعمد أبو عبيدة إلى نساء المسلمين وأولادهم فأصعدهم على ذلك التل ثم أقام الحرس.."[٤].

"وأما الروم لم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى اليرموك، فنزلوا بدير يقال له دير الحسك وهو بالقرب من أرض السواد والجولان وجعلوا بينهم وبين المسلمين ثلاثة فراسخ، وكان جيشهم قد مسك ستة فراسخ طولاً وعرضاً.."[٥].

أما الأزدي فقد وصف قتال المسلمين في روايات تصف ركوب الروم بعضهم بعضاً حتى انتهوا إلى مكان مشرف على أهوية تحتهم فأخذوا يتساقطون فيها وهم لا يبصرون[٦].

---

(١) من البحوث الحديثة، انظر يوسف غوانمة، **معركة اليرموك**، دار هشام للنشر والتوزيع، اربد- الأردن،١٩٨٥. وفواز طوقان، الواقوصة، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام (**بلاد الشلام في صدر الإسلام**) المجلد الثاني، تحرير محمد عدنان البخيت وإحسان عبداس عمان ١٩٨٧، صفحات ٣٢٣-٣٣١.

(٢) فتوح الشام، ص٢٥٠

(٣) نفسه.

(٤) الواقدي، فتوح ص٢٥١،

(٥) الأزدي ، فتوح ، ص٢٥٢.

(٦) فتوح الشام ٣٣٩.

وفي رواية سابقة للأزدي ذكر نزول الروم دير الجبل[١]. وفي مكان آخر يورد الأزدي رأي أبي ميسرة بن مسروق أحد قادة اليرموك في المكان الأفضل لمعسكر المسلمين، ويرى "الإقامة في بلاد تشبه بلادنا، وجمع القواصي والكتابة إلى إمير المؤمنين"[٢].

أورد الطبري رواية عن سيف عن شيوخه، يصف ساحة المعركة، فيقول: "...فكان مقاتلهم واسع المطّرد، ضيق المهرب.. وخرجت خيلهم (الروم) تشتد بهم في الصحراء. فيعمدوا إلى الواقوصة، حتى هوى فيها المقترنون وغيرهم[٣]، ويعرف البلاذري الواقوصة بأنه واد فمه الفوارة"[٤].

"وذكر الوليد عن صفوان عن عبدالرحمن بن جبير أن الروم نزلوا فيما بين دير أيوب واليرموك ونزل المسلمون من وراء النهر من الجانب الآخر وأذرعات خلفهم ليصل إليهم المدد من المدينة"[٥].

ويمكننا الآن إعادة التأكيد على أهم عناصر المكان الذي اختاره قادة المسلمين واسع العطن، واسع المطرد، ضيق المهرب يفصل الجيشين واد سحيق أو هوة (الواقوصة) وتكون أذرعات خلف ظهور المسلمين وكذلك برية آمنة يصلهم عن طريقها البُرد والمدد وكذلك تلة عالية كالجبل خلف المسملين تتحصن عليها النساء والغلمان.

قام الدكتور فواز طوقان بدراسة لتحديد مكان المعركة، وبعد أن جمع مواصفات المكان من المصادر التاريخية والجغرافية استقر اجتهاده على أن تلة عقربا[٦] هو المكان لهذه المعركة لاشتماله على أغلب المواصفات، وبوجود قبور إسلامية في أسفل سفوح عقربا المنحدرة إلى وادي اليرموك[٧].

---

(١) نفسه ص٨٢٧.

(٢) نفسه ص٢٥٠.

(٣) تاريخ ص٤٠٠

(٤) فواز طوقان، المرجع السابق، ص٣٢٦، (لم أعثر على التعريف في النسخة المستخدمة في البحث).

(٥) الحافظ بن كثيرالدمشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) **البداية والنهاية**،ط١، مكتبة المعارف - مكتب النصر، بيروت - الرياض، (١٩٦٦م)،٧/٧.

(٦) فواز طوقان، المرجع السابق، ص٣٢٩

(٧) **الواقوصة**، بحث نُشر في المجلد الثاني «بلاد الشام في صدر الإسلام، الندوة الثانية من أعمال المؤتمر الدولي الرابع

أما الباحث الآخر الذي أنجز دراسة في نفس الموضوع لتحديد مكان واقعة اليرموك وخلص من دراسته، إلى أن المكان الذي تنطبق عليه مواصفات المصادر هو بلدة سحم الجولان في الجولان السوري وهذه المناطق تعتبر من مسارح عمليات اليرموك كما رأيتها (١).

وأنا بدوري قمت بجولات ميدانية في المكان أستطلع مواصفاته، وابحث عن المكان الذي يحقق أهداف قادة المسلمين وتنطبق عليه المواصفات التي ذكرتها المصادر، أي مكان واسع المطرد فسيح فيه تلة تكون فيه هوة واقوصة (واد في فمه فوارة)، ويتصل ببرية أمنة نحو الحجاز تكون اذرعات (درعا الحالية) خلفه.

وبعد الاستطلاع الدقيق استبعدت بلدة عقربا وسهلها لأن هذه المنطقة ضيقة وعرة المسالك، محاطة بمنحدرات من جهاتها الأربع، لا تصلح لجولان الخيل وليس فيها هوة (واقوصة) ولا فواره ، وهي واقعة غرب درعا ولا تكون درعا خلف الجيش، ولا يمكن للجيش البيزنطي الوصول إليها من جهة قدومه من الشمال، وإلى حد ما تتطابق المواصفات في المكان الذي قدره الغوانمه مع ما ورد في المصادر .

وأثناء بحثي وتجوالي في المنطقة وجدت مواصفات أرض المعركة تتوافر في منطقة تمتد على شكل قوس يبدأ بعد حوالي ستة كيلو مترات شمال بلدة المزيريب السورية، باتجاه الجنوب نحو مدينة الرمثا الأردنية وما حولها.

وهذه منطقة سهلية فسيحة فيها واد (شق في الأرض عميق تفور منه المياه) لا يرى من بُعد يقع إلى الشمال من بلدة المزيريب ويطلق عليها الواقوصة الحالية، كما أن الفوارة موجودة على امتداد الشق في بلدة المزيريب ويسمونها البجة، لأنها تبج الماء من باطنها على شكل فوارة، ونظراً لهذه الميزات لمنطقة المزيريب، أصبحت من أشهر منازل الحج الشامي على الطريق بين دمشق والحجاز عبر العصور الإسلامية.[1]

وخلف المكان تلة كالجبل مشرفة على هذا السهل، ويتصل هذا السهل بالبرية بحيث لا يحجز وادي اليرموك بين المسلمين وبين بريدهم ومددهم القادم من الحجاز، وفي نفس

لتاريخ بلاد الشام، تحرير، محمد عدنان البخيت واحسان عباس، عمان ١٩٨٧، الصفحات ٣٢٣-٣٣١.

(١) انظر صالح درادكة، **طرق الحج الشامي في العصور الإسلامية**، مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي، ط٢، ٢٠٠٧م، وانظر مادة (الحج) عند ابن منظور في **لسان العرب** م٢/ ٢١٠ .

الوقت يكون هذا الوادي على يسارهم، واذرعات خلف ظهورهم.

ولما شاهدت هذه المنطقة أكبرت المؤرخين القدامى الذين وصفوا لنا المكان وكان وصفهم في منتهى الدقة والمصداقية، ولعل الخارطة المرفقة تعين على التعرف على خصائص المكان.

هذا هو اجتهادنا، ومبلغ علمنا، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

خارطة تبين المواقع التي وردت في البحث
(طبعت في المركز الجغرافي الملكي الأردني)



فتح دمشق

دراسـة في الروايـات

يعاني الباحث في تاريخ الفترة الإسلامية المبكرة من صعوبة في فهم الروايات المسندة، لاعتقاده بأن هذه الروايات إنما وصلت إلينا شفاهاً من راوٍ إلى آخر. وهذه الحالة تثير الشك في مدى دقة المعلومة المنقولة بمثل هذه الطريقة، لاحتمالات السهو والنسيان عند الراوي، أو ربما لأغراض في تركيب الرواية وتوظيفها.

إن هذا الانطباع جعل الدارس لمثل هذه الروايات يذهب بعيداً في تفسير اختلافاتها، ولربما يصل به الأمر إلى الطعن بصحة تاريخنا.

"فإذا أراد الباحث تقدير المواد المتعلقة بالقرنين الأول والثاني للهجرة في المصادر التي وصلتنا اعتماداً على الإسناد، فعليه أن يتحرر من الآراء القائلة بأن هذه الأخبار ظلت تتداول شفاهاً على مدى مائة وخمسين عاماً"[١]. وبالرغم من صعوبة البحث في الروايات (علم الرواية) فلابد من معاودة النظر في الرواية التاريخية، وتحليل عناصرها وبيان مصادرها وطرق انتقالها إذا أردنا إعادة كتابة تاريخ أمتنا[٢].

و عند التدقيق في الروايات المعتمدة على سلاسل السند، نجد أن هذه الروايات تعتمد في الأعم الأغلب على مصادر مكتوبة.

فعلى سبيل المثال نورد الرواية التالية من تاريخ أبي جعفر بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م):

---

(١) فؤاد سيزكين، **تاريخ التراث العربي**، المجلد الأول، الجزء الثاني، نقله إلى العربية: د. محمود فهمي حجازي، وراجعه د. عرفة مصطفى ود. سعيد عبد الرحيم ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م المملكة العربية السعودية، ص٨، نقلا عن مقدمة بلاشير لترجمة القرآن Balachere, Lecoran, Paris 1947, P 1- 2

(٢) لابد من التنويه هنا بالدراسة المميزة والجادة التي قام بها الباحث أحمد عادل كمال في دراسة روايات الفتوح، وكذلك الدراسة القيمة التي قام بها أستاذنا الكبير ناصر الدين الأسد لاجنادين المشار إليها في ثنايا هذه الدراسة. وكذلك محاولة أمينة البيطار في تحديد تاريخ فتح دمشق. واشير هنا ايضا الى دراسة قديمة انجزها الدكتور جورج حداد سنة ١٩٣١. ولكل من هذه الدراسات ميزتها ،بعضها في الجانب المعرفي وبعضها في الجانب المنهجي وقد افدت منها جميعا .

"حدثنا ابن حميد، قال حدثنا سلمة، قال: حدثني محمد بن اسحق، قال: حدثني الزهري ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير"[١].

ففي هذه الرواية نجد أن الطبري تلقى حق رواية كتاب المغازي لابن اسحق عن طريق ابن حميد و سلمة، وابن اسحق تلقى نص رواية كتاب المغازي لعروة بن الزير عن طريق الزهري ويزيد بن رومان، أي أن ابن اسحق استخدم لهذا النص كتابي المغازي ليزيد ابن رومان والزهري اللذين اعتمدا بدورهما على كتاب المغازي لعروة[٢].

ويحدث أحياناً أن نجد أكثر من سند لرواية واحدة كما يفعل الطبري، فنجد أن أكثر من سلسلة سند لخبر واحد، كأن يورد سلسلة تعتمد على ابن اسحق وأخرى تعتمد على الواقدي وأخرى تعتمد على سيف بن عمر وهكذا، اجتهاداً منه لوضع كامل ما توصل إليه حول الخبر الواحد، وهو في الوقت نفسه يشير – دون ذكر – إلى عدد المصادر المكتوبة التي رجع إليها.

ومن الطبيعي أن نجد في روايات تاريخنا المبكر اختلافات في معلوماتها وتواريخ حدوثها، لأن الطبائع البشرية وما حباها الله من قدرات وخصائص، تتفاوت في الحفظ والفهم، وهي حال مستمرة عند بني البشر، ففي رواية التاريخ المعاصر يقع الاختلاف والتعارض، رغم تقدم وسائل المعرفة والاتصال والحفظ.

ومما يزيد صعوبة البحث في روايات التاريخ الإسلامي – ومنها روايات الفتوح– انعدام مصادر أخرى غير عربية معاصرة تسند الرواية الإسلامية. فثيوفانس Theophans (ت نحو ٢٠٤هـ / ٨١٩م) الذي أرخ للدولة البيزنطية لا يقدم معلومات تفصيلية لحركة الفتح الإسلامي، رغم قربه منها، كذلك لا نجد ما يشفي الغلة عند معاصره الآخر، نقفور (فيستورس) (ت نحو ٢١٤هـ/٨٢٩م) ومثلهما ميخائيل السرياني الذي عمل بطريقاً لإنطاكية من ١١٦٦–١١٩٩م ويعرف كتابه بتاريخ ميخائيل، وأفتيشيوس المكني بسعيد بن البطريق في كتابه التاريخ المجموع. وكذلك يحيى الأنطاكي في تاريخه، مروراً بالمؤرخين المحدثين من المستشرقين من أمثال كايتاني وجولدتسيهر اللذين لفتا النظر إلى ضآلة الفائدة في

(١) **تاريخ الطبري**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢م، ٢/٤١٠، ٤٢٧، ٤٣١، ٤٣٦، ٤٥٦، ٥٦٥ .سيشار إليه عند وروده،تاريخ الطبري.

(٢) فؤاد سيزكين، المرجع السابق، ص٨–٩.

أخبار المؤرخين الأجانب، وعدم دقتها، وتعارضها مع المصادر العربية[١].

لذلك علينا الاعتماد في مثل هذه الحال على المصادر العربية، وذلك بالوصول إليها وجمع رواياتها وفهمها ونقدها وفق المناهج العلمية المعاصرة للوصول إلى الحقيقة.

وقد اخترت لهذه الغاية الروايات المتعلقة بفتح مدينة دمشق، كمحاولة أولية لدراسة الرواية العربية وعلم الإسناد.

نبدأ بإيراد روايات محمد بن اسحق (ت ١٥١هـ/٧٦٨م) عن فتح مدينة دمشق. وصلت روايات ابن اسحق إلينا عن طريق خليفة بن خياط (ت٢٤٠هـ/٨٥٤م) في تاريخه، وعن طريق محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ/٩٢٢م) في تاريخه، وعن طريق الواقدي (٢٠٧هـ/٨٢٢م) في كتابه فتوح الشام ومصادر أخرى، ثم عند ابن عساكر، مؤرخ دمشق المعروف (ت٥٧١هـ/١١٧٥م).

ولابد من إيراد نبذة عن محمد بن اسحق، فقد بدأت به الكتابة التاريخية، وعن طريقه وصلت إلينا أقدم سيرة نبوية محفوظة بالكامل، وهو عمدة مدرسة المدينة التاريخية، ومصادر معلوماته كثيرة ومتنوعة. ووصل عدد شيوخه إلى مائة وأربعة عشر شيخاً (١١٤). وشيوخه في أخبار فتوح الشام كثر منهم: محمد بن شهاب الزهري (ت١٢٤هـ/٧٤١م) وصالح بن كيسان (ت بعد ١٤٠هـ/٧٥٧م) ومحمد بن عمر بن عطاء، وعبد الله بن أبي بكر الأنصاري (ت١٣٥هـ/ ٧٥٢م) والعلاء بن عبد الرحمن، وغيرهم[٢].

وقد شهدت له كتب التراجم بسعة العلم وبالصدق، وبعضهم اتهمه بالقدر والتشيع،

---

(١) ليون كايتاني (Caetani, Leone) مستشرق ايطالي، اصدر مجموعة كتب، أهمها:
حوليات الإسلام (Annali dell' Islam, 10 Vols, Milan; U. Hoepli), 1905 – 1926.
أما (اجنتس جولد تسيهر Ignaz Goldziher) فهو مستشرق مجري الأصل يهودي الدين، اهتم بالدراسات الدينية و العقائدية الإسلامية، ت١٩٢١م، له عشرات الكتب و التعاليق منها: العقيدة والشريعة في الإسلام، ومذاهب المسلمين في تفسير القرآن، وترجم الأول إلى العربية، دار الكاتب المصري القاهرة ١٩٤٦م.
وحول الإستشراق انظر الدراسة القيمة للمرحوم ادوارد سعيد (الإستشراق) ترجمة: كمال أبو ذيب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط٤، ١٩٩٥م.
وانظر. Fred McGraw Donner, The Early Islamic Conquest, Princeton, 1981

(٢) انظر جدول رواة فتوح الشام عند ابن اسحق في كتاب الطريق إلى دمشق لأحمد عادل كمال، دار النفائس، ص٦٤.

يقول عنه احمد عرموش: "والمحدثون لا يتهمون ابن اسحق بالكذب وإنما يتهمونه بالتدليس والإرسال، وذلك بأنه يسقط من بعض الأخبار رجالاً متهمين بالكذب والوضع"[١]. فقد اتهمه الإمام مالك بن أنس وهشام بن عروة بن الزبير بالكذب والدجل والنقل من غير الثقات ومجالسة النساء ووضع الشعر...."[٢]. وبالمقابل فإن الذين أثنوا عليه ومدحوه من العلماء الأجلاء كثر، أكثر من الذين غمزوا قناته وألانوا جانبه، وفي طليعة هؤلاء (ابن شهاب الزهري)[٣]، الذي قال فيه: "قال أبو زرعة: قال لي ابن أبي عمر، قال سفيان" وبلغني أن محمد ابن اسحق أتى الزهري - و لم أكن حاضراً - فلما ذهب من عنده قال الزهري: لا يزال بالمدينة علم ما بقي هذا[٤].

وممن وثقه وأشاد به، شعبة بن الحجاج (ت١٦٠هـ/٧٧٦م) وسفيان الثوري (ت ١٦١هـ/٧٧٧م) وهو احد الأئمة المجتهدين ،والحفاظ المبرزين وقيل فيه: أمير المؤمنين في الحديث. وزياد ألبكائي (ت ١٨٣هـ/٧٩٩م) راوي المغازي عن ابن إسحاق، والخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م) صاحب كتاب تاريخ بغداد المشهور، وابن سيد الناس (ت٧٣٤ هـ/١٣٣٣م) في سيرته المعروفة باسمه (عيون الأثر في فنون المغازي والسير).

و لم يتردد الثقات في الأخذ عنه، فقد أخرج له الإمام مسلم في المبايعات واستشهد به الإمام البخاري، وروى له أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه[٥]. وترجم له الخطيب البغدادي ترجمة وافية، وقال فيه: "قال الشيخ أبو بكر لم أر في جملة المحمدين الذين كانوا

(١) مقدمة كتاب الفتنة ووقعة الجمل، دار النفائس - بيروت، ص٧.

(٢) انظر الفهرست للنديم، ص٢٠٠.

(٣) أبو بكر محمد بن مسلم بن عبد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري القرشي (٥٠-١٢٤هـ) صاحب كتاب (المغازي) انظر تصنيف أبي القاسم علي بن الحسن (ابن عساكر) للزهري في تاريخ مدينة دمشق بعناية شكر الله بن نعمة الله القوجاني، مؤسسة الرسالة ١٩٨٢ .سيشار إليه عند وروده،ابن عساكر الزهري.

(٤) **تاريخ أبي زرعة** الدمشقي، للحافظ عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري المتوفى سنة ٢٨١هـ، ج١، تحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني، د.ت ص٥٣٧ رقم (١٤٥٢)،سيشار إليه عند وروده ،تاريخ أبي زرعة، ومما يجدر ذكره أن أبا زرعة يعتمد كثيراً في أخباره على ابن شهاب الزهري، وعنه أخذ ابن عساكر في تاريخ دمشق، حول الزهري، انظر: عبد العزيز الدوري، **نشأة علم التاريخ عند العرب**، مركز زايد للتراث والتاريخ ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص١٦٣-١٧٤. سيشار إليه عند وروده، الدوري، نشأة علم التاريخ.

(٥) انظر عنه مقدمة السيرة النبوية لابن هشام، للمحققين: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي. وانظر أحمد عادل كمال، الطريق، ص٦٣.

في مدينة السلام من أهلها الواردين إليها أكبر سناً أو أعلى إسناداً أو أقدم موتاً منه، ولهذه الأسباب المجتمعة فيه، افتتحت كتابي بتسميته وأتبعته من لحق به من أهل ترجمته"[١].

حفظ لنا خليفة بن خياط (شباب العصفري) (ت٢٤٠هـ/٨٥٤م) رواية ابن اسحق عن فتح دمشق، وتاريخ خليفة بن خياط هو أقدم تاريخ حولي مرتب على السنين، وصل إلينا بعد ضياع الحوليات التي كتبت قبله، روى عن جمع غفير من العلماء، وثقه ابن حبان وقال عنه: "كان متقناً عالماً بأيام الناس وأنسابهم"[٢].

ونظراً لأن ابن خياط من المحدثين فلا عجب أن يهتم بالإسناد حتى في رواياته التاريخية، فقد نقل عن ابن اسحق فيما نقل روايات تتعلق بالردة والفتوحات الإسلامية زمن الخلفاء الراشدين، ولعل هذه النقول مأخوذة من كتاب ابن اسحق (تاريخ الخلفاء)[٣].

أما نص الرواية التي وصلتنا عن فتح دمشق عن طريق خليفة بن خياط، فتقول: "حدثني بكر بن سليمان عن ابن اسحق قال: "صالحهم أبو عبيدة في رجب (الرواية في أحداث سنة ١٣هـ)[٤].

ونص رواية ابن اسحق عند الطبري: "فحدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة عن ابن اسحق قال: لما فرغ المسلمون من أجنادين ساروا إلى فحل، من أرض الأردن، وقد اجتمعت فيها رافضة الروم، والمسلمون على أمرائهم، وخالد على مقدمة الناس... فكانت فحل في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة، على ستة أشهر من خلافة عمر... ثم ساروا إلى دمشق، وقد اجتمعت الروم إلى رجل منهم يقال له باهان بدمشق، وقد كان عمر عزل خالد بن الوليد واستعمل أبا عبيدة على جميع الناس، فالتقى المسلمون والروم فيما حول دمشق،

---

(١) تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٠م، ١/ ٥٣٠ رقم (٥١) (فصل في الحديث عن ابن اسحق وذكر ما له وما عليه، ويستخلص أنه أمام في السير والمغازي والفتوح).

(٢) انظر مقدمة المحقق لكتاب تاريخ ابن خياط، أكرم ضياء العمري، ط١، النجف الأشرف ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م. انظر طه الهاشمي، مشاهير علماء الأمصار، ص١٧٥. وثق ابن اسحق أيضاً ابن خلكان في كتابه (وفيات الأعيان) وابن الأثير في (اللباب) وأعادوا أوصاف ابن حبان وعبارته وتوسعوا فيها)).سيشار إليه عند وروده،تاريخ ابن خياط.

(٣) النديم، كتاب الفهرست، طبعة، فلوجل، ص١٤٢.

(٤) تاريخ ابن خياط، المرجع السابق، ١/ ٩٤.

فاقتتلوا اقتتالاً شديداً، ثم هزم الله الروم وأصاب منهم المسلمون، ودخلت الروم دمشق، فغلقوا أبوابها، وجثم المسلمون عليها فرابطوها حتى فتحت دمشق وأعطوا الجزية، وقد قدم الكتاب على أبي عبيدة بإمارته وعزل خالد، فاستحيا أبو عبيدة أن يقرئ خالداً الكتاب حتى فتحت دمشق، وجرى الصلح على يدي خالد وكتب الكتاب باسمه... وكان فتح دمشق في سنة أربع عشرة (١٤هـ) في رجب"[١].

وقد جمع خليفة بن خياط أسانيد بكر بن سليمان ووهب بن جرير (ت٢٠٦هـ/ ٨٢١م) في عدة أماكن، وفي رواياته لأخبار فتح دمشق ينقل عن ابن اسحق عن طريق بكر ابن سليمان، دون أن يصل بسند الرواية إلى الراوي الأول ولعله عروة بن الزبير[٢].

جاءت صيغة التحمل في رواية ابن خياط: "وحدثني بكر عن ابن اسحق[٣] وهذه صيغة سماع (سمعت عن، أو حدثني) أي أن خليفة سمع كتاب ابن اسحق (تاريخ الخلفاء) عن طريق بكر بن سليمان تلميذ ابن اسحق الذي أجاز له رواية كتابه، مثلما سمع ابن اسحق كتاب عروة بن الزبير عن طريق أحد تلاميذه، إما محمد بن جعفر بن الزبير، أو عن طريق ابن شهاب الزهري الذي يروي عن ابن كعب، أو عن طريق صالح بن كيسان الذي، يروي عن عبد الله بن أبي أوفى وهكذاً[٤].

وابن حميد (راوية الطبري) هو محمد بن حميد بن حيان الرازي (ت ٢٤٨هـ/٨٦٢م) عن مسلمة بن الفضل، روي عن أبي زرعة (إمام أهل دمشق في الحديث) قوله: "من فاته ابن حميد يحتاج أن ينزل في عشرة آلاف حديث، ومن فاته هشام ابن عمار، يحتاج أن ينزل في عشرة آلاف حديث"[٥].

وقد أثنى عليه عدد من الثقات، فقال أحدهم: "ما لي لا أحدث عنه وقد حدث عنه أحمد

---

(١) تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢م٣/٤٣٤-٤٣٥.
(٢) انظر جدول الرواية، عند أحمد عادل كمال، الطريق إلى دمشق، ص(مقابل) ٦٥.
(٣) تاريخ خليفة، ١/٩٥.
(٤) انظر أحمد عادل كمال، جدول رواة فتوح الشام عند ابن اسحق، المرجع السابق.
(٥) تاريخ بغداد ٢/٢٥٥ رقم (٧٣٣).

ابن حنبل ويحيى بن معين"[١]. و سلمة بن الأبرش الذي يروي عنه ابن حميد، هو ابن الفضل، يكنى (أبو عبد الله) وهو صاحب محمد بن اسحق، وروى عنه المغازي والمبتدأ وتوفي في الري، وقد أتى عليه ماية وعشر سنين، وكان مؤدباً، وقيل أنه أخشع الناس في صلاته"[٢].

و تبدو صورة التحمل واحدة بين رواة ابن خياط والطبري، وهي صيغة "حدثني" التي تعني إجازة ابن اسحق لسلمة برواية كتابه. هذا ما ذكره ابن اسحق عن فتح دمشق، ورواته من الثقات، ومع أن ابن اسحق لم يذكر شيوخه الذين روى عنهم الفتح، فهم معروفون ومشهورون بالصدق[٣].

وبعد ابن اسحق ننتقل إلى الواقدي أحد الذين كتبوا فتوح الشام، ورووا خبر فتح دمشق، والواقدي هو أبو عمر محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م) وقد اشتملت حياته على ثلثي القرن الثاني الهجري (١٣٠-٢٠٧هـ) شهد له الكثيرون بسعة العلم ودقة الخبر، وأحياناً نجد تغاضياً من بعض المؤرخين الكبار عن ذكر اسمه في إسناد رواياتهم، علماً بأن أثره واضح في هذه الروايات. و لعل السبب يعود إلى ما اتهم به من موالاة للبرامكة، وما قيل عن تشيعه، و موقف رجال الحديث منه، وأسباب أخرى أتيت على ذكرها في مقدمة كتاب، فتوح الشام المنسوب للواقدي، ولذلك نجد الطبري يستخدم عبارة (وزعم الواقدي) عندما يصرح بروايته.

يذهب الواقدي في تمحيص أخباره إلى التنقل والترحال، وسؤال من شهد أو سمع أو شارك، متفحصاً المكان ومستقصياً الزمان، ويحرص أن يكون رواته من الثقات، ويقسم مؤكداً للقارئ صدق روايته[٤]. ونظراً لإدراك الباحث أهمية كتاب فتوح الشام للواقدي، فقد أعاد دراسته وتحقيقه[٥].

يعتمد الواقدي على تسلسل الإسناد، ويكتفي في أحيان أخرى بالإسناد الجماعي (قالوا)، وهذه الصيغة تفيد توافق الرواة على الخبر. هذه الصفات عند الواقدي جعلت المؤرخين الكبار

(١) تاريخ بغداد، المرجع نفسه، ٢/٢٥٦.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٧/٣٨١.

(٣) انظر أحمد عادل كمال، المرجع السابق، ص٦٤.

(٤) يكرر عبارات القسم بصدق أقواله في ثنايا كتاب «فتوح الشام».

(٥) انظر مقدمة كتاب فتوح الشام،دار حماده، اربد/٢٠٠٧م.

الذين جاءوا من بعده يرجعون إليه في القضايا الخلافية. فالبلاذري صاحب فتوح البلدان نجده في معرض ترجيح الروايات يقول: "رواية الواقدي اثبت"(١).

ذهب بعض المحدثين(٢) إلى نفي نسبة كتاب فتوح الشام المتداول للواقدي، بحجة الأسلوب القصصي والملحمي المتبع في أخباره، غير أن هذا الاتجاه في المزج بين أخبار الفتوح والأنساب والقصص والسمر كان اتجاهاً قديماً عند المؤرخين ورواة الأخبار والأنساب. فقد رأينا أن ثابتا البناني المتوفى (١٢٧هـ/٧٤٤م) كان "يقص" وأن ميله إلى ذكر القصص كاد يشكك بعض علماء الحديث النبوي في صدقه، وأن الحسن البصري - على جلال قدره - كان "يقص" حتى مر به علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (زين العابدين) فنهاه عن سرد القصص في الحج، لأن قصصه "تشغل الناس عن طواف البيت"(٣). وكانت أمه كذلك "تقص للنساء"... وهشام بن محمد الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م، كان من أعلم الناس بأخبار العرب وأنسابهم وأشعارهم، وشديد الضبط والتدقيق لها فيما يروي، وكان يرجع إلى مدونات ونقوش لم يرجع إليها غيره، ورّجحت صحتها الكشوف والدراسات الحديثة، ومع ذلك ضعفه كثير من رواة الأخبار والأنساب وكذبوه وهو الذي قال عنه ياقوت: "لله در ابن الكلبي، ما تنازع العلماء في شيء من أمور العرب، إلا وكان قوله أقوى حجة وهو مع ذلك مظلوم، وبالقوارض مكلوم"(٤) وما ذلك إلا لأنه مزج بعض أخباره بالأقاصيص والأساطير، حتى قيل فيه: "من يحدث عن هشام إنما هو صاحب سمر ونسب ما ظننت أحداً يحدث عنه"(٥).

---

(١) أبو الحسن البلاذري (٢٧٩هـ/٨٩٢م)، **فتوح البلدان**، عني بمراجعته والتعليق عليه: رضوان محمد رضوان، المكتبة التجارية بمصر، م. السعادة ١٩٥٩، ص١٢٥. سيشار اليه عند وروده، البلاذري، فتوح.

(٢) من امثال: بروكلمان، **تاريخ الادب العربي**، ج٣، نقله الى العربية، عبد الحليم النجار، ط٥، دار المعارف بمصر، ص١٧. وتابعه، شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، ط٢ ١٩٧٩م ١٦٤/١. وسعد زغلول عبد الحميد في دراسته لمخطوط (فتوح مدينة الفريقية من مخطوطات الوااقدي)، انظر J.Horovtz, Islamic Culture,1928, P.516.

(٣) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (٦٨١هـ/١٢٨٢م) **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق يوسف علي طويل ومريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ٥٧/٢. وانظر ناصر الدين الأسد، **وقعة أجنادين** (الندوة الثانية) المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، م٢ تحرير محمد عدنان البخيت وإحسان عباس، عمان ١٩٧٨م، ص٢٩٧.

(٤) ناصر الدين الأسد، المرجع السابق، ص٢٩٧-٢٩٨.

(٥) **كتاب الأصنام**، تحقيق أحمد زكي، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م، ص١٤.

وقد ذكر النديم في الفهرست له من الكتب ما جعل عنوانه: "كتبه في الأخبار والأسمار"[١].
أذكر هذه التفاصيل عن الواقدي لما رأيته فيه من الدقة والتفصيل في أحداث الفتوح وبخاصة فيما يتعلق بتحديد تواريخ الوقائع وأماكنها، وما صاحب ذلك من الاستطراد الحماسي في وصف الوقائع لا يغير من الحقائق التاريخية شيئاً، شانه في ذلك شأن غيره، ممن حكم عليه منافسه بالوضع والكذب، فالواقدي عالم مغازي وفتوح وليس محدثاً، وبين المدرستين تنافس وخلاف.

أما رواية الواقدي في فتح مدينة دمشق فسندها: "حدثني مسلمة بن عوف عن سالم بن عبد الله بن حجاج الأنصاري، قال: "قلت لجدي رفاعه بن عاصم، وكان ممن قاتل بدمشق، وكان في خيل أبي عبيدة، فقلت يا جداه: ما منع أبا عبيدة، أن ينصب له قبة من بعض قبب الروم مما أخذه من أجنادين وبصرى"[٢].... وذكر حصار أمراء الجيش لدمشق، (كل قائد على الباب الذي حدد له)، ويذكر مشاورات أهل دمشق بين داع إلى طلب الصلح وبين داع إلى مشاورة توما صهر الملك، (الرواية)[٣]. ونقل الواقدي رواية عن تميم بن عدي عن صلح أبي عبيدة لأهل دمشق، وذكر أنه "كتب لهم كتاب الصلح والأمان، ولم يسمّ فيه اسمه، ولا أثبت شهوداً، وذلك لأنه لم يكن أمير المؤمنين، فلما كتب لهم الكتاب تسلموه منه، وقالوا له: "قم معنا إلى البلد..."[٤].

وفي رواية أخرى ينقل الواقدي خبر دمشق عن عمر بن عيسى عن عبد الواحد بن عبد الله النصري عن واثله بن الأسقع"[٥].

جعل الواقدي عام ١٤هـ عام فتح مدينة دمشق، وفي روايته عن طريق الطبري (٣/٤٤١) نقل الواقدي عن ابن اسحق تاريخ فتح مدينة دمشق في رجب سنة ١٤هـ، بصيغة "وزعم الواقدي أن فتح دمشق كان سنة أربع عشرة كما قال ابن اسحق".

ونقل البلاذري رواية الواقدي (ص٣٣٥) قائلاً: "وكان فتح دمشق في رجب سنة

(١) النديم،الفهرست، ص٩٥-٩٨.

(٢) كتاب فتوح الشام، تقديم عمر أبو النصر، المكتبة الأهلية، ١٩٦٦م، ص١/٧١-٧٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه، ص٦٣-٧٥.

١٤هـ وتاريخ كتاب خالد في شهر ربيع الآخر سنة ١٥هـ. والرواية الأولى تصل إلى حجاج الأنصاري وهو المكنى (بأبي مطيع) بن يوسف بن أبي منيع عبيد الله بن أبي زياد الرصافي أبو محمد وقيل أبو منيع كنية يوسف، روى عن جده عن الزهري. والزهري من أعمدة رواة المغازي والفتوح، وهو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري، أحد كبار صغار التابعين، روى عنهم الحديث والحديثين مثل: أنس بن مالك الأنصاري (خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم) ولازم كلاً من: سعيد بن المسيب بن حزن (ت٩٤هـ) وعروة بن الزبير بن العوام (ت٩٤هـ) وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي (ت٩٤هـ) وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بنٍ مسعود (ت٩٨هـ)[١].

أما واثله بن الأسقع، فهو صحابي شامي، يقال أنه زار القدس وتوفي بها سنة ٨٥هـ وقيل ٨٣هـ[٢].

وصيغة التحمل في هذه الروايات عن فتح دمشق "حدثني فلان عن فلان" وهذا يعني أن الخبر كان ينقل عن كتب أجاز أصحابها لمن بعدهم روايتها[٣].

وبعد فتوح الشام للواقدي ننتقل إلى فتوح الشام للأزدي، والأزدي هو أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي البصري (ت ٢٣٧هـ/٨٥١م) يتميز الأزدي بعنايته بالإسناد، ويؤخذ عليه الإكثار من الروايات الخاصة بقبيلته الأزد، وهذه ظاهرة عامة عند رواة أبناء القبائل، فقد اتهم بمثل ذلك سيف بن عمر التميمي، وعوانة بن الحكم الكلبي وغيرهم.

اعتمد الأزدي في أخباره عن بلاد الشام على رواة شاميين في الأغلب، وهذه ميزة جيدة، لأنها تعتمد على شهود من مناطق الحوادث نفسها الأكثر قرباً.

أثنى أهل تراجم الرجال على الأزدي، ونعتوه بصاحب فتوح الشام وعدّه ابن حبان في

(١) شكر الله بن نعمة الله قوجاني، مقدمة الكتاب الزهري، من كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص١٠-١١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر ابن سعد، الطبقات ٣٠٥/١، وابن خلكان، وفيات، ٤٨٣/٤، وناصر الدين الأسد، المرجع السابق، الصفحات: ٣٧٦، ٣٨٨، ٣٩٠، ٣٩٤، ٣٩٧، ٤٢٨.

الثقات[١]. وبين الأزدي وأحداث الشام راويتان أو ثلاث، فهو معاصر للواقدي.

يستخدم الأزدي في إسناده صيغة: "حدثني" بينما يستخدم راوية كتابه الحسين بن زياد صيغة: "أخبرنا فلان عن أبي إسماعيل محمد بن عبد الله قال: "حدثني فلان....".

نورد هنا رواية الأزدي لرسالة عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بتوليه إمارة جيوش الشام وعزل خالد، لأن الأزدي تابع أخبار حصار دمشق اعتماداً عليها ونصها: "أخبرنا الحسين بن زياد عن أبي إسماعيل محمد بن عبد الله قال: "حدثني محمد بن يوسف عن ثابت البناني عن العباس بن سهل بن سعد قال: قدم شداد بن أوس بعهد أبي عبيدة، فدفعه إليه وشداد شاكٍ (مريض)، فنزل على أبي عبيدة وعلى معاذ، وكان منزلهما وأمرهما واحداً، وكانا يقومان عليه حتى تماثل، فمكث أبو عبيدة خمسة عشرة ليلة، وخالد يصلي بالناس ويأمر وينهى، وما يعلم أن أبا عبيدة الأمير عليه، حتى جاء كتاب من عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أبي عبيدة فكره أن يخفيه"[٢].

أما الرواية التي ذكر فيها الأزدي تاريخ فتح دمشق فنصها "أخبرني الحسين بن زياد عن أبي إسماعيل محمد بن عبد الله قال: "وحدثني عمرو بن مالك القيني عن أدهم بن محرز عن أبيه محرز ابن أسيد الباهلي قال: افتتحنا دمشق سنة أربع عشرة، يوم الأحد لثلاثة عشر شهراً مضت من إمارة عمر رضي الله عنه إلا سبعة أيام"[٣]. ومحمد بن يوسف بن واقد بن عثمان الضبي أبو عبد الله الفريابي، أحد شيوخ الأزدي الكبار، نزل قيسارية من ساحل الشام، روى عن طائفة منهم: الأوزاعي، ونافع مولى ابن عمر، وسفيان الثوري، وروى عنه كثيرون منهم البخاري، ولد سنة ١٢٠هـ وتوفي سنة ٢١٢هـ، وقد وثقه علماء الرجال ووصفوه بأنه "صدوق"[٤].

وثابت بن أسلم البناني البصري (ت ١٢٧هـ/٧٤٤م) من رواة محمد بن يوسف الذي

(١) انظر مقدمة محققي كتاب الأزدي، مؤسسة حمادة، اربد ٢٠٠٤م.

(٢) فتوح الشام، ص١٩٠-١٩١.

(٣) المصدر السابق، ص١٩٣.

(٤) انظر ترجمته عند ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ٩/٥٣٥-٥٣٧. وانظر ناصر الدين الأسد، المرجع السابق، ص٢٩٣.

نقل الخبر عن العباس بن سهل بن سعد، ممن وثقه العلماء وقالوا عنه "مأمون كبير القدر، توفي سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٤م[١]. والعباس بن سهل بن سعد الذي يروي عنه ثابت البناني، أنصاري من الخزرج، محدث ثقة له ولأبيه صحبه، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن جماعة من الصحابة. وروى عنه عدد من كبار التابعين، ولد قبل الهجرة بخمس سنين وتوفي في سنة (٩٦هـ) وهو آخر من مات في المدينة من الصحابة، كان اسمه حزناً، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سهلاً[٢].

أما سند الرواية الثانية فيتألف من عمرو بن مالك القيني عن أدهم بن محرز عن أبيه محرز بن أسيد الباهلي، وهذه الرواية وإن جاءت عن طريق غير طريق الرواية الأولى، فهي تتوافق معها، من حيث تأكيدها أن الفتح كان بعد ثلاثة عشر شهراً من بداية ولاية عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والمصادر مجمعة على أن وفاة أبي بكر كانت في جمادى الأولى سنة ١٣هـ/ أغسطس ٦٣٤م أي أن دخول دمشق حصل في سنة ١٤هـ في شهر رجب أو قبله أو بعده حسب التاريخ الذي اعتمده الراوي لبداية إمارة عمر رضي الله عنه.

لم نجد لعمرو بن مالك ترجمة في المصادر التي اطلعنا عليها، وقد ذكره ابن عساكر في تاريخه (٧/٤٦٤) ممن رووا عن أدهم بن محرز، وأدهم صحابي حمصي شهد فتح مكة وشهد صفين، وكان من قادة الحجاج، وأحد أمراء الجيش الذين وجهوا مع عبيد الله بن زياد لقتال التوابين الذين قتلوا عند عين الوردة (٦٥ هـ /٦٨٤م)، وهو الذي حمل رأس سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجبه (رأسي التوابين) إلى مروان بن الحكم[٣]. وكان والد أدهم بن محرز بن أسيد الباهلي من أعلام الفتح[٤].

جاءت صيغة التحمل عند الأزدي "حدثني" فلان عن فلان وهي صيغة مماثلة لصيغة

---

(١) انظر تاريخ أبي زرعة، ص١٦٢، ابن حجر، التهذيب ٢/٢-٤، ناصر الدين الأسد، المرجع السابق، ص٢٩٤. الذهبي، شمس الدين، (ت ٧٤٨هـ) سير أعلام النبلاء، دار الكتب العلمية، ٥/١٣٤.

(٢) ابن سعد الطبقات، ٣/٦٢٤-٦٢٥، ابن حجر، التهذيب ٤/٢٥٢-٢٥٣. أبي يوسف يعقوب بن سفيان البسوي (ت٢٧٧هـ/٨٩٠م)، المعرفة والتاريخ، رواية عبد الله بن جعفر بن درستوية النحوي، مؤسسة الرسالة، ط٢ ١٤١٢هـ/١٩٨١، ٢/٩٩، ناصر الدين الأسد، المرجع السابق، ص٢٩٤.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ٤/٢٩٣.

(٤) أحمد عادل كمال، الطريق إلى دمشق، ص١٠٦.

الحمل عند الواقدي السابقة، أي أن مصادر الأزدي التي ينقل عنها كتابيه.

بقي أن نستعرض كتاباً هاماً في الفتوح، ألا وهو كتاب فتوح البلدان للبلاذري (أحمد ابن يحيى بن جابر المتوفى سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، وهو إمام نسابة وراوية ثقة، ومحدث ثبت، وأديب متفنن ، وشاعر مجيد، هكذا وصفه رضوان محمد رضوان الذي عني بكتابه فتوح البلدان وقدم له وعلق عليه[١].

سمع البلاذري من عدد من الشيوخ الكبار مثل: أبي الحسن علي بن محمد المدائني (ت ٢١٥هـ/٨٣٠م)[٢] وهشام بن عمار وأبي عبيد القاسم بن سلام ومحمد بن سعد كاتب الواقدي ومصعب الزبيري وغيرهم.وهشام بن عمار الدمشقي يكنى بأبي الوليد، راوية الوليد بن مسلم (ت ١٩٥هـ/٨١٠م)[٣]ثقة صدوق مكثر، خرج له البخاري في صحيحه وأصحاب السنن، ولد سنة ١٥٣هـ وتوفي سنة ٢٥٤هـ[٤].

والوليد بن مسلم الذي يروي عنه هشام بن عمار، هو أبو العباس الأموي (١٩٥هـ/٨١٠م) وكان من مشاهير محدثي الشام[٥]. كتب الوليد بالتاريخ ونبغ في حفظ المغازي، أخذها عن أستاذه الأوزاعي، وقد قاسمه شهرته محدث معاصر له هو إسماعيل بن عياش (١٨٢هـ/٧٩٨م) وهما أعلم أهل الشام برواية الشاميين[٦]. روى عنه ابن عساكر حصار مدينة دمشق، وأخذ العلم عنه عدد كبير من كبار العلماء، منهم ابن أبي خيثمة، والإمام أحمد بن حنبل والمديني وعلي بن محمد الطنافسي، وقد تميز من بين تلاميذه الشاميين في الرواية التاريخية ابنه العباس بن الوليد[٧].

---

(١) انظر تقديم الكتاب.

(٢) انظر أخباره في الفهرست للنديم، ص١٠٠-١٠٤، وله كتب في الفتوح وتاريخ الخلفاء.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ٤٧٣/٧.

(٤) أحمد عادل كمال، المرجع السابق، ص١٠٦.وعن معركة عين الوردة،أنظر الطبري ٥٩٥/٥

(٥) ابن سعد، الطبقات ٤٧٣/٧. أحمد عادل كمال، المرجع السابق نفسه.

(٦) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٧٩م، ص١٢٩/١.سيشار اليه عند وروده، شاكر مصطفى،التاريخ.

(٧) انظر ترجمته في طبقات ابن سعد ٨٤٤/٧، وفي موسوعة علماء المسلمين، ق١، ج٣،وشاكر مصطفى المرجع السابق، ص١٣٠.

أما الإمام الأوزاعي هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو (١٥٧هـ/٧٧٣م) إمام الشاميين في الحديث في عصره، وله مذهب مشهور في الفقه، انتشر في الأندلس، ولا يجارى في معرفته بالسير والمغازي والفتوح، وقال فيه ابن تيمية: "الأوزاعي كان أعلم بهذا الباب (السير) من غيره من علماء الأمصار"[١].

وفي أخبار فتوح دمشق قال البلاذري: "قالوا: لما فرغ المسلمون من قتال من اجتمع لهم بالمرج (مرج الصفر) أقاموا خمس عشرة ليلة ثم رجعوا إلى مدينة دمشق لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة أربع عشرة فأخذوا الغوطة وكنائسها عنوة، وتحصن أهل المدينة، وأغلقوا بابها فنزل خالد بن الوليد على الباب الشرقي في زهاء خمسة آلاف ضمهم إليه أبو عبيدة، وقوم يقولون: "إن خالداً كان أميراً وإنما أتاه عزله وهم محاصرون دمشق،.... (توزع الأمراء على الأبواب) ونزل أبو الدرداء عويمر بن عامر الخزرجي على مسلحة ببرزة، وكان الأسقف الذي أقام لخالد النزل في بدأته ربما وقف على السور فدعا له خالد فإذا أتى سلم عليه وحادثه، فقال له ذات يوم: يا أبا سليمان إن أمركم مقبل ولي عليك عدة فصالحني عن هذه المدينة فدعا خالد بدواة وقرطاس فكتب (كتاب الأمان)[٢].

لم يذكر البلاذري في رواياته رجال السند الذين أخذ عنهم روايته، وإنما ذكر في بداية كتابه فتوح البلدان: "أخبرني جماعة من أهل العلم بالحديث والسيرة وفتوح البلدان - سقت حديثهم واختصرته ورددت من بعضه على بعض - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم..."[٣] وهذه البداية تدل على أمور ثلاثة في نظر الأستاذ ناصر الدين الأسد[٤]:

الأول: أن رواته في كتاب الفتوح هم رجال الحديث، وأهل السيرة ورواة أخبار الفتوح المؤرخين.

والثاني: أن البلاذري جمع حديثهم معاً، وساقه متداخلاً، فلم يشر عند كل خبر ومجموعة أخبار إلى سنده من الرواية أو الرواة إلا في حالات.

والثالث: أنه "اختصر" أحاديثهم فلم يوردها كاملة على ما وجدها في كتبهم أو سمعها من رواته.

(١) المراجع السابقة نفسها.

(٢) فتوح البلدان، ص١٢٧-١٢٨.

(٣) المرجع السابق، ص١٧.

(٤) وقعة أجنادين، المرجع السابق، ص٣٠١-٣٠٢.

وكما هو واضح في مقدمة البلاذري، فقد سمح لنفسه بالتصرف بالروايات فحذف منها ما لم يستسغه وجمع بعضها لبعض فيما يعتقده معززاً لحقيقة الخبر، وبهذا يكون البلاذري صاحب مدرسة جديدة في التأليف التاريخي، خلا كتابه من السرد القصصي المعهود والإطالة في سرد الأخبار، فجاء كتابه مختصراً.

ومع ذلك يذكر أحياناً بعض الرواة، فذكر خبر أبي مخنف في توزع أمراء الجند على أبواب دمشق، وذكر رواية الهيثم بن عدي، "بلفظ زعم الهيثم بن عدي أن أهل دمشق صولحوا، على أنصاف منازلهم وكنائسهم" ويرد على هذه الرواية، برواية نقلها عن محمد بن سعد "قال أبو عبد الله الواقدي: قرأت كتاب خالد بن الوليد لأهل دمشق فلم أر فيه أنصاف المنازل والكنائس" وقد روى ذلك ولا أدري من أين جاء به من رواه"[1].

ويعلل البلاذري سبب الوهم الذي وقع فيه ناقل الخبر بقوله: "ولكن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بأنطاكية فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون، وقد روي أن أبا عبيدة كان بالباب الشرقي وأن خالداً كان بباب الجابية وهذا غلط"[2].

وهذه النصوص وغيرها تدل على سعة اطلاع البلاذري ودقة ملاحظته ونقده للأخبار. وعندما ينقل عن أبي عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ/٨٣٨م) يورد سنده: "حدثنا أبو مسهر عن يحيى بن حمزة بن أبي المهلب الصنعاني عن أبي الأشعث الصنعاني أو أبي عثمان الصنعاني أن أبا عبيدة....[3] وحدثني أبو عبيد قال: حدثنا هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عن الأوزاعي"[4] ويذكر أحياناً صيغاً أخرى للرواية، كأن يقول: روى قوم، وروى مشايخ من أهل الشام، وبعض الرواة. ويلاحظ أن معظم رواته عن فتوح الشام هم شاميّون (من أهل الشام كأبي حفص الدمشقي، الأوزاعي، هشام بن عمار والوليد بن مسلم وغيرهم. وهذا ينطبق على رواة أبي عبيد القاسم بن سلام الذي أخذ عنه البلاذري، وأبو مسهر هو عبد الأعلى بن مسهر الغساني (ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣م) أحد كبار العلماء وشيخ الشام في وقته،

---

(١) فتوح البلدان، ص١٢٩.

(٢) المصدر نفسه، (لعله يذكر اسم صاحب الرواية في الحالات الخلافية ليؤكد الخبر أو ينفيه).

(٣) نفسه، ص١٣٠.

(٤) نفسه، ص١٣١.

روى له أصحاب الكتب الستة[١]. ويحيى بن حمزة من رواة الشام روى عنه الحكم بن موسى البزاز ويحيى بن صالح. وهو ثقة كثير الحديث صدوق، روى عنه ابن عساكر في تاريخه بالإضافة إلى البلاذري، توفي ١٨٣هـ/٧٧٩م[٢].

ومن رواة البلاذري أبو عثمان شراحيل بن مرثد الصنعاني، أبو الأشعث، مخضرم شهد اليمامة وفتح دمشق، أدرك أبا بكر وجعله ابن حبان في الثقات، وقيل أنه صاحب الفتوح يروي المراسيل، روى عنه أهل الشام[٣].

وواضح من الرواية الأخيرة للبلاذري أن مصدر معلوماته مستمد من كتاب للوليد ابن مسلم الذي أخذ خبره عن فتح دمشق من كتاب الأوزاعي، ورجال السند في روايات البلاذري عدول مشاهير شهد لهم بالصدق.

وبقي أن نذكر شيئاً عن آخر كتاب للفتوح، وهو كتاب أحمد بن أعثم الكوفي (ت ٣١٤هـ/٩٢٦م) هذا الكتاب روى أخبار الفتوح متابعاً لأبي إسماعيل الأزدي، فقد طعّم أخباره بالقصص ومزجها بالحوار، وهو لا يسند أخباره بسلسلة سند كما شهدنا عند الأزدي، فكان يكتفي بقوله في مطلع كل خبر أو مجموعة من الأخبار بلفظ "قال" .... دون أن يذكر لنا من هو القائل[٤].

أما خبره عن فتح دمشق فجاء على الشكل التالي: "قال: فصبر أهل دمشق على الحصار، وجعلوا ينتظرون المدد من عند هرقل، فلما أبطأ ذلك عليهم، وضاق بهم الأمر، واشتد عليهم الحصار، ورأوا أن المسلمين لا يزدادون إلا قوة وصرامة، وقد كانوا علموا أن خالد بن الوليد معزول، فأرسلوا إلى أبي عبيدة بن الجراح يسألونه الصلح فأجابهم أبو عبيدة إلى ذلك ووقع الصلح على ماية ألف دينار والجزية بعد ذلك على كل محتلم أربعة دنانير في كل

(١) ابن سعد، الطبقات ٤٧٣/٧، المعرفة والتاريخ ص٢٨٦-٢٩٢، ابن آبي حاتم، الجرح والتعديل، ق٣-٧٥/١، ٧٢ تاريخ بغداد ٧٢/١١-٧٥، ابن حجر، التهذيب، ٩٨/٦-١٠١، تاريخ البخاري، ق٣-٧٣/٢-٧٤، انظر تاريخ ابن زرعة، ص١٥٨، حا: ٥.

(٢) أحمد عادل كمال، الطريق إلى دمشق، ص١٠٩.

(٣) تاريخ أبي زرعة ص٢٢/١ (كان مع أبي الدرداء في مسلحة برزة)، ابن حجر، التهذيب، ٣٢٠/٤، رقم (٥٤٩).

(٤) ناصر الدين الأسد، المرجع السابق، ص٢٩٦. المرجع السابق، ص٢٩٦..

سنة، وعلى نسائهم ديناران فرضي القوم... وفتحت أبواب دمشق، ودخلها المسلمون يوم الجمعة في رجب سنة أربع عشرة وثلاثة عشر شهراً مضت من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فنزل المسلمون دمشق آمنين[١].

بقي أن نشير إلى سيف بن عمر التميمي (١٨٠هـ/٧٩٦)[٢]، الذي روى له الطبري وآخرون روايات عن فتوح الشام، فقد أثبت لنا الطبري الرواية التالية حول تاريخ فتح دمشق فقال "كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن أبي عثمان عن خالد وعبادة، قالا: "لما هزم الله جند اليرموك، وتهافت أهل الياقوصة، وفرغ من المقاسم والأنفال، وبعث بالأخماس وسرحت الوفود، استخلف أبو عبيدة على اليرموك، بشير بن كعب بن أبي الحميري كي لا يغتال بردة، ولا تقطع الروم على مواده، وخرج أبو عبيدة حتى ينزل بالصفر، وهو يريد اتّباع الفاله، ولا يدري يجتمعون أو يفترقون فأتاه الخبر بأنهم أرزوا إلى فحل، وأتاه الخبر أن المدد أتى إلى أهل دمشق من حمص، فهو لا يدري أبدمشق يبدأ، أم بفحل من بلاد الأردن، فكتب في ذلك إلى عمر وانتظر الجواب، وأقام بالصفر، فلما جاء عمر فتح اليرموك أقر الأمراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر، إلا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، فإنه ضم خالداً إلى أبي عبيدة، وأمر عمرواً بمعونة الناس، حتى يصير الحرب إلى فلسطين، ثم يتولى حربها"[٣].

"ولما جاء عمر الكتاب عن أبي عبيدة بالذي ينبغي أن يبدأ به كتب إليه: "أما بعد، فابدأوا بدمشق، فانهدوا لها، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم...، وقدم خالد بن الوليد وعلى مجنبتيه عمرو وأبو عبيدة وعلى الخيل عياض، وعلى الرجل شرحبيل، فقدموا على دمشق، وعليهم نسطاس بن نسطورس، فحصروا أهل دمشق، ونزلوا حواليها... نحواً من سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحوف والترامي بالمجانيق، وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث... فلما أيقن أهل دمشق أن ألامداد لا تصل إليهم، فشلوا ووهنوا وأبلسوا... فعند

(١) ابن أعثم، **كتاب الفتوح**، دار الندوة الجديدة، بيروت، عن الطبعة الهندية، حيدر أباد، بمراجعة: الدكتور محمد عبد المعيد خان، د.ت. ج١، ١٦٠–١٦١.

(٢) انظر ترجمته عند ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٢٩٥/٤ رقم (٥٠٦)، شاكر مصطفى، المرجع السابق، ١٨٠/١–١٨١.

(٣) تاريخ الطبري، ٤٣٦/٣.

ذلك انقطع رجاؤهم.. وقطع خالد بن الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف، وفتحوا للمسلمين... ولما شد خالد على من يليه، وبلغ منهم الذي أراده عنوة أرز من أقلت إلى أهل الأبواب التي تلي غيره، وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة. فأبوا وأبعدوا، فلم يفجأهم إلا وهم يبوحون لهم بالصلح، فأجابوهم وقبلوا منهم، وفتحوا لهم الأبواب، وقالوا: ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب، فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم، ودخل خالد مما يليه عنوة..."[١].

ويتبين لنا أن سلسلة السند عند سيف بن عمر التميمي تعتمد على أبي عثمان عن خالد ابن معدان أبي عمر عبادة بن نسي الكندي الشامي الأردني قاضي طبرية (ت ١١٨هـ/٧٣٦م) روى له الأربعة(٢).

وخالد بن معدان أبو عبد الله بن أبي كرب الكلاعي الحمصي، ثقة روى عن جماعة من الصحابة، وكان من فقهاء التابعين توفي ١٠٣هـ[٣].

وسيف بن عمر (ت ١٨٠هـ على الأغلب ٨٩٦م) هو مصنف "الفتوح الكبير" "والردة" "والجمل وسير عائشة" وهو من أبرز رواة الفتوح وأغزرهم مادة.

ورغم ضخامة المادة التاريخية التي نجدها له في المصادر التاريخية، فإن كتب التراجم لم تترجم له، إذ لم يذكره ابن سعد في طبقاته ولا ابن خياط، ولا ابن خلكان في وفياته، ولا الكتبي في الفوات ولا الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، ولا ياقوت الحموي في معجم الأدباء، و لم يرد اسمه في كتاب الثقات لابن حبان. لكن الأخير قال عنه "ضعيف في الحديث عمدة في التاريخ"[٤] وضعفه عدد من العلماء مثل يحيى بن معين أبو داوود وقال عنه أبو حاتم "متروك الحديث" وقال ابن حبان "اتهم بالزندقة" وقال ابن عدي "عامة حديثة منكر...

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٤٣٩-٤٤٠، تفيد الرواية أن المسلمين أجروا ناحية خالد مجرى الصلح، فصار صلحاً، وكان صلح دمشق على المقاسم، الدينار والعقار، ودينار عن كل رأس، فاقتسموا الأسلاب....»، ص٤٤٠. والرواية في أحداث سنة ١٣هـ.

(٢) ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق شكري فيصل وروحية النحاس ورياض عبد الحميد مراد، مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق، مجلد الأحرف، عبادة بن أوفى - عبد الله بن ثوب، ص٤٠.

(٣) ابن حجر، التهذيب، ٣/١١٨، رقم (٢٢٢)، أحمد كمال، الطريق، ص٩٩.

(٤) أحمد كمال، المرجع السابق، ص٦٥.

وكان يضع الحديث"[1]. واتهمه مرتضى العسكري بوضع الأساطير[2]، ولكن الإمام الطبري أخذ معظم مادته في الردة والفتوح عنه، كذلك فعل ابن عساكر في تاريخه، كذلك نجد أحمد كمال بعد دراساته القيمة عن فتوح العراق، يطمئن لروايات سيف ويمنحها الثقة[3].

ونحن نرى أن ليس من الإنصاف إطلاق أحكام قاطعة على روايات سيف وغيره، فلدينا مناهج دقيقة في البحث التاريخي تساعدنا في تمييز الغث من السمين، فنأخذ بعض الأخبار ونترك أخرى. وعليه وجدنا رواية سيف عن تاريخ فتح دمشق لا تخرج في سياقها عن روايات المؤرخين الآخرين.

نعرج إلى اليعقوبي – أحمد بن اسحق بن جعفر بن واضح (ت ٢٩٢هـ/٩٠٥) ينتمي إلى أسرة كانت تعمل في دواوين الدولة، وهذا ساعده على الاطلاع على الكثير من الوثائق كما سهل له الترحال، فأصبح يعد من الرحالة الجغرافيين، فقد اهتم بالجغرافيا إضافة إلى التاريخ وألف في الجغرافيا كتاب "البلدان" وهو أقدم كتاب وصلنا في هذا المجال، لذلك نجد تأثير الجغرافيا واضحاً في كتاب التاريخ الذي ألفه، وتاريخه يتصف بالشمول والعالمية، وفيه تفاصيل لموضوعات لا توجد عند غيره ومصادره متنوعة بين أصحاب الاتجاهات الفكرية والأقاليم الجغرافية، ذكر مصادره في بداية كتابه، وأهمل الأسانيد، واعمل الفكر في المعلومات التي حصل عليها.

اتهم بالتشيع، فرغم حرصه تظهر الميول العلوية عنده عندما يكون في خبره شخصيات علوية[4].

ذكر اليعقوبي أن دمشق "فتحت في خلافة عمر بن الخطاب سنة أربع عشرة، افتتحها أبو عبيدة بن الجراح من باب لها يقال له باب "الجابية" صلحاً بعد حصار سنة. ودخل خالد بن الوليد من باب لها يقال له "الباب الشرقي" بغير صلح، فأجاز أبو عبيدة الصلح في جميعها[5].

---

(١) المرجع نفسه، ص٦٦.

(٢) انظر كتاب العسكري، عبد الله ابن سبأ وأساطير أخرى. المرجع نفسه، ص٦٦.

(٣) الطريق إلى دمشق، ص٦٧٤، وانظر كتابه الآخر (الطريق إلى المدائن).

(٤) انظر ترجمته في مقدمة كتابه المعروف باسم: **تاريخ اليعقوبي**، قدم له وعلق عليه: محمد صادق بحر العلوم، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف ١٩٦٤م، شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون ١/٢٥١-٢٥٣.

(٥) كتاب البلدان، ملحق بكتاب الأعلاق النفيسة، طبعة ليدن ١٨٩١، ص٣٢٥. وذكر في تاريخه ١/١٣٠

أما خبره في كتاب التاريخ عن فتح دمشق "كان خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين فتحوا (مرج الصفر) من أرض دمشق، وحاصروا مدينة دمشق قبل وفاة أبي بكر بأربعة أيام، فستر أبو عبيدة الخبر عن خالد، حتى ورد كتاب ثان من عمر على أبي عبيدة يأمره أن يتوجه إلى حمص ونواحي الشام، فعلم بذلك خالد فقال: رحم الله أبا بكر لو كان حياً ما عزلني... وأقاموا على ما كانوا عليه من حصار دمشق حولاً كاملاً وأياماً، وكان أبو عبيدة بباب الجابية وخالد بباب الشرقي وعمرو بن العاص بباب توما ويزيد بن أبي سفيان بباب الصغير..." (آخر الرواية التي تفيد أن أبا عبيدة دخل صلحاً وخالد دخل عنوة ثم أمضي الصلح على الجميع)[١]. في رجب سنة ١٤هـ.

وأشار اليعقوبي إلى الرواية التي تقول بأن خالد بن الوليد صالحهم وكتب للأسقف كتاباً للصلح أعطاهم الأمان فأجاز أبو عبيدة ذلك[٢]. وبذلك يكون اليعقوبي قد نقل خبره عن ابن إسحاق والواقدي[٣].

بقي أن نذكر ما جاء به ابن عساكر (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م) وإن كان متأخراً، فهو مؤرخ دمشق المشهور، ومؤلف أكبر وأهم كتاب عن تاريخ دمشق.

جمع ابن عساكر روايات من تقدمه من المؤرخين أمثال: ابن اسحق، وابن الكلبي، وأبو عثمان الصنعاني والأوزاعي والعباس بن سهل بن سعد، وسيف بن عمر وأبو عبيد القاسم بن سلام، وعقبة بن عامر الجهني، وعبد الرحمن بن جبير ومكحول الدمشقي[٤] وغيرهم.

يتابع ابن عساكر من سبقه فيجعل فتح دمشق في رجب من سنة ١٤هـ[٥]، وبناء على ما تقدم نجد اتفاقاً بين المؤرخين بأن تاريخ فتح مدينة دمشق كان سنة ١٤هـ، قال ذلك ابن اسحق والواقدي وابن الكلبي وأبي عبيد القاسم بن سلام، والوليد بن مسلم وأدهم بن محرز

رواية الواقدي التي تفيد صلح أبي عبيدة لأسقفهم.

(١) تاريخ اليعقوبي، ٢/١٢٩.

(٢) نفس المصدر، ١/١٣٠.

(٣) انظر رواياتهما فيما سبق.

(٤) ابن منظور، محمد بن مكرم، **مختصر تاريخ دمشق**، فضائل الشام وخطط دمشق، (٦٣٠هـ-٧١١هـ) تحقيق رواية النحاس، رياض عبد الحميد، محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، ط ١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ١/٢٠٣-٢١١.

(٥) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ١/٢٠٣-٢١١.

وعبد الله بن قرط والأوزاعي، والمدائني وغيرهم ممن ورد اسمهم في إسناد الروايات التي حكت أخبار الفتوح الأولى لبلاد الشام.

يعزز قناعتنا بأن أفيتشيوس (سعيد بن البطريق ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م) يروي تفاصيل حصار دمشق كما ورد في بعض المصادر العربية إلا في بعض التفاصيل، وخبره يفيد أن الفتح حصل سنة ١٤هـ[١].

أما أبو البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي، من علماء القرن التاسع (ولد سنة ٨٤٧هـ/١٤٤٣م) صاحب كتاب نزهة الأنام في محاسن الشام[٢]. فيأخذ عن ابن عساكر، ويقول بأن خالد بن الوليد دخل من الباب الشرقي عنوة وأبي عبيدة دخل صلحاً، ثم أمضى أبو عبيدة الصلح مناصفة، فجعلوا نصف البلد صلحاً ونصفه عنوة فأخذ المسلمون نصف الكنيسة الشرقي فجعله أبو عبيدة رضي الله عنه مسجداً، وكانت قد صارت إليه إمارة الشام، وبقي الأمر كذلك حتى خلافة الوليد بن عبد الملك الذي ضم نصف الكنيسة إلى المسجد[٣].

كذلك أخذ أحمد غسان سبانو بعدما درس ما ورد عن فتح دمشق في دوائر المعارف العربية والعالمية، بالرواية التي تقول بفتح د مشق عام ١٤هـ/٦٣٥م[٤].

والروايات اختلفت باسم الشهر واليوم الذي فتحت فيه دمشق، فابن اسحق والكلبي والوا قدي والأوزاعي واليعقوبي وابن أعثم جعلوها في شهر رجب، وفي رواية للبلاذري جعلها في شهر محرم وفي رواية للأزدي جعلها سنة ١٤هـ لثلاثة عشر شهراً من إمارة عمر[٥].

وفيما يلي جدول توضيحي لما ورد في الروايات التاريخية الرئيسة للفتوحات الأولى

(١) **التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق**، يليه **تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي**، بيروت، مطبعة الآباء اليسيوعيين ١٩٠٩م، ص١٣-١٧. قال: إن الذي أمضى الصلح خالد بن الوليد، وأن أبا عبيدة دخل من باب الجابية عنوة).

(٢) نزهة الأنام، المكتبة العربية - بغداد، المطبعة السلفية، بمصر ١٣٤١ه ص٢٨-٣٣.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) انظر كتاب دمشق في دوائر المعارف العربية والعالمية، دار الكتاب العربي، سورية، ص٩٤.

(٥) ناقشت الدكتورة أمينة البيطار الروايات التي تناولت تاريخ فتح دمشق مناقشة جيدة، مبينة الروايات التي قالت بفتحها قبل اليرموك والتي قالت أنها بعد اليرموك. انظر مقالتها «ملابسات فتح دمشق في روايات المؤرخين العرب، **المؤرخ العربي**، ع١٥ (١٩٨٠)، ص٢٣-٣٩.

لبلاد الشام (المواقع الرئيسة: بصرى، أجنادين، فحل، دمشق، حمص، اليرموك) والجدول يساعد في ترتيب تاريخي لتواريخ هذه الوقعات.

جدول توضيحي لوقائع الفتوحات الإسلامية الأولى في بلاد الشام

الوقعة	تاريخها	رواتها	المصدر	ملاحظات
بصرى	١٣هـ	ابن إسحق	الطبري ٤١٧/٣	
		المدائني	الطبري ٤١٨/٣	
		الواقدي	الطبري ٤١٨/٣	
		قيس بن أبي حازم	الأزدي ١٦٥	
مرج الصفر	١٣هـ	عمرو بن محصن	الأزدي ١٨٢	بين أجنادين ومرج الصفر عشرون يوماً
	١٤هـ	الواقدي	البلاذري ١٢٥	
أجنادين	١٤هـ	ابن اسحق	ابن خياط ٧٨/١	
		اليعقوبي	اليعقوبي ١٢٤/٢	
		الأزدي	الأزدي ١٦٩–١٧٧	
		الواقدي	الواقدي، فتوح ٦٠/١	
فحل	١٣هـ	ابن اسحق	الطبري ٤٣٤/٣	جعلها بعد أجنادين مباشرة
	١٣هـ	سيف بن عمر	الطبري ٤٤٢/٣	جعلها بعد فتح دمشق
	١٤هـ	ابن الكلبي	ابن خياط ٩٥/١	بعد فتح دمشق
	١٣هـ	الواقدي	البلاذري ١٢٢	بعد مرج الصفر مباشرة
دمشق				
اليرموك				

إن نظرة سريعة إلى الجدول تبين أن فتح بصرى كان سنة ١٣هـ و كذلك وقعة أجنادين و فحل ،باستثناء ابن الكلبي الذي جعلها بعد فتح دمشق سنة ١٤هـ كذلك يوجد شبه اتفاق على تاريخ فتح دمشق سنة ١٤هـ وفي تحديد تاريخ معركة اليرموك خلاف ما بين سنة ١٣هـ و ١٥هـ.

ومما يجدر ذكره أن الروايات أفادت بأن خالد بن الوليد بعد قدومه من العراق عسكر في الغوطة واحتل بعض كنائسها وحاصر أبوابها وكتب إلى أبي عبيدة ليوافيه حول دمشق(١).

غير أن الأخبار تواردت إلى خالد وأبي عبيدة بتجمع الروم في أجنادين وأظهر قادة الجيش الإسلامي من خلال مشاوراتهم، خطورة الحشد الرومي فقرروا التجمع في أجنادين لمواجهة القوات الرومية(٢). وبعد الانتصار في أجنادين تابعوا فلول القوات الرومية في فحل كل ذلك عام ١٣هـ.

بعد فحل زحفت القوات الإسلامية وحاصرت دمشق سنة ١٤هـ حتى فتحها، وانطلق المسلمون في فتوحاتهم حتى حمص(٣).

شعر هرقل بخطورة الهجمات العربية، فقرر استدعاء ما لديه من قوات من كافة أرجاء الإمبراطورية، وتكون لديه جيش جرار، يمثل أقصى ما لدى الرومان من قوة.

علم القادة العرب بالحشد الرومي فقرروا تجميع قواتهم في مكان آمن غير منقطع الاتصال مع المدينة، وفي نفس الوقت تحميه الصحراء إذا ما تعرضت القوات لأخطار التفوق الرومي(٤).

وهكذا حصلت معركة اليرموك بعد فتح دمشق، لأن المسلمين عندما قرروا الانسحاب إلى اليرموك وأعادوا الأموال التي أخذوها من المدن التي صالحتهم بما في ذلك حمص ودمشق، باعتبار شرط الأمان الذي أعطاه المسلمون لأهالي المدن المفتوحة، قد انتفى برحيل المسلمين عنهم.

لذلك يكون تاريخ معركة اليرموك (كما تواردت الروايات) الأنسب هو شهر رجب من عام ١٥هـ كما أخبر ابن اسحق وأبي حفص الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز، وكذلك رواية ابن الكلبي والواقدي((٥)).

---

(١) ابن اعثم، ١/١٤٥، (انطلق خالد و أبو عبيدة من الغوطة إلى أجنادين) وابن خياط ١/٨٧

(٢) الأزدي، فتوح الشام، ص١٦٩-١٧١.

(٣) ابن أعثم، ١/١٨٩-١٩٥.

(٤) المصدر السابق، ص١٧٩-١٨٢.

(٥) البلاذري، ١٤٠-١٤٣، (ردوا لأهل حمص ما أخذوه منهم).

أما الذين أرخو لفتح دمشق لعام ١٣هـ فقد توهموا الحصار الأول آخر خلافة أبي بكر فتحاً، ونسوا أن المسلمين فكوا حصارهم وذهبوا إلى أجنادين، ثم عاودوا حصار دمشق وفتحها وفق الروايات المشهورة، وإعطاء أهلها كتاب الأمان والصلح، ولما انسحبوا من حمص ودمشق إلى اليرموك عادت دمشق في حل من شروط الصلح والأمان. وبعد انتصار المسلمين في اليرموك أعادوا فتح دمشق على شروط الصلح السابقة[1]. وبناء عليه يكون ترتيب الوقائع على الشكل التالي:

بصرى – غوطة دمشق – أجنادين – فحل – فتح دمشق – حمص – اليرموك – دمشق للمرة الثانية.

إن هذا الترتيب جاء نتيجة متابعة للروايات وفهم لجغرافية المنطقة (مسرح العمليات العسكرية) بالإضافة لعامل المنطق في ترتيب الأحداث، إذ من غير المعقول أن يخطط الجيش لمعركة وخطوطه الخلفية مهددة، وخطوط اتصاله بالمركز مقطوعة.

هذا مبلغ اجتهادي والله ولي التوفيق

(١) انظر جدول الروايات السابق، وأبن منظور، مختصر ابن عساكر، ١/٢١٢.



الحملة الإفرنجية على إنطاكية، والدروس المستفادة

المقدمة:

يهدف هذا البحث إلى إبراز واحد من الدروس التاريخية الهامة في التاريخ العربي الإسلامي، كنموذج للدروس البليغة التي مرت في تاريخنا، وعلى الرغم من بلاغتها، لم يتعظ بها أولي الأمر، وربما لم يحسن قرائتها احد، وتمر الأحداث المشابهة وكأن شيئًا لم يكن، وهذا النموذج الذي يتناوله البحث هوالحملة الفرنجية على إنطاكية سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م، كحلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب.

اعتاد المؤرخون أن يبدأوا الحديث عن الحروب الصليبية، بالإشارة إلى أحوال منطقة الشرق الأوسط في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، غير أن هذا المدخل لا يمثل بداية الصراع بين الشرق والغرب، إذ من فك هذا الصراع محتدما منذ قيام الإمبراطوريات الأولى التي قامت حول البحر الأبيض المتوسط، ومن أقدم هذه الصراعات ما حدث بين الإمبراطورية الفينيقية العربية ممثلة بقرطاج وبين روما التي كانت تمثل إمبراطورية أوروبية ناشئة، وذلك قبل أواخر الألف الثالث قبل الميلاد.

من المعروف أن الفينيقيين انطلقوا من عاصمتهم صور اللبنانية حاليا، وبسطوا نفوذهم غربا على امتداد سواحل البحر الأبيض المتوسط سلميا، واستطاع الفينيقيون أن يقيموا لهم مراكز في سواحل أفريقا الشمالية، وسواحل أوروبا الجنوبية، كمدينة قرطاج التي لا تزال خرائبها قائمة قرب مدينة تونس حتى ألان.

يطيب للبعض أن يعتبر قرطاج وريثة أمها صور في العظمة والغني والطموح، فقد ذكر أنهم بلغوا في تجوالهم رأس الرجاء الصالح وسيراليون جنوبا، ووصلوا إلى اسبانيا وفرنسا وانجلترا شمالا، وفي قول دعم بالآثار، إنهم وصلوا إلى القارة الأميركية قبل كولومبس بآلاف السنين[1].

---

(١) فيصل الحربي، **قرطاج كيف ضاع التاريخ البشري، مجلة العصور الحديثة**، العدد التاسع، مايو ٢٠٠٠، (١٤٢-١٥٤) ص١٤٤، وانظر المراجع المتعلقة بقرطاج في جريدة المصادر.

لقد كان القرطاجيون من سادة التجارة العالمية، كما كانوا روادا في النظم الإدارية والاقتصادية، كما كانوا يدركون أهمية السلام في نجاح مشاريعهم، لذلك بادروا إلى عقد اتفاقيات سلام وعدم اعتداء مع الممالك المجاورة ومنها روما.

بعد أن شبت روما عن الطوق، أخذت تسعى إلى التوسع والهيمنة على البحر المتوسط، ولهذا اصطدمت مع قرطاج في حروب طويلة ومريرة، عرفت في التاريخ (بالحروب البونية) كان شعار قادة روما فيها: «يجب أن تدمر قرطاج»، انتهت هذه الحروب بتدمير قرطاج وإزالتها من الوجود بطريقة مفعمة بالحقد إلى أقصى حد، قال «بيار هوباك» عن مصرع[١] قرطاجة: «أنها لجريمة غاشمة سببت ضياع ألفي سنة من تاريخ الإنسانية»[٢] وقال لويد في كتابه «دمروا قرطاجة»:ماتت عبقرية بموت مدينة قرطاج التي انبثقت منها تلك العبقرية، فالدولة التي كانت يوما ما، علة التقدم التجاري للعالم الغربي بشكل لا يبارى، وقد حصلت لها الطامة الكبرى قبل انفجار أول قنبلة ذرية بحوالي ٢٠٩٥ سنة»[٣].

بعد نكبة العرب بقرطاج، تتالت النكبات التي حلت بمراكز الحضارة الإنسانية، وحرمت هذه النكبات الأجيال من بعدها، من التمتع بإبداعات العرب في مجال الفكر والعلم والعمل، فمن نكبة قرطاج إلى نكبة بغداد (٦٥٦/١٢٥٨م) على يد التتار، إلى نكبة قرطاج وغيرها من المدن الأندلسية الزاهرة بالحضارة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، امتدادا إلى حال العرب في الوقت الراهن. ومما يجدر ذكره أن في هذه الصراعات بل النكبات كثيرا من الدروس التي لم يستفد منها أهلها، ورغم توالي النكبات على بلاد العرب، فلا يزال العرب يصمون أذانهم دون سماع درس من هذه الدروس.

وقد اخترت نكبة إنطاكية (٤٩١/١٠٩٧) كنموذج لهذه النكبات التي لم يستفد العرب منّ دروسها شيئا.

---

(١) فيصل الحربي، قرطاج كيف ضاع التاريخ البشري، مجلة العصور الحديثة، العدد التاسع، مايو ٢٠٠٠، (١٤٢-١٥٤) ص١٤٤، وانظر المراجع المتعلقة بقرطاج في جريدة المصادر.

(٢) المرجع نفسه ص ١٥٣.

(٣) المرجع نفسه، هذا التاريخ إلى زمن آن لويد، وحتى الآن فقد مضى على تدمير قرطاج ٢١٥١ سنة.

لماذا هذا الاختيار؟

فقد رأيت أن أصلح نموذج يصور إشكالية الحالة التاريخية المتكررة في التاريخ العربي، هي حالة إنطاكية في مواجهة الغزو الفرنجي، وحالة العرب والمسلمين تجاه هذا الغزو، حيث تغلبت الأنانية وحب السلطان على الوطن والعقيدة، وبالتالي فان هذا الحدث التاريخي غني بدروسه، وجاء اختيار إنطاكية لتوسطها في الزمان والمكان، فأحداثها جاءت لتتوسط أحداث التاريخ العربي، فقد سبقت أحداثها أحداث مماثلة، كما تلت حوادثها أحداث مماثلة كذلك، منذ نكبة قرطاج ١٤٦ ق.م، وحتى سقوط بغداد ٢٠٠٣م.

ولعل أهمية إنطاكية الإستراتيجية بالإضافة إلى أهميتها الدينية في المسيحية، إحدى أسباب هذا الاختيار.

أهمية إنطاكية:

احتلت إنطاكية مكانة هامة في الخطط العسكرية الأولى لغزو الفرنجة، وعول قادة الغزو على سقوطها نتائج عظيمة وكبيرة، ومع أن الفرنجة استولوا أولا على نيقية من بلاد الإسلام، إلا أن هذا الاستيلاء لم يعتبر ذا بال مقارنة بالاستيلاء عل إنطاكية.

ونظرا لهذه الأهمية لإنطاكية فقد كان تأثير سقوطها مؤلما وواسعا في الأوساط الإسلامية سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي، ويكفي انه كان مدعاة لتشكيل أول تحالف للممالك والإمارات الإسلامية لرد العدوان الفرنجي وتخليص إنطاكية من الاحتلال.

وفي العالم المسيحي تبوأت إنطاكية المرتبة الثالثة، إن لم تكن الثانية بعد روما ذاتها، وهي في نظرهم تقع على رأس الجميع، ولها الصدارة على كل منطقة الشرق، وكانت تدعى في القديم «ريبلاتا»[١].

«وقد أنزلت الكراسي الرئيسية في المسيحية منذ أيام الرسل الأولى في العواصم الثلاث لعالم البحر المتوسط: روما والإسكندرية وإنطاكية... ولان القسطنطينية هي روما الجديدة، أسندت الأسقفية لأسقف روما القديم، بيد أن بطريقي الإسكندرية وإنطاكية ومن بعدهما

(١) وليم الصوري، **الحروب الصليبية**، ج١، ترجمة د. حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١، ص٢٧١.

زميلهما بطريق بيت المقدس، الذي أنشئ منصبه فيما بعد، كانوا يتلونه في المرتبة»[١].

تعزو الروايات التاريخية بناء هذه المدينة إلى احد خلفاء الإسكندر المقدوني المدعو «انطيوخس أو انتيوكس» في المصادر اللاتينية «وانطيغونيا» في المصادر الإسلامية[٢]. وكما هو واضح فان اسم المدينة نسب إلى مؤسسها الأول انطيخوس.

وقد اعتبر المسلمون هذه المدينة قصبة العواصم من الثغور الشامية، وقيل أنها من أعيان البلاد وأمهاتها، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء، وكثرة الفواكه وسعة الخير[٣]. وهكذا فإنطاكية محط اهتمام كلا الطرفين المسيحي والإسلامي.

ومما يجدر ذكره أن العرب فتحوا هذه المدينة سنة ١٥هـ، في أعقاب معركة اليرموك ١٥هـ/٦٣٦ م وتحرير سورية من النفوذ الروماني. بقيت المدينة تحت الإدارة الإسلامية المباشرة حتى عام ٣٥٥هـ/٩٦٥م ثم تناوب المسلمون والروم السيطرة على إدارتها، وفي العهد السلجوقي كانت هذه الإدارة تتبع حاكم حلب[٤]. ولعل من أسباب عظمة إنطاكية في أعين المسيحيين، وجود كنيسة ذائعة الصيت، بنيت تمجيدا لذكرى بطرس الرسول، الذي أصبح أسقفا فيها بعد أن استلم من السيد المسيح صدارة الكنيسة، ومفاتيح مملكة السماوات[٥]. ويبدوأن موقع المدينة الإستراتيجي وتحصيناتها المنيعة، جعل كلا الطرفين المسيحي والإسلامي، ينظران إليها كصمام أمان، يقي كل طرف عدوان الطرف الآخر.

تصف المصادر المعاصرة للحملة الفرنجية على إنطاكية أن المدينة كانت من أقوى مدن ذلك العصر تحصينا، بحيث لا يمكن مقارنتها في مناعتها وقوة تحصينها إلا بالقسطنطينية، وانه لا يمكن أن يأخذها عدومن الخارج، إذا ما توافرت فيها الإمدادات والغذاء، وإذا ما

(١) استيفان رنسيمان، **الحضارة البيزنطية**، ترجمة: عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م، ص١٢٤-١٢٥.

(٢) انظر ياقوت الحموي، **معجم البلدان** "إنطاكية" دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج١، ص ٢٦٦.

(٣) المرجع السابق.

(٤) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم (٥٥٥-٦٣٠هـ) التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر احمد الطليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٣م، ص٦.

(٥) فوشية الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة د. زياد العسلي، ط١، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ١٩٩٠م؟، ص٥٣.

عقد سكانها العزم على الدفاع عنها[1].

كان غالبية سكان إنطاكية غداة الحملة الصليبية في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، من السريان والأرمن، وكان للمدينة حامية تركية غير أن السكان كانوا موزعين بين مختلف الكنائس المسيحية[2].

الشام في ظل السلاجقة:

كان ملكشاه السلجوقي قد وزع امبراطوريته بين أولاد أخيه وأتباعه اعتقادا منه أنهم كلما تذكروا مآثره عليهم اشتد ارتباطهم به، فكانت نيقية وما جاورها من ولايات من نصيب قلج أرسلان، وكان في نزاع دائم مع الإمبراطورية البيزنطية، وجعل دمشق وما حولها لابن أخيه دقاق، وكان في نزاع دائم مع الدولة الفاطمية في مصر، أما التابع الآخر، فهو آق سنقر، وهو والد عماد الدين زنكي، وأغدق ملكشاه فيض كرمه على ياغي سيان فجعل إنطاكية من نصيبه[3].

ملكشاه هذا هو أعظم سلاطين السلاجقة، وهو ابن السلطان ألب ارسلان بطل معركة ملاذكرت ٤٦٣هـ/١٠٧١م ضد الروم (البيزنطيون)، والتي كان من نتائجها استنجاد الإمبراطور البيزنطي بالبابا وأوروبا لدرء الخطر السلجوقي الإسلامي عن بيزنطية وأوروبا[4]،

(١) انظر الشارتري، المرجع السابق، وياقوت الحموي، المرجع السابق، مؤلف مجهول (Gesta) **أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس**، ترجمه وعلق عليه: د.حسن حبشي، دار الفكر العربي، ص٤٩. وانظر د.سعيد عبد الفتاح عاشور، **تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى**، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٦م، ص١٤٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر – بيروت، م١٠، حوادث (٤٩١هـ) وانظر عاشور، المرجع السابق ص١٤٤، وانظر كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة احمد الشيخ، سينا للنشر، ١٩٩٥م، ص١٠٠.

(٣) الرواندي، محمد بن علي بن سليمان، **راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية** نقلة إلى العربية: د. إبراهيم أمين الشواربي، وعبد النعيم محمد حسنين، وفؤاد عبد المعطي الصياد، دار القلم، القاهرة، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م، ص٢٠٣–٢٠٦. وليم الصوري، المرجع السابق، ص٢٧٧–٢٧٨.

(٤) انظر ابن الأثير، الكامل ١٠/٦٥–٦٩. وعماد الدين محمد بن حامد الأصفهاني، **تاريخ دولة آل سلجوق**، اختصار الشيخ الإمام الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٣ ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٤٠–٤٤.

وكان للسلطان ملكشاه أربعة بنين هم: بركياروق ومحمد وسنجر ومحمود، وكان محمود عند وفاة والده طفلا، وبتدبير من والدته تركان خاتون زوجة ملكشاه بويع محمود بالسلطنة في بغداد، بينما كان بركياروق اكبر أولاد ملكشاه في أصفهان، وسيرت تركان خاتون قوة للتخلص من بركياروق، إلا أن مساعيها لم تفلح، وبويع بركياروق بالسلطنة[١].

وكان كربوقا (الذي يظهر اسمه لأول مره) قائد حملة تركان خاتون إلى أصفهان، ومنذ هذه الحادثة اخذ اسمه يتردد في الحوادث والصراعات بين أبناء ملكشاه، منتقلا من ولاء سيد إلى ولاء سيد آخر، ولعله كان يتمتع بمزايا عسكرية وسياسية جعلت المتنافسين يسعون إلى كسبه كل إلى صفه.

كان آخر حكام إنطاكية من قبل الإمبراطورية البيزنطية: فيلاريتوس الارمني حتى انتزعها منه، زعيم سلاجقة الروم سليمان بن قتلمش في فبراير سنة ١٠٨٥م، وعندما تغلب تتش أخو السلطان ملكشاه على سليمان هذا، سنة ١٠٨٦م، صارت إنطاكية من أملاك تتش، حتى اختار أخوه ملكشاه أن يأخذها منه ويعطيها لأحد رجاله من التركمان، وهو ياغي سيان سنة ١٠٨٧م، على إن يكون تابعا لرضوان بن تتش ملك حلب، ولكن الحروب والخلافات التي حصلت بين رضوان ملك حلب وأخيه دقاق ملك دمشق، جعلت ياغي سيان يقف إلى جانب دقاق، ومع ذلك لم ينجحا في التغلب على رضوان ملك حلب[٢].

ويمكن وصف حالة الدولة السلجوقية غداة خروج الصليبين من أراضي الدولة البيزنطية نحو إنطاكية، بأنها حالة صراع على العرش وحروب بين الأخوة والأتباع من أبناء السلطان ملكشاه، فالكل طامع بالكل وتكاد الثقة تنعدم حتى بين الحلفاء من حكام الدولة السلجوقية، يضاف إلى ذلك العلاقات الحربية مع الدولة الفاطمية في مصر، ولا شك أن الانشقاقات بين حاكم إنطاكية، وبين رضوان الحلبي، وبين سلاجقة سوريا، أضعفت كثيراً جهود المسلمين في مواجهة الغزو الفرنجي.

(١) ابن الأثير، الكامل، ١٠/٢٢٤-٢٣٢.

(٢) انظر ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، ت٦٦٠هـ، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، حققه وقدم له: د. سهيل زكار، ج١، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص٢٤٤-٢٤٥. وانظر عاشور المرجع السابق، ص١٩٠.

الحملة الفرنجية والصراع على إنطاكية:

أما الجبهة الفرنجية (الصليبية) فكانت تتكون من أخلاط شتى من سكان أوروبا الغربية، وكانت هذه الأخلاط متباينة الأهداف، فمن رغبة في النهب والسلب وجمع المال، إلى دوافع دينية، أو انقياد للسادة الأمراء والملوك، وكان قادتهم الكبار لا يختلفون عن العامة في الأهداف، وتثور بينهم أحياناً رياح الحسد والتنافس على الرياسة، ومع ذلك دلت أعمالهم على قدر كبير من الحنكة والشجاعة، ومما زاد في أعباء قادة الحملة الفرنجية ريبة الإمبراطور البيزنطي بهم وبأطماعهم، مما جعله يتعامل معهم بحيطة وحذر، وأخذ عليهم ميثاقاً، بأن يسلموه كل مدينة أو بلدة يستولون عليها من المسلمين.

وقد برز في هذه الحملة التي اجتاحت شمال سورية المتاخم للدولة البيزنطية، قادة على قدر من الدهاء من أمثال: تانكرد، وريمون الصنجيلي، وبلدوين، وبوهيمند، وجودفري، وفلاندرز وغيرهم.

وتعتبر الحملة الفرنجية الأولى عمل فرنسي بالدرجة الأولى وإن خالطت الفرنسيين عناصر أخرى. كان لكل قائد من هؤلاء فرسانه ومقاتلوه الذين خرجوا من بلاده، وهم في كل الأحوال أتباعه ويأتمرون بأمره.

في هذا التشكيل أطبق الفرنجة على مدينة إنطاكية، بعد أن أحرزوا نجاحات في الاستيلاء على المدن والمواقع الحدودية، مثل نيقية، وحصون الدروب، والبارة، وفامية وكفر طاب ونواحيها[١].

كان كل قائد من القادة الذين ذكرناهم يطمح أن تكون إنطاكية من نصيبه، فكان بوهيمند قد ورث كراهية بيزنطة من والده، وأخذ يدبر أمر الفكاك من التبعية للإمبراطور البيزنطي ويحيك المؤامرات ليجد الوسائل التي تسوغ له حكم إنطاكية وعدم تسليمها للإمبراطور البيزنطي، باتفاق قادة الحملة الصليبية.

---

(١) جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ٧١٣-٨٧٤هـ. **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ج٥، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د.ت، ص١٤٦، وانظر وليم الصوري، مرجع سابق، ١/١٩٣ وما بعدها.

لم يكن حصار الفرنجة لإنطاكية أمراً سهلاً، وإنما كان مغامرة ومجازفة محفوفة المخاطر، بسبب حصانة المدينة وطبيعة البلاد المحيطة بها.

يصف لنا مؤلف كتاب أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، حال الفرنجة خلال الحصار بقوله: «وأصبحنا لا نكاد نجرؤ على مغادرة المعسكر، وعدنا لا نجد في منطقة المسيحيين شيئاً مما يمكن أن نتبلغ به، زد على ذلك، أنه لم يجسر أحد على اقتحام أرض المسلمين، إن لم يكن في النفر العديد والحشد الكثيف..»[(١)].

ولعل هذا الحال الذي سبق وصفه ناتج عن الهجمات المفاجئة التي كان يتعرض لها جنود الفرنجة من الحاميات التركية من داخل أنطاكية ومن خارجها التي تستعمل أسلوب الكر والفر مستفيدة من معرفتها بطبيعة المنطقة[(٢)].

كان القادة الفرنجة في حالة تنافس وبخاصة بين بلدوين الفرنسي وبوهيمند الترانتي والنورماندي[(٣)] الذي كان يتباطأ في الاستيلاء على إنطاكية، حتى يستكمل خيوط التآمر والخداع لتكون أنطاكية من نصيبه إذا ما تم الاستيلاء عليها.

إن هذا الوضع الناتج عن نفاذ قوت المحاصَرين، وصمود المدينة، وقوة أبراجها، واستبسال حامياتها، بالإضافة إلى العوامل الأخرى التي أشرنا إلى بعضها، جعلت الفوضى والمجاعة تدب في أوساط القوات الفرنجية، مما جعل الجند يفرون من المواجهات، لم تقتصر هذه الظاهرة على الجند المغمورين، بل إن بطرس الناسك نفسه ووليم النجار أمير ميلون، اختفيا فجأة، فجد القائد تنكرد في أثرهما حتى قبض عليهما وأعادهما إلى بوهيمند الذي وبخهما لفرارهما، وأخذ عليهما عهداً بعدم ترك الجيش الصليبي حتى يتم الاستيلاء على بيت المقدس[(٤)].

وهنا قد يتساءل الرجل العاقل: (أي الحالين كانت أحسن من غيرها، وأيها كانت مبعث

(١) ترجم الكتاب وقدم له وعلق عليه: الدكتور حسن حبشي، دار الفكر العربي ويعرف هذا الكتاب بـ: (Gesta)، ص٥٤-٥٥.

(٢) انظر التفاصيل عند وليم الصوري، المرجع السابق ١/٢٨٤ وما بعدها.

(٣) انظر كلودكاهن، المرجع السابق، ص٩٣-٩٤. والترانتي، نسبة إلى تورنتو، وكان معظم جنده من النورمانديين.

(٤) الجستا، مرجع سابق، ص٥٥. د. سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، مكتبة الأنجلو المصرية، ج١، ص١٩٥.

فرح: حالة الجيش المُحاصر أم أولئك الذين كان المفروض فيهم أن يكونوا مُحاصرين؟»[١].

وإذا كان الحال هكذا، فكيف عجز السلاجقة عن القضاء على هذه الحملة، ثم كيف انقلبت الأحوال وتمكن الفرنجة من احتلال أنطاكية؟!

إن في ما حدث لإنطاكية يفسر لنا كثيراً من حالات الفشل التي واجهت العالم الإسلامي حتى يومنا هذا، وكأن درس إنطاكية لم يقرأه أحد!!. تفيد المصادر العربية أن ياغي سيان أخرج النصارى من إنطاكية عندما حاصرته جيوش الفرنجة، فانضم هؤلاء إلى معسكر الأعداء[٢]، وذكرت مصادر عربية أيضاً أن الأفضل بن بدر الجمالي حاكم مصر الفاطمي، استغل الهجوم الفرنجي على بلاد الشام، واحتل بيت المقدس وأرسل سفارة إلى قادة الحملة الفرنجية أثناء حصارهم لإنطاكية بقصد التعاون معهم ضد السلاجقة، وتقاسم المغانم[٣]، وأشار بعض هذه المصادر إلى حدوث عصيان بعض رعايا ياغي سيان عند قدوم الفرنجة نحو إنطاكية وطلبوا المدد من الفرنجة، وذكرت أن «هذا كلّه لقبح سيرة ياغي سيان وظلمه في بلاده»[٤]. تضيف بعض الروايات أن تباطؤ النجدة التي قادها كربوقا أمير الموصل والمكونة من ملوك وأمراء بلاد الشام، وانشغال هؤلاء بمحاصرة الرها التي استولت عليها القوات الفرنجية، خارج أنطاكية، منح الفرصة المناسبة لقادة الحملة الفرنجية لإصلاح أحوالهم، واتخاذ الاستعدادات اللازمة، مما مكنهم من الاستيلاء على إنطاكية[٥].

وإذا ما جمعنا هذه الأسباب إلى بعضها، نجدها تقدم الصورة العربية لأسباب سقوط إنطاكية بيد الفرنجة، وأبرزها أن الشعوب الشرقية كان يجمع بينها على الرغم من تنوعها الشديد، عدم تمكنها من إدراك الجدّة في الحملة الفرنجية.

---

(١) وليم الصوري، المرجع السابق، ١/٢٩١.

(٢) انظر ابن الأثير، الكامل ١٠/٢٧٤، وسبط ابن الجوزي، شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي ٥٨١-٦٥٤هـ، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، ج١، تحقيق ودراسة د. مسفر بن سالم بن عريج الغامدي، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٢٧٩.

(٣) وليم الصوري، الحروب الصليبية ١/٢٠٤، وانظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص١٩٨، وانظر رسالة العباس وزير الخليفة الفاطمي إلى الفرنجة (البيازنة)، عند كلودكاهن، المرجع السابق، ص٢٩١.

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ص٣٤٥-٣٤٦.

(٥) انظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص٢٠٣.

أما المصادر اللاتينية فلها وجهة نظر مختلفة عن أسباب سقوط إنطاكية بأيدي الفرنجة، فتقول هذه المصادر أن: «الأرمن والسريان الذين كانوا بداخل المدينة أسرعوا بالخروج والهروب منها تاركين خلفهم نساءهم وأولادهم بالمدينة، فاستفسروا منا عن هدفنا وأمدونا بمعلومات عن كافة أسرار المدينة»[١].

تتفق المصادر العربية واللاتينية على أن من أهم أسباب سقوط إنطاكية بيد الفرنجة إنما تعود إلى أحد حماة أحد أبراج المدينة ويدعى «فيروز» أو»الزراد»، الذي اتفق مع بوهيمند الذي آلت إليه قيادة الحصار على المدينة، على أن يسلم المدينة إلى بوهيمند فقط، وأبقى بوهيمند علاقته مع فيروز سرية حتى تمكن من أخذ ميثاق من قادة الفرنجة على أن تكون إنطاكية من نصيب من تفتح على يده، وهكذا رتب أموره مع فيروز، وفي الوقت المحدد، سمح بدخول جند الفرنجة من قبله، مما سمح باحتلال المدينة مع ذلك بقيت القلعة الرئيسية حيث يوجد ياغي سيان بيد الحامية التركية»[٢].

لقد استمر حصار الصليبيين لإنطاكية من ٢١ أكتوبر سنة ١٠٩٧ حتى ٣ يونيه ١٠٩٨، أي حوالي سبعة أشهر في بعض الروايات وفي روايات أخرى تزيد مدة الحصار أو تنقص قليلاً[٣].

ارتكب الصليبيون في إنطاكية أعمالاً وحشية ضد المسلمين، وصفها الشارتري المرافق للحملة والمشارك فيها بقوله: «... دب رعب هائل في نفوس الأتراك، ورأوا

---

(١) سعيد عاشور (نقلاً عن Gullaume de Tyre,vol.1, p.174-175) و لم أعثر على هذا النص في النسخة المترجمة إلى العربية والمستخدمة في هذا البحث.

(٢) ابن الأثير، الكامل ٣٧٤/١٠، ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي ٤٧٠–٥٥٥هـ/١٠٧٧–١١٦٠م، **تاريخ دمشق**، تحقيق د. سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٢٢٠، ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن (٨١٢–٨٧٤هـ)، ج٥، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، ص١٤٦.

وليم الصوري، المرجع السابق ١/ ٣٣٤–٣٣٥، الشارتري، المرجع السابق، ص٥٧–٥٨. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة (Gesta)، ص٦٤ وما بعدها.

(٣) انظر س. رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٨١م، ص١ /٢١٤ وما بعدها، وانظر Gesta، ص٤٩.

– جاء في بعض المصادر تواريخ أخرى لسقوط أنطاكية بيد الصليبيين، انظر، سبط بن الجوزي، مرجع سابق، ٢٠٩/١ (حا: ١٠)، وابن الأثير، الكامل ٢٧٤/١٠.

الفرنجة يقتحمون الشوارع بسيوف مشرعة، ويقتلون الناس بوحشية، أصابتهم الرهبة، وأمعنوا في الفرار لا يلوون على شيء. وهرب من الأتراك من استطاع أن يصل إلى القلعة على جرف الجبل»[١]. أما ابن الأثير فيقول، «أن الفرنج دخلوا البلد من الباب، ونهبوه، وقتلوا من فيه من المسلمين»[٢]، ويذكر ابن الجوزي، أنه قتل وسبى من أهل إنطاكية، من الرجال والنساء والأطفال ما لا يدركه حصر»[٣].

كان ياغي سيان قد استنجد بالأمراء والحكام المسلمين، واستصرخهم لمواجهة الخطر الذي يتهدد بلده، غير أن المدينة سقطت بيد الفرنج قبل وصول النجدات.

هرب ياغي سيان من المدينة وخلف ولده شمس الدولة في القلعة مع الحامية، ولعل هربه كان بقصد استعجال نجدات المسلمين إلا أن جواده كبا به في الطريق وهاجمه الأرمن وقتلوه.

توضح المصادر اللاتينية دور الإيمان وإخلاص الرب لهم وحصول الخوارق والمعجزات، ومن ثم شجاعة الجند الفرنج وفنونهم في القتال مما جعل الفرنج القله أن ينتصروا على المسلمين الكثرة، رغم قساوة الظروف التي أحاطت بالفرنجة أثناء الحصار[٤]. كان لسقوط إنطاكية وقع شديد ومتباين، فالعالم المسيحي أعلن فرحته واستبشر بتوالي الانتصارات، وتحفز جند الفرنجة لمواصلة السير إلى بيت المقدس[٥].

أما وقع الحدث في الأوساط الإسلامية فكان مؤلماً، ومنذراً بالخطر، مما استدعى أمراء الشام والجزيرة إلى الجد في مواجهة هذا الخطر، وهكذا استجاب السلطان بركياروق وندب قوام الدولة كربوقا ليكون قائداً للحملة لتخليص إنطاكية من الفرنجة، فجمع العساكر وسار من الموصل إلى الشام وأقام بمرج دابق، حيث اجتمعت معه عساكر الشام تركها وعربها سوى من كان بحلب[٦]. ومن الذين لبوا النداء واجتمعوا إلى كربوقا، دقاق بن تتش ملك دمشق،

(١) الشارتري، مرجع سابق، ص٥٨.

(٢) الكامل ٢٧٥/١٠.

(٣) سبط، المرآة ٢٠٩/١.

(٤) وليم الصوري، مرجع سابق، ص٢٢٦/١، الجستا، ص٨٠ وما بعدها، الشارتري، مرجع سابق، ص٥٨ وما بعدها.

(٥) س. رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ٢٥٣/١.

(٦) ابن الأثير، الكامل ٢٧٦/١٠، تذكر بعض المصادر مشاركة رضوان صاحب حلب، انظر مرآة الزمان

وطغتكين أتابك الملك دقاق، وجناح الدولة، صاحب حمص، وأرسلان تاش، صاحب سنجار، وسقمان بن ارتق، صاحب ماردين وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم[١].

يصف ابن القلانسي جيوش الشام وحصارها للفرنجة في إنطاكية فيقول: «فتجمعت عساكر الشام في العدد الذي لا يدركه حصر ولا حزر، وقصدوا عمل إنطاكية للإيقاع بعسكر الإفرنج، فحصروهم حتى عدم القوت عندهم، حتى أكلوا الميتة ثم زحفوا وهم في غاية الضعف إلى عساكر الإسلام، وهم في غاية من القوة والكثرة، فكسروا المسلمين، وفرقوا جموعهم، وانهزم أصحاب الجرد السبق، ووقع السيف في الرجال المتطوعين والمجاهدين والمغالين في الرغبة في الجهاد، وحماية المسلمين كان ذلك يوم الثلاثاء السادس من رجب في السنة[٢] (إحدى وتسعين وأربعماية).

تصف المصادر اللاتينية حال الفرنجة في إنطاكية وهم تحت الحصار أسوأ وصف، فيقول صاحب الجستا: «بلغ من ضيق الحصار علينا أن اضطررنا لأكل خيولنا وحميرنا»[٣]ويقول فوشيه الشارتري عن الفرنجة وهم تحت الحصار «لم يستطيعوا أن يطيقوا هذا العذاب أكثر من ذلك، إذ لم يبق لديهم ما يأكلونه مما أوهنهم وأنهك جيادهم»[٤].

كان وقع الأخبار بقدوم الأمير كربوقا على رأس جيش كثيف، أليماً في نفوس المحاصرين[٥]، ويبدو أن سمعة كربوقا وشدته، وحجم الجيش الذي يقوده هما أسباب هذا الذعر الذي أصاب الأوساط الفرنجية.

وإذا كانت هذه حال الفرنجة تحت الحصار في إنطاكية، وهذه حال الجموع الإسلامية من ترك وتركمان وفرس وعرب، فما الذي قلب الموازين وجعل القلة المحاصرة واليائسة، أن تنتصر على الكثرة المهاجمة، الكثيرة العدد والعتاد؟!

١/٣١٠، ومن المعروف أنه لم يكن على علاقة حسنة مع ياغي سيان.

(١) نفس المصدر، وانظر مرآة الزمان ١/٣١٠.

(٢) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص٢٢١.

(٣) أعمال الفرنجة، ص٨٠.

(٤) الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٦١.

(٥) انظر وليم الصوري، المرجع السابق، ص٣٣٩.

تجيب المصادر اللاتينية على هذا التساؤل بأن فضل ذلك يعود للخوارق أي لمساعدة الرب لشعبه من النصارى، لهذا الشارتري يقول: «في تلك الأثناء ظهر الرب، غير ناس عباده، لكثير من الناس، وقد كرروا ذكر هذه الحقيقة، وطمأنهم ووعدهم أنهم سيفرحون بالنصر في القريب... وأمرهم الرب بعدم الهرب: «لا تهرب بل عد... لأنني أنا الذي أكلمك أنا الرب»[١]. وتذكر بعض المصادر اللاتينية نصائح وتوسلات لأم كربوقا، التي قدمت من حلب، لمقابلة ولدها وثنيه عن مقاتلة الفرنجة «أستحلفك يا بني بجميع الأرباب، وبحق طبيعتك السمحاء أن ترجع عن قتال الفرنجة... أتوسل إليك يا ولدي الحبيب أن تستمع إلى نصائحي، وألا تحاول مطلقاً التفكير في قتال الأمة المسيحية، أوالشروع في منازلتها»[٢]. وتوحي صياغة الحوار بين الأم وولدها وكأنها كانت تؤمن بالديانة النصرانية، وحتمية انتصار النصرانية: «يا بني العزيز، لقد تبين بعضهم منذ أكثر من مائة سنة، أنه جاء في كتابنا وفي كتابات الوثنيين أن الأمة المسيحية ستهاجمنا، وسيعقد لها النصر علينا في كل ناحية، وأنها ستسود الوثنيين..»[٣]، ويلاحظ تشابه الوصف بين ما ورد على لسان الأم وما أورده مؤرخو الحملة الصليبية في وصف الجيوش الإسلامية المُحاصِرة بالوثنية، كما يدلل على ضعف الإيمان في الجبهة التركية، أن أحمد بن مروان الذي سلمه كربوقا، قلعة إنطاكيا من ابن ياغي سيان، سلم القلعة لبوهيمند، واعتنق المسيحية وانضم لجيوش الفرنجة بعد هزيمة كربوقا[٤]. لم تذكر المصادر العربية تدخل أم كربوقا في حصار إنطاكية، ولكن يستنتج من مجمل الروايات أن كربوقا كان متقلباً في ولائه، مستبداً في إمرته، ومستهيناً بخصمه، معتمداً على كثرة جيوشه، وكأنه لم يستوعب الدرس الذي لم تمض عليه مدة طويلة، حيث تمكن الفرنجة وهم في حال من الضعف من الاستيلاء على أنطاكية. وإذا كان حصار الفرنجة لإنطاكية قد استغرق سبعة شهور ونيف فإن حصار الجيوش التي قادها كربوقا لم يستمر إلا أياماً (من ٥ يونيو إلى ٢٨ يونيو ١٠٩٨م)[٥].

تذكر بعض المصادر العربية أن العلاقات بين الجموع المُحاصرة للفرنجة لم تكن على

(١) الشارتري، المرجع السابق، ص٦٠.

(٢) الجستا، ص٧٥-٧٦.

(٣) نفس المصدر.

(٤) انظر كلودكاهن، مرجع سابق، ص٣٧٢.

(٥) الجستا، ص٧١.

وفاق، فقد جرت بين الأتراك والعرب منافرة عادوا لأجلها، وتفرق كثير من التركمان بتدبير من الملك رضوان ملك حلب، وتخوف بعض الأمراء من بعض»[١].

وذكرت مصادر أخرى أن الفرنجة المحاصَرين في إنطاكية أرسلوا وفادة إلى كربوقا، يعلنون فيها رغبتهم بالحصول على الأمان مقابل دفع الجزية، والخروج من إنطاكية، لكن كربوقا خاطبهم قائلاً: «لا تخرجون إلا بالسيف»[٢]. مما أدى إلى ضياع هذه الفرصة، وإصرار الفرنجة على المقاومة حتى الموت.

كان الحصار شديداً، وكل الظروف مهيأة لانتصار المسلمين، فقد بلغ اليأس عند الفرنجة، أن كثيراً من زعمائهم، تسللوا وسط الظلام وآثروا الهرب والنجاة بأنفسهم، كما أن بعضهم فت في عضد الإمبراطور البيزنطي اليكسوس، فرجع بجيوشه بينما كان في منتصف الطريق قادماً لنجدة الجيوش الفرنجية المُحاصَرة، لأن الهاربين أخبروه بهلاك الفرنجة وسقوط إنطاكية بيد الأتراك.

لم يكن الأمر يحتاج لأكثر من استمرار الحصار لعدة أيام، حتى يهلك الفرنجة داخل إنطاكية. إن الذي حصل يستحق التمحيص والاستدلال، لإزالة هذا الغموض، وحصول هذه الفاجعة بهذا الجيش العرمرم، الذي لن يكتب للمسلمين حشد مثله إلا على يد القائد صلاح الدين الأيوبي.

إن تكرار مثل هذه النتائج في بعض فترات التاريخ الإسلامي تجعل الباحث يتساءل، هل أن ضعف الإيمان، وغياب قوة العقيدة، هما السبب، أم عدم التجانس في الأهداف وفي الأعراق والولاءات هي المسؤولة عن هذه النتائج؟!، أم أن الخبرة العسكرية الفرنجية والتعبئة المسبقة لهذه الجموع ضد المسلمين هي السبب؟! وفي كل الأحوال جاء درس إنطاكية لينضاف إلى دروس كثيرة سبقته وأخرى لحقته، لتتكرر هزائم الأمة، وتكثر مآسيها.

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ص٣٥٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل ٢٧٦/١٠.

الدروس المستفادة:

١- إن الدرس الأول يتمثل في أن حالة التشرذم وانقسام الأمة إلى كيانات، هو من أهم الأسباب التي أدت وتؤدي إلى النكبات، كما هو واضح في خريطة الأمة العربية الإسلامية غداة الغزو الفرنجي في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، وكذلك خريطة العالم العربي غداة الغزو الصهيوني والاستعمار الغربي للمشرق العربي.

٢- إن انقسام الدولة الواحدة إلى وحدات سياسية يؤدي إلى نزاعات بينية، وصراعات وحروب داخلية، ويخلق نزاعات إقليمية وعرقية ومذهبية.

٣- إن الدولة القطرية يصاحبها نزعة انفصالية عن الأمة، ويتيح المجال لحالة من النفاق والفساد تضعف معه المبادئ والقيم الأساسية الموروثة من تاريخ الأمة.

٤- إن العرب والمسلمين لم يستخلصوا العبر من نكباتهم المتكررة، ودعت حالهم إلى الاعتماد على الغير، والاستكانة إلى واقعهم، وعدم الأخذ بأسباب النهوض التي أخذ بها غيرهم.

٥- إن في العرب المسلمين، خاصية سلبية، أنهم في صراعهم مع بعضهم أشد نكاية بغيرهم، لا بل يتجاوزون كل حد، ويقدمون على التعاون مع العدو الأجنبي الطامع ببلادهم ضد إخوانهم من بني جلدتهم.

فهل يعي العرب اليوم هذه الدروس، وقد أصبحت بلادهم مرتعاً لكل طامع، وهل يسمو الإنسان العربي عن أنانيته وفرديته، إلى حيث مصلحة الأمة في الوحدة والقوة؟ أسأل الله أن يتحقق ذلك



لمحات من تاريخ أيلة (العقبة)

في العصر الإسلامي

تذكر المصادر العربية أيلة كثيرًا عند الحديث عن الأمور التجارية والسياسية لمنطقة جنوب الأردن، والحجاز، وشمال البحر الأحمر، ففيها تلاقت قديمًا السلع المختلفة من الصين والهند وبلاد العرب وأفريقيا وأوروبا. وهذه الأهمية لأيلة اكتسبتها من موقعها الهام كحلقة وصل في العالم القديم، ولذلك استفادت الأمم التي سيطرت على هذه المنطقة من أيلة واستخدمتها في الأغراض الاقتصادية والعسكرية.

وعلى الرغم من هذه الأهمية لم تحظ أيلة بدراسة شاملة وجادة تتناسب وتاريخ هذا الثغر عبر العصور.

وقد قامت بعثة المدارس الأمريكية للدراسات الشرقية في الأعوام ١٩٣٨-١٩٣٩ بحفريات في موقع، تل الخليفة، القريب من العقبة الحالية[١] ونشر جلدن[٢] وموسل[٣] بعض الدراسات حول (أيلة). غير أن ما نشروه جزئي ولا يعالج إلا نواحي خاصة من أيلة في فترات تاريخية قصيرة ومحددة. ولذلك بقي تاريخ أيلة بحاجة إلى دراسة شاملة.

تحتل العقبة اليوم مكانة هامة في الاقتصاد الأردني واقتصاد الأقطار المجاورة، الأمر الذي حفزني على محاولة القيام بالدراسة التاريخية المطلوبة لهذا الثغر ذى التاريخ الطويل، آملا أن أستطيع قضاء بعض حق لهذه المدينة أو أن ألفت نظر الباحثين نحوها، وفي كلتا الحالتين خدمة للمكتبة التاريخية العربية. والله من وراء القصد.

---

(١) N.Glueck, Bulletin of the American Schools of Oriental Research, 71 (1938) pp . 3f 75 (1939) 8f.
وانظر أيضا محمود أبو طالب، **تاريخ الأردن وفلسطين في العصور القديمة**، عمان ١٩٧٨، ص٢٤.

(٢) H.E. Glidden, The mumluk Origin of the Fortified khan, At Al-Akabah, Jordan, p. 116-118.
وانظر مقالته عن أيلة في: The Ency of Islam. 2,Vol,1 pp. 783-84.

(٣) موسل(Musil)دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، مادة (أيلة).

١- ذكر الجغرافيون العرب (أيلة) وضبطوا أسمها فجعلوه على وزن فعلة، وحددوا موقعها على ساحل بحر القلزم، وقالوا هي آخر الشام وأول الحجاز، وآخر الحجاز وأول الشام، يجتمع فيها الحجاج، وذكروا أن فيها زروعا وتجارة وسمكا[١] .

أما المقدسي فسماها ويلة وقال: هي مدينة على طرف شعبة بحر الصين عامرة جليلة[٢] وأعتبرها فرضة فلسطين وخزانة الحجاز، وقال: العوام يسمونها أيلة، وأيلة قد خربت على قرب منها[٣] وذهب بعضهم إلى أنها هي التي قال الله فيها: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾[٤] [الأعراف: الآية (١٦٣)].

وقد اختلف المفسرون في تعيين هذه القرية الوارد ذكرها في الآية السابقة. فقيل هي أيلة وقيل مدينة بين أيلة والطور وقيل طبرية، وذهب بعضهم إلى أنها ساحل من سواحل الشام بين مدين وعينونة يقال لها (معناة)[٥].

ووصف المقدسي مجتمع ويلة قائلاً: "وفي ويلة تنازع بين الشاميين والحجازيين والمصريين كما في عبادان، واضافتها إلى الشام أصوب لأن رسومهم وأرطالهم شامية وهي فرضة فلسطين ومنها يقع جلابهم"[٦].

وهذا يشير إلى أن سكان أيلة في القرن الرابع الهجري كانوا خليطا من الشاميين والحجازيين والمصريين، وقد يكون التنازع نتيجة التنافس التجاري. ويبدو من كلام المقدسي أن الايليين تأثروا بأهل الشام أكثر من غيرهم، ويعود ذلك إلى أن أيلة كانت

(١) انظر اليعقوبي، البلدان ٨٥، ٩٤، والهمداني، صفة جزيرة العربي ص٣، ٥٨. والمقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص١٧٨-١٧٩. والبكري، معجم ما استعجم ٢١٦/١. وابن الفقيه الهمداني، البلدان ص٢٥ وما بعدها وابن حوقل صورة الأرض ص١٥٣، والاصطخري، المسالك والممالك، ص١٤، ٤٩، والحربي، المناسك، صفحات متفرقة (انظر ثبت الأماكن)، والقزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص١٥٣. وأبو الفداء، تقويم البلدان ص٢٥، والحميري، الروض المعطار، ص٧٠-٧١.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) انظر المقدسي، المرجع السابق. والمقريزي، خطط ص٣٤٥/١.

(٥) المقريزي، خطط ٣٤٥/١. عينونة: قيل هي من قرى بيت المقدس، وقيل قرية من وراء البثنية من دون القلزم في طرف الشام. ياقوت، معجم البلدان، مادة (عينون).

(٦) المرجع السابق، ص١٧٩.

تتبع فلسطين في أغلب العصور.

وقد اختلف في سبب تسميتها بهذا الاسم، ففريق ذهب إلى أن (أيلة) اسم لجبل برضوى، وهو غير المدينة المذكورة، أي جبل ينبع بين مكة والمدينة واستشهد بشعر القائل: من وحش أيلة موشى أكارعه والوحش لا ينسب إلى المدن، وفي هذا المعنى أيضا

قال كثير عزة:

رأيت وأصحابي بأيلة موهنا	وقد غار نجم الفرقد المتصوب
لعزة نارًا ما تبوخ كأنها	إذا ما رمقناها من البعد كوكب
تعجب أصحابي لها حين أوقدت	وللمصطليها آخر الليل أعجب
إذا ما خبت من آخر الليل خبوة	أعيد لها بالمندلي فتثقب[١]

وفي مكان آخر من شعر كثير نجد أنه استعمل لفظ، أيلة، للدلالة على جبل، فقد قال:

ولو بذلت أم الوليد حديثها	لعصم برضوى أصبحت تتقرب
تهبطن من أركان ضاس وأيلة	إليها ولو أغرى بهن المكلب[٢]

وهناك من يرى أنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى (أيلة) بنت مدين بنت ابراهيم الخليل عليه السلام[٣].

وفي لسان العرب لابن منظور: (ايّل) اسم جبل، واستشهد بقول الشماخ:

تربع أكناف القنان فصارة	فايّل فالما وان فهو زهوم[٤]

وأما ما يدل على أنها اسم بلدة فقول ابن الأعرابي:

فانكم والملك يا أهل أيلة	لكالمتأبي وهو لي له أب[٥]

(١) ياقوت، معجم البلدان (أيلة) ٢٩٣/١. البكري، معجم ما استعجم ٢١٧/١، الهمداني، صفة ٣٣٤، ابن حوقل، صورة الأرض ١٥٣.

(٢) ياقوت، معجم البلدان (أيلة) ٢٩١/١، المكلب: الذي يعلم الكلاب أخذ الصيد، لسان العرب (كلب). ضاس موضع بين المدينة وينبع، ياقوت، معجم البلدان (ضاس).

(٣) ياقوت، معجم (أيلة) وانظر الحميري الروض المعطار، ص٧٠-٧١ والبكري، المرجع السابق ٢١٧/١.

(٤) جاء في اللسان أن (أيلة): قرية عربية وورد ذكرها في الحديث، وهو بفتح الهمزة وسكون الياء، البلد المعروف فيما بين مصر والشام. وأيل: اسم جبل. انظر لسان العرب (أيل). صارة الجبل: رأسه وقيل اسم جبل قرب وادى القرى. ياقوت، معجم البلدان (صارة).

(٥) أراد كالمتأبي أبا اللسان (أيل).

والأيل هو ذكر الأوعال من الغزلان. ولا شك أن منطقة أيلة كانت من الأماكن التي تكاثرت بها الوعول والغزلان. وذهب البيهقي إلى أن الأيكة اسم جامع للأرض التي فيها مدينة أيلة ومدين[١].

وفي النص العبري للتوراة جاء اسمها (أيلوت)، وفي الترجمة العربية للتوراة (أيلة) ولا نعلم مدى العلاقة اللغوية بين ألفاظ (أيلة) و (أيلوت) و (أيلات). غير أننا نرى أن (أيلة) لفظة عربية، ويرى بعض الباحثين المحدثين أن لفظة أيلات معروفة أيضا عند الشعوب السامية، فزوجة الاله بعل عند الفينيقين تسمى (أيلات) وهي المعروفة كذلك بـ (عشيرة البحر) والتي يطلق عليها لقب آلام الالهه[٢] وتعنى (أيلات) بالعبرية (بيت الألهة). وجاء في التوراة أن سليمان بن داود (١٠٠٤-٩٦٨ ق.م) بنى عصيون جابر قرب أيلة على شاطئ بحر سوف في أرض أدوم[٣]. كما ذكرت التوراة أن عزيا ملك يهوذا بنى أيلة وردها ليهوذا[٤]. ويستفاد من التوراة أن العرب وبعض الأقوام الساكنة قرب أيلة كانت تهاجم مملكة يهوذا، كما أن الصراع مع الايدوميين كان مستمرًا[٥].

٢- وأطلق اليونان على أيلة اسم (Elana) أيليانا وكانوا يسمون خليج العقبة الحالي (Aleantic Gulf)[٦].

وعندما استولى البطالمه على مصر، دخلت منطقة جنوب فلسطين والأردن في الصراع بين البطالمة والسلوقيين، ووقعت أيلة بيد البطالمه الذين اتخذوا منها ميناء لنقل تجارة فلسطين إلى موانئ البحر الأحمر وأفريقية، كما كان يستقبل السفن القادمة من

(١) وقيل الايكة بلدة معينة كانت في قديم الزمان فخربت. انظر رواية البيهقي في نشوة الطرب ٨١٢/٢.

(٢) نجيب ميخائيل ابراهيم، سورية، ص٦٧.

(٣) سفر الملوك الأول الأصحاح، ٩ آية ٢٦. ومما يجدر ذكره ان سليمان استعان بالملك حيرام ملك صور الفينيقي الذي بنى له السفن وزوده بالنواتي، انظر نفس الاصحاح.

(٤) سفر الأيام الثاني، الأصحاح ٢٦ آية: ٢.

(٥) انظر حول هذا الموضوع سفر الملوك الثاني، الاصحاح ١٤ آية ٧ وسفر الأيام الثاني، الاصحاح ٢٦ الآيات ٦-٩ والاصحاح ٢٨ الآيات ١٦-١٩ وها ستنج قاموس الكتاب المقدس ١٨٤/١ وما بعدها. Musil, Hegaz, p,274، وجواد علي، المفصل ٦٤٣/١.

(٦) نجيب ميخائيل، المرجع السابق ص٣٠٢، وانظر أيضا
G.A. Smith, Historical Geography of the Holy land, (London 1894,1968)m, p.367.

أفريقية والمحيط الهندي، وقد أدرك الأنباط مدى الخطر الذي يتهددهم من جراء النشاط التجاري البحري للبطالمة، فتحرشوا بهم وتعرضوا لسفنهم في البحر مما جعل البطالمة يفكرون جديا بوسائل تمنع الأنباط من مهاجمة السفن ونهب حمولاتها، فبنى فيلادلفوس مدينة برنيسي Berenice على خليج العقبة لحماية التجار من هجمات الأنباط، كما انشأ بطليموس (٢٨٥-٢٤٦ ق.م) قوة بحرية لحراسة السفن البطلمية، وبذلك تمكن من السيطرة على شمال البحر الأحمر وخليج العقبة. وقد ازدهرت أيلة في الفترة الهيللنية حتى أننا نجد ايراثوستنس Eratosthenes (٢٧٥-١٩٤ ق.م) يقول: أيلة أهم مدن بلاد العرب التجارية[١]. واحتفظت أيلة باسمها في العهد الروماني لأنها كانت معروفة به قبل احتلال الرومان للمنطقة العربية[٢].

وقد ازدهرت تيماء وأيلة وسلع في شمال الحجاز وجنوب فلسطين في فترات من العهد الروماني، إذ كانت مراكز للقوافل التجارية الكبرى منها تسوق العالم الروماني واليوناني معظم ما يحتاج إليه[٣].

وبعد احتلال الإمبراطور الروماني تراجان (٩٨-١١٧م) بتراء عاصمة الأنباط سنة ١٠٥، ١٠٦م كون ما يسمى بالمقاطعة العربية Provencia Arabea ثم أحدث تغييرات مهمة في الإدارة وفي طرق المواصلات وأصول الجباية، فأنشأ طريقا مهمة من (أيلة) حتى رأس خليج العقبة مارة بالبتراء إلى بصرى فدمشق. وصارت بصرى محطة مهمة جدًا للقوافل القادمة من اليمن والحجاز، وأصلح تراجان القناة القديمة التي تصل النيل بالبحر الأحمر وأحكم احتكار الرومان للتجارة البحرية التي كانت مصدر كل غنى وثراء[٤].

---

(١) انظر مفيد رائف العابد، حول مصادر تاريخ العرب، مجلة دراسات تاريخية دمشق، العدد ٦ لسنة ١٩٨١ ص١٣٦. وحول أيلة في زمن البطالمة انظر: جواد علي، المفصل ٢/٢٧، سيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب في العصر الجاهلي ١٩٠. ومصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين ٤٩٣/١. يرى بعض الباحثين أن هي عصيون جابر، انظر جواد علي ٦٣٧/١. الدباغ، المرجع السابق. سيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق ص١٩٠، وانظر جلدن: I.E2. Vol.1. (Ayla) اراتوستنس أحد أشهر ثلاثة كتاب في العصر الهيلليني (٣٢٣-٣١ ق.م) مفيد العابد، مجلة دراسات ص١٣٦.

(٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص٣٠٢، ٣٩٤.

(٣) سعيد الأفغاني، أسواق العرب ص١٦.

(٤) جواد علي، المفصل ٦٥/٢. صالح العلي، محاضرات في تاريخ العرب ص٤٢.

وفي القرن الثالث الميلادي قسمت المقاطعة العربية إلى كورتين: كورة شمالية عاصمتها بصرى وعرفت بـ (كورة بصرى)، وكورة جنوبية عاصمتها بترا وعرفت باسم كورة بترا[١].

أما في القرن الرابع الميلادي وفي حوالي ٣٠٧م تقريبا اقتطع من الكورة الجنوبية بعض المدن مثل (أيلة و (Phainon) فينون أو فينان حاليا[٢]، وألحقت بفلسطين وبذلك توسعت رقعة فلسطين. ويظهر أن الضرورات العسكرية هي التي دفعت إلى أحداث هذه التغييرات، فقد كانت الطرق الحربية تصل من أيلة إلى سورية وفلسطين ولهذا أصبحت هذه المدينة معسكرًا للجيش الروماني[٣].

وفي العهد البيزنطي دخلت المنطقة العربية في الصراع ما بين الفرس والروم البيزنطيين، لذلك اختط يوستنيان (٥٢٧–٥٦٥م) خطة لتحرير التجارة البيزنطية من سيطرة الساسانيين عليها، وهي الاتصال المباشر بالأسواق الرئيسية المصدرة، ونقل المشتريات إلى الإمبراطورية بطريق البحر الذي كان يسيطر الروم على أعاليه. لقد كان ميناء (أيلة) في أيدي البيزنطيين، وكان فرضة حافلة تقصدها السفن القادمة من اليمن والهند والصين وتأتيها من البر قوافل الشام[٤].

استقرت النصرانية في أيلة منذ عهد مبكر حيث تنصر معظم سكانها، واشترك أساقفتها في النشاط الكنسي، فقد كان (بطرس) أسقفها من بين الذين وقعوا قرار مجمع نيقية

---

(١) جواد علي، نفس المرجع ٣/ ٧١. ومن الطريف أن يذكر شيخ الربوة أن: (بلاد الشام في العهد الروماني كانت مقسمة إلى أربعة أقسام قسم قصبته دمشق وقسم قصبته طبرية ويسمى بالأردن، وقسم قصبته حمص وقسم قصبته أيليا (بيت المقدس) ويسمى فلسطين، وكان لهم في كل عمل بطريق من البطارقة يحفظه) مع العلم أن هذه التقسيمات إسلامية، انظر نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص١٩٢.

(٢) ورد ذكر فينان في سفر العدد أصحاح ٣٣ الآيات ٤٢–٤٣ أثناء عبور الإسرائيليين فلسطين، وتلفظ (فينون) أيضا واشتهرت بمناجم النحاس – على حد زعم التوراة – وكانت في العهد البيزنطي مركزًا لاسقفية. انظر لويس مخلوف، الأردن تاريخ وحضارة وآثار، عمان ١٩٨٣، ص٢٢٩.

(٣) Glidden, I.E.2, vol.1.pp. 783-84. وموسل، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية "أيلة" ٣/ ٢٠٧ جواد علي، المرجع السابق، ٣/ ١٧٠.

(٤) الاب لويس شيخو، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلين، ص٢/ ٤٤٨. جواد علي، المرجع السابق ٤/ ١٧٠.

(٣٢٥م) وكان أميرها قبل يوحنا بن رؤبة أوريون النصراني[١]كما كانت في القرن الرابع الميلادي مقرًا لابرشية حضر مطارنتها بعض المجامع الكنسية، ومنهم المطران (غوث) وكان في رأي الأب شيخو عربيا، حضر المجمع الخلقدوني سنة ٤٥١م[٢].

ومات في أيلة سنة ٥١٣م، القديس (أيليا) وهو عربي الأصل سكن مدة في أحد الأديرة الواقعة على ضفة نهر الأردن اليمنى ثم رقي إلى رتبة البطريركية[٣].

ولما تضعضعت قوة بيزنطة على تخوم (أيلة) كسدت تجارتها لأن (أيلة) والبلاد المحيطة بها كانت خاضعة لنفوذ الأمراء من بني غسان[٤].

وفي بعض الأحيان كانت أيلة تقع تحت سيطرة القبائل البدوية. وكان شيوخ هذه القبائل يحكمون وكأنهم عمال روم (فيلارك Phylarchus"، بعضهم يحكم أراضي صغيرة، ويعمل أتباعهم بالرعي وبعضهم بالزراعة وآخرون بالتجارة والبعض أعراب يتنقلون في البادية، والذين كانوا يقطنون ساحل العقبة كانوا أشباه أعراب. ينتهزون الفرص المؤاتية ويشتغلون بالتجارة لحسابهم أو لحساب غيرهم، أو يقدمون الخدمات للتجار مقابل جعل معين[٥].

ومن أشهر القبائل التي استوطنت منطقة أيلة قضاعة التي امتد نفوذها ما بين الشام والحجاز إلى العراق، واستعملهم الروم على بادية العرب هنالك[٦]. وامتدت مواطن جذام من أيلة شمالاً إلى ينبع جنوبًا على طول الساحل[٧]، وبلغ من نفوذ جذام أن المصادر تذكر لهم رياسة في معان، وأن بطن بني النافرة من نفاثه من جذام تعاون مع الرومان الذين عينوا فروة بن عمرو بن النافرة عاملاً لهم على قومه وعلى من كان حوالي معان من العرب، وتزعم بعض المصادر أن فروة هذا هو الذي بعث إلى الرسول

(١) شيخو، المرجع السابق ٤٧/١، ١٠٨. موسل، دائرة المعارف الإسلامية (أيلة).
(٢) شيخو، المرجع السابق، الدباغ، المرجع السابق، ص٤٩٢-٤٩٣.
(٣) شيخو، المرجع السابق، ٤٧/١، الدباغ، المرجع السابق، ص٤٩٣.
(٤) موسل، دائرة المعارف الإسلامية (أيلة).
(٥) جواد علي، المرجع السابق، ٦٠٦/٢.
(٦) ابن خلدون، تاريخ ٢٤/٢ وما بعدها.
(٧) الهمداني، صفة ... ص١٢٩. جواد علي، المرجع السابق ٢٤٥/٤.

صلى الله عليه وسلم بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء مما جعل قيصر ينقم عليه، فأغرى به الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان، فأخذه وصلبه بفلسطين[١]. ونظرًا لغلبة جذام على منطقة أيلة ذهب بعض المؤرخين إلى أن يوحنا بن رؤبة، صاحب أيلة، الذي صالح الرسول صلى الله عليه وسلم هو من جذام[٢].

وإلى جانب امتداد جذام كانت قبيلة جهينة التي كانت ما بين ينبع ويثرب في متسع من برية الحجاز إلى عقبة أيلة[٣]. وإلى جانب امتداد جهينة كانت مواقع قبيلة بلي[٤].

وفي غمرة الصراع بين آل حجر الكندي والغساسنة كانت أيلة خارج هذا الصراع، مع أنها تعتبر ضمن المنطقة التي شملها نفوذ غسان، وربما كان ذلك عائد إلى المكانة الخاصة لمدينة أيلة عند الروم الذين أقاموا بها حامية رومية وأشرفوا عليها إشرافًا مباشرًا.

اتسع نفوذ الغساسنة اتساعًا كبيرًا شمل ما بين أيلة ولبنان وهذا ما يفهم من شعر حسان بن ثابت يمدح به آل النعمان[٥].

مَنْ يَغُرَّ الدهرُ أو يأمنه ... من قتيلٍ بعد عمرو وحُجْرِ

مَلِكا من جبل الثلج إلى ... جانبي أيلة من عبد وحُرّ

وقد تعرض الشعراء لأيلة في أشعارهم يذكرون موقعها تارة ويشيرون إلى بعض الأماكن المتصلة بها تارة أخرى، كما أشاروا إلى نباتاتها وزروعها ودنانيرها، ففي أرجوزة طويلة للحسين بن قبيصة المحرمي الجذامي جاء:

وعزلت أيلة والبحر المضمّ ... عنها يمينا وتعددت في الاتم[٦]

وعزلت حزم ردام ذا الثلم ... عنها يمينا وتياسرت لالام

---

(١) انظر ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٤٢١. تاريخ ابن خلدون ٢/٣٧. جواد علي، المرجع السابق ٤/٤٦٢. وفي رواية أن فروة كان على عمان أو معان، الطبقات الكبرى ١/٢٨١.

(٢) الطبقات الكبرى ١/٢٨١، تاريخ ابن خلدون ١/٣٤٤.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني ٣/١٦. تاريخ ابن خلدون ٢/٢٠ – ٢٤.

(٤) تاريخ ابن خلدون، المرجع السابق والصفحة.

(٥) انظر ابن قتيبة، المعارف، ص٦٤٣، ابن منظور، اللسان (أيلة) البكري، معجم ما استعجم، ١/٢١٦. صالح العلي، محاضرات في تاريخ العرب، ص٦٢.

(٦) الاتم: واد يسيل من حسمى على ليلة.

وصبّحت نعمى وأكواز النعم[١]

وذكر في بعض الأشعار أن شجر الدوم كان بأيلة، فقد ورد منسوبًا لأيلة. فمما أخذ على حميد بن ثور الهلالي، وقيل على ابن الطمحان القيني، قوله:

لما تخايلت الحمول حسبتها ... دوما بأيلة ناعما مكموما[٢]

وضرب بعض الشعراء المثل بدنانير (أيلة): فهذا أحيحه بن الجلاح يرثي ابنه قائلاً:

الا ان عيني بالبكاء تهلل ... جزوع صبور كل ذلك يفعل
فان تعتريني بالنهار كآبة ... فليلي إذا أمسي أمرُّ وأطول
فما هبرزي من دنانير أيلة ... بأيدي الوشاة ناصع يتأكل
بأحسن منه يوم أصبح غاديا ... ونفسني فيه الحمام المعجل[٣]

وكانت أيلة مجتمعا تتلاقح فيه الأفكار اليونانية والمسيحية والعربية، فهي مركز من المراكز الرومانية، وهي أيضا اسقفية مسيحية، وهي قريبة من الحجاز حيث كانت الأسواق العربية تنعقد دوريا وتتحول إلى مهرجانات أدبية وثقافية، تمثل كل النزعات السائدة قبيل الإسلام، فهي لم تشتهر اقتصاديًا فحسب بل اشتهرت كمركز من مراكز الثقافة المرموقة في بلاد العرب[٤].

٣ - برز اسم (أيلة) في التاريخ الإسلامي منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك بحكم موقعها كبوابة لبلاد الشام، والتي كان سيطرقها المسلمون في توجههم نحو الشمال. ففي أعقاب غزوة تبوك - أي في السنة التاسعة للهجرة - عقد الرسول صلحا مع يحنه بن رؤبة صاحب أيلة[٥] وقد أوردت المصادر كتاب الصلح بخلاف يسير. وتذكر هذه

(١) نعمى: ماء يفيء عليها ظل الشوق بالعشي. والشوق: أعظم جبل بحسمى. انظر حمد الجاسر، أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضيع، ص٢٣٥-٢٣٦.

(٢) الدوم: شجر المقل وهو لا يكم، إنما يكم النخل: انظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص٢٣٢. ابن عبد ربه، العقد الفريد ٦/١٨٢.

(٣) الوشاة: الضرابون. ناصع: مشرق. يتأكل: أي يأكل بعضه بعضا من حسنه. الهبرزي: الدينار الجيد، وقيل الذهب الخالص. انظر: ياقوت، معجم البلدان (أيله) ١/٢٩٢. ابن منظور، اللسان (هبرز).

(٤) انظر: سعيد الأفغاني، أسواق العرب، ص٢١٢. سيأتي ا الحديث عن الناحية الثقافية لأيلة في الجزء الأخير من هذا البحث.

(٥) ستأتي مصادر كتاب الصلح عند إيراد هذا الكتاب في الصفحات القادمة.

المصادر أن يحنه (يوحنا) بن رؤبة هو الذي قدم على الرسول في تبوك وطلب أن يصالحه مقابل دفع الجزية[١]، الأمر الذي يدفع إلى التساؤل عن أسباب ودوافع قدوم صاحب أيلة ليدفع الجزية للرسول، وأيلة مدينة عامرة وجليلة ومعظم سكانها من النصارى؟!

ويبدو أن يحنه بن رؤبة لم يقدم طائعا مختارا، فقد أثبتت المصادر رسالة بعث بها الرسول إلى يحنه وسروات أهل أيلة، يستفاد منها أن قدوم الوفد الايلي إنما كان بفعل التهديد الذي تضمنته رسالة الرسول هذه والتي أدت مع عوامل أخرى إلى كتاب الصلح بين الرسول وأهل أيلة، وجاء في الرسالة:

(سلم أنتم فاني أحمد إليكم الله الذي لا اله إلا هو فاني لم أكن لاقاتلكم حتى اكتب اليكم، فأسلم أو اعط الجزية، وأطع الله ورسوله ورسل رسوله وأكرمهم واكسهم كسوة حسنة غير كسوة الغزاء[٢]. واكس زيدًا كسوة حسنة فمهما رضيت رسلي فاني قد رضيت وقد علم الجزية فان أردتم أن يأمن البر والبحر فأطع الله ورسوله ويمنع عنكم كل حق كان للعرب والعجم الا حق الله وحق رسوله، وانك ان رددتهم ولم ترضهم لا آخذ منكم شيئا حتى اقاتلكم فأسبي الصغير وأقتل الكبير فاني رسول الله بالحق اؤمن بالله وكتبه ورسوله وبالمسيح بن مريم أنه كلمة الله وان اؤمن به أنه رسول الله، وأت قبل أن يمسكم الشر فاني قد أوصيت رسلي بكم واعط حرملة ثلاثة أوسق شعيرا، وان حرملة شفع لكم واني لولا الله وذلك لم أراسلكم شيئا حتى ترى الجيش وأنكم ان اطعتم رسلي فان الله لكم جار ومحمد ومن يكون منه وان رسلي شرحبيل وأبيّ وحرملة وحريث بن زيد الطائي[٣] فانهم مهما قاضوك عليه فقد رضيته وان لكم ذمة الله وذمة محمد رسول الله والسلام عليكم أن أطعتم وجهزوا أهل مقنا إلى أرضهم[٤].

(١) انظر المصادر التي أوردت كتاب الصلح.

(٢) قوله: غير كسوة (الغزاء) بالمعجمتين وفي آخره همزة والظاهر أن الصحيح (الغزاة) بالتاء جمع غازية بمعنى المقاتلة، أي غير ثوب المقاتل كالدرع، وثوب حرير يختص بحال الحرب، وفي نسخة ابن عساكر (العراء) ولا يناسب سياق الكلام، انظر الأحمدي، مكاتيب الرسول ١/١٦٢.

(٣) حريث بن زيد الطائي، يعتقد أنه ابن زيد الخيل الذي لقب أيضا بزيد الخير، انظر تحليل الرسالة، الأحمدي، المرجع السابق ١/١٦١ - ١٦٤.

(٤) طبقات ابن سعد (والنص له) ١/٢٧٧ - ٢٧٨. وانظر تهذيب ابن عساكر ٤/١١٤. وفي مجموعة الوثائق السياسية لحميد الله، ص٨٧ رقم (٣٠) عن الطبقات وابن حديدة في المصباح المضيء في كلمة يحنه،

ان اهتمام الرسول بجنوب بلاد الشام أصبح ضرورة ملحة، ولا سيما بعد هزيمة المسلمين في مؤتة، وتجمع الروم وقبائل عاملة ولخم وجذام لحرب المسلمين[١]. فكان لا بد والحالة هذه أن يعمل الرسول على ترتيب الأوضاع ما بين المدينة والشام لصالح سياسة التوجه نحو بلاد الشام. ولهذا اتخذ الرسول عدة إجراءات تضمن عدم عداء القبائل والحواضر في شمال الحجاز، وذلك عن طريق ربط سكان هذه المناطق بالمواثيق والعهود وكتب الأمان ان لم يكونوا قد ارتبطوا بالإسلام. وتلك ضرورة لحماية قوات المسلمين في صراعها مع الروم الذي بدأ بغزوة مؤتة. وكان الوضع الخاص لأيلة يدفع صاحبها وسرواتها للإستجابة لطلب الرسول، فأيلة مدينة تعتمد على التجارة بالدرجة الأولى، والرسول أصبح يسيطر على أهم الطرق التجارية البرية المؤدية إلى أيلة من اليمن وجنوب بلاد العرب، ونحن نعرف أيضا أن العام التاسع للهجرة هو عام الوفود الذي يشير إلى خضوع الجزيرة للرسول، وقد ذكر الواقدي أن دومة (دومة الجندل) وأيلة وتيماء، قد خافوا النبي صلى الله عليه وسلم لما رأوا العرب قد أسلمت[٢]. كما أن فكرة النصارى عن الإسلام لم تكن سيئة حتى الآن، إذ أننا لا نلمس معارضة نصرانية واضحة ضد الدعوة الإسلامية في هذا العهد، بينما كانت العلاقة بين المسلمين واليهود على أسوأ ما تكون فكل هذه العوامل - في رأى الباحث - دفعت يحنه بن رؤبة وأهل أيلة للموافقة على دفع الجزية ومصالحة الرسول، ومن هنا لا نستبعد أن يكون الآمان الموجه من الرسول إلى يحنه بن رؤبة، وهذا نصه[٣]: بسم لله الرحمن الرحيم: (هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله

والزرقاني ٣/٣٦٠ ثم نقل كاتياني ٩: ٣٨ (التعليقة الأولى) وأشبرنكر ٣/٣٢١-٤٣٣ واشبربر ص ٢١-٤٢. والأحمدي، مكاتيب الرسول ١/١٦١-١٦٤. وقد ضبطت المصادر اسم صاحب أيلة تارة (يحنه) وتارة أخرى (يوحنا) وأكثرها على اللفظ الأول، انظر الأحمدي، المرجع السابق.

(١) البلاذري، فتوح، ص٧١، وانظر ابن سعد، الطبقات ٢/١٦٥. وتاريخ ابن عساكر (رواية ابن إسحاق)، ١،٤٢٤.

(٢) المغازي، ٣/١٠٣١.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/٥٢٥-٥٢٦. وانظر مغازي الواقدي ٣/١٠٣١، وطبقات ابن سعد ١/٢٨٩ وأبو عبيدة الأموال ٢٨٧-٢٨٨ وتاريخ ابن عساكر م١، ص٤٢٤. والسيرة الحلبية ٢/١٦٠. ومحمد حميد الله، الوثائق السياسية رقم ٣١- ٣١ أ ص٨٨، عن القسطلاني، المواهب اللدنية ١/٢٦٧، وسيرة ابن سيد الناس ٢/٢٢٠ والزرقاني في شرح المواهب ٣/٣٥٩، والمقريزي، أمتاع الأسماع ١/٤٦٨، وابن زنجويه، الأموال (نسخة خطية) رقم ٦٩/ب و ٧٠أ (حقق نشر) والبيهقي، دلائل النبوة، خطية كوبرولو بتركيا، ج١ ورقة

ليحنه بن رؤبة وأهل أيلة، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ما له دون نفسه وأنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقًا يريدونه من بر وبحر)[١].

وقد ذكرت بعض المصادر التي أثبتت نص كتاب الصلح اسم الكاتب والشهود ومقدار الجزية. إلا أن ابن هشام لم يذكر ذلك، فقد جاء في هذه المصادر أن الكاتب هو جهيم بن الصلت، وبعضها أضاف شرحبيل بن حسنة[٢]، وأما السبكي فذهب إلى أن علي بن أبي طالب هو الذي كتب كتاب الصلح وفيه شهادة أبي بكر وعمر وعثمان واعلام الصحابة. جاء ذلك في معرض رده على الجرجاني الذي زعم أن أبا حنيفة لم يسبق في كتابة الشروط، وأورد السبكي جواب أبي منصور بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أول من أملى كتب العهود والمواثيق، منها عهده إلى نصارى أيلة، وذكر أن هذا العهد باق عند أصحابه أيلة ولاجل ذلك يصانون[٣] وتذكر أغلب المصادر أن مقدار الجزية التي صولح أهل أيلة عليها كان ثلاثماية دينار في السنة، وكانوا ثلاثماية رجل أي أن يؤخذ من كل حالم دينار في السنة[٤].

وجاء في بعض الروايات أن الرسول اشترط على أهل أيلة بالإضافة للجزية قرى من يمر بهم من المسلمين[٥].

ويبدو أن الجزية لم تبق على حالها بل زاد فيها الخلفاء من بني أمية، فلما جاء الخليفة عمر بن عبد العزيز خفف من أثقال الجزية المفروضة على النصارى في قبرص وأيلة، وكان لا يزداد من أهل أيلة على ثلاثماية دينار شيئا. ويفهم من هذا أن الجزية في البداية

٢٣ ب. وأحمد بن حنبل، المسند ٤٢٥/٥. والبكري، معجم ما استعجم ٢١٧/١.

(١) سيرة ابن هشام ٥٢٥/٢-٥٢٦.

(٢) الواقدي، المغازي ١٠٣١/٣ طبقات ابن سعد ٢٨٩/١ وأبو عبيد بن سلام، الأموال، ص٢٨٨. ومحمد حميد الله، الوثائق السياسية رقم ٣١-٢١أ، ص٨٨-٨٩.

(٣) السبكي، تاج الدين ابي نصر، طبقات الشافعية الكبرى ١٤٦/٥.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص٧١، والمسعودي، التنبيه والإشراف، ص٢٣٦. وقدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٧٠. وياقوت الحموي، معجم البلدان (أيلة) ٢٩٢/١. وابن الأثير، الكامل في التاريخ ١٩١/٢. وتاريخ ابن خلدون ٣٤٤/١.

(٥) قدامه بن جعفر، الخراج ... ص٢٧٠.

كانت على الرؤوس ثم أصبحت جماعية، إذ لا بد أن يكون نصارى أيلة قد نقصوا أو ازدادوا في زمن عمر بن عبد العزيز.

وأطلقت المصادر على يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة وتارة أسقف أيلة، وأخرى ملك أيلة(١) وقيل أن رسول الله كساه بردة(٢) وهي البردة التي اشتراها أبو العباس السفاح بثلاثماية دينار وهي غير البرد التي منحها الرسول – ص– إلى كعب بن زهير عندما أنشده قصيدته المشهورة التي مطلعها(٣) :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم أثرها لم يفد مكبول

كما ذكر أيضا أن يوحنا بن رؤبة أهدى للرسول هدية فيها بغلة بيضاء، فرد رسول الله على هذه الهدية بإهداء البرد ليوحنا. وذكر المقريزي أن اليهود كانوا يخرجون رداء عدنيا ملفوفا في الثياب قد أبرز منه قدر شبر فقط، يزعمون أنه برد النبي صلى الله عليه وسلم وأنه بعثه إليهم أمانا(٤). وهذه الرواية وما شابهها إنما يقصد بها حرص أهل الذمة في فترات معينة ابراز ما يثبت حصولهم على أمان الرسول أو الخلفاء، وليس بالضرورة أن تكون هذه الأدلة صحيحة، ففي بعضها التزوير واضح(٥).

ويستدل من كتاب الصلح أن أهل أيلة كانوا يعملون بالتجارة البرية والبحرية، كما يعملون بصيد السمك. وجاء في وصف بعض الجغرافيين لها بأنها مدينة اليهود(٦) ولعل هذه الإشارة فيها مبالغة ظاهرة لأننا لم نعثر في المصادر أنها كانت يهودية في العهود

(١) مغازي الواقدي ١٠٣٠/٣. والمسعودي التنبيه والإشراف، ص٢٣٦. وتاريخ ابن خلدون ٣٤٤/١ وانظر أيضا مصادر كتاب الصلح السابقة.

(٢) حول البردة انظر: العماد الاصفهاني، **خريدة القصر وجريدة العصر**، ص١٢ حا:٥ من القسم العراقي. والسيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٩. القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا ٢٦٩/٢، وحاشية ابن هشام على بانت سعاد، ومقالة الآثار لأحمد تيمور في (مجلة الهداية الإسلامية المصرية)، م١، ج٨، لسنة ١٣٤٨هـ.

(٣) انظر القصيدة في سيرة ابن سيد الناس ٢٠٩/٢ وما بعدها.

(٤) خطط المقريز ٣٤٥/١ وما بعدها.

(٥) انظر محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص٤١١ وما بعدها، وأبو عبيد، الأموال، ص٢٠٧.

(٦) ياقوت، معجم البلدان (أيلة) ٢٩٢/١. اليعقوبي، البلدان، ص٩٤، الحميري، الروض المعطار، ص٧٠، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٨٧، القزويني، آثار البلاد، ص١٥٣. أن ظاهر كتاب الرسول ليحنه يعني كونهم نصارى، انظر الأحمدي مكاتيب الرسول، ص١٦٤.

الإسلامية وإن كان يقطنها جماعة من اليهود عملوا كبقية سكانها بالتجارة، وارتبطوا بالتجار في بلاد العرب، فقد اشتهر أبو رافع الخيبري اليهودي بالتجارة، وكانت له شهرة بين المواضع التي يكثر فيها اليهود في العهد المدني، حيث تشير الروايات إلى أن اليهود احتكروا تجارة البلح والشعير والقمح في شمال الحجاز[١] ومن المعروف أن اليهود كانوا يعملون بالصيرفة والصياغة في أماكن إقامتهم.

وحظيت أيلة بأهمية خاصة أثناء حركة الفتوح الإسلامية، فقد كانت معبرًا لجيوش الفتح المتجهة إلى بلاد الشام، وقد سلكها عمرو بن العاص الذي أخذ طريق المعرقة على أيلة لما بعثه الخليفة أبو بكر قبل فلسطين[٢]. وأصبحت أيلة بالضرورة محطة للفاتحين نزلها كثير من المسلمين منهم عدد كبير من موالي عثمان بن عفان[٣]. ومنهم من نزل في ضواحي أيلة مثل أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين الحقلي مولى رافع عثمان الذي نسب إلى قرية حقل إلى جانب أيلة وكان فقيهًا أماما توفي سنة تسع وعشرين ومائتين[٤]، كما توفي أبو بكر محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أمام أهل المدينة في (أدما) و(ادمى) قرب (بدأ وشغب) وهما واديان على مرحلة من أيلة[٥] والزهري شيخ العديد من المحدثين الذين نسبوا إلى أيلة، فقد أقام بها وأخذ الكثيرون عنه[٦] وكان الذين نزلوا أيلة يعملون في البداية بسقاية الحجاج[٧]. وتذكر بعض الروايات أن عمر بن الخطاب نزل أيلة سنة سبع عشر[٨]، وربما كان ذلك عندما كان في طريقه إلى الجابية. وممن نزل أيلة في الفترة الإسلامية المبكرة أبان بن سعيد بن العاص[٩] وقد عاتبته خطيبته عائشة ابنة عثمان على تركه المدينة وأقامته بأيلة قائلة:

(١) ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب ، ص١٨، وانظر أيضا الافغاني، أسواق العرب، ص٢٤.

(٢) البلاذري، فتوح، ص١١٦. وتاريخ الطبري ٣/٣٨٧.

(٣) اليعقوبي، بلدان، ص٩٤، وياقوت ، معجم البلدان (أيلة) ١/٢٩٢.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض ١٥٣، وياقوت الحموي، المشترك وضعا والمفترق صقعا، ص١٤١.

(٥) أنساب المسعاني ١/٤٠٩.

(٦) النووي، تهذيب الأسماء واللغات ١/٩٠.

(٧) الحميري، الروض المعطار، ص٧٠.

(٨) الطبري (رواية سيف) ٤/٦٤.

(٩) ابن الكلبي، جمهرة النسب (رواية ابن حبيب) خطية، ص٢٥.

نزلت ببيت الضب لا أنت ضائر عدوا ولا مستنفعا أنت نافع[١]

وبرز اسم أيلة في حوادث الفتنة الأولى، فتنة عثمان، فقد كانت مركز استطلاع للأحزاب المتصارعة، ومنها عاد المصريون لحصار عثمان، وفي هذه المدينة كانت العيون ترصد ما يجري في عاصمة الدولة الإسلامية، فقد تبع عبد الله بن سعد بن أبي السرح المصريين حين خرجوا على عثمان وأقام في أيلة يترقب ما تسفر عنه الأحداث، حتى إذا ما علم بمقتل الخليفة عثمان دخل فلسطين وأقام بها[٢]. وقد تجمع موالي عثمان وأنصاره أيضا في أيلة يتسقطون بدورهم أخبار المدينة، ولما بعث علي بن أبي طالب قيسا بن سعد واليا إلى مصر لقيته خيل أنصار عثمان في أيلة وسألوه عن حاله، و لم يجرؤ بإخبارهم أنه عامل علي على مصر، بل قال لهم أنه من فالة عثمان يطلب من يأوى إليه وينتصر به، ومضى حتى دخل مصر حيث أعلن أمره[٣]. ولما ولي مروان بن الحكم المدينة في مطلع الحكم الأموي عين مصعب بن عبد الرحمن بن عوف على شرطته فقال له هذا: إني لا أضبط المدينة بحرس المدينة، فابغني رجالا من غيرها، فأعانه بمائتي رجل من أهل أيلة، فضبطها ضبطا شديدًا[٤]. ويرى (ترتون) مؤلف كتاب (أهل الذمة في الإسلام) ان هؤلاء كانوا من النصارى[٥]. و لم يوثق ما ذهب إليه، والغالب أن هؤلاء من أنصار الأمويين الذين كانوا قد استوطنوا أيلة ومنهم موالي عثمان بن عفان الناقمون على أهل المدينة لموقفهم من عثمان.

وبعد بيعة مروان بن الحكم بالخلافة في ذي القعدة، ٦٤هـ، خرج يريد مصر التي كانت تتبع ابن الزبير، وخرج معه خالد بن يزيد بن معاوية وعمرو بن سعيد وعبد الرحمن بن الحكم وزفر بن الحارث وحسان بن بحدل ومالك بن هبيرة السكوني في إشراف كثير، وبعث ابنه عبد العزيز في جيش إلى أيلة ليدخل مصر من تلك الناحية[٦]. ولما علم ابن

(١) الجاحظ، البيان والتبين، ١٢/٤.

(٢) تاريخ الطبري، ٣٧٨/٤.

(٣) المرجع السابق، ٤٤٢/٤. وتاريخ ابن خلدون ٤٠٥/١.

(٤) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني ٧٤/٥.

(٥) أهل الذمة في الإسلام، ص٢١٥.

(٦) الكندي، الولاة والقضاة، ص٤٢.

الزبير أرسل جيشا يقوده وإليه بمصر عبد الرحمن بن جحدم، وأتبعه بجيش آخر يقوده زهير بن قيس البلوي إلى أيلة ليمنع عبد العزيز من المسير إليها، وقد التقى زهير بعبد العزيز بن مروان في مكان قرب أيلة يدعى (بصاق) فقاتله فانهزم زهير ومن معه، وفي ذلك قال زهير بن قيس لعبد العزيز بن مروان[١]:

منعت بصاقا والبطاح فلم ترم   بطاحك لما أن حميت ذماركا

وفي بداية قتال عبد الملك بن مروان لابن الزبير وجه عبد الملك طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفان، وأمره أن ينزل بين أيلة ووادي القرى فيمنع عمال ابن الزبير من الانتشار ويحفظ ما بينه وبين الشام ويسد خللا ان ظهر له[٢]، وفي طارق هذا يقول الشاعر:

ولو تكلمنا ذممنا طارقًا   والدهر قد أقّر عبدا آبقا[٣]

لقد سقت هذه الأخبار لأبين كم كان ولاة الأمر أو الخارجون عليهم – منذ مطلع الدولة الإسلامية – يعيرون من أهمية لموقع أيلة ويتسابقون للسيطرة عليها، وارى أن لذلك سببين:

الأول: موقع أيلة كحلقة وصل بين مصر والشام والحجاز، والاستيلاء عليها يعني السيطرة على مركز اتصال هام في العالم الإسلامي، لا سيما وقد وحد الإسلام المنطقة سياسيًا فأصبحت أيلة على صلة مباشرة بالمراكز السياسية والتجارية في العالم الإسلامي.

الثاني: كون أيلة مركز تجمع الحجاج والتجار والمسافرين من أنحاء العالم الإسلامي اكسبها ميزة استعلامية فريدة، فمنها يمكن تتبع أخبار العالم الإسلامي بعامة وما يجري في العاصمة الإسلامية بخاصة، وهذا من الأسباب التي جعلت الحميمة القريبة منها المركز السري للدعوة العباسية.

وفي التقسيمات الإدارية التي تمت في عهد عمر بن الخطاب تبعت أيلة جند

---

(١) الكندي، الولاة والقضاة، ص٤٣. بصاق: مكان بين التيه وأيله: انظر: ياقوت، المشترك وضعا والمفترق صقعا، ص٥٥.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ٥/٣٥٦.

(٣) المرجع السابق والصفحة.

فلسطين[١]، وأصبحت منذ عهد مبكر مركزًا من مراكز الثقافة الإسلامية، فكانت واحدة من المراكز المشهورة التي عنيت بالسنة إلى جانب دمشق وبيت المقدس والرملة وعسقلان والمدينة المنورة[٢].

ولما استتب الأمر لعبد الله بن الزبير في الحجاز أرسل إلى عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية: (اما أن تبايعاني أو تخرجا من جوارى)[٣]، فخرجا من مكة ونزلا بالطائف وأقاما هناك، ثم خرج ابن الحنفية إلى أيلة ومنها كتب لعبد الملك بن مروان يستأذنه في القدوم عليه والنزول إلى جواره، فكتب عبد الملك إليه: (وراءك أوسع لك، ولا حاجة لي فيك) فأقام محمد بن الحنفية عامه ذلك بأيلة إلى أن توفي بها[٤].

وفي غمرة الصراع بين عبد الله بن الزبير والأمويين احتلت أيلة مكانة هامة في الأحداث السياسية والعسكرية كما هو شأنها دائما، فالكل يحاول أن يسبق إلى السيطرة عليها، فهي حلقة وصل بين الشام والحجاز ومصر كما أسلفنا.

وفي العهد العباسي كان لأيلة دورها في الأحداث، فلما تولى هارون الرشيد لخلافة قلد الحسين بن جميل ولاية مصر وجمع إليه خراجها وصلاتها، فتشدد في جباية الخراج، فخرج عليه أبو الندى مولى بليّ في نحو من ألف رجل وأخذ يقطع الطريق بأيلة، وخرج مع أبي الندى أهل الجوف، ثم انضوى إليه رجل من جذام يقال له المنذر بن غالب بن غطفان ومعه سلام النوبي فبلغوا مبلغا عظيما في النهب والسلب والقتل حتى بلغ الرشيد خبرهم فأرسل إليهم يحيى بن معاذ في جيش من بغداد، كما أرسل الحسين بن جميل أيضا إليهم جيشا يقوده عبد العزيز الجزري، فالتقى العسكران بأيلة، وقاتلا أبا الندى وجماعته وهزموهم وظفروا بأبي الندى الذي

---

(١) في رواية غير موثقة ذكر مولوي، ص، ١٠. ف. حسيني، ان عمر قسم جند فلسطين إلى قسمين جعل أيلة عاصمة احدهما والرملة عاصمة القسم الآخر. وتبعه في ذلك علي حسني الخربوطلي. انظر حسيني في كتابه (الإدارة العربية)، ص٨١، والخربوطلي، في كتابه (الإسلام والخلافة)، ص٩٠.

(٢) انظر ملكة أبيض، **التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة في القرون الثلاثة الأولى**، ص٤١٠.

(٣) أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، ص٣٠٩.

(٤) أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، ص٣٠٩.

أرسل إلى بغداد حيث قتل[١]. ونالت أيلة عناية الخلفاء العباسيين وأعوانهم من القادة فانفق في إصلاح طرقها وتحسين أحوالها المال الكثير[٢]. ذلك أن أيلة كانت تصبح في فترات الاضطراب السياسي ملجأ للفارين من وجه السلطان أو العصاة المتمردين نظرًا لموقعها وصعوبة مسالك المنطقة المحيطة بها[٣].

وفي خلال حكم الأسرة الطولونية لمصر حصل في أيلة بعض الإصلاحات، ويبدو أن الطريق المحاذي لأيلة في أسفل العقبة قد ضاق بفعل ماء البحر، فأمر أحمد بن طولون (٢٥٤-٢٧٠هـ/ ٨٦٨-٨٨٣م) بإنشاء طريق جديد على حافة جبل أم نصيلة بدلاً من طريق القوافل القديم الذي كان ضيقا محصورًا بين منحدر الجبل من ناحية وبين البحر من ناحية أخرى، فكانت تطغى عليه الأمواج في أغلب الأحيان. وسمي هذا الممر العميق، عقبة أيلة، نسبة إلى المدينة التي كانت تجاوره[٤].

وفي سنة خمس عشرة وأربعمائة (٤١٥هـ) في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي (٤١١-٤٢٧هـ)، هاجم عبد الله بن أدريس الجعفري ومعه أحد بني الجراح مدينة أيلة ونهبها وأخذ منها نحوا من ثلاثة الاف دينار وغلالا، وسبى النساء والأطفال. ويعود السبب في ذلك إلى أن عبد الله عزل من ولاية وادي القرى فراجع حسان[٥] بن الجراح ليتوسط له لدى الظاهر ليعود لولايته السابقة، غير أن الظاهر الفاطمي لم يستجب لهذه الوساطة، ففعل الجعفري ما فعل يساعده الأمير من بني الجراح، إلى أن سارت إليه قوات عسكرية من القاهرة[٦].

(١) الكندي، الولاة والقضاة، ص١٤٣. والنجوم الزاهرة ٢/١٣٤-١٣٥.
(٢) النجوم الزاهرة ٣/١٠١.
(٣) المرجع السابق ٢/٩٠.
(٤) المقريزي، خطط ١/٣٤٥ وما بعدها. وموسل، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية (أيلة).
(٥) حسان بن جراح الطائي: أحد أسرة بني جراح من قبيلة طيء اليمنية الذين استقروا في فلسطين كان لهم دور في الحياة السياسية في الشام في نهاية القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس ولكنهم لم يستطيعوا إطلاقا أن يؤسسوا دولة ولا أن تكون لهم عاصمة إلا لفترة قصيرة جدًا في الرملة. وتولى حسان بن جراح في سنة ٤٠٤هـ وكون بالاشتراك مع صالح بن مرداس وسنان بن البنا حلفا ليستقلوا بالشام عن الدولة الفاطمية فتكون حلب لابن مرداس ودمشق لسنان بن البنا وفلسطين لابن جراح. وطلبوا معاونة الامبراطور البيزنطي فلم يسعفهم، واستعان الفاطميون على محاربتهم بالقائد المشهور انوشتكين الدزبري. انظر المسبحي، أخبار مصر، ج٤٠، ص٣٥، حا: ١.
(٦) المسبحي، أخبار مصر، ج٤٠، ص٢٤-٢٥. المقريزي، خطط ١/٣٤٧، اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا ١/١٤٣.

وتعرضت أيلة للكوارث الطبيعية علاوة على الكوارث السياسية، فقد نقل صاحب النجوم الزاهرة عن ابن الصابيء أن زلزلة حدثت سنة ٤٦٠هـ أهلكت أيلة ومن فيها وذكر أشياء كثيرة من هذه المقولة[١]. وتعرضت كل من غزة واللد والكرك سنة ٦٩٢هـ إلى الزلال فتهدمت فيها دور وكذلك حدثت هزة أخرى سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م، أصابت المنطقة الجنوبية من الأردن الحالي وشملت معظم افريقيا وسورية وقبرص، ولا نعلم مقدار ما أحدثته هذه الهزات من الخسائر في أيلة والمناطق المجاورة لها[٢].

ولعل أهل أيلة لم يتأثروا كثيرًا بكارثة الجراد التي أصابت منطقة شمال الجزيرة وبلاد الشام في مستهل ربيع الأول من سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م بشكل مباشر لأن الايليين كانوا يعتمدون في معيشتهم على التجارة وتقديم الخدمات والصيد البحري[٣]وفي عام ٧٤٩هـ، تعرضت غزة وبلاد الشام بعامة للطاعون الذي أفنى كثيرًا من السكان في مصر وبلاد الشام، ولا بد أن أيلة أصابها ما أصاب غيرها مع أن المصادر ركزت على وفيات مصر ودمشق وغزة[٤].

ولما أصبحت أيلة غير صالحة للملاحة نقلت إلى الجنوب من موقعها الأول وأقيمت المدينة في هذه الجهة، وهجر الناس أيلة القديمة منذ القرن التاسع، أما مدينة ويلة الجديدة – وأسمها مشتق من (أيلة) – فكانت في عهد الخلفاء مركزًا للثقافة العقلية والثقافة المادية[٥].

ومن بداية الحروب الصليبية أصبحت أيلة محل صراع مرير بين الفرنجة والمسلمين، ذلك أن الصليبيين وضعوا نصب أعينهم منذ البداية السيطرة على شمال البحر الأحمر وذلك لتحقيق عدة أهداف منها: فصل مصر عن بلاد الشام، والاستئثار بتجارة البحر الأحمر، وفي هذا ما فيه من أضعاف لقوة المسلمين المادية والسياسية والمعنوية مقابل

(١) النجوم الزاهرة ٥/٨٠.

(٢) محمد عدنان البخيت، مملكة الكرك، ص١١٠.

(٣) المقريزي، السلوك م١، ج٣، ص٧٨٣. والنجوم الزاهرة ٨، ٣٦ وما بعدها.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية. حوادث سنة ٧٤٩هـ، ١٤/٢٢٥ وما بعدها.

(٥) موسل، دائرة المعارف الإسلامية (أيلة) وقارن، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٧٨–١٧٩.

زيادة قوة الصليبيين، ثم الاستيلاء على المدينة ومكة لضرب الروح المعنوية لدى المسلمين لحرمانهم من أقدس مقدساتهم[١]. كما أنهم باستيلائهم على هذه المنطقة يمنعون غارات القبائل المتتالية على مملكة القدس الصليبية، لذلك جرد بلدوين الأول سنة ٥١٠هـ/١١١٦م، حملة على أيلة وتمكن من احتلالها وضمها إلى الإقليم الذي كان يحكمه كرك مونتريال Crac don Montreal، وأقاموا الحصون في جزيرة فرعون أمام أيلة، كما أنشأوا في المدينة نفسهاحصنا صغيرًا وشحنوه بالمقاتلة، فمنعوا بذلك الاتصال بين مصر وبلاد الشام[٢].

أصبحت القوة الصليبية الجديدة في أيلة وشمال البحر الأحمر عقبة في وجه التجارة، كما أصبح الحجاج يتعرضون للأذى والضرر في طريقهم على أيدي الصليبيين في هذه المنطقة[٣].

وأمام خطورة سيطرة الأعداء على هذه المنطقة الحيوية، صمم صلاح الدين الأيوبي على تطهير أيلة وما جاورها من الصليبيين، فسار من مصر قاصدًا أيلة وعمل مراكب مفصلة وحملها قطعًا على ظهور الجمال إلى ميناء عيذأب حيث أعاد تركيبها وأبحر بها نحو أيلة فحاصرها برًا وبحرًا حتى فتحها في العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٦هـ [٤]، ويمكن إدراك مدى الأهمية التي كان صلاح الدين الأيوبي يوليها لاحتلال أيلة من الرسالة

---

(١) حول أهداف الصليبين من احتلال أيلة والمنطقة المجاورة، انظر: Prawer, (J). The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1972, p.71 King. Knight Hospitallers, p.115. Lane pool, Saladin, p.175. سعيد عاشور، الحركة الصليبية ٣٢٧/١. يوسف غوانمه، إمارة الكرك الأيوبية، ص١٢٧ وما بعدها.

(٢) William of tyer, A History of deeds done beyond the sea, vol.1.p.513. وعاشور، المرجع السابق والصفحة. موسل، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية "أيلة"، ومحمد عدنان البخيت، مملكة الكرك، ص٥. وغوانمه، المرجع السابق، ص٩٩.

(٣) ابن قاضي شهبة، سيرة الملك نور الدين، لوحة (٩٥) مخطوط، نقلا عن غوانمه، ص٩٩. وانظر عاشور، المرجع السابق ٧١٥/٢.

(٤) ابن الاثير، الكامل في التاريخ ١١٠/٩، والمقريزي، خطط ٣٤٧/١. وأبو شامه، شهاب الدين، **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج١، ق٢، ص٤٨٦. وابن شداد، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، ٢١٤/١. والبنداري، **سنا البرق الشامي**، ١٠٩/١. وسط بن الجوزي، **مرآة الزمان** ١٧٧/٨، وابن واصل، **مفرج الكروب** ١٩٨/١. وأبو الفداء، **المختصر في أخبار البشر** ٥٢/٣. وابن الوردي، **تتمة المختصر** ٧٨/٢، وابن كثير **البداية والنهاية** ٢٦٣/١٢. ورانسمان ٦٣١/٢ وعاشور، المرجع السابق ٧١٨/٣ ومحمد عدنان البخيت، ص٧. وغوانمه ص١٢٨.

التي كتبها القاضي الفاضل - كاتب صلاح الدين - إلى الخليفة في بغداد يبشره بالفتح ويصف له ما لاقاه المسلمون من عناء في فتحها، نقتطف منها: "... ومنها قلعة بثغر أيلة كان العدو قد بناها في بحر الهند، وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن وغزا ساحل الحرم فسبى منه خلقا، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقا، فكادت القبلة أن يستولى على أصلها، ومساجد الله أن يسكنها غير أهلها، ومقام الخليل صلوات الله عليه أن يقوم به من ناره غير برد وسلام، ومضجع الرسول شرفه الله أن يتطرق من لا يدين بمن جاء به من الإسلام، ففتح الله هذه القلعة وصارت معقلاً للجهاد، وموئلاً لسفار البلاد، وغيرهم من عباد العباد، فلو شرح ما تم بها للمسلمين من الأثر الجليل، وما أستد من خلاتهم، وأحرق من زروع المشركين ورعي من غلاتهم، إلى أن ضعفت ثغورهم، واختلت أمورهم، لاحتيج فيه إلى زمن يشغل عن المهمات الشريفة لسماع مورده وإيضاح مقصده "[١].

ويتبين من هذه الرسالة أن الفرنج غزوا سواحل الحجاز قبل عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م وهددوا الحرمين الشريفين خلافًا لما هو متعارف عليه عند المؤرخين بأن النشاط البحري الصليبي لم يصل إلى قبالة الحرمين إلا بعد تولى ارناط امارة الكرك، ودليل ذلك أيضًا ما جاء في الرسالة السابقة : "ومن هؤلاء الكفار صاحب صقلية[٢] منها في السنة الخالية إلى الإسكندرية أمر رائع وخطب هائل ما أثقل ظهر البحر مثل حمله ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله ...".

ومن المعروف أن غزوة صاحب صقلية للإسكندرية حدثت في سنة ٥٦٩/١١٧٤م كما يتبين من تاريخ الرسالة أي ٥٧٠هـ/١١٧٤م"[٣].

وعليه يمكن القول بأن الصليبيين بدأوا نشاطهم البحري في البحر الأحمر قبل إمارة ارناط على الكرك، غير أن هذا النشاط لا يقارن بضخامة نشاط ارناط وغزواته المنظمة التي كان يوجهها من الكرك للسيطرة على البحر الأحمر لاعتراض السفن التجارية

(١) راجع نص هذه الرسالة في: أبو شامه، الروضتين ١/٦١٠-٦٢١. وابن واصل، مفرج الكروب ٢/٤٨٦-٤٩٣. والقلقشندي، صبح الأعشى ١٣/٨١-٩٠.

(٢) يوسف غوانمة، إمارة الكرك، ص١٠١.

(٣) أبو شامه، الروضتين ٢/٣٥. وابن واصل، مفرج الكروب ٢/١٢٧، وغوانمه المرجع السابق والصفحة.

وتهديد طريق البر أيضا[١]. ومن هنا ندرك أن صلاح الدين كان مضطرا للحملة السابقة حتى لا يحقق الصليبيون أهدافهم ويعيثون في منطقة الحجاز والبحر نهبا وسلبا وقرصنة وفصلا بين مصر والشام.

وحتى يضمن صلاح الدين أمن أيلة وطرق المواصلات بين مصر والشام والحجاز أخذ يشن الحملات المتواصلة والشديدة على كل من قلعتي الشوبك والكرك، وكان أمير الكرك، ارناط، ينتهز الفرص ليشن بدوره الغارات على أيلة وعلى طرق القوافل البرية والبحرية، ذلك أنه وضع نصب عينيه تحقيق الأهداف الصليبية السابقة في المنطقة، أي احتلال منطقة الحجاز والبحر الأحمر وهدم المقدسات الإسلامية أو نقل جثمان الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الكرك واستخدامه وسيلة ضغط على المسلمين لاذلالهم وتحصيل الضرائب منهم[٢].

وفي غمرة هذا الصراع عزم ارناط على إعادة احتلال أيلة مهما كلفه ذلك من ثمن. فأعد مراكب مفككة في الكرك ونقلها إلى بحر القلزم - كما سبق وعمل صلاح الدين - وذلك عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م، وهاجم أيلة وتمكن من هزيمة حاميتها واحتلالها ثانية، ثم حاصر جزيرة فرعون ولم يتمكن من فتحها، فترك قسما من سفنه يحاصر القلعة في الجزيرة ويراقب مداخل البحر الأحمر، وانطلق بالقسم الثاني نحو الجنوب يريد تملك الحجاز كما قال الذهبي: "وفيها سار الفرنج بحرًا وبرًا لتملك الحجاز"[٣]، فهاجم ميناء عيذاب المصري وأحرق السفن ونهب ما فيها، كما استولى على مراكب الحجاج القادمة من مدينة جدة، كما توغلت قوة صليبية في بر عيذاب وأسروا قافلة كبيرة من الحجاج كانت في طريقها إلى الديار الحجازية ... وواصلت القوة البحرية الصليبية تقدمها نحو الجنوب حتى سواحل تهامة واليمن[٤].

(١) يوسف غوانمة، المرجع السابق والصفحة.

(٢) أبو شامه المرجع السابق والصفحة. وابن واصل، المرجع السابق والصفحة.

(٣) دول الإسلام ٢/٩٠.

(٤) حول حملة ارناط هذه انظر: المقريزي، السلوك، ١/٧٨-٧٩ وخطط المقريزي ١/٣٤٧، ورحلة ابن جبير ص٢٩-٣٠، والكامل لابن الأثير حوادث سنة ٥٧٧هـ/٩/١٥٩-١٦٠، ومفرج الكروب ٢/١٣٠، ٣/٣١٧-٣١٨، وأبو شامه، الروضتين ٢/٢٥، وابن خلدون، تاريخ ٥/٢٩٩، والحنبلي، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ١/٢٨٠، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ٨/٢٣٦، وفيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ص٢٣٧،

أثارت هذه الحملة مشاعر وحماس المسلمين فدعوا إلى الجهاد المقدس لتخليص منطقة أيلة من خطر الفرنجه، وتبدو هذه المشاعر واضحة في الرسائل التي كتبها القاضي الفاضل إلى الخليفة في هذه الفترة[١].

أرسل صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل أبي بكر بن أيوب بمصر أمرًا بمواجهة الحملة الصليبية الجديدة، فعهد هذا بدوره إلى القائد البحري حسام الدين لؤلؤ[٢]، بالمهمة، فأعد لؤلؤ اسطولا في الإسكندرية ومصر ونقله إلى أيلة برا، وهناك أعاد تركيبه وشحنه بالمقاتلة من المغاربة البحريين. وكان مقاتلو جزيرة فرعون المحاصرون قد تضايقوا من طول الحصار الصليبي فانقطع الماء عنهم حتى شعروا بقرب الهلاك، فأرسل الله عليهم أمطارًا غزيرة في شهر شعبان سدت حاجتهم وأنقذتهم بعد يأس، فقويت معنوياتهم وخزنوا من الماء ما يكفيهم لشهرين وصمموا على الصمود للحصار. بدأ حسام الدين أول أعماله العسكرية ضد المحاصرين فأنزل بهم ضربة قاصمة وذلك في شعبان من سنة ٥٧٨هـ/ كانون الأول ١١٨٢م، فأحرق السفن الصليبية بالنار الإغريقية واسر وقتل عددًا كبيرًا منهم[٣] وأما من تمكن من الهرب إلى البر فقد أدركهم العربان في تلك الشعاب وقبضوا عليهم و لم ينج منهم أحد. وبعد جزيرة فرعون توجه حسام الدين جنوبا لملاحقة الأسطول الصليبي فمر على ميناء

ورانسمان، تاريخ الحروب الصليبية ٢/٧٠٦، وانظر أيضا: Conder,the Latin Kingdom, p. 140, 381.
Stevenson, W.D, The Crusaders in the east, p. 229. King, Knight, p. 115. Lane poole, Saladin, p. 176.

(١) جمع الدكتور الشيال رسائل القاضي الفاضل المتعلقة بهذه الحملة في آخر كتاب ابن واصل، مفرج الكروب ج٣ من رقم ٧-١١، ص٣١٢-٣١٨. انظر يوسف غوانمه، المرجع السابق، ص١٣١-١٣٢.

(٢) حسام الدين لؤلؤ: كان من كبار قواد صلاح الدين الأيوبي، وعرف بأنه اشجع الشجعان وأفرس الفرسان، فهو الذي حطم الفرنج في بحر أيله وبر الحجاز وكان كثير المبرات واسع الخيرات اشترك في معارك كثيرة ضد الصليبيين، وفيه يقول الرضي بن أبي حصينه المصري مخاطبا الفرنج:

عدو لكم لؤلؤ والبحر مسكنه ... والدر في البحر لا يخشى من القبر
فأمر حسامك أن يحظى بنحرهم ... فالدر من كان منسوبا إلى البحر

توفي في القاهرة سنة ٥٩٦ هـ. انظر أبو شامه، الروضتين ٢/٢٤٠ عاشور، المرجع السابق، ويوسف غوانمة، المرجع السابق ص١٣٢.

(٣) حول هذه الحملة انظر: مصادر حملة ارناط السابقة وسعيد عاشور، الحركة الصليبية ٢/٧٨٧ وما بعدها. ويوسف غوانمة، المرجع السابق ص١٣١-١٣٢.

عيذأب و لم يجد به أثرا لهذا الأسطول[١] اللهم إلا الدمار الذي ألحقه الصليبيون بالميناء والسفن التي كانت به، وتابع حسام الدين مطاردة الأعداء فوجدهم قد بلغوا ميناء رابغ[٢] الحجازي حيث اعترضوا تجارًا فنهبوا بعضهم واسروا آخرين وأشاعوا الذعر في سواحل الحجاز، وتوجهوا نحو ساحل مكة وفي نيتهم الاستيلاء على المدينة المنورة، فتركوا مراكبهم في الميناء المواجه للمدينة بحراسة عدد من جنودهم، وسار ارناط ومعه فرسان الداوية وعددهم نحو ثلاثمائة مقاتل يساعدهم بعض الأعراب المرتزقة من أهالي تلك الجهات، وساروا جميعا حتى قربوا من المدينة، وقد انهكتهم حرارة الشمس المحرقة وصعوبة الطريق الوعرة، ومع ذلك كله صمم ارناط على الوصول إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

أدرك لؤلؤ مراكب أعدائه في الحوراء[٣] فأحرقها وأطلق الأسرى من التجار ورد إليهم ما أخذ منهم، ونزل إلى البر بقسم من قواته حيث قدم لهم كثير من الأعراب المساعدة، كما قدموا لهم الخيل للركوب، وتبعوا أثار ارناط مسرعين حتى لا يتمكن الأخير من تحقيق أهدافه. وبعد خمسة أيام تمكنوا من اللحاق به على بعد يوم من المدينة، أدرك ارناط أن لا سبيل للعودة إلى أسطوله في البحر الأحمر، وفر جنده إلى الجبال، وفر هو نحو الشمال متخفيا يبغي العودة إلى منطلقه، وتمكنت قوات حسام الدين من قتل وأسر معظم جند ارناط الذي استطاع الوصول إلى قواته في تبوك والعودة بهم وبمن نجا معه إلى الكرك[٤].

وعاد لؤلؤ بأسراه وكانواماية وسبعين أسيرًا، فأرسل اثنين منهم إلى مكة المكرمة حيث نحرا في منى في موسم الحج ليكونا عبرة لمن يعتبر[٥] وأما البقية فقد حملهم معه إلى

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٩/١٥٩-١٦٠ وتاريخ ابن خلدون ٥/٢٩٩.

(٢) رابغ: مدينة على ساحل البحر الأحمر منها يمر الحجاج، وهي تقع إلى الشمال من جدة.

(٣) الحوراء: مدينة على ساحل وادي القرى، بها مسجد جامع وبها ثمانية آبار عذبة وبها ثمار ونخل وأهلها عرب من جهينه وبلي. انظر المقريزي، خطط ١/٣٤٧، وصبح الأعشى ٣/٣٨٩.

(٤) انظر حول هذه الحملة أيضا: الحنبلي، الأنس الجليل ١/٢٨١. ابن واصل مفرج الكروب ٢/١٣١ ٣/٣١٦، ٣/٣١٨ Conder, OP. cit, p. 147 وأبو شامه، الروضتين ٢/٣٥ والذهبي، دول الإسلام ٢/٩٠. وسبط ابن الجوزي، ومرآة الزمان ٨/٢٣٥. وتاريخ ابن خلدون ٥/٢٩٩.

(٥) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ٨/٢٣٥، وابو شامه، الروضتين ٢/٣٥. وابن واصل مفرج الكروب ٢/١٣٨. وأبو

مصر، وكان دخولهم مصر عظيما، ثم وزعوا على سائر المدن المصرية ليقتلوا بها، وقد شاهد ابن جبير عددًا منهم في الإسكندرية أثناء وجوده بها[١] عام ٥٧٨هـ/١١٨٣م، وقد اركبوا على الجمال بالمقلوب وطيف بهم في شوارع الإسكندرية بين قرع الطبول والنفخ في الأبواق، ثم قتلوا، ولقد استغرقت حملة ارناط وعيثه في منطقة البحر الأحمر فسادا زهاء أربعة أشهر من شعبان حتى ذي القعدة من العام ٥٧٨هـ/١١٨٢-١١٨٣م. وفي حملة ارناط هذه قال ابن الوردي[٢]:

لقد طمع البرنس بمستحيل ... فجر لقومه سفك الدماء
ولو ترك النبي بلا دفاع ... لدافع عنه املاك السماء

ومما يجدر ذكره أنه في الحصار الثاني لأيلة وقلاعها دمرت حصون الجزيرة وهدم جانب من المدينة، ولكن سرعان ما استعادت مجدها في عهد حكام حصن الكرك من بني أيوب ومن المماليك من بعدهم، وكانت الغش التي مشبت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر سببًا في القضاء على تجارة أيلة، وفي دمار المدينة نفسها وبقي منها فقط القلعة الموجودة على أرض القارة لتحمي العقبة طريق الحجاج الوافدين من مصر، وسميت المدينة بعد ذلك باسم العقبة فقط وأسقط من التسمية اسم "أيلة"[٣]. وبعد هزيمة الصليبيين لم نعد نجد في المصادر أخبارًا ذات قيمة عن أيلة، فقد ذكر أن فئة من اليهود كانت تسكنها، كما بقيت أيلة محطة لقوافل الحجاج، ثم أصبحت ملجأ للمتمردين على الدولة أو الراغبين في العصيان، أو سجنا للخصوم في العهد المملوكي والعثماني[٤].

لقد رافق، جلدن Gildden بعثة المدارس الأمريكية للدراسات الشرقية التي نقبت في موقع تل الخليفة، وذلك تحت إدارة نلسون جلك في ربيع ١٩٤٠، درس جلدن النقوش

الفداء، المختصر في اخبار البشر ٦٩/٣. ورانسمان، الحروب الصليبية ٧٠٧/٢ و Lane poole, Saladin p.176 ويوسف غوانمة، إمارة الكرك ص١٣٤-١٣٥.

(١) ابن جبير، الرحلة، ص٣١. انظر رسالة القاضي الفاضل إلى الخليفة يصف فيها فتح أيلة في صبح الأعشى في صناعة الانشا ٢٧/٧ - ٢٨.

(٢) تتمة المختصر في أخبار البشر ١٤٠/٢.

(٣) موسل، دائرة المعارف الإسلامية (أيلة)، ص٢٠٨.

(٤) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٨٧. والمقريزي، خطط ١٨٤/١ ومحمد عدنان البخيت، مملكة الكرك، ص٢٩.

الموجوة على جدران مدخل حصن العقبة ونشرها[1]، وأورد النص على النحو التالي:

أ – **الكتابات الموجودة على جدران الجهة اليمنى من مدخل الحصن تقول:**

القلعة المباركة السعيدة مولانا المالك الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري سلطان الإسلام والمسلمين قاتل (الكفرة والمشركين).

ب– **الكتابات الموجودة على جدران الجهة اليسرى من المدخل تقول:**

محيي العدل في العالمين ... السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري أعز الله أنصاره بمحمد وآله وكان (Sic) بنى هذه القلعة المباركة ذات الأمير خاير بك العلاي (العلائي For) المعماري ... بتاريخ (سنة) عشر (.....).

وقد استخلص جلدن أن باني القلعة هو السلطان المملوكي قانصوه الغوري، وأكمل الفراغات المطموسة في الجزء الثاني من الكتابات مصححا النص كما يلي:

بتاريخ سنة عشرين وتسعماية أو تسعماية وعشرين، أي ما يساوي ١٥١٣–١٥١٥م.

وقد ذكر ابن إياس في كتابه (بدائع الزهور في وقائع الدهور) اسم الأمير خاير بك العلاي المعروف بالمعمار في آخر أسماء الأمراء المقدمين الستة والعشرين في زمن السلطان قانصوه الغوري سنة ٩٢٢هـ وقال: "والأمير خاير بك المعمار أحد المقدمين وكان مقيما بثغر رشيد بسبب عمارة الأبراج التي هناك والصور"[2] وكما هو واضح من النص الذي نشره جلدن فان خاير بك هو باني قلعة أيلة كما هو الباني للعديد من المنشآت العمرانية في أواخر العهد المملوكي وبخاصة عهد السلطان قانصوه الغوري. وذكر ابن اياس أن خاير بك هذا لم يرافق قانصوه الغوري في حملته إلى شمال سورية[3] لمواجهة السلطان سليم العثماني في معركة مرج دابق سنة ١٥١٦م. وإنما تخلف مع مجموعة الأمراء التي بقيت في القاهرة. وبعد معركة الريدانية ودخول الجيش العثماني

(١) Glidden, M.W. The Mumluk Origin of the Fortified Khan At Al Aqaba, Jordan, Archaeologica Orientalian memoriam, E. Hery Feld, New York, 1952, p.116-118.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهود، ج٥، ص٣٩.

(٣) وذلك على غير ما ذهب إليه جلدن اعتمادًا على ابن اياس، أن خايربك رافق قانصوه الغوري سنة ٩٢٢هـ، ويمكن أن يكون قد قتل في تلك المعركة. انظر مقالة جلدن السابقة.

القاهرة، تعرض بيت خاير بك المعمار للنهب على ايدي الجند العثمانيين الذين نهبوا بيوت الأعيان المصريين، و لم يذكر ابن اياس عن نهاية خاير بك شيئا. بالإضافة إلى ترميم القلعة فقد اصلح قانصوه الغوري الطريق إلى العقبة وبنى فيها الخان السالف الذكر تحيط الأبراج بواباته، وخصص له الحواصل لمنفعة الحجاج[١].

٤- بدأت أسماء الايليين تظهر منذ عهد مبكر (القرن الأول الهجري). ولا عجب أن وصف السمعاني أيلة بقوله: خرج منها جماعة من العلماء والفضلاء من كل نوع[٢] فقد شغل عبد الله بن سعد الايلي القضاء في عهد عمر بن عبد العزيز[٣]وذكر الأصفهاني أن عبد الله بن يونس صاحب أيلة كان ملحنا، وأورد له لحنا في أخباره عن الوليد بن يزيد[٤]. وحل بأيلة العديد من الخلفاء ورجال الدولة وهم في طريقهم إلى الحج أو في انتقالهم من قطر إلى آخر، ولهذا ما له من تأثير في الحياة العامة لمدينة أيلة[٥] التي أصبحت مركزًا من مراكز الثقافة في بلاد الشام نسب إليها عدد من العلماء والمحدثين نذكر منهم[٦].

١. **أبو زيد، يونس بن زيد بن أبي النجاد الأيلي**، المتوفى في بضع وخمسين ومائة وهو من موالي معاوية بن أبي سفيان، وهو من أبرز تلاميذ ابن شهاب الزهري، روى عن أخيه أبي علي بن يزيد، ونافع مولى ابن عمر، وهشام بن عروة وعمارة بن عزبة وعكرمة وغيرهم.

وروى عنه كثيرون منهم جرير وعمرو بن الحارث وابن أخيه عنبسه بن خالد الأيلي، والليث والاوزاعي وسليمان بن بلال، وطلحة بن يحيى الزقي وابن المبارك

---

(١) انظر ابن اياس، بدائع الزهور، المرجع السابق، ج٥، ص٢٩، وما بعد. وانظر أيضا، الحميري الروض المعطار، ص٧١.

(٢) أنساب السمعاني، ٤٠٩/١ رقم (٢٩٠).

(٣) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٢٧٦.

(٤) الأغاني، ٦٩/٧. نسب لأيلة أكثر من واحد بهذا الاسم و لم نتبين أيهم الذي عناه أبو الفرج الأصفهاني. انظر: البسوي، المعرفة والتاريخ ٦١٢/٢.

(٥) انظر على سبيل المثال، المحب، ص٣٧، والنجوم الزاهرة ٢٠٦/٦-٢٠٨.

(٦) اكتفينا بالتعريف بالمشهورين من العلماء الذين نسبوا إلى أيله، وذكرنا أسماء الآخرين ذكرًا فقط. ولا ندعي أن هذه الأسماء هي كل ما نسب إلى أيله من علماء ومحدثين.

وابن وهب والقاسم بن مسرور ومفضل بن فضال وشبيب بن سعد سعد الحبطي، وبقية بن الوليد، وحسان ابن ابراهيم الكرماني، وعبد الله ابن رجاء المكي، وأبو صفوان عبد الله بن سعيد الأموي وعبد الله بن عمر النميري وعثمان بن عمر بن فارس وآخرون. وقيل فيه أنه ثقة حلو الحديث كثيره، كما قيل فيه غير ذلك[١].

٢. **عقيل بن خالد الايلي القرشي الأموي مولى آل عثمان بن عفان**، قيل توفي بمصر سنة إحدى أو اثنتين وأربعين ومائة. ويكنى أبو خالد، روى عن الزهري، وعن أبيه وعمه زياد ونافع مولى ابن عمر وعكرمة والحسن وسعيد ابن أبي سعيد الخدري وسعيد بن سليمان بن زيد بن ثابت وسلمة بن كهيل وغيرهم. وكان عقيل في الشرطة فلازم الزهري الذي كان بدوره أميرًا للجند وروى عنه، وكان الزهري إذا ما رأى عقيلا أصيب بالنعاس من السهر خاطبه قائلا: "ما أنت من سمار قريش الذين قال الله فيهم: ﴿سَٰمِرًا تَهۡجُرُونَ﴾[المؤمنون: الآية (٦٧)] [٢].

٣. **هارون بن سعيد الايلي**. روى عن ابن عيينة وابن وهب وأبي ضمرة وخالد بن أبي نزار ومؤمل بن إسماعيل وبشر بن بكر، وعنه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وأبو حاتم ومحمد بن وضاح وبقي بن مخلد والمعمري وزكريا الساجي وعاصم بن رازح وعمير بن محمد البحيري وعلي بن أحمد بن علان وابن أخيه مسعدة بن حازم المصري وأسامة بن يحيى التجيبي وأبو جعفر الطحاوي وأبو بكر بن أبي داود، وآخرون منهم أبو العباس الشيباني النسوي محدث خراسان في عصره. وهو ممن تعرض للمحنة في خلق القرآن في زمن الواثق سنة ٢٢٧هـ ووصف بالجرأة في القول، وقيل أنه كان مقدما في الحديث ثقة فاضلا وتوفي سنة ٢٦٣هـ وقيل بل سنة ٢٥٣هـ[٣].

(١) انظر طبقات ابن سعد ٥٢/٧، وطبقات ابن خياط، ص١٩٦، ويحي بن آدم، كتاب الخراج، (انظر يونس بن يزيد الايلي في فهرس الأعلام)، والبسوي، المعرفة والتاريخ ١٣٩/١. وأنساب السمعاني ٤١٠/١ رقم (٢٩٠) والذهبي، العبر ٢١٨/١. وابن حجر، تهذيب التهذيب ٤٥٠/١١ وما بعدها، رقم (٧٦٩).

(٢) عن عقيل انظر: طبقات ابن سعد ٥١٩/٧. وطبقات ابن خياط، ص٢٩٥. والبسوري، المعرفة والتاريخ ١٢٤/١ و ٦٢٦/١ وصفحات متفرقة – انظر الفهرس. والذهبي، سير اعلام النبلاء ٢٤١/٥ (يذكر أن الزهري كان أمير جند). وابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٥٥/٧ وما بعدها رقم (٤٦٧).

(٣) الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص١٩٩، ٣٠٣، ٣٠٤، ٤٥١، ابن الجوزي، المنتظم ١٧٢/٦. الذهبي، تذكرة الحفاظ رقم (٥٤٨)، ابن حجر، تهذيب (١٢) ٦/١١–٧. أنساب السمعاني ٤١١/١.

٤. **محمد بن عزيز بن عبد الله بن زياد بن خالد بن عقيل بن خالد الايلي**، أبو عبد الله العقيلي مولى بني أمية توفي سنة ٢٦٧هـ بأيلة. روى عن ابن عمه سلامة بن روح وسليمان بن سلم الجنائزي ويعقوب بن زهدم بن الحارث. وعنه النسائي وابن ماجه وأبو داود في غير السنن ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وهو من أقرانه ويعقوب ابن سفيان ومحمد بن مسلم بن واره وأبو حاتم وابن ابي عاصم وجعفر الغرياني وحرمي بن أبي العلاء وبكر بن سهل الدمياطي وزكريا الساجي وابن خزيمة وأبو عوانة وعمرو بن أبي الطاهر المصري وعلي بن اسحاق بن زياد وعبد الله بن محمد بن مسلم الأسفرائنيي وأبو بكر محمد بن حمدون بن خالد بن يحيى عن يعقوب بن سفيان قال: دخلت أيلة فسألت عن كتب سلامة بن روح ووجدت له فيها حديثا[(١)].

٥. **أبو عثمان عنسبه بن خالد بن يزيد بن أبي النجاد الأيلي من موالي بني أمية**. روى عن عمه يونس بن يزيد الأيلي، وابن جريج وابن المبارك ورجاء بن جميل. وروى عنه، عبد الله بن وهب وهو من أقرانه، ومحمد بن مهدي الاخمينى وهاشم بن محمد الربعي وأبو محمد الأموي وأحمد بن صالح المصري، وقيل أنه كان على خراج مصر، توفي بأيلة في جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين ومائة (سنة ١٩٨ وقيل سنة ١٩٧) وقيل عنه ثقة كما قيل ضعيف الحديث. وأتهم بأنه كان يعلق النساء بالثدي عندما كان على خراج مصر[(٢)].

٦. **زريق بن حكيم الايلي**، وقيل بن الحكم، وهو الذي كتب إليه الخليفة عمر بن عبد العزيز: "انك كنت تقضي بالمدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحق ... إنا كنا نقضي بذلك بالمدينة فوجدنا أهل الشام على غير ذلك، فلا تقض إلا بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين". وروى عن عمرة بنت عبد الرحمن وسعيد بن المسيب والقاسم بن محمد وعمر بن عبد العزيز وغيرهم، وروى عنه

---

(١) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ١٥٣/٢. ابن حجر، تهذيب التهذيب ٣٤٤/٩ رقم ٥٦٧.

(٢) البسوي، المعرفة والتاريخ ٦٥/٢، ١٧٥، ٤/٣، ٣٣٣/٣، ٣٦٧/٣. أنساب السمعاني (٢٩٠) ٤١٠/١، تهذيب ابن حجر (٢٧٦) ١٥٤/٨.

ابنه ومالك وابن عيينه ويونس بن يزيد الأيلي وعقيل الأيلي، وسعيد بن أبي أيوب وغيرهم وقيل عنه ثقة(١).

٧. **طلحة بن عبد الملك الأيلي** روى عن القاسم بن محمد وزريق بن حكيم، وروى عنه أخوه القاسم بن سرور والأوزاعي، ومالك بن أنس، وعبيد الله وعبد الله ابنا عمر ويحيى القطان وقيل عنه ثقة(٢)، فقد روى خبر معاملة عمر بن عبد العزيز لأهل أيلة(٣).

٨. **عبد الجبار بن عمر الايلي ويكنى أبا الصباح وهو من موالي بني أمية**. روى عن الزهري وابن المنكدر ونافع مولى ابن عمر وربيعة ويحيى بن سعيد الأنصاري واسحاق بن عبد الله بن أبي فروة وغيرهم، وعنه رشد بن سعد وابن المبارك وابن وهب وأبو عبد الرحمن المقرئ وسعيد بن أبي مريم وغيرهم، قيل عنه ضعيف، وذكره البخاري في فصل من مات من الستين إلى السبعين ومائتين(٤).

٩. **أبو صخر يزيد بن أبي سمية الأيلي** كان من العباد يصلي ليله أجمع ويبكي وكان يوافي المواسم كل عام على محمد بن المنكدر وصفوان بن سليم ويزيد بن خصيفة وسليمان بن سحيم وأبي حازم فيلقون عمر بن ذر فيقص عليهم ويذكرهم أمر الآخرة فلا يزالون كذلك حتى ينقضي الموسم، ثم لا يلتقون بعد إلا في كل موسم. روى عن أبي عمر وعمر بن عبد العزيز وأبي بكر بن عبد الرحمن وهشام بن اسماعيل، وروى عنه هشام بن سعد المدني وأبو الصباح سعدان بن سالم الايلي وعبد الجبار بن عمر الايلي، وقيل عنه صالح الحديث ثقة(٥).

١٠. **سعد بن عبد الله بن سعد الأيلي** توفي سنة ثلاث وسبعين ومائة، روى عن محمد بن

(١) ابن سعد، الطبقات، ٥٢٠/٧، ابن خياط، ص٢٩٥، البوي، المعرفة والتاريخ ٦٩٢/١، تهذيب ابن حجر (٥١٥) ٢٧٣/٣.

(٢) ابن سعد، المرجع السابق، ٥١٩/٧. ابن خياط، ص٢٩٦، تهذيب ابن حجر (٤٧) ١٩/٥–٢٠.

(٣) البلاذري، فتوح، ص٧١.

(٤) طبقات ابن سعد ٥٢/٧، البسوي، المرجع السابق ٤٤/٣، الذهبي، ميزان الاعتدال رقم (٤٧٤٣) ٥٣٤/٢. تهذيب ابن حجر (٢٠٩) ١٠٣/٦.

(٥) طبقات ابن سعد، ٥١٧/٧. تهذيب ابن حجر (٦٣٨) ٣٣٤/١١.

كعب القرظي والقاسم بن محمد وعنه صخرة بن ربيعة وقيل عنه ثقة ولا بأس به[١].

١١. **سعدان بن سالم الأيلي** ويكنى أبو الصباح، كان أحد النفر الذين وفدوا على عمر بن عبد العزيز، روى عن يزيد بن أبي سمية أبي صخر الايلي وسهل بن صدقة مولى عمر بن عبد العزيز وذكر في الثقات[٢].

١٢. **يحيى بن صالح الأيلي** روى عن اسماعيل بن علية وعنه يحيى بن بكير المصري وذكر أن ابن بكير لقية بأيلة سنة سبع وتسعين وذكر له أحاديث وقال كلها غير محفوظة وذكر من الضعفاء[٣].

١٣. **شيبان بن فروح، وهو شيبان بن أبي شيبة الحبطي مولاهم أبو محمد الايلي**. ولد في حدود سنة ١٤٠ ومات سنة ست وقيل سنة خمس وثلاثين ومائتين. روى عن جرير بن حازم وأبي الأشهب العطاردي وأبان بن يزيد العطار وحماد بن سلمة وسلام بن مسكين ومهدي بن ميمون وعبد الوارث بن سعيد وسليمان بن المغيرة والصعق بن حزن وعبد العزيز بن مسلم وأبو داود. وعنه أبو داود والنسائي بواسطة أبي بكر الأحمدين بن ابراهيم العطار وابن علي بن سعيد المروزي وزكريات بن يحي السجري وأبو يعلى والحسن بن سفيان وبقي بن مخلد وجعفر بن محمد الغرياني وعبد الله بن أحمد وعبدان الاهوازي وعثمان الدارمي وموسى بن هارون وأبو القاسم البغوي وغيرهم. قيل كان ثقة صدوقا[٤].

١٤. **خالد بن نزار بن المغيرة بن سليم الغساني مولاهم الايلي**. وقال ابن سعد مات سنة ٢٢٢هـ. روى عن ابراهيم بن طهمان وسفيان بن عيينه وعنه مالك والقاسم بن مبرور والاوزاعي ونافع بن عمر الجمحي وابن أبي الزناد ومحمد بن ادريس الشافعي وهو من أقرانه وغيرهم. وعنه أحمد بن صالح المصري وأبو الطاهر بن السرح وابنه طاهر بن خالد ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وهارون بن سعيد

(١) البسوي، المعرفة والتاريخ ١/١٦٣. ابن حجر، تهذيب رقم (٨٨٥) ٣/٤٧٦.

(٢) البسوي، المعرفة ١/٥٨٤، ٢/٦٩٠. ابن حجر، تهذيب رقم (٩٠٨) ٣/٤٨٧.

(٣) ابن حجر، تهذيب (٣٧٢) ١١/٢٣١.

(٤) ابن حجر، تهذيب (٩٢٦) ٤/٣٧٤-٣٧٥.

الايلي وجماعة. وذكر في الثقات[١].

١٥. **الحكم بن عبد الله بن سعد بن عبد الله الايلي**، مولى الحارث بن الحكم بن أبي العاص، قيل أنه سمع الحديث من أنس بن مالك وحدث بدمشق وغيرها عن الزهري ونافع وغيرهما وروى عنه يحيى بن حمزة والليث بن سعد وغيرهما، وثقه جماعة وضعفه وكذبه آخرون[٢].

١٦. **الحسين بن محمد بن الحسن بن عامر بن أحمد أبو طاهر الأنصاري الخزرجي المقري المعروف بابن خراشة الايلي** من أهل أيلة كان امام المسجد الجامع بدمشق قرأ القرآن على المظفر الأصبهاني وأقرانه وحدث عن الحنائي وطبقته توفي سنة ثمان وعشرين وأربعمائة وكان ثقة نبيلا مامونا أشعري المذهب[٣].

١٧. **داود بن أيوب بن سليمان بن عبد الأحد ويقال بن عبد الواحد الإيلي** حدث عن أبيه وهشام بن عمار وابراهيم بن المنذر وروى عن ابن الأعرابي وغيره[٤].

١٨. **اسحاق بن اسماعيل بن العلاء وقيل ابن عبد الأعلى الايلي كنيته أبو يعقوب.** روى عن سفيان بن عيينة وعبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد وسلامة بن روح وغيرهم. وعنه النسائي وابن ماجه وابن واره ومكحول البيروتي وعبد الله بن مسلم المقدسي وغيرهم. توفي بأيلة سة ٢٠٨هـ[٥].

١٩. **احمد بن عبد الله بن زكريا الايلي**[٦].

٢٠. **اسماعيل بن حفص بن عمر بن دينار ويقال ميمون الايلي**[٧].

(١) ابن حجر، تهذيب (٢٢٦) ١٢٣/٣.
(٢) ابن عساكر التهذيب تاريخ دمشق ٣٩٧/٤.
(٣) ن.م. ٣٥٩/٤.
(٤) ن.م. ١٩٨/٥.
(٥) ابن حجر، تهذيب (٤١٧) ٢٢٥/١-٢٢٦.
(٦) الاسنوي، طبقات الشافعية ١٢٣/١ رقم (١٠١).
(٧) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٢٨/١ رقم (٥٣٨).

٢١ . عمر بن سعيد الايلي[١].

٢٢ . حسين بن رستم الايلي[٢].

٢٣ . شهاب الدين أبو العباس احمد بن محمد بن احمد بن محمد بن عمر الايلي[٣].

٢٤ . أبو عبد الله الايلي[٤].

٢٥ . عبد الله بن سعد الأيلي ت ٢٢٩هـ[٥].

٢٦ . عبد الله بن يونس الأيلي[٦].

٢٧ . سعيد بن الهيثم الأيلي[٧].

٢٨ . حسان بن أبان بن عثمان أبو علي الأيلي ت ٣٢٢هـ[٨].

٢٩ . مره بن عمرو الأيلي[٩].

٣٠ . أحمد بن الحسين المصري الأيلي ت ٢٩٢هـ[١٠].

هذا وزار العديد من العلماء أيلة وأقاموا فيها فترات متقطعة أذكر من بينهم عبد الرحمن بن اسحق أبو القاسم الزجاجي النحوي من أهل بغداد وسكن طبرية وأيلة

(١) البسوي، المعرفة والتاريخ ٦٩٩/١.
(٢) طبقات ابن سعد ٥٢٠/٧.
(٣) شذرات الذهب ٣٥/٧.
(٤) الهمداني، الاكليل ٢٣٢/٨.
(٥) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٢٧٦.
(٦) الأغاني ٦٩/٧.
(٧) الكندي، الولاة والقضاة، ص٤٠٧.
(٨) ياقوت، معجم البلدان (أيلة).
(٩) الاكليل ٢٠٥/٨.
(١٠) النجوم الزاهره ١٥٧/٢.

وحدث بدمشق وصنف في النحو مختصرًا [١]، وكذلك حل بها عبد الله بن المبارك المحدث المشهور حيث جعله ابن سعد فيمن حل فيها[٢] وقد ترك المدينة بعض العلماء ونزلوا أيلة طلبا للعزلة، فقد قيل الزهري، يا أبا بكر: "طلبت العلم حتى إذا كنت وعاء من أوعيته تركت المدينة وخرجت عنها" قال: "انما كنت أنزل المدينة والناس إذ ذاك اناس" [٣] وكان الزهري قد حل في أيلة.

(١) المرجع السابق ٣/٣٠٢-٣٠٣.

(٢) الطبقات الكبرى ٧/٥٥٤.

(٣) البسوي، المعرفة والتاريخ (عن العباس بن عبد العظيم) ١/٦٢١.



طريق الحج الشامي في العهد الأموي

(قراءة في المصادر)

تعيد دراسة طرق الحج الشامي في الفترة الإسلامية المبكرة إلى الأذهان الدور البارز الذي لعبته هذه المنطقة الجغرافية العربية الممتدة ما بين دمشق والحجاز، في حركة المواصلات العالمية عبر العصور التاريخية الموغلة في القدم. والصلات بين الحجاز والشام لم تنقطع طيلة الفترات التاريخية بحكم الاتصال الجغرافي ووحدة المصالح المتمثلة بالقيام بدور الوسيط في مبادلة السلع التجارية العالمية.

فمنذ أن قامت الكيانات السياسية اليمنية - معين، وسبأ، وحمير - والكيانات السورية المتعاقبة - منذ أيام الفنيقيين ومرورا بالأنباط والرومان وحتى قيام الإسلام - ظل الطريق التجاري الواصل بين عدن وسواحل البحر الأبيض المتوسط، وإلى مدينة غزة بخاصة، مزدهرًا تعبره القوافل المحملة بالسلع العربية المحلية والعالمية جيئة وذهابًا، فقد كان يشكل طريق البحور في العصور الكلاسيكية، حيث كانت الجمال تحمل البخور إلى البتراء ومنها إلى سوريا متبعة طريق مأدبا وعمون وبصرى إلى دمشق(١).

وقد أدرك الرومان أهمية الطرق الواصلة بين الحجاز والشام، ومنحوها اهتمامهم فأنشأ تراجان (٩٨-١١٧م) طريقا يصل بين بصرى والعقبة مرورا بفيلادلفيا (عمان الحالية) وكابتلاياس (أم الجمال) متجنبا البتراء، وأطلق عليه الطريق الجديد(٢) (Via nova). ومن الجدير ذكره أن الأجزاء الجنوبية من بلاد الشام كانت تجتازها ثلاث طرق من الشمال إلى الجنوب في العهد الروماني والبيزنطي (القرن الخامس للميلاد) وهي:

---

(١) Andrew D. Petersen, Early Ottoman Forts on the HAJJ Road in Jordan Thesis Pembroke College Oxford, Trinity Term 1986, p.7.

(٢) نقولا زيادة، التطور الإداري لبلاد الشام بين بيزنطة والعرب، **مجلد بلاد الشام في العهد البيزنطي**، الندوة الأولى من أعمال المؤتمر الرابع لتاريخ بلاد الشام، تحرير محمد عدنان البخيت ومحمد عصفور، عمان ١٩٨٦ م. صص ٩٥-١٣٧، ص١٦-١٧. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: نقولا زيادة، التطور الإداري.

١ - طريق دمشق - بصرى - فيلادلفيا - أيلة.

٢ - اللجون (الفلسطينية) - نيابوليس (نابلس) - ايليا (القدس) - بئر السبع - الوسا (الخلصة) - البتراء.

٣ - قيسارية - ديوسبوليس (اللد) - غزة - رفح(١).

وكان يطلق على الطريق الذي يمر بمنطقة البحر الميت: الطريق الملكي، الذي كان التجار المصريون يستخدمونه. ومن العراق النبطية المهمة، تلك التي تصل "بترا" عبر وادي عربة والنقب إلى البحر الأبيض المتوسط(٢). وقد ورد في كتابات القدماء عدد من المدن كمحطات تجارية مثل: بتراء، حايل، الجوف، تيماء، تبوك، خيبر، ددان، مدائن صالح، "الحجر" غزة، عسقلان، ادوم، مآب، بالإضافة إلى معظم المدن الموجودة شرق الأردن(٣).

ازدهرت مكة في القرون الميلادية القريبة من الإسلام، بفضل موقعها المتوسط على الطريق التجاري الهام بين جنوب الجزيرة العربية والبحر المتوسط. وقد استغل أهل مكة موقعهم هذا، كما مهروا في الدبلوماسية التجارية مستفيدين من الظروف الدولية المواتية،

---

(١) نقولا زيادة، التطور الإداري، ص١٢٠.

(٢) N.Glueck, (Deities and Dolphions), New York, 1965, p.44.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا : N.Glueck

(٣) ولمزيد من المعرفة حول الطرق القديمة في هذه المنطقة انظر:

Y.Aharoni, (The Roman Roads to AILA), I.E.J, IV. 1954, pp 9-16.

سيشار إليه عند وروده فيما بعده هكذا: Aharoni

Ph, Grant, "The Syrian Desert Caravans, Travel and Exploration", New York, The Macmillan Company, 1938.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:Grant

R.G, Goodchild, "The Coast Road of Phoenicia and its Roman Milestones, Archaeolgical Studies " Berytus IX, 1949, pp. 91-127.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Goodchild

Ph, Mayerson. The Desert of Southern Palestine according to Byzantine Sources, P.A. Ph. S. C VII, 1907, pp. 79-80.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Mayerson

R. F. Burton, Personal Narrative of apiligrimage to Al-Madinah abd Mecca, 2 Vols. (Dover Edition, 1964).

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Burton

G.A. Smith, The Historical Geography of the Holy Land, Fontana Library, 1968.

G.W. Bowersock, Roman Arabia, Harvard University Press, Cambridge, Mass. 1983.

جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ١٠م، دار العلم للملايين، ط١، مكتبة النهضة، بيروت، بغداد، ١٩٧١، م١، ص٣٣١، ٣٦٤ . سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: جواد علي، المفصل.

إذ أن الحروب في بلاد ما بين النهرين كانت تجعل طريق ساحل البحر الأحمر أكثر أهمية من غيرها. كذلك كانت تزداد أهمية هذا الخط كلما اندلعت الحروب بين الساسانيين وبيزنطة، ويعود السبب في ازدهار مكة إلى هذا الخط، وفي ذلك قال تريس (Tresse). "إن موقع مكة في منتصف الطريق التجاري بين عدن وغزة جعل منها جمهورية اوليغارشية مزدهرة في القرن السادس الميلادي"[١].

وقد ابتكر المكيون (قريش) الايلاف، وتخطوا بهذا الأسلوب - من التعامل المحلي والدولي - معظم المشاكل التي كانت تعترض حركة التجارة في داخل بلاد العرب وخارجها. ومَنّ الله على قريش بالايلاف - الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف - وذكرهم بفضله في سورة خاصة من سور القرآن الكريم[٢]. وبفضل الايلاف: "أصبح المقيم رابحا والمسافر محفوظا"، كما يقول الجاحظ[٣].

وقد دلت الفتوحات الإسلامية على خبرة قريش بجغرافية الشام وشمال الحجاز بشكل خاص وبقية الأقاليم المجاورة بشكل عام. فقد كانت دروب هذه المنطقة واضحة تمامًا في أذهان قادة الدولة الإسلامية، واستخدموها بكفاءة عالية تدل على خبرتهم الطويلة ومعرفتهم الواسعة بجغرافية المنطقة.

وإذا قيل أن الفتوحات الإسلامية لسوريا والعراق سببت تراجعًا في تجارة القوافل المكية، فإن الحج أدى إلى تزايد أهمية مكة الدينية[٤]، ذلك أن الإسلام وحد المنطقة وأصبحت تخضع لإدارة واحدة، مع ما رافق حركة الفتوح وانتشار الإسلام من أمن واستقرار. كما تزايدت العناية بالطرق بعامة والطريق الشامي بخاصة، لأسباب كثيرة منها[٥]:

---

(١) Petersen, p. 8.

(٢) سورة قريش، رقم (١٠٦) وآياتها أربع.

(٣) انظر: الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر (ت٢٢٥هـ/٨٩٦م) **(كتاب رسائل الجاحظ)** جمع حسن السندوبي، القاهرة ١٩٣٣، ص٧١. ولمزيد من المعلومات حول الإيلاف، انظر: صالح الدراكه، (إيلاف قريش: ملاحظات حول عوامل السيادة المكية قبل الإسلام)، مجلة دراسات تاريخية، ع ١٧ -١٨، أب، تشرين الثاني، ١٩٨٤م، ص٥١-٧٢.

(٤) Perersen، p.8

(٥) انظر: صالح العلي، **(طرق المواصلات في الحجاز)**، **مجلة العرب**، ج١١، السنة الثانية، جمادي الأول، ١٣٨٨هـ أب ١٩٦٨م، ص٩٦٣-٩٦٦، ٩٧١. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: صالح العلي، طرق المواصلات.

١ - **حركات الجيوش:** منذ أن انطلقت جيوش الفتح الإسلامية من المدينة (قاعدة الحجاز) نحو بلاد الشام في عهد الخليفة أبي بكر، والقوات العسكرية الإسلامية لا تنقطع ذهابا إلى الشام ومنها، ورافق حركة الجيوش حركات انتقال قبلية بدأت قبل الإسلام، ونشطت مع حركة الفتح[١].

٢ - **الحاجات الإدارية:** اقتضى قيام الدولة الإسلامية ربط الأطراف بالعاصمة، فاعتني بطرق البريد بشكل زائد، واستمر موظفو الدولة بالانتقال على هذه الطرق لتبليغ الأوامر الإدارية والعسكرية والمالية، ومنها جمع الصدقات. مما ترتب عليه نشوء طرق خاصة للمصدقين، نجد وصف بعضها عند البكري وياقوت[٢].

٣ - **حركة التجارة وارتفاع مستوى المعيشة:** بعد انضواء بلاد الشام في الدولة الإسلامية زالت الحواجز السياسية التي كانت معروفة قبل الإسلام، حيث كانت تتعدد الكيانات، ففي بلاد الحجاز كانت المدينة الواحدة وحدة سياسية وإدارية قائمة بذاتها، كما كان الحال في بلاد الشام بالإضافة إلى تدخل القوى الأجنبية منذ الإسكندر المكدوني وسيطرة السلوقيين والبطالمة على المنطقة، ومن ثم وقوع هذه المنطقة في معظم أجزائها تحت النفوذ الروماني أو الفارسي. إن الوضع الجديد الذي ترتب عليه وحدة سياسية وإدارية، ساده أيضا تجانس فكري وثقافي، مما ساعد على انتشار الأمن وأسباب الاستقرار، تحت مظلة اللغة العربية الواحدة، ونتج عن هذا كله ارتفاع في مستوى المعيشة وازدياد الحاصلات وازدهار حركة التجارة، وحركة الرحلات طلبا للعلم والمعرفة أو لغرض الهجرة والاستقرار في البلاد المفتوحة.

٣ - **الحج: يضم إقليم الحجاز مركزين مقدسين هما:** مكة والمدينة، **أما** مكة فقد حظيت بتقديس العرب منذ أقيم فيها أول بيت للناس (الكعبة) فكانت محج العرب من كل مكان وظلت

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن الاهتمام ببلاد الشام والتطلع لتحريره من السيطرة الرومية بدأت منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومعركة مؤتة (٨هـ/٦٢٩م) خير شاهد على ذلك. ولمزيد من المعلومات حول محاولات الرسول صلى الله عليه وسلم لفتح بلاد الشام، انظر: مقدمات في فتح بلاد الشام، في هذا الكتاب.

(٢) انظر: صالح العلي، طرق المواصلات، ص٩٧١. حول طرق البريد عند ابن فضل الله العمري، والقلقشندي، وابن شاهين الظاهري، وبوبر (Popper, William).
انظر: محمد عدنان البخيت، **مملكة الكرك في العهد المملوكي**، ط١، عمان ١٩٧٦، ص٦٦–٦٧. سيشار إليه عند وروده فيما بعده هكذا: محمد عدنان البخيت، مملكة الكرك،

كذلك بعد أن أودعوها معبوداتهم وأقاموا لها المواسم. لهذا كانت الكعبة من العوامل المهمة التي هيأت لنجاح الوحدة الثقافية والسياسية للعرب، التي تحققت بالإسلام. وفي الإسلام أصبح الحج إلى مكة ركنا من أركانه الخمسة، ومن شعائره الظاهرة، المتعلق فعله بالأبدان والأموال، كما نص على ذلك العلماء والفقهاء. وأما المدينة فكانت تعرف بـ (يثرب) قبل الهجرة، وفيها قامت أول دولة إسلامية في التاريخ، وأصبحت بذلك عاصمة الإسلام الأولى، وقضى الرسول الكريم فيها السنوات العشر الغنية والأخيرة من حياته، وفيها دفن، وترتبط فيها حياة الصحابة الأول وأعمالهم [١].

إن كون الحج فرض عين على كل قادر في الإسلام، لم يجعل الأمر مقصورا على عدد محدود من العرب، فتوجه المسلمون من كل صوب ركبانا ومشاة نحو مكة، يتزايدون في كل عام تبعا لتوسع العالم الإسلامي وتزايد أعداد المسلمين. وفي العهد الأموي انتقلت عاصمة الخلافة من المدينة المنورة إلى دمشق قاعدة بلاد الشام، لذلك أصبح ركب الحج ينطلق من العاصمة في موعد محدد وموكب مهيب كل عام لتأدية فريضة الحج.

ونظرًا للمكانة الكبيرة للحج وارتباطه الوثيق بالدين الإسلامي، سعى الخلفاء والأمراء والحكام طيلة التاريخ الإسلامي إلى العناية بطرق الحج وتمهيدها والتخفيف من قسوتها بحفر الآبار وبناء القصور والقلاع وشحنها بالحراس ووضع العلامات، وجلب كل ما فيه راحة الحجيج، إما طلبًا للأجر والثواب وخدمة للمسلمين، أو طلبا لرضا المسلمين من باب الدعاية والكسب. ونظرًا لأهمية طرق الحج ومنازله، وما يرافق ذلك من نشاط ثقافي وتجاري وسياسي، فقد توسع المتقدمون من العلماء والمتأخرون في دراسة طرق الحج ومنازله كجزء من دراساتهم الجغرافية، فأفردوا قسمًا من مؤلفاتهم في وصف طرق الحج دعوه كتب (المنازل) أو (منازل الحجاز) أو (منازل الحج)، ضمنوه في أول الأمر كتب: (المناسك) أي المؤلفات التي خصصت لبيان أحكام الحج ووصف أعماله، ثم أفردوه في مؤلفات خاصة تنفرد بها حضارتنا العربية الإسلامية، التي أغنت التراث الإنساني وغطت جميع جوانب المعرفة في زمانها. وكما اختصت حضارتنا بكتب الجغرافيين ووصف المسالك والممالك، فقد اختصت بكثرة كتب الرحلات التي لا تقف عند وصف المواضع وتحديد المسافات

(١) انظر: صالح العلي، طرق المواصلات، ص٩٧١.

بينها، بل تشمل وصف جميع جوانب الحياة في هذه البلاد على اختلافها[١].

وقد أسهم بعض الباحثين المحدثين في دراسة الجغرافيين العرب من أمثال: ماينورسكي، ودي غويه، وكراتشكوفسكي، وصالح العلي، وحسين ناصر، وحمد الجاسر[٢] الذي يجب علينا الوقوف عنده، فقد أغنى هذا العلامة المكتبة العربية بعامة والجغرافية بخاصة، بدراساته الكثيرة والمركزة على جغرافية الجزيرة العربية، والتي كان منها: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، إن منجزات الشيخ الجاسر في هذا الميدان تستدعي منا كل تجلة واحترام.

ومن باحثينا المعاصرين الذين اهتموا بدراسة طرق الحج والتعريف بها، الدكتور عبد الله الوهيبي الذي أنجز دراسة قيمة حول شمال الحجاز في كتابات الجغرافيين العرب (من ٨٠٠-١١٥٠م)[٣].

ونذكر بالتقدير بحث الدكتور سعد الراشد: (درب زبيدة - طريق الحج من الكوفة إلى مكة)[٤]. هذا بالإضافة إلى الرحلات والدراسات التي قام بها عدد من الرحالة الأوروبيين في هذه المنطقة وتتبعوا طريق الحج الغربي. من أمثال: بيركهاردت (Burckhardt) وفريدولين (Fridolin) ودوتي (Doughty) وأ. موسل (Musil) وكاستيو (Castiau) وغيرهم[٥].

وفي هذا المقام لا يفوتنا أن ننوه بالجهود الخيرة التي تبذلها دوائر وأقسام الآثار في المملكة العربية السعودية، لدراسة الطرق والمعالم القديمة في شمال وشمال شرق الجزيرة. أما الجغرافيون العرب الأوائل الذين تعتمد هذه الدراسة على أعمالهم في الدرجة الأولى فهم كثر، منهم من نشرت مؤلفاتهم ومنهم من ما زالت مؤلفاتهم مخطوطة، تنتظر التحقيق، ونذكر هؤلاء الذين وصلتنا مؤلفاتهم، وتعرضوا لتسجيل طرق ومنازل الحج.

---

(١) حمد الجاسر، **كتب المنازل من روافد الدراسات عن جغرافية جزيرة العرب**، ضمن كتاب مصادر تاريخ الجزيرة العربية (٢ ج)، الجزء الأول، جامعة الرياض ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص٢٢٩-٢٤٤. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: حمد الجاسر، كتب المنازل.

(٢) Abdullah Al-Wohaibi, The Northern Hijaz in the Writings of the Arab Geographers 800 - 1150. Al-Risalah Ets. Publishers and Book sellers, p.15.

(٣) Al-Wahabi, The Morthern, p.15. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Al-wohaibi

(٤) Saad A.Al-rashid, Darb Zubaydah, The Pilgrim Road From Kufa to Mecca. Riyad University Libraries. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

(٥) Grant، p.223.

ونعتذر عن ذكر الآخرين (وهم كثر) الذين ساهموا ببحوثهم في هذا الميدان، إذ اكتفينا بالمثال لا بالحصر.

فأقدم من سجل لنا طرق الحج الشامي ومنازله هو ابن خرداذبة خول (ت٢٧٢ هـ/٨٨٥م)[١]، واليعقوبي (ت٢٨٤هـ/٨٩٧م)[٢]، وابن رسته (ت٢٩٠هـ/٩٠٣م)، والحربي (ت١٩٨هـ/٨١٣م)[٣]، ووكيع (ت ٣٠٦هـ/٩١٨م) [٤]، وقدامة بن جعفر (ت ٣٢٨هـ وقيل ٣٣٧هـ/٩٣٩م – ٩٤٨م) [٥]، وابن الفقيه الهمداني (٣٣٤هـ/٩٤٥م)[٦]، والمسعودي (٣٤٦هـ/٩٥٦م) [٧]، والاصطخري نبغ في (٩٥١م) [٨]، وابن حوقل (كتب عام ٩٧٧م)[٩]، والمقدسي (ت بعد ٣٧٨هـ/٩٨٨م)[١٠]، والهمداني (ت بعد ٣٤٤/٩٤٥م) [١١]، والبكري

(١) هو أبو القاسم، عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة، **كتاب المسالك والممالك**، تحقيق دي غويه، مطبعة بريل ١٩٦٧، وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خرداذبه.

(٢) أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي، **كتاب البلدان**، ملحق بكتاب الأعلاق النفيسة، تصنيف أبي على أحمد بن عمر بن رسته، بعناية دي غويه، مطبعة بريل ١٨٩١. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: اليعقوبي، البلدان. وابن رسته: الاعلاق.

(٣) أبو اسحق ابراهيم بن اسحق الحربي البغدادي، **كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة**، تحقيق حمد الجاسر، منشورات، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الحربي، المناسك.

(٤) وكيع بن محمد بن خلف بن حيان القاضي، **منازل طريق مكة**، مخطوط في إحدى المكتبات الفارسية، استخدمه وأفاد منه الوهيبي. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا وكيع، المنازل.

(٥) قدامة بن جعفر، **الخراج وصناعة الكتابة**، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨١. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: قدامة، الخراج.

(٦) أبو بكر أحمد بن ابراهيم الهمداني (ت٣٣٤هـ/٩٤٥م)، **مختصر كتاب البلدان**، بعناية دي غويه، بريل ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الفقيه، البلدان.

(٧) المسعودي أبو الحسن بن علي (ت٣٤٦هـ/٩٥٦م)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق محمد ويحيى الدين عبد الحميد، ط٤، مصر ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م. وكتابه التنبيه والإشراف، دار التراث، بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: المسعودي، مروج أو التنبيه.

(٨) أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي، **كتاب المسالك والممالك**، وهو معول على كتاب صور الأقاليم للشيخ أبي زيد أحمد بن سهل البلخي، بعناية دي غويه، بريل ١٩٢٧م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الأصطخري، المسالك.

(٩) أبو القاسم بن حوقل النصيبي، كتاب صورة الأرض، منشورات مكتبة الحياة، بيروت. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حوقل، صورة الأرض.

(١٠) المقدسي المعروف بالبشاري، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، بعناية دي غويه، بريل، ١٩٠٦م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: المقدسي، أحسن التقاسيم.

(١١) الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (ت ٣٤٤هـ/٩٤٥م)، **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن علي الأكوع، ط٣، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار الآداب، بيروت، لبنان ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

(ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م)[١]، والإدريسي (٤٩٩هـ- ٥٦٢هـ/ ١١٠٠ - ١١٦٦م)[٢].

ويتبع هذه المجموعة مجموعة أخرى من الجغرافيين من أبناء القرنين الثامن والتاسع الهجريين، نذكر منهم: أبو الفداء صاحب حماة (٧٣٢هـ/١٣٣١م)[٣]، وياقوت الحموي (٦٢٦هـ/١٢٢٨م)[٤]، والحميري (ت حول ٧٢٧هـ/١٣٢٦م)[٥]، ومن ثم الرحالة ابن بطوبة (٧٠٣هـ/١٣٠٤م - ٧٦٧هـ/١٣٧٧م)[٦]، وابن فضل الله العمري (٧٠٠-٧٤٩هـ/١٣٠١ - ١٣٤٩م)[٧]، والقلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)[٨].

وتأتي بعد ذلك مجموعة كبيرة من كتب المنازل والرحلات يضيق المكان عن حصرها،

وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: البكري، معجم.

(١) البكري، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، تحقيق مصطفى السقا، ط٣، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: البكري، معجم.

(٢) أبو عبيد الله محمد بن عبد الله بن ادريس الحمودي الحسني (ت١١٦٦م)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، النسخة الإيطالية، بريل ١٩٧٤م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الإدريسي، نزهة المشتاق.

(٣) عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفدا صاحب حماة (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)، **تقويم البلدان**، بعناية رينود، والبارون ماك كوكين ديسلان باريس، ١٨٥٠م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: أبو الفدا، البلدان.

(٤) شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، **معجم البلدان**، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت، معجم.

(٥) محمد عبد المنعم الحميري (ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، ط٢، مكتبة لبنان- بيروت ١٩٨٤م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الحميري، الروض المعطار.

(٦) محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي (ت٧٦٧هـ/١٣٧٧م)، **رحلة ابن بطوطة المسماه: تحفه النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، دار الكتاب المصري، القاهرة. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن بطوطة، تحفة النظار.

(٧) شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، **مسالك الابصار في ممالك الأمصار، ممالك مصر والشام والحجاز واليمن**، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، والجزء الخاص بقبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين، دراسة وتحقيق دوروتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن فضل الله العمري، المسالك والممالك.

(٨) أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، **صبح الأعشى في صناعة الانشا**، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - القاهرة. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: القلقشندي، صبح الأعشى.

ومعظمها دون العهدين المملوكي والعثماني نثرًا وشعرًا. وهذه الدراسات علاوة على تخصصها في وصف الرحلة إلى الحج وذكر المنازل وما فيها من موارد للمياه أو القلاع وأوصافها، والمفازات وأحوالها، فإنه لا يستغنى عنها كمصادر معاصرة للفترات التي ألفت فيها، ففيها الكثير من المعلومات الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية. ورغم أن هذه الدراسات متأخرة عن الفترة الأموية – موضوع بحثنا – ففيها الكثير من الإشارات المفيدة، لا سيما أن الطريق الرئيسي للحج الشامي لم يتغير كثيرًا منذ العهد الأموي وبعده.

وقد أضاف الشيخ الجاسر إلى الدراسات المتعلقة بالحج أو فى كتاب عن أخبار الحج والحجاج في خلال عشرة قرون هو: (الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة) تأليف: عبد القادر بن محمد الجزيري الحنبلي [١]، من أهل القرن العاشر الهجري، وقبل أن ننتقل من استعراض المصادر لا بد من التذكير بأن ما عرضناه هو قليل من كثير. إذ المحنا إلى تلك التي تمس موضوعنا مسًا مباشرًا، ولم نذكر المصادر الأولية في التاريخ والأدب كالحوليات وكتب الفتوح والتراجم والمدن والموسوعات والمعاجم، على اعتبار هذه المصادر أولية لا بد من الرجوع إليها لأنها تشكل الأساس في كل دراساتنا التاريخية والجغرافية.

وقد أوردت كتب السيرة تفصيلات واسعة عن الدروب وما عليها من مواقع في منطقة الحجاز، وبعض هذه المواقع تعرض لغزو الرسول صلى الله عليه وسلم مثل: ودان، وثنية المره، ومر الظهران، وسيف البحر، وبواط، والخرار، وعسفان، والهده، وتيماء، وتبوك وغيرها، وكلها مواقع على الطريق القديم بين الشام والحجاز [٢].

---

(١) صدر في ثلاثة مجلدات تضم ٢٣١٣ صفحة، تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الجزيري، الدرر.

حول الدراسات المتأخرة انظر: حمد الجاسر، كتب المنازل من روافد الدراسات عن جغرافية جزيرة العرب، والجاسر أيضا، (في رحاب الحرمين من خلا ل كتب الرحلات إلى الحج)، مجلة العرب، ابتداء من العام ١٩٦٨ وما بعده. فقد نشرت المجلة مجموعة من كتب الرحلات. وقد وصفت طريق الحج شعرًا. وأصبحت هذه الأشعار مصدرًا للباحثين في طرق الحج وتحديد المواضع، حول ذلك انظر: حمد الجاسر، الشعر في وصف منازل الحج، مجلة العرب، ج١٤، السنة الثالثة، شوال ١٣٨٨هـ. كانون الثاني، يناير ١٩٦٩م.

عبد الكريم رافق، **(قافلة الحج الشامي وأهميتها في الدولة العثمانية)**، **مجلة دراسات تاريخية**، ع٦، ذي الحجة ١٤٠١هـ وتذكر مصادر أخرى في الحواشي.

(٢) انظر على سبيل المثال: ابن هشام أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت٢١٨هـ/٨٣٣م)، **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى السقا وزميله، ط٢، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده، مصر،

وذكرت كتب السيرة طريق الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في السنة التاسعة للهجرة، وورد فيها ذكر فدك، ووادي القرى، وتيماء وأيلة وغيرها [١].

وهذه الطرق التي سلكتها الغزوات في شمال وغرب المدينة هي نفسها الطرق التي كانت تسلكها القوافل القرشية، ثم سلكتها جيوش الفتح، وقوافل الحج الأموية. فقد ذكرت المصادر أن أبا بكر رضي الله عنه عندما سير الجيوش لفتح الشام، أمر بعضها بسلوك الطريق الساحلي من المدينة إلى أيلة (العقبة)، وأمر البعض الآخر بسلوك الطريق الداخلية من المدينة إلى شرق الأردن مرورًا بتبوك. وأطلق على الطريق الأول اسم (المعرقة) والثانية اسم (التبوكية) [٢]وهذان الطريقان الرئيسان في منطقة الحجاز يصلان الشام بكل من المدينة ومكة، وكانت عير قريش تسلك هذين الطريقين إلى الشام، ولما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم اعتراض قافلة قريش أثناء عودتها من الشام على الطريق الداخلية، تجنب أبو سفيان قائد القافلة الاعتراض باتخاذ الطريق الساحلية (المعرقة) [٣]. وفي حديث عمر أنه قال لسلمان: (أين تأخذ إذا صدرت، أعلى المعرقة أم على المدينة [٤]؟ وطريق المعرقة تختصره العرب إلى الشام وإلى مكة، (وهو يمر بين جبلي رضوى وعزور) [٥].

١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م. ٢/٦٠٨ - ٦٠٩. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن هشام، السيرة.

الواقدي/ محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م)، **كتاب المغازي**، تحقيق مارسدن جونز، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ص٢، ٣، ٤، ٥، ١٢، ٦٨، ٣٨٨، وانظر فهرس الأماكن والغزوات. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الواقدي، المغازي.

ابن سعد، محمد (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م)، **الطبقات الكبرى**، دار صادر ودار بيروت، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م. م٢، ص٥-١٦٨ (المغازي والسرايا). وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن سعد، الطبقات.

وانظر: محمود شيت خطاب، **الرسول القائد**، دار الفكر، ط٤، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ملحق أ، ص٩٥-٩٦، ملحق د. ١٦٦، ملحق ز، ص٢٦٤، ملحق ط، ص٣٢١-٣٢٢، ملحق ن، ص٤١٩-٤٢٦.

(١) انظر: ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٥١٥-٥٣٥. الواقدي، المغازي، ص٩٨٩-١٠٢٥.

(٢) حول المعرقة والتبوكية انظر: الطبري، محمد بن جرير (٢٢٤-٣١٠هـ/٨٣٨-٩٢٢م) **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٠م، ج٣ ص٣٨٧، ٣٩١، ٤٠٥. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ.

(٣) ابن هشام، السيرة، ج١، ص٦١٨.

(٤) صالح العلي، طرق المواصلات، ص٩٦٨.

(٥) البكري، معجم، ص٦٥٦.

هذا وقد انتبه المسلمون منذ وقت مبكر إلى العناية بطرق الحج والحجاج، وفي العهد النبوي والراشدي كان مصدر إمرة الحج ومورد‌ها مكة المكرمة والمدينة المنورة، والبداءة منها ثم من مكة المعظمة، إذ كان الخلفاء إذ ذاك يجهزون الحجيج ومن ثم كانت ولايتهم الحاج، ثم لما انتقلت الخلافة إلى بني أمية، وكانت الشام دار ملكهم، كانت الأمرة منها، والحجيج المعنى به الركب السلطاني الذي تصحبه الكسوة الشريفة [١]، وتعلقات الحرمين من جانب الإمام الأعظم، وأما الركوب القاصدة للحج من الأقاليم المشهورة فمنفردة كالكوفة ومصر وغيرها، فإنها كالقوافل الواردة من البلاد [٢]، أي أن الركب القادم من العاصمة كان أهم الركوب.

وفي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينتدب لإمارة الحج أحد الصحابة المشهورين بالعلم والورع والسابقة والكفاية، وكذلك فعل الخلفاء الراشدون من بعده، بل أن قافلة الحج كانت تسير في الغالب تحت قيادة الخليفة نفسه. ومنذ ذلك التاريخ أصبح حرص الخلفاء على إمارة الحج تقليدًا يحافظون عليه، أو ينيبون أحد كبار رجال الدولة من خاصتهم.

ومنذ عهد الخلفاء الراشدين وطرق الحج تلقى العناية من الخلفاء والمسؤولين والوجهاء والموسرين، فيحرصون على إنشاء المنازل وإصلاح الطرق، ولما قام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بأداء العمرة من المدينة إلى مكة سأله أصحاب المياه أن يسمح لهم بإنشاء المنازل على طول الطريق بين مكة والمدينة، وسمح عمر بذلك على أن يكون ابن السبيل أحق بالظل والماء [٣]. وقد حث القرآن الكريم في عدد من الآيات [٤] على رعاية ابن السبيل وتوليه بالمساعدة المادية والمعنوية ليصل إلى بغيته، وفي هذا ما يشير إلى كثرة عدد المسافرين من جهة، واهتمام المسلمين الأوائل بالطرق من جهة ثانية. وتنافس أغنياء المسلمين في خدمة الطرق ووقف

---

(١) وكسوة الكعبة خطة قديمة، عرفت قبل الإسلام، ويقال بأن أول من كسا الكعبة من العرب التبع أسعد الحميري. انظر الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي (ت٢٥٠هـ/٨٦٤م تقريبًا). (**كتاب أخبار مكة**) شرفها الله تعالى وما جاء فيها من الآثار، رواية أبي محمد اسحق بن نافع الخزاعي، غتنقة/ الهند، ١٣٧٥هـ/١٧٣١م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الأزرقي، أخبار مكة.

(٢) الجزيري، الدرر، ج١، ص٣٩٨–٤٠٠.

(٣) الطبري، تاريخ، ج٤، ص٦٩.

(٤) لآيتان ١٧٧، ٢١٥، سورة البقرة، الآيتان ٣٦، ٤٤ سورة النساء، الآية ٤١ سورة الأنفال، الآية ٦٠ سورة التوبة، الآية ٢٦ سورة الإسرا، الآية ٣٨ سورة العنكبوت، الآية ١٧ سورة الحشر.

المشاريع الخيرية عليها، لتوفير الراحة للمسافرين، ويروي الشافعي بسند عن جعفر بن محمد عن أمية أنه كان يشرب من سقايات كان يضعها الناس بين مكة والمدينة [١].

ومن الطبيعي أن يهتم خلفاء بني أمية بالطرق بعامة وطريق الحج الشامي بخاصة، ذلك أن القوافل المنظمة والمحمية والمشمولة برعايتهم بدأت تخرج من دمشق إلى الحجاز في أيامهم، فهذا الطريق هو طريقهم سواء إلى الحجاز أم إلى قصورهم ومنتجعاتهم التي أكثروا من إنشائها في بادية الشام وعلى طول طريق الحج الشامي، الذي كان في الوقت نفسه طريق التجار والرحالة والجيوش والقبائل. ويمكن القول بأن طرق المواصلات الإسلامية استقرت في العهد الأموي نتيجة لاستقرار الأوضاع العامة في البلاد.

ولم تفصح لنا المصادر المتقدمة عن أخبار القافلة الشامية في العهد الأموي، وتنظيمها وأسلوب تجهيزها وإدارتها وحمايتها وخدمات منازلها، من دمشق إلى مكة المكرمة. ولكن المصادر ذكرت حج الخلفاء والأعيان من بني أمية، وذكرت الحرص على توجيه الحج في موعده واختيار أميره[٢]، دون أن تفصل في واجبات أمير الحج، ولكن يمكن تصور هذه الواجبات من خلال ما أوردته بعض المصادر المتأخرة، وهذه الواجبات ما هي إلى امتداد لما ابتكره الأمويون، لأن القافلة الشامية نشأت نشأة أموية. وقد جعل الجزيري واجبات أمير الحج عشرة، تدور حول توفير شروط الأمن والراحة والتموين من نحو تأمين الماء والطعام للركب، والعبادة وتأدية الشعائر، وتحديد المنازل للراحة والإقامة [٣] .

وتصف لنا المصادر المتأخرة موكب الحاج وكأنه دولة متكاملة متحركة، تضم جميع الأجهزة اللازمة للدولة من موظفين وقضاة ورجال حسبة وحماة ورجال مال، وطعام وشراب، وحملة مشاعل وعلافين، وشعراء وخطباء ورحالة وطلبة علم وغير ذلك[٤]. وقد

---

(١) أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي (ت ٢٠٢هـ/٨١٧م) الأم، **كتاب الشعب**، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م. ج٣، ص٢٧٩.

(٢) حول حج خلفاء بني أمية واعيانهم، انظر خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م) **تاريخ خليفة ابن خياط**، ط١، مطبعة الآداب في النجف الأشرف ١٤٨٦هـ/١٩٦٧م، رتب خليفة كتابه على نظام الحوليات وذكر في نهاية كل سنة من قام للحج، وكذلك فعل اليعقوبي في تاريخه، والطبري. انظر أيضا الجزيري، الدرر، ج١، ص٤٢٢-٤٥٩.

(٣) انظر: الجزيري، الدرر، ج١، ص٢١٧-٢٧٤.

(٤) عقد الجزيري فصلا خاصا في ذكر المناصب التابعة لإمرة الحاج، ج١، ص٢٧٥-٣٧٦.

قدر بيركهاردت في وصفه لإحدى القوافل التي شاهدها أن عدد الحجاج الحقيقيين لم يكن يتجاوز عشر عدد الموجود(١) .

وذكرت المصادر أن معاوية بن أبي سفيان (٤٠-٦٠هـ) أول من طيب الكعبة بالخلوق والمجمر وأجرى الزيت لقناديل المسجد من بيت مال المسلمين(٢). وروى الطبري أن الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م) كتب في السنة الثالثة من ملكه إلى عمر بن عبد العزيز واليه على المدينة المنورة بتسهيل الثنايا في الطرق، وحفر الآبار بالمدينة، وخرجت كتبة إلى البلدان(٣). وكتب الوليد إلى خالد بن عبد الله القسري بمثل ذلك(٤).

وبلغ من شغف الوليد بن عبد الملك بالعمارة أن طلب مهندسين رومان لبناء مسجد المدينة، وجلب من هناك مواد البناء مثل الفسيفساء(٥). ويحكي ابن الفقيه أن الخليفة الوليد بن عبد الملك قد حفر المياه في مختلف المنازل الواقعة على هذا الطريق كما أنشا عليه البيمارستانات للمرضى(٦). وذكر القلقشندي أن الوليد (هو أول من بنى الأميال في الطرقات)(٧). وقد أثنى الطبري على الخليفة الوليد لكثرة أعماله العمرانية قائلا: "كان عند أهل الشام أفضل خلائفهم، بنى المساجد، مسجد دمشق، ومسجد المدينة، ووضع المنار، وأعطى الناس"(٨). وتابع الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧٢٠م) أعمال الوليد في إصلاح الطرق وتوفير أسباب الراحة فيها، وعمر من الأوائل الذين بنو الخانات

(١) Selah Merril, East of the Jordan: A record of Travel and observation the Countries of MOAB, GILEAD, and BASHAN. London, 1988,1. pp. 330347-

وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: S. Merrill

(٢) ابن الفقيه الهمداني، البلدان، ص٢٠.

(٣) تاريخ، ج٦، ص٤٣٧، وانظر: Al-Rashid، Darb Zubayda. P. 8-9.

(٤) الطبري، تاريخ، ج٦، ص٤٣٧.

(٥) اليعقوبي، تاريج، ج٣، ص٣٠.

(٦) البلدان، ص١٠٦.

(٧) **مآثر الإناقة في معالم الخلافة**، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، صورة بالإوفست. عن ط ١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٠م، ج١، ص١٣٦. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: القلقسندي، مآثر الإناقة. وانظر : صالح العلي، طرق المواصلات، ص٩٧٤.

(٨) تاريخ، ج٦، ص٤٩٦، وانظر حول اهتمام خلفاء بني أمية بالعمارة والطرق، ابن الفقيه، البلدان، ص٢٠، ١٠٢، ١١٣.

في الطرقات للمسافرين، فقد كتب إلى والي خراسان سليمان بن أبي السري، ليبني البيوت بالطرقات ويطعم المسافرين، ويقوم بخدمة المرضى منهم، ويدفع النفقات لتأمين سفرهم إلى أهلهم إذا اقتضى الأمر ذلك[١].

ويذكر الكليني عن أبي عبد الله قال: وأي شيء البريد؟ قال: ما بين ظل عير إلى فيئ وعيره. قال ثم غبرنا زمانا، ثم رأى بنو أمية يعملون أعلامًا على الطريق وأنهم ذكروا ما تكلم به أبو جعفر، فذرعوا ما بين ظل عير إلى فيئ وعيره، ثم جزأوه إلى اثني عشر ميلا، فكان ثلاثة آلاف وخمسمائة ذراع كل ميل، فوضعوا الاعلام، فلما ظهر بنوهاشم غيروا أمر بني أمية غيره، لأن الحديث هاشمي، فوضعوا إلى جنب كل علم علما [٢]. ويعلق الدكتور صالح العلي على هذه الرواية قائلا: (ان هذا النص يتحدث عن حدود حرم المدينة ولكننا نرجح أن الأمويين لم يكتفوا بوضع الأعلام حول المدينة، بل على الطرق أيضا، كما يروي القلقشندي ويشير الطبري، ولكن إزالة العباسيين آثارهم كما تحدث الكليني أدى إلى ضياع تفاصيل ما عملوه، ولعل العباسيين تابعوا الأمويين ولم يكن عملهم إلا إصلاحات وتعديلات لما وضع في زمن الأمويين[٣].

ويعتبر الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٤-٧٤٣م) من أعظم الخلفاء في الاهتمام بالطرق، إذ بنى عليها القصور والحدائق المزودة بالماء والمنافع، كالسدود والمخازن والأقنية والآبار، وأبنية أخرى لا يزال بعضها مشاهدًا في الأردن والبادية السورية. وقد أولى هذا الخليفة بنفسه عناية فائقة للطريق بين سورية ومكة [٤].

ومن مآثر الأمويين العمرانية هذه القصور والقلاع والبرك المنتشرة في البادية الأردنية على طول طريق الحج الشامي وهي تقف شاهدًا على جهودهم[٥]. ويجدر التذكير بأن

---

(١) ابن الأثير، أبي الحسن عز الدين على ابن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م). **الكامل في التاريخ** ١٣جـ، جـ٥، دار صادر، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م. ص٦٠، وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الأثير، الكامل.

(٢) أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي، (ت٣٢٨-٩٣٩م تقريبًا)، **الفروع من الكافي**، ج٣. طبعة طهران، ص٤٣٢. وانظر: صالح العلي طرق المواصلات، ص٩٧٤-٩٧٥.

(٣) طرق المواصلات، ص٩٧٤-٩٧٥.

(٤) انظر: Al-Rashid, Darb Zubayda, p. 9.

(٥) حول القصور والقلاع في الأردن انظر: لانكستر هاردنج، **آثار الأردن**، تعريب سليمان الموسى، أخرجته (**مجلة**

(الحير) نوع من القصور الصحراوية، وهي فكرة عربية أموية أشاعها الأمويون في صحارى الشام لزيادة الخصوبة فيها [١].

وقد ذكر التنوخي أن خلفاء وأمراء بني أمية شغفوا بالبادية وحياتها (ولم يذكر صاحب الأغاني، وابن عساكر ملكًا أمويًا، إلا ذكر تبديه، فكان خالد بن يزيد يسكن قصر (فدين) في البلقاء - لعله قصد قصر شبيب في الزرقاء - وروى صاحب العيون والحدائق، ص١٢٠، أن الوليد بن يزيد كان يستوطن قصر الأزرق في البرية[٢]. وذكر الأصفهاني في أغانيه (١٨/ ٢٠) أنه كان ليزيد عدة قصور ينتقل إليها ويتعبد بها كالزيزاء وفدين (المفرق) والأزرق والأغدق والنجراء، وقصر الأبيض في الرحبة[٣].

كانت دمشق القاعدة والمنطلق لقافلة الحج، فهي قاعدة بلاد الشام، وفيها يجتمع الركب وتحصل الاستعدادات للخروج تحت أمرة الخليفة أو من ينوب عنه في أمرة الحج. وطبقا لرواية ابن خرداذبة [٤]يخرج الحاج من دمشق إلى منزل ثم إلى منزل ثم إلى ذات المنازل. وتابعه في تحديد هذه المنازل ابن رسته[٥]. ومما يجدر قوله أن ابن خرداذبة هو أقدم جغرافي عربي سجل لنا المنازل على الطرق بعامة، وطرق الحج الشامي بخاصة[٦]، من دمشق وحتى مكة. ثم جاء من بعده اليعقوبي والحربي وابن رسته وقدامة بن جعفر والإدريسي، أما بقية الجغرافيين، فلم يتتبعوا المنازل من دمشق وإلى النهاية، ولكنهم فصلوا في طرقات الحجاز

رسالة المعلم في العددين (١-٢) من السنة الثامنة، ط١، كانون الثاني ١٩٦٥م، ص١٥٣-١٦٨. وجعفر الحسني، **قصور الأمويين في الديار الشامية**، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، م١٧، الجزء الخامس والسادس، آيار وحزيران (١٩٤٢م) جمادى الأول والأخرى (١٣٦١هـ) ص٢١٤-٢٣١ وفواز طوقان: **القصور الأموية الصحراوية** لما ينبت به حولية مديرية الآثار العامة، م ١٤ (١٩٦٩) عمان، ص٤-٢٥.

(١) فواز طوقان (**الحائر في العمارة الأموية الإسلامية**) كتاب المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤م، ص٦٩-١٣٨، ص١٠٧. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: طوقان، الحائر.

(٢) عز الدين التنوخي، (ت ١٩٦٦م) **الرحلة التنوخية**، من الزرقاء إلى القريات، جمع وتحقيق يحيى عبد الرؤوف جبر، ط١، ١٩٨٥، سلسلة الأقطار العربية، ص١٨-١٩. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الرحلة التنوخية.

(٣) الرحلة التنوخية، ص١٨-١٩.

(٤) المسالك، ص١٥٠.

(٥) الاعلاق النفيسة، ص١٨٣.

(٦) ذكر الجغرافيون سبع طرق كان يسلكها الحجاج من مختلف الجهات إلى مكة المكرمة، انظر
Al – Rashid, Darb Zubayda, p. 4-7. A. Petersen, p. 6-7.

وما بين المدينة ومكة بخاصة. وسنجد تباينا بين الجغرافيين القدامى في تسمية المنازل، ويعود السبب في ذلك إلى تغير الطرق عدة مرات في القرن السابع الميلادي، إذ كانت الطريق تبدأ من دمشق إلى الجنوب من عمان حيث يختار الحجاج إحدى ثلاث طرق تقع إلى الشرق من وادي الأردن وأودية البحر الميت، واستمر تغير الطرق واختلاف المنازل حتى القرن السادس عشر حيث توحدت الطريق عندما ابتنى العثمانيون القلاع على طول الطريق الشامي. وأنشأوا المستودعات المحفوظة للمياه العذبة فاستقر الطريق منذ ذلك الوقت[١]. ولعل تغير موسم الحج من فصل إلى آخر سبب تغيرا في الطريق شرقا وغربًا.

وسبب آخر يعود إلى خلاف الجغرافيين في مواصفات المنزل، إذ رأى بعضهم شرط توفر الأهل والمياه والسوق والعشب في المنزل حتى يعد منزلاً، إذ كانت بعض المواضع أماكن استراحة مؤقتة أو متعشيات يحط فيها الركب لتناول العشاء ومن ثم يستأنف المسير[٢]. ويستنتج مما أورده بعض الجغرافيين أن المسافة بين المنزل والذي يليه تتراوح ما بين (٤٥-٦٥) كيلاً، بينما المسافة بين محطات الاستراحة أو المتعشيات قد لا تصل إلى عشرين كيلاً[٣].

ويعتقد موسل أن المنزل الأول عند ابن خرداذبة بعد الخروج من دمشق هو الكسوة، أما الثالث (ذات المنازل) فهو اذرعات (درعا الحالية)[٤] الواقعة على مسافة مائة وخمسة كيلات تقريبا إلى الجنوب من دمشق. وتسمية درعا بذات المنازل يشير إلى أهميتها، ويبدو أن درعا[٥] أزدهرت بعد تراجع بصرى على أثر ذبول الطريق الشرقي وتحركه نحو الغرب ليكون

---

(١) Grant، The Syrian Desert، p. 223.

(٢) انظر: ابن رسته، الاعلاق النفيسة، ص١٧٨-١٧٩. موسل. ص١٥٧، Grant، p.157

(٣) أ. موسل، **شمال الحجاز**، نقله إلى العربية عبد المحسن الحسيني، الإسكندرية، ١٩٥٢، ص١٥٦، وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: موسل، شمال الحجاز.

(٤) موسل، شمال الحجاز، ص١٥٦.

(٥) خلطت بعض المصادر بين أذرعات والبثنية، فذهب ابن فضل الله العمري مثلا إلى أن أذرعات هي البثنية (المسالك، تحقيق أيمن فؤاد سيد ص١١٩)، وفعل مثله الإدريسي، في نزهة المشتاق، ص٣٧٦-٣٧٧. ولكن ما تفيده المصادر الأقدم خلال ذلك، فالبثنية كورة وأذرعات (درعا) قاعدتها، وكذلك حوران كورة مثل البلقاء، ولم تبق حدود الكور على حالها، فكانت تتسع وتضيق، كما كانت تتغير مراكزها أحيانًا، انظر: البلاذري، أحمد بن يحيى (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م) فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار السعادة، مصر ١٩٥٩، ص١٣٢-١٣٣. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح، الطبري، تاريخ، ج٧، ص٤٤٣، وج١٠، ص١٢٢. ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٤٣٣. أفادت النصوص أن بصرى قاعدة

قريبًا من العمران، فقد كانت بصرى أحد المراكز المشهورة والمزدهرة في العهد الروماني، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم مر بها وهو صبي مع قافلة التجارة القرشية. وأفادت المصادر المتأخرة أن القافلة تستريح في بصرى ثلاثة أيام أو أربعة ... حتى يلتحق بها الحجاج الذين فاتهم الالتحاق بالركب قبل ذلك[١]. وكذلك تراجعت مدن عمان وأذرعات ومعان وأذرخ إلى بليدات أو مدن صغيرة في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي[٢].

ولعل هذا التراجع يعود إلى انعدام الأمن وانتشار الاضطراب ونفاد الماء والقحط، واختفاء الأسواق، وهذا ما يفسر ذكر كل من بصرى وأذرعات والمزيريب في المصادر المتباعدة [٣]. أما صرخد، فقد ذكر الجزيري أن للحجاج طريقا أقصر من الطرق السابقة، وهو الذي يمر على صرخد ثم على تيماء إلى المدينة النبوية، وهو أقرب بنحو ستة أيام[٤]. ولم تذكر المصادر طريق صرخد إلا نادرًا لبعده عن العمران وتوغله في الصحراء، مما يعرض المسافرين إلى المشاق من قلة الماء وانعدام الأمان.

والمنزل بعد أذرعات هو (سرغ) عند ابن خرداذبة وابن رسته وقدامة بن جعفر والإدريسي. وقد تعرض لفظ (سرغ) إلى التحريف كزرع أو زرعة أو ازرعة التي هي (ازرع) الحالية في حوران، فقيل فيه شرغ وسرع والأصح (سرغ) وهي بلدة المدورة الأردنية التي تقع على الحدود الأردنية السعودية الداخلية. وقد ذكرتها المصادر كإحدى محطات الطريق الشامي، وجاءها عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما توجه إلى الشام في جمادي الأولى من السنة السابعة عشرة للهجرة، وفيها بلغه أن الوباء قد وقع بالشام[٥]. وحدد ياقوت موقع سرغ

كورة حوران، وأذرعات قاعدة البثنية، وعمان قاعدة البلقاء، انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٥٤، ١٦٢، ١٧٥. اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٥، ابن خرداذبة، المسالك، ص٧٧. الاصطخري، المسالك، ص٦٧. الهمداني، صفة، ص٢٤٣، ٢٤٥، البكري، معجم، ص٢٣٦.

(١) انظر: هورست كلينكل، آثار سورية القديمة، ترجمة قاسم طوير، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، ١٩٨٥، ص٧٨-٨٤.

(٢) نقولا زيادة، **جغرافية الشام عند جغرافي القرن الرابع الهجري**، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، عمان ١٩٧٤. من ص١٣٩-١٧٩. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: نقولا زيادة، جغرافية الشام.

(٣) الجزيري، الدرر، ص١٢٣٤.

(٤) الجزيري، الدرر، ص١٢٣٤.

(٥) ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٢٨٣، الطبري، تاريخ، ج٤، ص٥٧، البكري، معجم، ج٢، ص٧٣٥، الحميري، الروض المعطار، ص١٣.

بأنها أول الحجاز وآخر الشام، وجعلها بين المغيثة وتبوك من منازل حاج الشام [١]. ولكن المسافة بين درعا (أذرعات) والمدورة (سرغ) تزيد على ثلاثمائة كيل، ومن غير المعقول أن يقطع الركب هذه المسافة مرة واحدة دون النزول والاستراحة في منازل سابقة.

وقد ذكر الحربي سبعة منازل ما بين درعا (أذرعات) والمدورة (سرغ) وهذه المنازل هي: الزرقاء والقسطل وقيال وبالعه والحفير ومعان وذات المثار والمغيثة ثم إلى سرغ [٢]. وما ذكره الحربي يبدو أنه أكثر وضوحًا ودقة لأن ما ذكر من منازل يتناسب مع المسافات المقدرة بين المنزل والآخر من جهة [٣]، وأن بعض هذه المنازل ما زال يحتفظ ببعض الآثار الأموية من جهة أخرى [٤]. وكل هذه المنازل تقع في شرقي الأردن، فالزرقاء هي المدينة الثانية بعد عمان العاصمة، وتقع على بعد حوالي خمسة وعشرين كيلا إلى الشمال الشرقي من العاصمة، وعلى حافة نهر الزرقاء (سيل الزرقاء) وفيها بقايا قلعة (قصر) شبيب التبعي الحميري [٥]، وهي اليوم إحدى محطات سكة الحديد الأردنية الحجازية.

أما القسطل فهي بلدة تقع إلى الجنوب من عمان في وسط الطريق المؤدي إلى مطار الملكة علياء الدولي، ولا يزال هذا الموقع يحتفظ باسمه حتى اليوم، وذكر القسطل مع الموقر القريب منه، وبعده بقليل يقع قصر المشتى، ولكنها قصور أموية لا تزال تحتفظ بالآثار الدالة على ذلك رغم طغيان التوسع العمراني على الأماكن الأثرية [٦].

وقد ذكر ياقوت القسطل على طريق المدينة وقال (هي في لغة العرب الغبار الساطع، وفي لغة أهل الشام الموضع الذي تفترق منه المياه، واستشهد فيها بما قاله كثير.

---

(١) معجم البلدان (سرغ) وقد ابتنى فيه العثمانيون قلعة المدورة في القرن السادس عشر، انظر A.Petersen، p. 108.

(٢) المناسك، ص٦٥٣.

(٣) انظر: أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل (ت٧٣٢هـ-١٣٣١م)، **المختصر في أخبار البشر**، ج٤، ص٧٢-٧٤. يذكر أنه في حجه من حماة، مر بالكرك في ذهابه، وأقام في العلا وفي بركة زيزا ودمشق في العودة إلى حماة. وذكر بأن مسيره من حماة إلى مكة استغرق خمسة وعشرين يومًا، أقام منها نحو ثلاثة أيام، فيكون مسيره الفعلي دون اثنين وعشرين يومًا. والمسافة بين حماة ومكة أكثر من تسعماية ميل، فلا بد أن يكون قد قطع أكثر من خمسة وأربعين كيلا في اليوم الواحد. انظر: موسل، شمال الحجاز، ص١٥٨.

(٤) انظرها في مصادر القصور الأموية التي ذكرناها سابقًا.

(٥) ياقوت، معجم، (الزرقاء).

(٦) انظر المصادر المشار إليها سابقًا.

سقى الله حيا بالموقر دارهم إلى قسطل البلقاء ذات المحارب
سواري تنحى كل آخر ليلة وصوب غمام باكرات الجنائب(١)

أما قيال التي يذكرها الحربي بعد ذلك فلم نعثر لها عل وجود في الجزء الأردني من الطريق ،ولكن سكان المنطقة يطلقون أحيانا اسم (قيال) على موقع خان الزبيب اليوم محطة من محطات القطار وفيها مسجد يعود إلى العهد الأموي، حيث تكثر المخلفات الأثرية الأموية في هذه المنطقة، فعلى بعد تسع كيلات ونصف غرب زيزياء يقع مسجد أم الوليد (٢). ولا عبرة بما ذكره ياقوت حول قيال (٣)، لان ما ذكره يقع خارج المنطقة المعينة. كذلك لا توجد حاليًا مواقع باسم بالعه أو الحفير، مع أن ياقوت ذكر بالعه على أنها من قرى البلقاء (٤). ويغلب على الظن أن هذه المواقع اما أصابها الخراب والدمار وإلا ندراس فلم يعد لها وجود، أو أنه أصاب أسماءها التحريف والتبديل، أو أن النساخ اخطأوا في رسمها لسبب أو لآخر. والأمكنة الحالية – بعد القسطل – المثبتة في الخرائط الأردنية، وهي: الجيزة (زيزياء) وهي إحدى محطات القطار، وقريبة من القسطل، لذلك لا تصلح منزلا إذا اتخذت القسطل منزلا، وبعدها خربة أبو عليق وقلعة ضبعة وهي محطة قطار أيضًا، وكذلك خان الزبيب (قيال فرضا) بعدها، ثم رجم الكيال، والسويقة ومن ثم القطرانه، وهي من محطات القطار، وبعدها الرجم الأبيض ثم الحسا، وجرف الدراويش وبعده الدجينة ثم عنيزة ثم معان(٥)، والمسافة بين القسطل ومعان حوالي مائة وخمسة وسبعين كيلا، فيلزم أن يكون فيها من ثلاثة إلى أربعة منازل. وقد كانت الجيزة (زيزاء) من المنازل المشهورة في العهد الأموي.

ذكر الطبري أن الوليد بن يزيد سنة ١٢٥هـ كان يطعم من صدر عن الحج.بمنزل يقال له زيزاء ثلاثة أيام، ويعلف دوابهم، و لم يقل في شيء يسأله: لا، فقيل له: ان في ذلك قولك:

---

(١) معجم البلدان (القسطل). وذكر:الطبري، جـ٣، ص٣٨٩، جـ٧، ص٢٣٧، ٣١٥. وابن الأثير، الكامل، جـ٥، ص٢٨٣، أن الموقر والقسطل كانتا من منازل الأمويين.

(٢) انظر: فواز طوقان، الحائر، ص١٢١.

(٣) ذكر ياقوت جبلا بهذا الاسم قرب دومة الجندل. واستشهد ببيت شعر يفيد أنها واد. انظر المعجم (قبال).

(٤) معجم البلدان (بالعة).

(٥) انظر هذه المواقع على الخرائط الأثرية للملكة الأردنية الهاشمية ١ : ٢٥٠,٠٠٠، المركز الجغرافي الملكي الأردني ١٩٨٠.

انظر، عدة ما، يقيم عليها الطالب، فقال: لا أعود لساني شيئا لم اعتده[١]. ومن الجدير ذكره أن زيزياء تقع إلى الغرب من قصر المشتى على الطريق بين عمان والقطرانه، في المنطقة التي تكثر فيها الآثار الأموية، وزيزياء إحدى مواقع الآثار الأموية الماثلة للعيان، خصوصًا البركة الشبيهة ببركة الموقر[٢]. وذكر الطبري ما يفيد أن آبل وزيزاء والقسطل تقع على خط واحد[٣]. وعدم ذكر زيزياء من قبل الجغرافيين القدامى يدل على أنها تراجعت بعد العهد الأموي، غير أنها ما لبثت أن عاودت ازدهارها كمنزل للحجاج، فقد ذكرها ياقوت[٤]، والصلاح الصفدي[٥]، ومر بها ابن بطوطه في حجه عام ١٣٢٦م[٦]، مما يشير إلى أنها كانت مزدهرة في القرنين السابع والثامن الهجريين ثم تراجعت بعد ذلك لعدم ذكرها في مصادر القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، وظلت مغمورة حتى بناء الخط الحديدي الحجازي في أواخر الحكم العثماني، فأصلحت بركتها وأصبحت محطة على طريق القطار، والطريق المعبد الصحراوي.

أما المقدسي فيذكر أن الطريق إلى تبوك يبدأ من عمان، وبعد منهلين يصل إلى معان ثم إلى تبوك مثلهما ثم إلى تيماء أربعا ثم إلى وادي القرى أربعًا[٧]. والمنازل بعد معان أو سرغ إلى وادي القرى عند ابن خرداذبة[٨] والحربي[٩] وابن رسته[١٠]، وقدامة بن جعفر[١١] هي: تبوك – المحدثة – الأقرع – الجنينة – الحجر ومن ثم إلى وادي القرى. ويذكر الإدريسي نفس المنازل السابقة، إلا أنه حصل خطأ في ذكر البثنية بعد سرغ، وذكر دمة (دمًا أو دمنة)

(١) تاريخ، ج٧، ص٢١٧-٢١٨. تعرف الآن بـ (زيزياء) أو الجيزة، وسمتها المصادر زيزاء، وبركة زيزي.

(٢) فواز طوقان، الحائر، ص١٢٢.

(٣) تاريخ، ج٣، ص٣٨٩.

(٤) معجم البلدان (زيزاء).

(٥) الجزيري، الدرر، ج٢، ص١٢٥٦.

(٦) تحفه النظار، ص٧٧.

(٧) أحسن التقاسيم، ص٢٥٠.

(٨) المسالك والممالك، ص١٥٠.

(٩) المناسك، ص٦٥٣.

(١٠) الاعلاق النفسية، ص١٨٣.

(١١) الخراج، ص٨٥.

بعدها[١]، وحصل عنده تحريف لاسم الجنينة فذكرت الحنيفية، وذلك أن البثنية هي أذرعات كما أسفلنا وذكر ذلك الإدريسي نفسه[٢]. ويقول موسل أن دمة (دمنة) محلة عامرة يجب أن نجعل موضعها عند المنزل المعروف بذات الحج على مسافة أربعين كيلا تقريبًا إلى الجنوب من سرغ، وبالقرب منها ينتهي شعيب دمنة الذي يأتي من العين المعروفة بالاسم نفسه. وهذا الترتيب الذي يبدأ بسرغ ثم دمنة يستقيم مع اسم المنزل الذي يذكر بعد ذلك وهو تبوك. وتختلف المنازل في المصادر المتأخرة كما هو مبين في الملحق رقم (٥). ومنازل الطريق بين وادي القرى والمدينة المنورة عند ابن خرداذبة، والحربي وابن رسته والإدريسي تكاد تكون متطابقة لولا أن الحربي يزيد في المنازل بعد وادي القرى منزلا باسم (السقيا) ويذكر أن هذا الموقع مكان التقاء الطريق للحاج المصري والشامي، ويسميها حمد الجاسر في معجمه[٣] بسقيا الجزل وهي سقيا يزيد، وهي جزء من وادي القرى، لأن الأخير ليس علما على مكان واحد، وإنما يدل على عدد من القرى المتناثرة على هذا الوادي[٤]. ويضيف الحربي أيضًا منزلا آخر بعد السقيا اسمه (عتاب)، كذلك يضيف (الأراك) بعد السويداء. وطبقًا لما جاء عن ابن خرداذبة ومن تابعه تكون المنازل على النحو التالي: وادي القرى - الرحيبه وهي عند ابن رسته (الرحبة) - ذو المروة - المر - السويداء - ذي خشب - المدينة. ولم يذكر قدامة بن جعفر منازل بين وادي القرى والمدينة. ووادي القرى هو مجتمع الحجاج المصري والشامي[٥]، ومن قصد الشام من المدينة على الطريق الداخلية لا بد من أن يمر بوادي القرى، فقد ذكر الطبري أنه عندما خرج محمد بن عبد الله في المدينة على الخليفة أبي جعفر المنصور، استشار هذا أحد أصحابه حول خروج محمد بن عبد الله، فنصحه قائلا: ظهر حيث لا مال ولا رجال ولا سلاح ولا كراع، ابعث مولى تثق به، فليسر حتى ينزل بوادي القرى، فيمنعه ميرة الشام، فيموت مكانه جوعًا)[٦]. ولما خرج أبو عبيدة والمسلمون إلى

(١) نزهة المشتاق، الطبعة الإيطالية، بريل ١٩٧٤م، ص٣٧٦.

(٢) نزهة المشتاق، ص٣٠.

(٣) المعجم الجغرافي، القسم الثاني (ح-ظ)، ص٦٧٣، يذكر الجاسر بأن هذه البلدة درست ويعرف موقعها الآن باسم (أم فقور).

(٤) انظر: ياقوت، معجم (وادي القرى).

(٥) Al – Wohaibi، p. 293.

(٦) تاريخ، ج٧، ص٥٧٨، وانظر ج٥، ص٤٨٥.

الشام مروا بوادي القرى ثم أخذوا على الحجر أرض صالح النبي عليه السلام، ثم على ذات المنار، ثم على زيزاء، ثم ساروا إلى مآب بمعان[١]. ووادي القرى مكان تردد ذكره في المصادر قبل الإسلام وبعده، وصالح الرسول صلى الله عليه وسلم أهل وادي القرى في عودته من تبوك في السنة التاسعة للهجرة[٢]وذكر في الشعر كثيرًا، ومما قيل فيه:

أبلغ أبا بكر إذا الأمر انبرى وجازت الخيل على وادي القرى[٣]

و لم يذكر وكيع وادي القرى وإنما ذكر بدله (السقيا)[٤] ثم بعدها (عتاب) التي جعلها الحربي أيضًا بعد وادي القرى. أما منازل اليعقوبي فهي: السقيا وذى المروة وذو خشب ثم المدينة[٥]. وتتطابق المنازل عند ابن خرداذبة وابن رسته ووكيع وقدامة والإدريسي، بعد الرحبة (الرحيبة) أي: ذى المروة، والمر، والسويداء وذى خشب، ولكن قدامة يسقط من قائمته منزل (المر)[٦] والحربي يجعل بعد السويداء منزلا جديدا هو (الأراك)[٧].

وتذكر الرحبة والسقيا والجندل كمواقع متقاربة[٨]، والرحبة واد (فرتاح) الذي لا يزال معروفًا[٩]. والمروه (ذو المروة) مدينة لها شهرتها التاريخية، نقل السمهودي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل بها حينما ذهب إلى غزوة تبوك، ونقل عن ابن زبالة قول الرسول فيها: **(اللهم بارك فيها من بلاد، واصرف عنهم الوباء، واطعمهم من الجني، اللهم اسقهم الغيث، اللهم سلمهم من الحاج، وسلم الحاج منهم)**[١٠].

---

(١) انظر، الحميري، الروض المعطار، ص٥١٧. ويبدو أن الناسخ اخطأ حين ذكر مآب بمعان.

(٢) حمد الجاسر، الشعر في وصف منازل الحج، ص٣٣١-٣٣٢.

(٣) ابن خرداذبة، المسالك، ص١٥٠، حمد الجاسر، الشعر، ص٣٣١-٣٣٢.

(٤) بلدة كثيرة الآبار والعيون والبرك، وبنى فيها الرسول صلى الله عليه وسلم مسجدًا، وهي قرية من قرى وادي القرى، البكري، معجم، ج٢، ص٧٤٢-٧٤٣.

(٥) البلدان، ص٣٤١.

(٦) الخراج، ص٨٤.

(٧) المناسك، ص٦٤٩.

(٨) البكري، معجم، ص٢٨، ٦٤٤، ٧٩٣، ١٢٨١.

(٩) لغدة الأصفهاني، بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة، ص٦١. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: لغدة، بلاد العرب.

(١٠)السمهودي، نور الدين علي بن أحمد (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م). وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ط١، بيروت. ١٣٩٣هـ/١٩٧١م، ج٢، ص١٣٠٥. وسيشار إليه عند وروده

وتعد ذو المروة من وادي القرى والمسافة بينها وبين ينبع مرحلتان[١]. وذكر الأسدي، أن المروة بعد وادي القرى بنحو ثلاث مراحل لجهة المدينة الشريفة[٢]. وجعل الهمداني بين المدينة ووادي القرى خمس مراحل على طريق المروة[٣]. ومن المروة إلى المدينة مرحلتان، السويداء وفيها الماء ثم المدينة[٤]. وإذا جاء حاج مصر والشام من السويداء إلى المدينة مال إلى (أوال) ثم خرجوا منها إلى السيالة[٥]. وذو خشب واد على مرحلة من المدينة على طريق الشام[٦]. وكان به قصر لمروان بن الحكم ومنازل لغير واحد، وبه نزل بنو أمية لما أخرجوا إلى الشام قبيل وقعة الحرة[٧].

والطريق من المدينة إلى مكة عشر مراحل كما يقول اليعقوبي[٨]، وأول مكان على هذا الطريق بعد المدينة يدعى الشجرة، وهو ليس بمنزل وإنما هو ميقات أهل المدينة للإحرام، على ست أميال من المدينة. وقد ذكرت المصادر المسافات بين المنازل ومصادر المياه فيها مما يشير إلى وضوح أكثر لهذا الجزء من الطريق في المصادر الجغرافية الأولية.

ومنازل هذا الطريق طبقا لما أورده ابن خرداذبة[٩]هي: ملل – السيالة – الرويثة – السقيا – الأبواء – الجحفة – قديد – عسفان – بطن مر ثم إلى مكة. ويوافق ابن رسته ابن خرداذبة في تعداد المنازل وضبط أسمائها، غير أنه لم يذكر (ملل) بين المنازل[١٠]، كذلك تتطابق المنازل

فيما بعد هكذا: السمهودي، وفاء. وانظر: حمد الجاسر، بلاد ينبع، لمحات تاريخية، وانطباعات خاصة، ص٢١٢. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: حمد الجاسر، بلاد ينبع.

(١) حمد الجاسر، بلاد ينبع، ص٢١٣. وانظر ياقوت، معجم (ذو المروة).

(٢) السمهودي، وفاء، ص١٣٠٥.

(٣) صفة جزيرة العرب، ص٢٤٤.

(٤) صفة جزيرة العرب، ص٢٤٤.

(٥) صفة جزيرة العرب، ص٢٤٤.

(٦) البكري، معجم، ج١، ص٥٠٠.

(٧) السمهودي، وفاء، ج٢، ص١٢٠١.

(٨) البلدان، ص٣١٣.

(٩) المسالك، ص١٣٠-١٣١.

(١٠)الاعلاق النفيسة، ص١٧٧-١٧٨.

عند قدامة[١] مع ما ورد عنه ابن خرداذبة. أما الحربي فيضيف المنازل التالية إلى قائمة ابن خرداذبة: الروحاء بعد السيالة - والعرج بعد الرويثه، وأمج بعد قديد ثم سرف والتنعيم قبيل مكة[٢]. وأضاف اليعقوبي أيضًا الروحة (الروحاء) والعرج وجعل الرويثة بينهما[٣]. أما المقدسي فبدأ منازله بالرويثة ثم الروحاء بعدها العرج ثم سقيا بني غفار (السقيا)، وبعدها الأبواء والجحفة ثم الخيم وبعدها خليص وأمج وبعدها عسفان وبطن المر ثم إلى مكة[٤] ونلاحظ أن قوائم المنازل عند[٥] الجغرافيين تزداد وتنقص ويعود ذلك إلى حرص البعض على إيراد كل الأماكن التي يمر بها الحاج حتى وأن لم تكن من المنازل كالمساجد والأماكن المقدسة أو مصادر المياه، وتمسك بعض الجغرافيين بذكر المنازل فقط. كما يجدر بنا أن ننوع بكثرة الطرق والأماكن حول مكة.

وقد ذكر السمهودي المساجد التالية على هذا النطاق: مسجد الشجرة (ذى الحليفة) والحليفة الميقات المدني ويعرف اليوم (ببئر علي)[٦]. ومنها مسجد المعرس، ثم مسجد شرف الروحاء وهو على ميلين من السيالة في رواية الأسدي[٧]. ثم مسجد عرق الظبية، وذكر الأسدي أنه يقع على تسعة أميال من السيالة[٨]، ثم مسجد المنصرف الذي تغير اسمه إلى مسجد الغزالة، وهو على ثلاث أميال من الروحاء[٩]، وبعده مسجد الرويثة، وبين الروحاء والرويثة ثلاثة عشر ميلا. وبعد مسجد ثنيه ركوبة ثم مسجد الأثاية، وبعده مسجد العرج، وبعده مسجد المنبجس ثم مسجد يحيى (لحي جمل)[١٠]. والمنبجس وادي العرج (المدارج اليوم)، ومسجد (لحي الجمل) على ميل من الطلوب، والطلوب: بئر غليظة الماء بعد العرب

(١) الخراج، ص٤٠.
(٢) المناسك، ص٤٢٥-٤٦٨.
(٣) البلدان، ص٣١٣.
(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص١٠٦.
(٥) انظر الملاحق.
(٦) السمهودي، وفاء الوفاء، ج٢، ص١٠٠٢.
(٧) السمهودي، وفاء الوفاء، ص١٠٠٧-١٠٠٨.
(٨) السمهودي، وفاء الوفاء، ص١٠٠٨-١٠٠٩.
(٩) السهمودي، وفاء الوفاء، ص١٠١٠.
(١٠)انظر: وفاء الوفاء، ج٢، ص١٠١٠-١٠١٤.

بأحد عشر ميلا والسقيا بعد الطلوب بستة أميال وفيها مسجد[١]. وبعد ذلك يذكر عددًا من المساجد منها مسجد الأبواء، وذكر الأسدي في الأبواء آبارًا وبركًا، وبعده مسجد يسمى بمسجد البيضة، ومسجد عقبة هرشى وهو على ثمانية أميال من الأبواء، وبعد ذلك يذكر مسجد الجحفة، والجحفة بعد الأبواء بثلاثة عشر ميلاً، وفي الجحفة آبار وبرك وعيون[٢]. ثم مسجد غدير خم – ربما حدث تحريف عند الجغرافيين فلفظوه الخيم – ثم مسجد قديد، وخليص ثم مسجد مر الظهران. ويقول المطري: ومر الظهران هو بطن مر المعروف[٣]، ويطلق عليه اليوم (وادي فاطمة) أحد أودية مكة الغنية. وقبل الدخول في مكة يأتي مسجد سرف على سبعة أميال من مر، وهو على قبر ميمونة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم مسجد التنعيم وراء قبر ميمونة بثلاثة أميال[٤].

وتذكر المصادر الأولية طريقين رئيسين من أيلة (العقبة) إلى كل من المدينة ومكة. وأيلة إحدى منازل الحج المصري والمغربي والشامي[٥]، وذلك أن حجاج فلسطين ومن يردونها كانوا يمرون بأيلة أحيانا، ومن أيلة كان الركب يأخذ أحد طريقين، أما الداخلية وأما الساحلية. والأولى هي التي أطلقت عليها مصادرنا اسم التبوكية، والثاني هي المعرقة التي تتبع الساحل، وكانت قريش قبل الإسلام تسلك الطريقين، ورأينا في أحداث معركة بدر كيف أن أبا سفيان تحول بالقافلة من الطريق الداخلية (التبوكية) إلى الطريق الساحلية (المعرقة) لينجو بالقافلة من اعتراض المسلمين.

وذكر ابن خرداذبة[٦]خمسة عشر منزلا على الطريق الداخلي من أيلة إلى المدينة هي: حقل – مدين، الإغراء – منزل – الكلابة – بدا – السرحتين – البيضا – وادي القرى – الرحيبة (الرحبة) – ذي المروة – المر – السويداء – ذي خشب – المدينة[٧]. أما وكيع فقد

---

(١) السمهودي، وفاء الوفاء، ص١٠١٤–١٠١٥.

(٢) السمهودي، وفاء الوفاء، ص١٠١٦–١٠١٧.

(٣) لسمهودي، وفاء الوفاء ص١٠١٨ – ١٠١٩.

(٤) السمهودي، وفاء الوفاء، ص١٠٢٠.

(٥) لمسالك، ص٤٩.

(٦) Ibid، p 327.

(٧) Ibid

قدم بعض المنازل وأخر أخرى، فبدأ بشرف البعل ثم مدين - قالس - الإغراء - الكلابنة (الكلابات) - بدا - الشغب - السرحتين - السقيا ثم تتبع طريق الحاج السوري إلى عناب (عتاب) والمروة ثم المر والسويداء إلى اراك أو (أوال)[١].

أما اليعقوبي فقد جعل بعد الاغراء: قالس وبعدها شغب، وجعل بعد بدا - السقيا ثم المروة وذي خشب[٢].

وتطابق قائمة المنازل عند ابن رستة قائمة ابن خرداذبة، ما عدا البيضاء وحقل، فلم يذكرهما ابن رستة في قائمته[٣]، وبدأ بشرف النمل (شرف البعل) التي جعلها معظم الجغرافيين المنزل الأول بعد أيلة.

أما الحربي فيرتب منازله على النحو التالي: شرف البعل - مدين - قالس - الأغر - الكلابية - بدا - شغب -- السرحتين - السقيا وبها يلتقي طريق الشام الداخلي مع الطريق المصري، والسقيا جزء من وادي القرى، ثم إلى عناب، المروة - المر - السويداء وبعدها الاراك ثم إلى ذي خشب والمدينة[٤].

يبدأ قدامة قائمته بمنزل شرف ذي النمل (البعل) ثم يتابع ترتيب ابن خرداذبة إلا أنه يذكر منزل الكلابة بعد الاغراء مباشرة ثم يجعل بعدها شغب بني السرحتين، ثم يسقط بدا ويذكر بعد ذلك وادي القرى، ويتابع موافقا ابن خرداذبة دون أن يذكر منزل المر[٥].

وبدا المقدسي قائمته بشرف ذي النمل (البعل) ثم يطابق ترتيبه ما ورد عند ابن خرداذبة حتى وادي القرى[٦]. ويتابع بعد ذلك المقدسي منازل الطريق الساحلي، ويقول بأنه الطريق المستعمل اليوم. وبعدها يورد قائمة جديدة من المنازل للطريق الداخلي هي: شرف البعل - الصلا - النبك - ضبة- عونيد - الرحبة - منخوس - البحيرة - الاحساء - الاغراء -

---

(١) Ibid

(٢) البلدان، ص٣٤١.

(٣) الاعلاق النفيسة، ص١٨٣.

(٤) المناسك، ص٦٤٩.

(٥) الخراج، ص٨٤.

(٦) حصل تحريف لأسماء المنازل عند المقدسي، فذكر الأعراء بدلاً من الاغراء، والكلاية بدل من الكلابة.

الكلابة – شغب – بدا – السرحتين – البيضاء – قرح – سقيا يزيد المدينة [١]. وللبكري قائمة يبدأها بأيلة – حقل – وادي الغراب – وأشرف البعل – مدين – عينوته – النبك – الصلا – ظبة – بدا يعقوب – سقيا يزيد – ثم المروة – السويداء – نقع ذو خشب[٢].

والإدريسي له قائمته الخاصة، إلا أنها وصلتنا مضطربة ومشوشة، أصابتها يد التحريف والتصحيف فهو يذكر: حقل ثم بعدها مدين ثم الاعراء بدلا من الأغراء ثم منزل والكلاية بدلا من الكلابة، وسعب بدلا من شغب ثم البيضاء ثم وادي القرى وبعدها الرحيبة ثم ذو المروة وبعدها المر والسويداء وذو خشب[٣].

لم يذكر الاصطخري، وابن حوقل ترتيبا للمنازل بين أيلة والمدينة كما فعل من سبقهم، مع أن كلا منهما صرح بوجود مثل هذه القائمة. ويمكن جمع الكثير من المعلومات المتناثرة في ثنايا مؤلفيهما حول الموضوع. وقد أشاروا إلى أن حجاج المغرب ومصر وفلسطين يجتمعون في أيلة، ثم يأخذون الطريق الداخلي إلى مدين وشغب وبدا والمروة إلى المدينة، وأشاروا إلى الطريق الساحلي وقالوا بأن الطريقين يلتقيان عند الجحفة[٤].

وذكر اليعقوبي أن الطريق الساحلي كان مستعملا في أيامه أي أواخر القرن التاسع الميلادي، ويبدو من حديثه أن الذين يريدون مكة دون المرور بالمدينة يفضلون الأخذ على ساحل البحر المالح، وأعطى اليعقوبي أهمية أكثر للطريق الساحلي، ويظهر بأنه كان على ثقة أكبر بالمنازل التي يحددها هذا الطريق من تلك التي ذكرها على الطريق الداخلي. وجاء ترتيب المنازل عند وكيع على النحو التالي: عينونًا (عينونه) – المصلى (الصلا) – النل (النبك) – طيبة (ظبة) المدة – عيوند (عونيد) – الرجة القصيبة (الوجة) – منخوس – الحوراء – قصيبة – البحره – يلبا (ينبع) – (مسئولان) – الجار – المدينة[٥].

وإذا تجاوزنا ما لحق أسماء بعض المواقع من تحريف، فإن هذه المواقع معروفة باستثناء

---

(١) أحسن التقاسيم، ص١٠٩–١١٠.

(٢) نقلا عن كتاب المسالك والممالك، انظر .Al-Wohaibi, The northern, p. 328

(٣) نزهة المشتاق، النسخة الايطالية، بريل، ١٩٧٤، ص٣٤٥.

(٤) Al-Wohaibi, p. 323.

(٥) Al-Wohaibi, p. 335-336.

(مسئولان) الذي ذكره قدامة أيضًا بعد ينبع[١].

ويبدو لي أن قائمة الحربي أكثر دقة ووضوحا، إذ سلمت من التحريف الذي لحق بقائمة وكيع، مع أنها تكاد تطابق منازل وكيع. وهي عند الحربي: عينونا - المصلى - النبك - ظبة - المرة - الوجه - منخوس - الحوراء - قصيبة - البحره - ينبع ثم إلى الجار وبعدها المدينة. وعلى ضوء قائمة الحربي يمكننا تخليص قائمة وكيع مما لحقها من تحريف[٢]. و لم نهتد إلى ضبط أو تحديد المنزل الذي ورد عند وكيع وقدامة باسم (ماسولان أو مسئولان)؟.

إن قائمة قدامة قريبة من قائمة الحربي باستثناء ابتداء قدامة بمنزل شرف البعل بدلا من عينونا (عينونة) و لم يذكر منزل المره، وأضاف منزلا جديدًا بعد منخوس أطلق عليه اسم (التحريم) ولا شك أنه اسم محرف، وبعد ذلك يذكر الاحساء ثم ينبع ومسئولان والجار ثم المدينة[٣]. أما قائمة المقدسي فقريبة من قائمة قدامة، والمقدسي يسمى أيلة (ويلة) ويسمي شرف البعل، شرف ذو النمل، وتقابل الوجه، الرحبة عند المقدسي، وجعل البحرة بعد منخوس، ثم ذكر الحسا وبعدها العشيرة ثم الجار فبدر ثم المدينة[٤]. ويختصر الإدريسي عدد المنازل إلى مكة ثم يستأنف تعداد منازل طريق المدينة، فأما منازله إلى مكة فهي: الحقل- مدين - الحوراء - الجار - قديد - عسفان - بطن المر - مكة. ومنازله إلى المدينة: عويند - صبة - العطوف - الحوراء - وادي السرف - القريفة - الجار - المدينة[٥].

نكتفي بما ذكرناه عن دروب الحجاز، و لم يتعرض البحث إلى التفصيلات والتحقيقات الواسعة للمنازل وما تشتمل عليه من مياه وآثار، وما بينها من مسافات، وما كان يكابده الحاج من صعوبات في الصحارى والمفازات. وذلك لأن هذه المنطقة حظيت وتحظى بدراسات جادة من قبل المستشرقين والرحالة، وتحظى الآن بعناية أبناء البلاد المختصين من أمثال الشيخ حمد الجاسر، وأساتذة التاريخ والآثار في الجامعات السعودية، وفي أقسام الآثار المختلفة. وهذه المكانة التي حظيت وتحظى بها منطقة الحجاز، تعود إلى أهمية

---

(١) الخراج، ص٨٥.

(٢) ضبطنا أسماء المنازل التي حرفت عند وكيع ووضعناها داخل أقواس صغيرة، كما لم يذكر اسم منزل عند ابن خرداذبة فتركناه فراغا داخل معقوفتين.

(٣) الخراج، ص٨٤.

(٤) أحسن التقاسيم، ص١٠٩.

(٥) نزهة المشتاق، ص٢٠، ٣٤٥.

موقعها كحلقة وصل على الطرق العالمية القديمة، ومن كونها قبلة المسلمين ومحجهم، تهفو لزيارتها قلوب الملايين من المسلمين مصداقا لقوله تعالى على لسان ابراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾[ابراهيم]. صدق الله العظيم.



ملحق (١)

منازل الحج الشامي عند الجغرافين العرب الأوائل من دمشق إلى المدينة المنورة

ابن خرداذبة	الحربي	ابن رستة	قدامة بن جعفر	المقدسي	الإدريسي
دمشق	دمشق	دمشق	دمشق	دمشق	دمشق
					منزل (الكسوة) (دعه) أزرع
منزل	الصنمين	منزل			
منزل		منزل			
ذات المنازل	أذرعات	ذات المنازل	ذات المنازل		ذات المنازل
	الزرقاء			عمان	(ينوع) ينبع
سرغ	القسطل	سرغ	سرغ		البثنية
	قبال				دمه
تبوك	بالعة	تبوك	تبوك	معان	تبوك
المحدثة	الحفير	المحدثة	المحدثة		المحدثة
	معان			تبوك	الاقرع
الاقرع	ذات المنار	الاقرع	الاقرع		
الجنينة	المغيثة	الجنينة	الجنينة	تيماء	الحنيفية
الحجر	سرغ	الحجر	الحجر		الحجر
	تبوك				
وادي القرى	المحدثة	وادي القرى	وادي القرى		وادي (القرى)
الرحيبة	الاقرع	الرحبة			الرحبة
ذي المروة	الجنينة	ذي المروة			ذي المروة
المر	الحجر	المر			المر
السويداء	وادي القرى	السويداء			السويدة
دي خشب	السقيا	ذي خشب			ذي خشب
المدينة	عتاب	المدينة			المدينة (يثرب)
	المروة				
	المر				
	السويداء				
	الاراك				
	ذى خشب				
	المدينة				

ملحق (٢)

منازل الطريق من المدينة إلى مكة عند الجغرافيين الأوائل مع ذكر المسافات بالأميال

ابن خرداذبة	اليعقوبي	الحربي	ابن رسته	قدامة
الشجرة	ذو الحليفة ٤	ذو الحليفة ٥	الشجرة ٦	الشجرة ٦
ملل ١٢	الحفيرة	الحفيرة ٦	السيالة ٣١	ملل ١٢
السيالة ١٩	ملل	ملل ٦	الرويثة ٣٤	السيالة ١٩
الرويثة ٣٤	السيالة	السيالة ٧	العرج =	الرويثة ٣٤
السقيا ٣٦	الروحة	الروحاء ١١	السقيا ٣٦	السقيا ٣٦
الابواء ٢٩	الرويثة	الرويثة ١٣	الابواء ١١	الابواء ٢٩
الجحفة ٢٧	العرج	العرج ١٤	الجحفة ٢٧	الجحفة ٢٧
قديد ٢٧	سيق بني غفار	السقيا ١٧	قديد ٢٩	قديد ٢٦
عسفان ٢٤	الأبواء	الأبواء ١٧	عسفان ٢٤	عسفان ٢٤
بطن مر ٣٣	الجحفة	الجحفة ٢٣	بطن مر ٣٤	بطن مر ١٦
مكة ١٦	قديد	قديد ٣٤	مكة ١٦	مكة ١٦
	عسفان	أمج		
	مر الظهران	عسفان ٢٣		
	مكة	بطن مر ٢٤		
		سرف ٧		
		التنعيم –		
		مكة ١٣		

ملحق (٢)

الهمداني	المقدسي	الإدريسي	الأسدي كما جاء عند السمهوري	البكري
السيالة ٢٣	رويثه	الشجرة	الشجرة ٥	ذو الحليفة ٦
			مجموعة مساجد	
الروحاء ٢٤	الروحاء	ملل ١٢	الحفيرة	الحفير ٨
الرويثة ١٣	العرج	السيالة ١٧	ملل	ملل ٨
العرج ٢٤	سقيا بني غفار	الرويثة ٣٤	السيالة ٧	السيالة ٧
السقيا ٢٤	الابواء	السقيا ٣٦	الروحاء ١١	الروحاء ١١
الابواء ١٩	الجحفة	الابواء ٢٧	الرويثة ١٣	الرويثة ٢٤
الجحفة ٢٣	الخيم	الجحفة ٢٧	الجي	الأثاية ١٢
قديد ٢٤	خليص	قديد ٢٦	العرج ١١	العرج ٢
				الطلوب –
عسفان ٢٣	عسفان	عسفان ٢٤	السقيا ١٧	القاحة ٦
مر الظهران ٢٣	بطن مر	بطن مر ٢٣	الابواء ٢١	السقيا ١
مكة ١٣	مكة	مكة ١٦	الجحفة ١٣	تيهان ٣
			قديد ٢٤	ابواء ١٦
			خليص ٧	الجحفة ٢٣
				الكلاية ١٢
			بطن مر الظهران٣٧	المشلل ٩
				قديد ٣
			مكة ١٧	خليص ٧
				أمج ٢
				الروضة ٤
				قديد ٢
				وادي غزال ٥
				عسفان ١
				الجنابذ ٥
				بئر العدني ٢
				كورا الغميم ١
				بطن مر ١٥
				سرف ٧
				مكة ٦

ملحق (٣)

الطريق الداخلية من أيلة (العقبة إلى المدينة

ابن خرداذبة	اليعقوبي	الحربي	ابن رسته	وكيع
حقل	شرف البعل	شرف البعل	شرف النمل	شرف البعل
مدين	مدين	مدين	مدين	مدين
الاغراء	الاغراء	فالس	الأغراء	قالس
منزل	قالس	الأغر	منزل	الار (الاكر)
الكلابة	شغب	الكلابية	الكلابة	الكلانبه (الكلابيه)
شغب	بدأ	بدأ	شغب	بدأ
بدأ	السقيا	شغب	بدأ	الشغب
السرحتين	ذو المروة	السرحتين	سرحتين	السرحتين
البيضاء	ذو خشب	السقيا	البيضاء	السفيه (السقيا)
وادى القرى	المدينة	عتاب	وادي القرى	عتاب
الرحيبة		المر	الرحبه	المروة
ذي المروة		السويداء	ذى المروة	المر
المر		الاراك	المر	السويداء
السويداء		ذى خشب	السويداء	الاراك (اوال)
ذى خشب	المدينة	ذى خشب		
المدينة			المدينة	
قدامة	**المقدسي**	**البكري**	**الإدريسي**	
شرف ذى النمل	شرف البعل	أنملة	حقل	
مدين	الصلا	حقل	مدين	
الاغراء	النبك	وادي الغراب	الاعراء	
منزل الكلابة	ضبة	شرف البعل	منزل	
شعب بني السرحتين	عونيد	مدين	الكلابة	
البيضاء	الرحبة	عينونه	شعب	
وادي القرى	منخوس	النبك	البيضاء	
الرحيبة	البحيرة	(الصلا)	وادي القرى	
ذو المروة	الاحساء	ضبة	الرحيبة	
السويداء	الاغراء	بدا يعقوب	ذى خشب	
خشب	الكلابة	سقيا يزيد	مر	
المدينة	شغب	المروة	السويداء	
	بدا	السويداء	ذى خشب	
	السرحتين	نقع ذو خشب	المدينة	
	البيضاء			
	قرح			
	سقيا يزيد			

ملحق (٤)

الطريق الساحلي من أيلة إلى المدينة

اليعقوبي	الحربي	وكيع	قدامة	المقدسي	الادريسي
شرف البعل	عينونا	عينونا (عينونه)	شرف البعل	شرف البعل	الحقل
مدين	المصلى	المصلي (الصلا)	الصلا	الصلا	مدين
عينونا	النبك	النيل (النبك)	النبك	النبك	الحوراء
العويند	ظبة	طيبة (ظبة)	ظبة	ضبه	الجار
الصلا	المره	المده (المره)	عونيد	عونيد	كديد
النبك	عونيد	عونيد (عونيد)	الوجه	الرحبه	عسفان
القصيبه	الوجه	الرجه القصيبة	منخوس	منخوس	بطن مر
البحره	منخوس	(الوجه)	الجره	البحيره	مكه
المغيثه	الحوراء	منخوس	الاحساء	الاحساء	(٢)
ظبه	قصيبه	الحوراء	ينبع	الأغراء	أيلة
الوجه	البحره	قصيبه	مسئولان	العشيره	عونيد
منخوس	ينبع	البحره	الجار	الكلابه	ضبه
حوراء	(٠٠)	يلبا (ينبع)	المدينة	شغب	العطوف
الجار	الجار	مسئولان		بدا	الحوراء
الجحفة	عمقه (؟)	الجار		السرحتين	وادي السرف
قديد	الكن (؟)	المدينة		البيضاء	القريفة
عسفان	المدينة			فرح	الجار
بطن مر				سقيا يزيد	
مكه					

ملحق (٥)

طريق الحج الشامي عند بعض المتأخرين من دمشق وإلى المدينة ومكة

ابن فضل الله العمري ت٧٤٩/١٣٤٩م	الصلاح الصفدي ت٧٦٤/١٣٦٢م	ابن بطوطه ت٧٩٧/١٣٧٧	الجزيري ت٩١١-٩٧٧هـ/١٥٠٥-١٥٦٩م
دمشق	دمشق	دمشق	دمشق
الكسوه	قلعة يلبغا	زرعه (أزرع)	الكسوة
الصنمين	الكسوة	بصرى	الصنمين
زرع	الصنمين	بركة زيزي	درعا
بصرى	المليحة	اللجون	بصرى
الزرقاء	بصرى	حصن الكرك	الزرقاء
معان	رأس وادي عنتر	معان	زيزاء
عقبة الصوان	الازرق	ذات حج	الكرك
ذات حج	زيزا	تبوك	الثنية
تبوك	الكرك	الاخيضر	الحسا
العلا	الحسا عقبة الصوان	بركة المعظم	معان
هدبه		بئر الحجر	العقبة (عقبة الصوان)
عيون حمزه	القطرانه	العلا	
المدينة	معان	العطاس	ذات الحج
ذى الحليفه	تبوك	هديه	تبوك
بئر علي	المفازه	المدينة المنورة	المفازة العظمى
الصفراء	العلا	الروحاء	العلا
بدر	وادي الاخيضر	الصفراء	الاخيضر
مكه	هديه	بدر	بركة المعظم
	عيون حمزه	رابغ	سيل الصافي
	المدينة	خليص	الخبيب
	ذى الحليفه	عسفان	فويق
	الصفراء	بطن مر	العلا
	بدر	مكة المكرمة	هديه
	مكه		اكرى
			عيون حمزه
يتبع رواية الجزيري عن مقدم الحج الشامي في أيامه			العقبة السوداء
			وادي العظام
دمشق	وادي العقيق		أرض النخلتين
قبة يلبغا	آبار حمزه		ذى الحيفه

قبة الحج	عيون حمزه		بئر علي
جسر الكسوه	المدينة المنورة		العقيق
خان ذى النون	آبار علي		الصفراء
كنيبه	ذو الحليفه		بدر
المزيريب	قبور الشهداء		ثم يلاقي الطريق
أذرعات	الجديده		المصرية
خان المفرق	بدر وحنين		
الزرقاء	قاع البزوه		
رأس بلاطه	البزواء		
خان قياد	رابغ		
خان القطراني	طارق قديد		
اللجون	خليص		
الكرك	وادي المنحنا		
الحسا	وادي الزاهر		
خان عنيزه	سيل الجوخي		
معان	مكة المشرفه		
عقبة الصوان			
الطبيليه			
ذات حج			
قاع بسيطه			
بركة تبوك			
عقبة الاخيضر			
ابي خبيب			
بركة المعظم			
الاقيرع			
شق العجوز			
ابيار الحجر			
مدائن صالح			
العلا			
مطارين			
شعب النعام			
هديه			
الفحلتين			
نقب علي			
وادي القرى			

يتبع ملحق (٥)

الطريق من أيله إلى مكه- رواية الجزيري	محمد عبد الله (كبريت) (ت ١٠١٢-١٠٧٠هـ/١٦٠٣-١٦٥٩م)	عبد الغني النابلسي (ت١١٤٣/١٧٣١م)
حقل	دمشق	دمشق
مدين	الكسوه	
عيون القصب	الصنمين	الكسوه
النبك	المزيريب	خان الكشك
المويلحه	وادي القديم (الفدين)	وعرة الغباغب
الازلم	الزرقاء	قرية الكتيبه
الوجه	البلقاء	قلعة المزيريب
اكرى	القطراني	الرمثا
الحوراء	الحساء	المفرق
نبط	عنيزه	الزرقاء
ينبع	معان	القلايات
الدهنا	عقبة الصوان	البلقاء
بدر	عبادان	وادي النسور
الجار	الطبيليات	قلعة القطرانه
رابغ	بطن الغول	الحسا
الجحفة	قاع البسيطة (العرائد)	عنزه
خليص	تبوك	عقبة الحلاوة
بطن (مر)	المعز	جخيمات
عسفان	الاخيضر	قلعة معان
بطن مكه	الاقيرع	ذات صبح
	المبرك	الزلاقات
	مدائن صالح (الحجر)	القاع
	العلا	الارجاء
	أبار الفقير	قلعة تبوك
	بئر الزمرد	مغاير شعيب
	شعب النعام	الأخضر (الأخيضر)
	ذى الحليفة	جناين القاضي
	خيف	قلعة المعظم
	رابغ	الأقيرع
	قديد	آبار ثمود (مدائن صالح)
	خليص	شعيب النعام
	عسفان	بئر الزمرد
	البرقاء	بئر الحديد
	مكة	دار الظرافة
		هدبة
		العقبة السوداء
		الفحلتين
		واد القرى
		الجرف
		المدينة

درب الحاج الشامي

نقلا عن سيد عبد المجيد بكر، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ط ١/ الكتاب الجامعي (٦) (مطبوعات تهامه) ١٤٠١هـ-١٩٨١م، ص(١٩٤-١٩٥).



البريد وطرق المواصلات في بلاد الشام في العصر العباسي

على ضوء كتابات الجغرافيين والرحالة العرب

تعتبر المنطقة التي أطلق عليها اسم بلاد الشام - سورية ولبنان والأردن وفلسطين - واحدة من أقدم البلدان الحضارية في العالم، وتضيف أعمال البحث والتنقيب الدليل تلو الدليل على عراقة هذه المنطقة، والدور المتميز لها في رفد الحضارات الإنسانية. ونظرًا لهذه الأهمية فقد تكثفت حولها الدراسات المختلفة.

وعلى الرغم من كثرة الدراسات المشار إليها، وأهميتها في تغطية جوانب متعددة لحضارة بلاد الشام، فإن دراسة طرق المواصلات والبريد فيها في الفترة الإسلامية، لم تحظ باهتمام الدارسين، مع أن هذه الطرق كانت من أهم الركائز الحضارية في بلاد الشام.

وقد كانت دروب بلاد الشام منذ أقدم العصور حلقة وصل في شبكة المواصلات العالمية، سلكها الناس من مختلف الاصقاع عبر القرون، وتلاقت في هذه المنطقة المسالك القادمة من مختلف الجهات.

ولا تزال بلاد الشام تحتفظ بالكثير من الدلائل التي تقف شاهدًا على وجود هذه الطرق وتراكمها منذ أقدم العصور، كهذه الآثار التي خلفتها على الطبيعة، والنصوص الجغرافية التي تحدثت عنها، وكذلك قصص الرحالة والمسافرين [١] .... إن النقوش الادومية والنبطية المكتشفة تفيد أن الطريق القديم من (بترا) والمار بمدينة (معان) وواحات (الجفر) في الأردن الحالي كان مستعملا على الأقل منذ أيام الفنيقيين[٢] .

---

(١) انظر: نكيتا اليسيف، **(طرق المواصلات في بلاد الشام، ما بين القرنين السادس عشر والعشرين)**، ترجمة بدر الدين قاسم الرفاعي، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ٩٢٢هـ - ١٣٥٨هـ/ ١٥١٦م-١٩٣٩م، جـ١، جامعة دمشق، ص٢٩١-٢٩٧. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: اليسيف، (طرق المواصلات).

(٢) C.P. Grant, The Syrian Desert: Caravans, Travel and Exploration, London, 1937.p.35.، وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Grant, The Syrian Desert

ومن حسن الطالع أننا نملك وثائق عن الدروب والمسالك في العصر العباسي، ويعود الفضل في ذلك إلى مجموعة من الجغرافيين والبلدانيين الذين زودونا بقوائم للطرق والمنازل والمسافات، وقد فتح الجاحظ (٢٥٥هـ/٨٦٨م) للبلدانيين باب التأليف في تقويم البلدان وخصائصها، وشرع لهم هذا المنهج فاقتفوا أثره وقلدوه، وتوسعوا من بعده في معلوماتهم، دون أن يغمطوه حقه، فهذا المقدسي (ت بعد ٣٧٨هـ/٩٨٨م) يقول: "وكتاب ابن الفقيه في معنى كتاب الامصار للجاحظ"[١] .

ومع ذلك ينتقد المقدسي من تقدمه ممن ألف في البلدانيات فيقول: "ولكن من سبقنا إلى هذا العلم لم يسلك الطريق التي قصدتها، ولا طلب الفوائد التي أردتها" [٢] .

ومن الأوائل الذين ألفوا في مسالك البلاد الإسلامية ابن خرداذبه (ت ٢٧٢هـ/٨٨٥م) الذي كان رئيس ديوان البريد في إقليم الجبال، وقد اشتمل كتاب "المسالك والممالك: على معلومات تاريخية لها قيمتها العلمية، ولا سيما الطرق بعامة وما يختص بطرق البريد وسككه بخاصة، ويعتبر ابن خرداذبه ثم معاصره قدامة بن جعفر (ت٣٢٨هـ/٩٣٩م) الذي كان عاملا للخراج - من الرواد الذين تخصصوا في الطرق والمسافات وقوائم المنازل والمحطات، وبحكم عملهما في الإدارة العباسية، أصبح لمعلوماتهما قيمة خاصة. أما اليعقوبي (ت٢٨٤هـ/٨٩٧م) فوصف باسهاب طوبغرافية بغداد، واعتنى ابن رسته (ت٢٩٠هـ/٩٠٣م) على وجه الخصوص بطريق خراسان والطريق الذي يمتد من بغداد جنوبا إلى الكوفة والبصرة وشيراز. وهؤلاء الأربعة من جغرافيي القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي. ثم حدث تطور في علم الطرق وظهر في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي الجغرافيون القياسيون الذين أعطونا الأبعاد بالميل لكل إقليم على حدة، فعد هذا تقدما كبيرا في حقل الكتابة الجغرافية. ومن مشاهير هؤلاء الاصطخري (نبغ في سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م) وابن حوقل (كتب مؤلفه عام ٣٦٧هـ/٨٧٧م) والمقدسي البشاري

---

(١) المقدسي، محمد بن أحمد (ت ٣٧٥هـ/٩٨٥م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل ١٩٠٦، ص٥ وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: المقدسي، أحسن التقاسيم.

(٢) المصدر السابق، ص٣.

(ت٣٧٥هـ/٩٨٥م) والأول فارسي الموطن يعطينا وصفا حقيقيا مسهبا عن فارس، والثاني لا يضيف إليه بالنسبة لبلاد الشام من حيث المادة الجغرافية. أما المقدسي فتميز عن غيره، لأنه كتب جغرافيته بأسلوب خاص يختلف عمن سبقه، فجاء كتابه عظيما جمع فيه ملاحظاته الشخصية عن كل ولاية، ووصف الأماكن والعادات وأحوال السكان وحرفهم. فلعل كتابه أعظم من كل ما صنعه البلدانيون العرب وأكثرهم أصاله. فوصفه للأمكنة والعادات والطبائع والتجارات والصناعات وتلخيصه لخصائص كل إقليم، يعدان خير ما كتب في سلسلة مصنفات العرب في العصور الوسطى [١].

ونحن ندين في موضوعنا للمعلومات التي أوردها المقدسي عن بلاد الشام إذ أن الحديث عن بلاد الشام جاء مختصرا ومبتسرا عند غيره، ذلك أن منبت معظم الجغرافيين الاوائل هو الأقاليم الشرقية من البلاد الإسلامية، فأولوها جل عنايتهم ومروا مرور الكرام على الأقاليم الأخرى. كما أن الثقل السياسي والإداري تحول إلى بغداد والأقاليم الشرقية في العهد العباسي، فاستأثرت بغداد وما حولها باهتمام الجغرافيين أكثر من غيرها كما جرت عليه العادة.

أما المقدسي بحكم اصله ونشأته فقد توسع في الحديث عن إقليم الشام بحكم معرفته به وسياحته فيه، وارتكزت معلوماته التي جمعها بنفسه على ما شاهده بعينيه، أو جمعه من الثقات، أو ما أخذه من المصنفات. وحتى يحصل المقدسي على أدق المعلومات، اختلط بجميع طوائف السكان، ومارس مختلف أنواع المهن، وتعرض في كثير من الأحوال إلى المحن والأهوال، وقد جاء وصفه لحاله هذه في مقدمة كتابه[٢].

ولم يكن هؤلاء هم كل الجغرافيين العرب، فالذين كتبوا عن المسالك والممالك الإسلامية كثر، ومنهم من قام بالرحلات ليجمع معلوماته بنفسه، نذكر منهم المسعودي (ت٣٤٦هـ/٩٥٦م) وناصر خسرو (ت بعد ٤٥٥هـ/١٠٦٣م) وابن جبير (ت٦١٤هـ/١٢١٧م) وأخيرا الرحالة

---

(١) لسترانج، **بلدان الخلافة الشرقية**، نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٢٨. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: لسترانج، بلدان الخلافة الشرقية.

(٢) انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٤٣. وحول هؤلاء الجغرافيين انظر: «طرق الحج الشامي» في هذا الكتاب.

ابن بطوطة (ت ٧٠٣هـ/١٣٠٤م).

وتعتبر التجارة من أسباب حركة المواصلات، وقد نشطت في العصر الأموي في بلاد الشام، وأصبحت دمشق مركزا للثروة والحضارة العربية الإسلامية، وشهدت الفترة العباسية ازدهارًا زائدًا من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) وحتى الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حيث أعيد النشاط التجاري بين سوريا وبلاد ما بين النهرين[١].

وكان لليهود شانهم في النشاط التجاري العالمي، وكانوا أحيانًا يظهرون على سواحل البحر الأبيض المتوسط وفي أنطاكية والجابية في بلاد الشام[٢]. ثم يركبون في الفرات إلى بغداد. ثم يركبون في دجلة إلى (الابلة) ومن الابلة إلى عُمان والسند والهند والصين، كان ذلك متصل بعضه ببعض[٣]، وكانوا سادة فيما عرف بتجارة (الكارمي).

لقد اعتاد الباحثون وسم الإسلام بطابع تجارة القوافل منذ القديم، واستمرت هذه الحالة حتى دخلت وسائل النقل الحديثة، فعبدت الطرق، ومدت السكك الحديدية في بلاد الشام، ويعود الفضل في شق هذه الطرق إلى مساعدة القوافل القديمة، وترسم أثرها والسير على هديها الخالد[٤]. كانت القوافل أكثر وسائط التجارة والسفر شيوعًا في القرون الإسلامية الزاهرة، وتشير كميات النقود الإسلامية الكبيرة المكتشفة إلى مدى توسع تجارة المسلمين في العالم، فقد عثر على هذه النقود في أماكن متعددة من روسيا وفنلدا والسويد والنرويج هذا بالإضافة إلى بعض المكتشفات المتفرقة في الجزر البريطانية وايسلنده وكذلك عثر على مثل هذه النقود في اواسط حوض الفولغا بإقليم قازان، إلا أن

---

(١) Grant، The Syrian Desert.p.65

(٢) هذا يعني أنها ليست المكان المعروف والمشهور في حوران الذي ينسب إليه باب الجابية أحد أبواب دمشق، فقد ذكر الحميري في الروض المعطار: أنها قنسرين وقال بين الجابية ومنبج أربعة فراسخ ومن حلب إليها ستة فراسخ. الحميري، محمد عبد المنعم، الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٨٤م، ص١٥٣.

(٣) ابن خرداذبة، عبيد الله بن أحمد (ت ٣٠٠هـ/ ٩١٣م)، **كتاب المسالك والممالك**، تحقيق دي غويه، مطبعة بريل، ١٩٦٧، ص١٥٣–١٥٤. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خرداذبه، المسالك والممالك. وانظر: الخرائط الملحقة.

(٤) جي. أ ج. كرامرز، (**الجغرافية والتجارة**)، **تراث الإسلام**، تأليف جمهرة من المستشرقين بإشراف سير توماس، ارنولد تعريب جرجيس فتح الله، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٨، ص١٢٥–١٦٥، ص١٥٤. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: كرامرز، الجغرافية والتجارة.

ما عثر عليه في منطقة البلطيق يفوق ما ذكرنا بكثير[١].

ولا شك في أن بلاد الشام شاركت في النشاط التجاري في العصر العباسي نظرا لاتساع رقعة البلاد ووحدتها، وارتفاع مستوى المعيشة، ووحدة النقد في البلاد الإسلامية، وشيوع الأمن والاستقرار في سائر الأنحاء في الفترة العباسية الأولى بخاصة، بالإضافة إلى الاهتمام بالطرق وتمهيدها، وحفر الآبار، وبناء المحطات والاستراحات عليها منذ العهد الأموي وخلال العصر العباسي.

ويمكن للمرء أن يدرك شيئا عن الثروة التي حازها أمراء المال في ذلك العصر والسعة التي كانوا فيها من قصة ابن الجصاص الجوهري ببغداد، فقد ظل غنيا موسرا بالرغم من أن المقتدر صادر منه ستة ملايين دينار، وكان أول من عرف من هذه الأسرة التي نبغ فيها بعده كبار تجار الجواهر[٢].

وقد ذكر الطبري: "أنه لما استتبت الخلافة للعباسيين أولوا الطرق أهمية ووضعوا عليها المنائر والأميال والبرك"[٣]، ثم أن المهدي في سنة ١٦٦هـ/٧٨٢م أمر بإقامة البريد بين مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وبين مكة واليمن بغالا وابلا و لم يقم هناك بريد قبل ذلك[٤].

وقد ذكر المقدسي السلع التجارية لبلاد الشام في زمنه فقال: والتجارات به مقيدة: يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخرنوب والملاحم[٥]، والصابون والفوط[٦]، ومن بيت المقدس الجبن والقطن وزبيب العينوني والدوري غاية، والتفاح وقضم[٧] قريش الذي لا نظير له، والمرايا وقدور القناديل والابر، ومن أريحا نيل غاية، ومن صغر وبيسان

(١) المرجع السابق، ص١٥٥.

(٢) الكتبي، محمد بن شاكر (ت ٧٦٣هـ/١٣٦٢م) **فوات الوفيات والذيل عليها**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣. جـ١، ص٣٧٢.

(٣) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) **تاريخ الرسل والملوك المشهور الطبري**، ١٠ ج، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١، جـ٨، ص١٣٦.

(٤) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص١٦٢.

(٥) من الصناعات الغذائية.

(٦) الفوط: نوع من النسيج.

(٧) قضم قريش: هو حبوب الصنوبر.

النيل والتمور، ومن عمان الحبوب والخرفان والعسل، ومن طبرية شقاق[١] المطارح والكاغد وبز ومن قدس ثياب المنيرة والبلعيسية والحبال، ومن بيسان الرز، ومن دمشق المعصور والعليعيس وديباج ودهن بنفسج دون الصفريات، والجوز، ومن حلب القطن والثياب والاشنان والمغرة، ومن بعلبك الملابن ... وأعلم أنه قد اجتمع بكورة فلسطين ستة وثلاثين شيئا ولا تجتمع في غيرها، والسبعة الأولى لا توجد إلا بها، والسبعة الثانية غريبة في غيرها، والاثنان والعشرون لا تجتمع إلا بها وقد يجتمع أكثرها في غيرها[٢]. وقال ناصر خسرو أن الواحد من أهل بيت المقدس يملك خمسين ألف من[٣] من زيت الزيتون ويحفظونها في الآبار والأحواض ويصدرونها إلى أطراف العالم[٤].

وكما نشطت التجاره البرية في بلاد الشام، فقد نشطت كذلك التجارة البحرية فقد ذكر اليعقوبي في آواخر القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) أن ميناء طرابلس الشامل "عجيب يحتمل ألف مركب" [٥]وكانت مدينة صور هي الميناء الحربي الإسلامي المواجه لبيزنطه، إذ كان بها دار للصناعة، ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم وكانت حصينة جليلة [٦]وأما انطاكية "سلوقية" فكانت في أثناء القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) أهم ميناء تجاري في الشام[٧]. وذكر ابن خرداذبه أن الخليفة المعتصم حصنها[٨] .

---

(١) شقاق المطارح: جنس من الثياب المستطلية.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٠-١٨١.

(٣) المن الشرعي زنة ٢٦٠ درهما في النصف الثاني من القرن الثاني عشر. انظر : فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة الدكتور كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية ١٩٧٠، ص٤٦.

(٤) ناصر خسرو، (ت٣٧٥هـ/٩٨٥م) سفرنانة (رحلة ناصر خسرو) إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري، نقلها إلى العربية يحي الخشاب، ط٣، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٣، ص٥٦.

(٥) اليعقوبي، احمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت٢٨٤هـ/٨٩٧م) كتاب البلدان؛ ملحق بكتاب الاعلاق النفسية لابن رسته، ليدن، مطبعة بريل سنة ١٨٩١م، ص٣٢٧. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: اليعقوبي، البلدان.

(٦) اليعقوبي، بلدان، ص٣٢٧؛ وانظر كذلك آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ٢ ج، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريده، ط ٤، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ٢ م، ص٤٣٢. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: آدم متز الحضارة الإسلامية.

(٧) آدم متز، الحضارة الإسلامية، م٢، ص٢٥٥، ٤٣٢.

(٨) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص١٥٣.

وكانت بلاد الشام تزود البلاد الإسلامية الأخرى بالثلج. فقد ذكر العسكري في الأوائل، أن أول من حمل إليه الثلج الحجاج بن يوسف الثقفي[١]. وكانت هجن خاصة تقوم بنقل الثلج إلى مصر مستخدمة طرق البريد، كما كان ينقل أيضا بواسطة المراكب من السواحل الشامية[٢].

ويعتبر الحج إلى الأماكن المقدسة في الحجاز وفلسطين من العوامل الهامة المنشطة لحركة المواصلات في العالم الإسلامي بعامة وبلاد الشام بخاصة. ذلك أن هذا العامل يرتبط بالعقيدة الدينية عند المسلمين والنصارى واليهود، فالحج هو ركن من أركان الإسلام الخمسة، وتأديته فرض عين على كل مسلم ومسلمة، كما تحتضن مدينة بيت المقدس مقدسات لاتباع الديانات السماوية الثلاث يحرص الجميع على زيارتها وإقامة الشعائر الدينية فيها.

ومع امتداد العالم الإسلامي وتزايد عدد المسلمين، أصبح توافد الحجيج من كل فج إلى المدن المقدسة في الحجاز ظاهرة سنوية تتميز بكثافة المسافرين وكبر حجم قوافلهم. وشهدت طرق الحج كذلك حركة واعمارا واهتماما من لدن المسؤولين في الدولة، أو أهل الخير من أثرياء المسلمين، وقد بنيت على طول طرق الحج المحطات وحفرت الآبار والبرك لحفظ المياه، كما وضعت العلامات الدالة على المسافات أحيانًا بين المحطات. وكان يرافق موسم الحج حركة اقتصادية نشيطة ساهم فيها الحجاج والتجار وسكان المناطق التي تمر فيها الطرق، لهذا نشأت المراكز والمدن في المواقع الهامة من الطريق. ولقد علق آدم متز على الطرق المتجهة صوب مكة بقوله: "وعلى الرغم من بعد مكة الشاسع فقد كان الناس يفدون إليها في موسم الحج من جميع أنحاء العالم الإسلامي. ولم تكن فريضة الحج وحدها هي التي تجذب هذه الجماعات، بل كان يغريها أمان الطريق أيضا في حماية قوافل الحج الكثيرة، التي كانت تنهال إلى هناك من شتى النواحي، فمن ذلك أن كثيرين من تجار

---

(١) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت٣٩٥هـ/١٠٠٤م) الاوائل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨م، ص٢١٨. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: العسكري، الأوائل.

(٢) ابن فضل الله العمري، شهاب الدين احمد (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م) التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، بيروت، ص٢٥٧-٢٥٨. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: العمري، التعريف.

بغداد هاجروا مع قافلة الحج سنة (٣٣١هـ-٩٤٢م) إلى الشام ومصر، وذلك لاتصال الفتن ببغداد وتوافر المحن عليها من السلطان، وعلى عكس ذلك كان البعض يفرون من الشام من البيزنطيين، ففي سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م التحق كثير من أهل الشام بقافلة الحج، وقطعوا الطريق الشاسع من الشام إلى العراق مارين بمكة، وكان فيهم قاضي طرسوس ومعه مائة وعشرون ألف دينار[١].

وقد استفادت مدينة بيت المقدس بوجه خاص في بلاد الشام من المزايا الدينية والتاريخية، مما جعلها تأخذ نصيبا من جموع الحجاج، وكان الذين لا يستطيعون الذهاب إلى مكة من أهل الولايات الشامية يذهبون إلى القدس في موسم الحج، ويقدمون فيها بعض الشعائر، فقد ذكر ناصر خسرو أنه في بعض السنين كان يجتمع فيها أكثر من عشرين ألف شخص، يقدمون إلى بيت المقدس وفيهم من ديار الروم كثير من النصارى واليهود لزيارة كنسية القيامة والكنيس[٢]. ومن الجدير ذكره أن قافلة الحج الشامي كانت أبرز قوافل الحج في العهد الأموي، من حيث حجمها وتنظيمها، ورعاية الدولة لها، وفي العهد العباسي بقيت واحدة من أشهر وأهم القوافل، لذلك كان درب الحج الشامي من أكثر الدروب حيوية ونشاطا.

وهناك علاقة وطيدة بين طرق المواصلات ونظام البريد في العصر العباسي وغيره في بلاد الشام، فمنذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) استفاد العباسيون من أنظمة البريد التي كانت معروفة منذ القدم في سوريا وبلاد ما بين النهرين، والتي كان الفرس والرومان قد استخدموها لايصال رسائل الدولة، وزاد اهتمام الرومان بالبريد، وانشأوا له طرقا جديدة في بلاد الشام، بنوا فيها المحطات ووضعوا فيها الحاميات.

وكانت هذه الخدمات في الغالب مرافقة للخدمات العسكرية والتجارية ولم تنفصل عنها، وكان اهتمام الرومان والبيزنطيين بالخدمات البريدية مركزا في حواضر بلاد الشام،

(١) آدم متز، **الحضارة الإسلامية**، جـ٢، ص٣٥٣؛ نظير حسان سعداوي، نظام البريد في الدولة الإسلامية، مكتبة مصر بالفجالة، القاهرة، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣، ص ١٠٥. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: سعداوي، نظام البريد.

(٢) ناصر خسرو، سفرنامة، ص٥٥.

وقانون ثيودوسيان (Theodosian Code) يحدد وظائفهم(١).

ونظرا لتوحيد بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين في الدولة الإسلامية، فقد انتعشت خطوط المواصلات ما بين هذين الإقليمين، وأصبحت الطرق تقطع الصحراء الفاصلة بينهما، ومع هذه الوحدة بدأت الخدمات البريدية الصحراوية مع بداية قيام التنظيمات في الدولة العباسية.

و لم يكن البريد ابتكارا عربيا، وإنما اقتبس عن الأمم السابقة، فهناك من يدعي أن أصل الكلمة مستمد من اللفظة اللاتينية (Veredus) أو اليونانية (beredos) وربما جاءت هذه الكلمة من أصل أشوري (Posr horse) وتدل على خدمات البريد والمخابرات في الدولة الإسلامية بما في ذلك الركوبة والساعي ومحطة البريد(٢). والبريد في اللغة مسافة معلومة مقدرة باثني عشر ميلا، ومعناه في الاصطلاح، أن تجعل خيل مضمرات في عدة أماكن، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرسا مستريحا وهكذا حتى يصل البريد إلى المكان المقصود(٣) .

وذهب ابن الاعرابي إلى أن لفظة البريد فارسية أصلها "بريده دم" وتعنى محذوف الذنب لان بغال البريد كانت عند الفرس محذوفة الاذناب كالعلامة لها، فعربت وخففت ثم سمي الرسول الذي يركبها بريدا، والمسافة التي بين السكتين بريدا، والسكة موضع كان يقيم فيه الفيوج المرتبون من بيت اوقبة، أو رباط وكان يرتب في سكة بغال، وفي هذا المعنى جاء قول الشاعر امرئ القيس(٤) :

على كل مقصوص الذنابي معاود   بريد السرى بالليل، من خيل بربرا

وكذلك قول مزرّد أخي الشماخ بن ضرار يمدح الأوسي:

فدتك عراب اليوم أمي وخالتي   وناقتي الناجي إليك بريدها(٥)

(١) Grant، The Syrian Desert، p. 235.

(٢) D.Sourdel، «Barid»، E.I ، Vol. 1 pp. 1045–1046

(٣) انظر: حسن ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن، النظم الإسلامية، ط٤، مكتبة النهضة المصرية، مصر ١٩٧٠، ص٢٢٦، وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: حسن ابراهيم حسن، النظم الإسلامية.

(٤) لسان العرب، جـ ٣، ٨٦، مادة «برد».

(٥) المصدر السابق نفسه، ص٨٧.

ويستفاد من هذا الشعر كما هو واضح أن العرب استخدموا في بريدهم البغال المقصوص الأذناب والجمال.

واستخدم الجمل (سفينة الصحراء) في البريد والأسفار الصحراوية منذ هذه الفترة، وتابع العباسيين على ذلك المماليك والأتراك العثمانيون كما استفاد الإنجليز في العصر الحديث من بريد الجمال (dromedary post) ليكون جسرا بين سوريا والعراق(١).

وأول من وضع البريد في الإسلام معاوية بن أبي سفيان، أما عبد الملك بن مروان فقد أحكمه ونظمه وأولاه عنايته واهتمامه، فمهد طرقه ومحطاته(٢).

وقد اهتم خلفاء بني العباس منذ البداية بجهاز البريد، فلما ظهر أبو العباس السفاح على الأمويين، وجه موسى بن كعب في ثلاثين رجلا على البريد إلى عبد الله بن علي(٣). ومنذ عهد الخليفة المنصور تطور نظام البريد، وأصبح البريديون بالإضافة إلى أعمالهم المعتادة، عيون الخليفة في الأقاليم والولايات وحيثما وجدوا، على عمال الدولة وموظفيها وكل ما يتعلق بشؤون البلاد، يبعثون بأخبارهم على عجل إلى الخليفة بواسطة رؤسائهم(٤). وقد اعتبر المنصور أن الملك لا يقوم إلا بأربعة أركان هي: القضاء والشرطة وجهاز بيت المال والبريد الذي جعله أخطرها لأنه عينه على العاملين فيها(٥).

كذلك أولى كل من المهدي والرشيد البريد عنايتهما، ووصل البريد في عهد المأمون درجة متقدمة، فقد جيء بالرطب الأزاز من العراق وهو في بلاد الروم في يومه الذي طلبة فيه(٦). ورغم اهتمام بني بويه بالبريد بشكل عام إلا أنهم قطعوه عن الخليفة حتى لا يعلم من الأمور

---

(١) Grant، The Syrian Desert، p.235

(٢) انظر: العمري، التعريف، ص٢٣٩، والقلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، ١٤جـ، نسخة مصورة عن الطبعة الميرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، جـ١٤، ص٢٦٨. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: القلقشندي، صبح الأعشى.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٧، ص٤٣٢.

(٤) حسن ابراهيم حسن، النظم الإسلامية، ص٢٢٨.

(٥) لمرجع السابق نفسه.

(٦) العمري، التعريف، ص٢٤١.

شيئا. وقد اهتم المماليك بإحياء نظم البريد والعناية بها حتى عادت إلى سابق عهدها[١].

ويستنتج من النظام الإداري العباسي أن مؤسسة البريد كانت أكثر مؤسسات الدولة أهمية، وأن بناء الخانات وحفر الآبار على طول الطرق الصحراوية، وكذلك الحفاظ على الأمن فيها، مما شجع السفر على هذه الطرق لمختلف الغايات، وقد تحقق الأمان على هذه الطرق لدرجة أن المرأة كان بإمكانها السفر على أي طريق من هذه الطرق ماشية أو راكبة. وكان السعاة العاملون في مصلحة البريد يختارون من العرب العسكريين ممن يتمتعون باللياقة الجسدية، والقدرة على الخدمة ليلاً ونهارًا، بالإضافة إلى الذكاء والرشد والبراعة، وقد اعتبر هؤلاء في العصر المملوكي من خير رجال الدولة المقربين من السلطان[٢].

واستخدم العرب وسائل أخرى في مراسلاتهم، منها الحمام الزاجل الذي استخدم أولا في الموصل ثم استخدمه الفاطميون بمصر وبالغوا في العناية به، حتى جعلوا له ديوانا وألفوا الكتب في أنسابه، فقد صنف في الحمام أبو الحسن بن ملاعب الفوارس البغدادي كتابا للناصر لدين الله الخليفة العباسي، كما صنف فيه أيضا الفاضل محي الدين البغدادي بن عبد الظاهر، كتابا سماه: "تمائم الحمام"[٣].

والمراسلة بواسطة الحمام الزاجل عرفت منذ أيام الرومان، واستخدمها القرامطة على نطاق واسع في العراق وسوريا، في القرن الثالث الهجري، والأيوبيون في فترة صراعهم مع الصليبيين[٤]، وقد ذكر العمري ما يزيد على خمسة وعشرين مركزًا للحمام في الديار الشامية في زمنه[٥].

واستخدم المسلمون في مراسلاتهم أيضا النار والدخان، وكانت تباشر من على مناظر خاصة أقيمت في المرتفعات ليشرف بعضها على بعض، وفي الغالب كانت هذه المناظر تقع على طرق المواصلات أو قربها. ويستخدم الموكلون بها النار في الليل، والدخان

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) Grant، The Syrian Desert، p. 239

(٣) العمري، التعريف، ص٢٥٤ - ٢٥٥، وانظر: الموسوعة الفلطسينية، ٤ ج، دمشق، ١٩٨٤، جـ ١، ص٣٩٠.

(٤) متز، الحضارة الإسلامية جـ ٢، ص٤٢١-٤٢٢.

(٥) العمري، التعريف، ص٢٥٤-٢٥٥.

في النهار، وللقائمين عليها رموزهم ومصطلحاتهم التي يفهمونها، واعتبرت هذه أسرع أنواع المراسلات[١].

ومن العوامل التي ساهمت في تنشيط حركة المواصلات ورسم الطرق، حركة الجيوش والمقاتلة بأعدادهم الكبيرة، فبلاد الشام منذ أوائل الفتح الإسلامي أصبحت مسرحا لتحرك الجيوش في مختلف الجهات واستفاد الجند من طرق البريد والطرق الأخرى، كما استخدموا قوافل البريد وسعاته كأدلاء نظرا لخبراتهم في معرفة الطرق.

وقبل أن نتحدث عن طرق المواصلات في بلاد الشام لا بد من التعرض لشبكة الطرق القديمة في هذه المنطقة وذكر أشهر خطوطها، لأن هذه الخطوط قديمة جدًا وبعضها يعتبر امتدادًا لطرق تجارة البخور التي استخدمها المكيون في رحلة الشتاء والصيف بين اليمن وبلاد الشام، أو جزءًا من طريق الحرير القادم من الصين والذي كان يمر من ايران عبر سوريا إلى البحر الأبيض المتوسط.

وقد اعتمد الأنباط على التجارة في الدرجة الأولى، لأن معظم بلادهم كانت صحراء لا تصلح للزراعة، لذلك احتلت تجارة القوافل المقام الأول في حياة الأنباط، وكان خير ما يعين حدود الأنباط هي الطرق التجارية، فكانت السلع العربية الجنوبية والهند تصل إما عن الطريق القديم (طريق البخور) الموازي برا للبحر الأحمر، حيث كانت المدينة الحدودية إجرا (Egra) (الحجر)، فيم يبدو، وإما بحرًا حيث تنزل السلع في الحوراء (Leuce Come) أو أيلة (العقبة) وكلتاهما ميناءان نبطيان، ومن أيلة قد تحمل عبر شبه جزيرة سيناء إلى غزة. وأن لم تذهب تلك القوافل نحو تلك الوجهة، اتجهت شمالا باتجاه الشرق إلى بترا، التي كانت مركزًا تجاريًا مزدهرًا في القرن الرابع قبل الميلاد، وربما كانت بترا تتلقى السلع مباشرة أيضا من القوافل القادمة من الخليج العربي، ومن بترا كانت الطريق تتجه صوب الشمال شرقي البحر الميت، وهذه الطريق تمر أيضا في أرض نبطية حتى حسبان (Esbus) ومن ثم تسلك الطريق المباشرة إلى الموانيء الفنيقية خلال أرض رومانية مارة بفيلادلفيا (عمان) وجرش (Gerasa). وهناك طريق بديلة تتجه شمالا شرقا على طول حافة الصحراء ملتفة حول أرض رومانية إلى بصرى (Bostra) وهي مدينة نبطية، وهناك كانت الطريق تتشعب

(١) انظر: العمري، التعريف، ص٣٥٦–٢٦١. ذكر العمري مجموعة المناظر التي بين دمشق وغزة في عهده.

فيؤدي فرع إلى الساحل مخلفا المنطقة النبطية عند اذرعات (درعا الحالية). ويدور الثاني حول جبال حوران من الشرق ويصل في النهاية إلى دمشق، وكان هذا الفرع الثاني تحت سيطرة الأنباط. ومن بترا كانت تتفرع عدة طرق منها ما يتجه إلى غزة فسيناء إلى مصر، ومنها ما يتصل بالطريق الملكي الذي يمر بمنطقة البحر الميت. وقد دلت الحفريات التي أجريت في تل الخليفة (عصيون جبر) وايلات، على وجود طريق قديم بين فلسطين وبلاد العرب. ومن الضروري أن نعرف أن الطرق التجارية النبطية المهمة هي تلك التي تصل بترا عبر وادي عربة والنقب إلى البحر الأبيض المتوسط. ومن بترا تخرج البضائع الثمينة إلى سوريا وفلسطين ومصر وأوروبا محمولة برا أو بحرًا كما ذكرنا [١].

ومن المعلوم أن الرومان استولوا على بلاد الشام، وقاموا بتطوير الطرق في أنحاء بلاد الشام كافة، وبنوا فيها طرقا جديدة رئيسية، ورفعوا مستواها عما هو محيط بها، وهي معلمة جيدًا بالحجارة الميلية (Mile Stones) ورصفوها وجعلوا الخدمات الضرورية على طولها.

كانت شبكة الطرق الرومانية كثيفة في بلاد الشام تربط جميع المدن والمواقع الداخلية والساحلية والصحراوية، لا بل أصبحت كل مدينة ملتقى لعدد من الطرق القادمة من مختلف الاتجاهات. ومن أبرز الطرق الرومانية في بلاد الشام الطريق الذي يخترق سوريا من الشمال إلى دمشق ثم إلى بصرى ودرعا، حيث تخرج فروع من دمشق إلى البحر الأبيض، وكذلك من درعا إلى البحر الأبيض غربا، وجنوبا إلى جرش ومن بصرى إلى عمان ومنها إلى مؤاب وبترا والبحر الأحمر. وكان يطلق عليه طريق تراجان الجديد (Via Nova Traiana) وتتشعب من الخط الرئيسي فروع كثيرة تربط معظم مدن بلاد الشام، ولا تزال معالم هذا الطريق وفروعه واضحة في أجزاء كثيرة من بلاد الشام [٢].

---

(١) انظر: ذلك عند Nelson Glueck, Deities and Dolphins, New York, 1965, pp.44-69 وأ .هـ.م. جونز، مدن بلاد الشام، ترجمة احسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن 1987، ص118-117. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: جونز، مدن بلاد الشام.

(٢) حول الطرق الرومانية انظر:

1. Aharoni (Y), The Roman Roads to Aila, I.E.J., IV,1954, pp.1-16.

2. Good Child (E.G.), The Cost Road of Phonenicia and Its Roman Milestones, Berytus, IX, 1949, pp.91-127.

3. S.Mittmann, The Old Roman Road From Gerase to Adraa, ADAJ,XL. 1966, pp. 56-88.

4. H.C. Butler, Trajan Road From Basra to the Red Sea, Ancient Architecture in Syria, Leyden. 1907. pp. 1-28.

واعتمادا على ما جاء عند جغرافيي العرب في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) نجد أن بلاد الشام في العصر العباسي كانت تحظى بشبكة من الطرق الكثيفة والمنظمة لدرجة تبعث على الإعجاب، وبخاصة في الأجزاء الغربية المكتظة بالسكان. وقد قسم الجغرافييون بلاد الشام عند حديثهم عن دروبها ومسالكها إلى كور، بدأوها في الغالب بكور الثغور الشامية والجزيرية، ثم كورة حلب وما يتبعها، وكورة حمص، وكورة دمشق وكورة الأردن، وكورة فلسطين. وقد أوجز هؤلاء الحديث عن الطرق العرضية التي تقطع الصحراء الفاصلة بين إقليمي الشام والعراق. ومن أشهر الطرق في الشمال تلك التي تخرج من منبج إلى الثغور الشامية، لتربطها بكل من حلب وقنسرين وانطاكية والإسكندرية على البحر الأبيض المتوسط[١].

وقد أورد كل من ابن خرداذبة وقدامة بن جعفر أسماء مدن الثغور ومقدار المسافات بين كل مدينة وأخرى وقدروها بالسكك (البرد)[٢]، وقد قدرها المقدسي بالأيام والمراحل والبرد[٣]. ويستدل من التقاء الطرق في حلب أن هذه المدينة كانت عقدة المواصلات التي تربط مناطق الثغور وشمال بلاد الشام وجنوبها والبحر الأبيض المتوسط[٤]، وقد قال الاصطخري عنها، أنها على مدرج طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات[٥]، ولعل الأبواب السبعة لحلب تشير إلى كثرة الطرق المؤدية إليها والخارجة منها، وأسماء هذه الأبواب تشير إلى ذلك مثل باب حمص، باب الرقة، باب قنسرين، باب اليهود – لعله كان يفضي إلى حي اليهود في المدينة – باب العراق، باب دار البطيخ، باب انطاكية، ومن ثم باب الأربعين[٦] وقد مر بهذه المدينة الرحالة ناصر خسرو في القرن الخامس

---

5. C.P. Grant, The Syrian Desert, Caravans, Travel and Exploration, pp. 33-72.

(١) قدامة بن جعفر (ت٣٢٨هـ/٩٣٩م وقيل ٣٣٧هـ- ٩٤٨م) **الخراج وصناعة الكتابة**، تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر ١٩٨١، ٢ ١٢٩. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: قدامة، الخراج.

(٢) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص٩٩؛ قدامة، الخراج، ص١٢٩.

(٣) أحسن التقاسيم، ص١٩٠.

(٤) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله، (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، **معجم البلدان**، ٥ ج، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩، جـ٢، ص٢٨٣ – ٢٨٤ (مادة حلب).

(٥) أبو اسحاق ابراهيم بن محمد، (المسالك والممالك) ص٦١.

(٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٥٥.

الهجري (الحادي عشر الميلادي) ووصف سورها وقال أنه يرتفع خمسة وعشرين ذراعا، كما وصف قلعتها العظيمة المنيعة، وقال أنها مدينة عامرة، وفيها تحصل المكوس عما يمر بها من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق، ويذهب إليها التجار من جميع هذه البلاد[١]. ويلاحظ أن القوافل اتخذت الطرق القديمة ما بين حلب والفرات، وذلك إما باتباع نهر الفرات بالاتجاه الشمالي الغربي إلى مسكنه وهي ثباسكوس القديمة (The ancient Thapascus) ثم تتجه غربا لتعبر الواحات القديمة لمدينة الطيبة (Taiyiba) ثم إلى حلب. وتوجد طريق أخرى أبعد شمالا كانت مستعملة قبل الفترة الرومانية وتصل ما بين أعالي الفرات عابرة الفرات في زيوقما (Zeugma) أو التل الأحمر، وتعبر إلى شمال غرب حلب مباشرة إلى إنطاكية (Herapolis)[٢] بطريق منبج، وكان الرشيد أول من أفرد العواصم وجعل مدينتها منبج[٣]. وقد اعتبر خسرو هذه المدينة أول مدن الشام[٤]، أما الاصطخري فقد ذكر أن قصبة العواصم هي انطاكية[٥].

وتخترق بلاد الشام شبكة من الطرق شمالا وجنوبا، تعتمد على طريقين دوليين قديمين استخدمهما الإنسان منذ أقدم العصور وحتى الآن. وهذان الخطان هما الخط الساحلي الذي يربط الثغور الجزيرية في الشمال وبلاد الروم بالإسكندرية على البحر المتوسط وانطاكية واللاذقية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وقدس وقيسارية ويافا وعسقلان واسدود وغزة، ثم يستمر جنوبا حتى يدخل الأراضي المصرية. وتتفرع من هذا الخط فروع متعددة تصل المدن الداخلية، وتلتقي بالخط الرئيسي الثاني الداخلي الموازي للطريق الساحلي. وأهم هذه الخطوط الفرعية: الخط الذي يصل طرابلس على البحر المتوسط بمدينة بعلبك ثم بدمشق، وكذلك خط آخر يصل طرابلس بمدينة طبرية، حاضرة جند الأردن، ويخرج من طبرية ليرتبط بالخط الساحلي مرورًا باللجون والرملة ومن ثم

(١) خسرو، سفرنامة، ص٤٤-٥٥.

(٢) Grant، The Syrian Desert، pp. 40-41

(٣) ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص٢٠٥.

(٤) خسرو، سفرنامة، ص٤٤.

(٥) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص٦٧.

إلى غزة حيث يستمر الطريق إلى مدينة الفسطاط في مصر[١]. وهذا الخط - من حيث المبدأ - يحاذي ساحل البحر الأبيض المتوسط ما لم يكن الشاطئ شديد الوعورة فتبعد عنه الطريق. وإذا كانت المنطقة الخلفية مؤلفة من تضاريس عالية متعامدة مع البحر كان لا بد من اختراق هذا الحاجز بممرات داخلية. ذلك من شأن الجبال في شمال هذا الخط كجبال طوروس. وإذا تألف الساحل من كثبان رملية أو مستنقعات جانبته الطريق ايضا. ومن هذا الطريق الساحلي تتفرع الخطوط باتجاه الداخل[٢]. وتعتبر غزة آخر مواقع بلاد الشام على هذا الطريق وكانت متجرا للسلع المختلفة القادمة من جنوب الجزيرة العربية ومن سوريا ومصر[٣] وسميت غزة هاشم، لأن هاشم بن عبد مناف شيخ قريش وصاحب ايلافها توفي في غزة في إحدى رحلاته التجارية ودفن فيها [٤]. وقد سلك عمرو بن العاص الطريق الساحلي من المدينة إلى فلسطين مرورا بميناء أيلة (العقبة) عندما بعث أبو بكر الجيوش لتحرير بلاد الشام من الروم، وكان يطلق على هذا الطريق اسم (المعرقة)[٥]. وتذكر الرملة كواحدة من مراكز المواصلات، فقد كانت مدينة فلسطين، على الجادة، فحاج الشام والثغور ينزلونها [٦]، وهي همزة وصل ما بين الخطوط الداخلية والساحلية، ومن بين المدن الداخلية الهامة بيت المقدس التي كانت ولا زالت محجا لاتباع الديانات السماوية الثلاث، ونظرًا لأهميتها أصبحت عقدة مواصلات بين الداخل والساحل كما تشير إلى ذلك أبوابها الثمانية وهي: باب صهيون، باب التيه، باب البلاط، باب جب ارميا، باب سلوان، باب أريحا، باب العمود، وباب محراب داود[٧].

---

(١) انظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص٩٨؛ وقدامة، الخراج، ص١١٩.

(٢) انظر: اليسيف، «طرق المواصلات في بلاد الشام»، ص، ٢٩٤.

(٣) انظر: محمود الغول، «**غزة في نقوش جنوب جزيرة العرب**». المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين)، ٣ جـ. الجامعة الأردنية، وجامعة اليرموك، ١٩٨٣، ج١، ص٣٦٧-٣٧٦.

(٤) انظر: القالي، أبو علي اسماعيل بن القاسم (ت٣٥٦هـ/٩٦٦م)، **كتاب ذيل الامالي والنوادر**، جـ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص٢٠٤. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: القالي، الامالي.

(٥) الطبري، تاريخ، ج٣، ص٣٨٧.

(٦) ابن الفقيه الهمداني، أبي بكر احمد بن محمود (ت ٣٤٤هـ/٩٤٥م) **مختصر كتاب البلدان**، ليدن، مطبعة بريل ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م، ص١١٦. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا» ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، وقارن ياقوت معجم البلدان، ج٣، ص٦٩.

(٧) انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٦٧.

أما الخط الداخلي فيبدأ من الحدود الرومية شمالا ثم يتجه نحو الجنوب، إلى منبج وحلب ويتجه فرع آخر إلى الرقة، وهذه المدن الثلاث تعتبر مراكز مواصلات، ومن الرقة يسير طريق إلى حمص ودمشق على الرصافة، حيث يتفرع الطريق إلى فرعين أحدهما إلى دمشق في البرية، والأخر يتجه إلى حمص في العمران، ومن حمص تتفرع مجموعة طرق إلى بعلبك وقارا والنبك ثم إلى دمشق. والطريق الذي يمر ببعلبك هو طريق البريد[١].

ونظرا لموقع الرقة واتصالها بالعراق عن الطريق الذي يتبع شاطيء الفرات الأيمن المتجه نحو الشمال الغربي، فقد أصبحت معلما بارزا في الطريق السورية الصحراوية. ولكن طريق البريد الرئيسي هو الذي يصل الرقة بالطريق الدائري المتجه من الموصل. وكذلك كانت تتجه من الرقة ثلاث طرق بريد نحو الجنوب والغرب وكلها تمر من المدينة البيزنطية القديمة الرصافة، وكان بإمكان ساعي البريد أن يسافر رأسا من الرصافة إلى حمص، أو إلى دمشق أو أي مكان آخر بواسطة الطريق الروماني المسمى (ستراتا ديوكليتيانا Strata Diocletiana) سواء إلى دمشق أو إلى بصرى اسكشام، عن طريق الطيبة، السخنة، وتدمر[٢].

وتعتبر مدينة دمشق قلب شبكة المواصلات في بلاد الشام، ففيها تلتقي الطريق الطولية والعرضية القادمة من داخل بلاد الشام أو من خارجها. لذلك أسهب الجغرافيون والمؤرخون في وصفها وذكر فضائلها، وخططها وجمالها ومسجدها وقلعتها ومآثرها[٣]. فقد قال ابن حوقل: "وهي أجل مدينة بالشام، في أرض مستوية"[٤]. ويستمر سير الطريق الدولي الداخلي من دمشق جنوبا إلى بصرى أو أذرعات (درعا الحالية) ثم إلى الزرقاء وعمان وسرغ (المدورة) ثم إلى تبوك والمدينة المنورة ومكة[٥]. والطريق من

(١) انظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص٩٨،٢١٨؛ قدامة، الخراج، ص١١٧: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٩٠.

(٢) انظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص٩٨، ٢١٨؛ ٢٢٨. قدامة، الخراج، ص١١٧–١٢٧. Grant,The Syrian Desert. P. 237

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٥٦–١٦٠.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٠.

(٥) انظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص١٥٠؛ قدامة، الخراج، ص٨٥؛ ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (ت٢٩٠هـ/٩٠٢م) **الأعلاق النفيسة**، ليدن، مطبع بريل سنة، ١٨٩١، ص١٨٣. سيشار إليه عند

دمشق إلى المدن الحجازية هو طريق الحج الشامي المشهور، وهو يتبع في الأقاليم الشامية طريق تراجان (Triana Nova Via) الروماني وهو الطريق الذي عرف بالتبوكية في صدر الإسلام سلكته جيوش الفاتحين وهي تتجه لتحرير الأردن ودمشق وحمص من سلطان الروم[١]. ويرتبط هذا الجزء من الطريق مع فلسطين وجنوب سوريا يمر ببترا متبعا أثر القوافل القديمة، ولا تزال بعض المعالم لهذا الطريق الذي يتفرع إلى فرعين ابتداء من بصرى ودرعا، فخط درعا يصل جرش ثم عمان، وخط بصرى يصل خربة السمرا (قرب المفرق)، والزرقاء ويمر شرق عمان، ليلتقي الخطان جنوب عمان، ويستمر الخط إلى بترا حيث يتفرع إلى الحميمة وخط يتابع سيره إلى أيله (العقبة). كانت قوافل الحجاج تحط رحالها في بصرى في الذهاب والإياب، ولكن عندما وهنت الدولة الإسلامية في العهود المتأخرة، انعدم الأمان على طريق بصرى وأصبح الحجاج يسلكون طريقا يبعد إلى الغرب منها[٢] إلى درعا والمزيريب. وترى آثار خط آخر يمر من شرق البترا مخترقا معان والجفر يصل إلى واحة الجوف، وتلحظ خطا ثالثًا يتجه من الصحراء السورية شمالا نحو الأزرق ثم يتابع مسيره في منخفض وادي السرحان نحو تيماء وحايل في الجزيرة العربية[٣] .

وتعود أهمية الطرق في جنوب بلاذ الشام إلى كونها تعبر بين منطقتين قاحلتين تعيقان التجارة. فالجوف تقع في الزاوية الشمالية لصحراء النفوذ - من المناطق الرملية العميقة التي تعيق حركة الجمال المحملة إضافة إلى ندرة المياه في هذه المنطقة - وإلى الشمال من الجوف يوجد شريط أقل صحراوية ولكنه صخري وجبلي تتخلله ممرات من الأراضي البركانية والأحجار البازلتية. وتتجنب القوافل المرور من الممرات لأن الحصى الصوانية كثيرا ما تغطي سطحها مما يؤثر أيضا على سير الجمال فوقها. وتمتد منطقة اللافا (البركانية) في حوران نحو الشرق لأكثر من ستين ميلا. وهذا لا يعني أن الممرات لم تكن تعبر من قبل المسافرين[٤] .

وروده فيما بعد هكذا: ابن رستة، الأعلاق النفيسة.

(١) الطبري، تاريخ، ج٣، ص٣٨٧، ٣٩١، ٤٠٥.

(٢) هورست كلينكل، **آثار سورية القديمة**، ترجمة قاسم طوير، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٥، ص٩٧. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: كلينكل ، آثار سورية.

(٣) Grant، The Syrian Desert. P.37

(٤) Ibid، p.38

هذا و لم يتحدث جغرافيوا العصر العباسي إلا قليلا عن الطريق العرضية التي تصل غرب بلاد الشام بالمراكز الصحراوية الشرقية وبلاد العراق. وقد ذكروا الطريق الواصل من الكوفة إلى دمشق مرورا باذرعات(١). وكذلك الطريق من عين التمر إلى بصرى(٢). وهذا هو الطريق الذي سلكه خالد بن الوليد من العراق إلى اليرموك مرورا بمدينة تدمر بناء على أمر الخليفة أبي بكر(٣).

وتذكر المصادر الإسلامية أن الطريق الرئيسي ما بين بغداد ودمشق تمر بمدينة هيت على الفرات(٤) ولعله هو نفسه الطريق الذي عرف منذ العهد الروماني(٥). وهذا الطريق عصب المواصلات في شرق سوريا، فمنذ العصور الشرقية القديمة، يسلك التجار الطريق القادم من الفرات على ظهور الدواب، ولا بد من المرور بتدمر إذا كانت وجهتهم بلاد الشام(٦)، وعليه فقد ازداد عدد الطرق التي تمر بتدمر في الذهاب والإياب، وتحولت هذه المدينة بفضل الطرق التجارية إلى قلب مملكة مترامية الأطراف تستحوذ على شبكة واسعة من طرق المواصلات التي كانت تمتد إلى الشمال من صحراء جزيرة العرب وبادية الشام. وقد استفاد المسافرون في العهد الإسلامي من الطرق الرومانية وبخاصة تلك المعبدة في أيام الشتاء، إذ كانت الدواب تتجنب الوحل والأراضي الرخوة لهذا توسع في استخدام الجمل في هذه الأسفار الطويلة بفضل ما تميز به هذا الحيوان على غيره(٧).

واعتمادا على ما أورده الجغرافيون العرب الأوائل من وصف لشبكة الطرق في بلاد الشام نجد أن كثافة هذه الطرق تزداد إلى درجة كبيرة في المناطق العامرة الآهلة بالسكان.

ومجمل القول أن نظام البريد والعناية بالطرق وتنظيم كل متطلبات الراحة والأمن

---

(١) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص٩٩.

(٢) المصدر السابق، ص٩٧.

(٣) أ.ي. أكرم، **سيف الله خالد بن الوليد**، ترجمة صبحي الجابي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م. ص٣٣٣-٣٤٠. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: أكرم، سيف الله.

(٤) انظر: الطبري، تاريخ، ج٥، ص٦٠. ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج١٠، ص٢١٩.

(٥) انظر: ياقوت، معجم البلدان، ٢/١٨، ٥/٤٢٠ - ٤٢١.

(٦) كلينيكل، آثار سورية القديمة، ص٩٧.

(٧) المرجع نفسه،/ ص٩٨. وانظر : Grant، The Syrian Desert. P.46

عليها بلغت درجة تثير الإعجاب، حتى يمكن أن يقال وبحق في عاصمة العباسيين بغداد ما قيل من قبل عن روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية وهي في أوج ازدهارها "كل الطرق تؤدي إلى روما" ويشير إلى هذه الحقيقة قول ابن خرداذبة: "أن مجموع سكك البريد في العراق بلغ في عهده (تسعمائة وثلاثين) سكة[١] "والاستثناء الذي يخرج هذه القاعدة عن صدقها هي الفترات التي كانت بلاد الشام وأي جزء من الإمبراطورية العباسية تتعرض فيه إلى الفتن والحروب المحلية والخارجية، وما ينجم عن مثل هذه الأحوال من اضطراب حبل الأمن وتقطع شرايين البريد وتمزيق طرقه ونسف سككه. وقد استفاد من نظام الطرق هذا كل المسافرين من جند وحجاج ورحالة وطلبة علم وتجار. ولعل الفضل يعود إلى هذه الطرق في نشأة وتطور العلوم الجغرافية عند العرب.

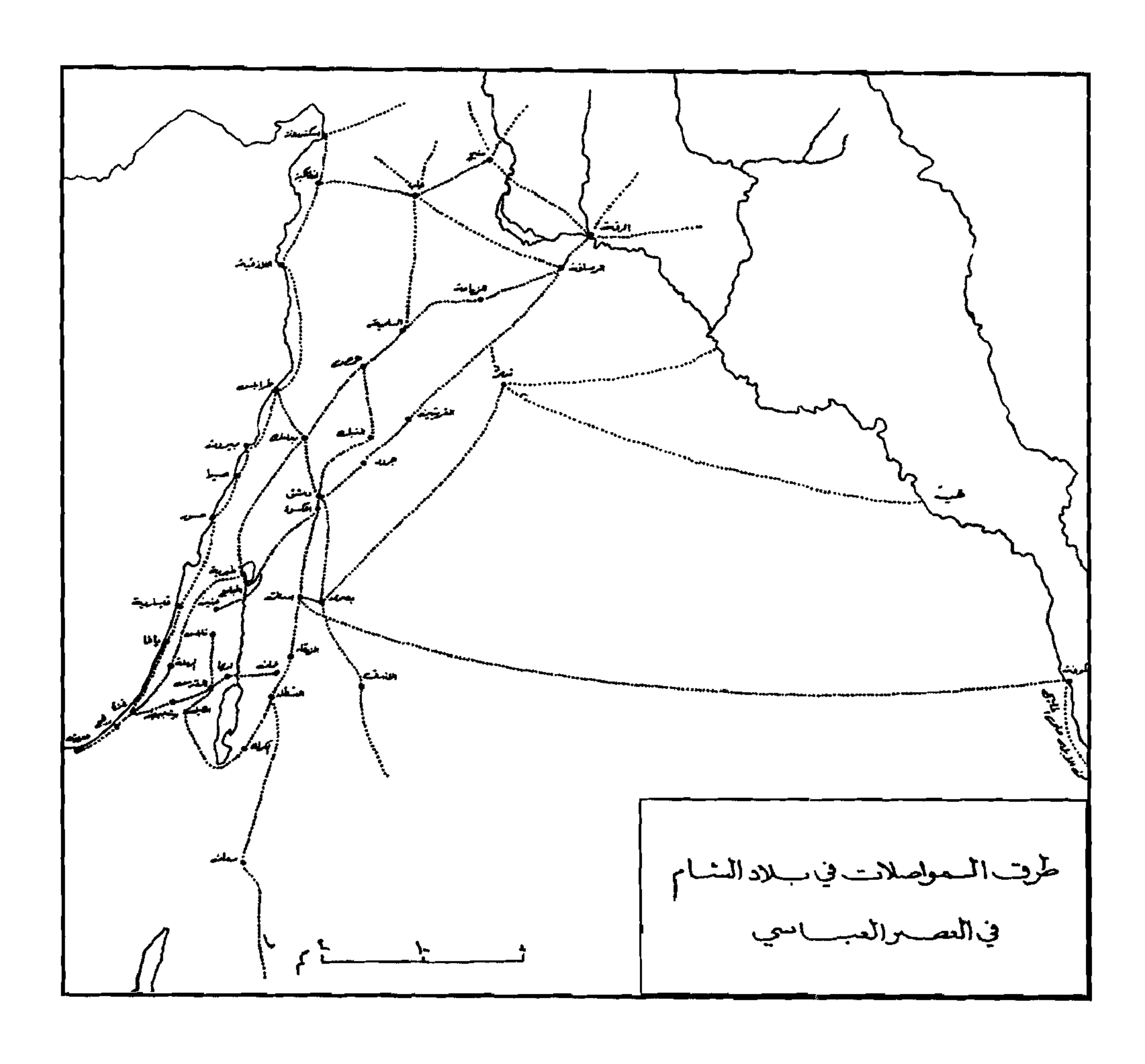
---

(١) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص١٥٣؛ وانظر: سعداوي، نظام البريد في الدولة الإسلامية، ص٨٠-٨١.

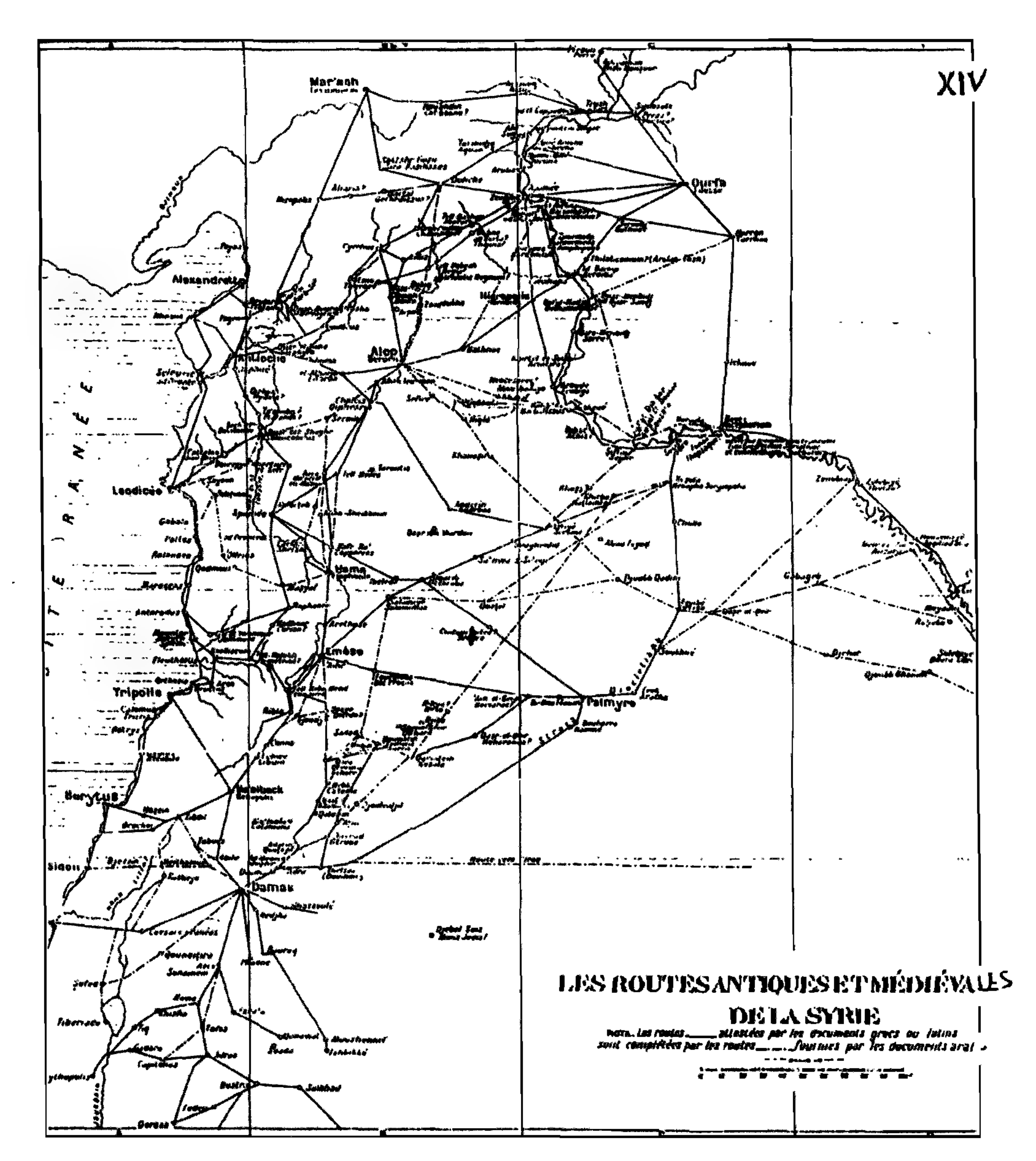
طرق المواصلات في بلاد الشام في العهد الروماني

"عن باتريشا، القسطل - ١٩٨٤"

طرق المواصلات في بلاد الشام في العصر العباسي



رينوديسو، الطرق القديمة في سورية في العصور الوسطى



نقلا عن RENE DUSSAUD من كتابه
TOPOCRAPHIE. HISTORIQUE DE LA SYRII ANTIQUE l 1 MEDIFVAI I

سكة حديد الحجاز

في القرن الرابع عشر الهجري/ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي أخذت الدولة العثمانية تواجه هزائم كثيرة في الخارج كما تواجه ثورات في الداخل وكان أقصى ما يخشاه عبد الحميد الثاني (١٢٩٣-١٣٢٦/١٨٧٦-١٩٠٨) أن يفقد سلطانه على البقاع المقدسة في الحجاز، لأن ذلك سيفقده لقب حامي الحرمين الشريفين ويضعف موقفه الديني في نظر المسلمين.

وتصوّر السلطان انه لا بدّ من تحقيق برنامج يشتمل على تقوية مركزه ومركز الدولة معًا، فتبنى حركة الجامعة الإسلامية، وحرص على تحديث الجيش، وظن أنه بإمكانه الحصول على القوة المادّية وكسب التكنولوجيا الغربية إذا فتح باب الامتيازات أمام الشركات الأجنبية لاستثمار أموالها وخبراتها في مشاريع داخل الإمبراطورية، ورأي أيضًا أن يقيم تحالفًا غير مكتوب مع ألمانيا لخلق حالة توازن بين القوى الأوروبية. ويرتبط بهذا البرنامج مشروع سكة حديد الحجاز، التي تتألف من الخط الرئيسي ما بين دمشق والمدينة المنورة والخط المتفرع منه عند درعا إلى حيفا، وما تفرّع منهما بعد ذلك (مجلة الهلال).

وأراد السلطان عبد الحميد أن تكون سكة حديد الحجاز مشروعًا إسلاميًا يربط استانبول ودمشق بالديار المقدسة تجسيدًا لفكرة الجامعة الإسلامية، وتيسيرًا لوصول المسلمين إلى الحجاز بسرعة وأمن وراحة. وتحقيقًا لهذه المقاصد وغيرها، صدرت الإرادة السنيّة في محرم ١٣١٨/ الأول من أيار- مايو ١٩٠٠ ببناء هذا الخط (محمد كرد علي). وقد أثار هذا القرار حماسة المسلمين وفرحتهم لأنه سيخلص الحجاج مما كانوا يعانونه من مصاعب وأهوال، وتولّى بعض المفكرين المسلمين الدعاية للمشروع وتبيان منافعه الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية (محمد عارف الحسيني)، وانبرت صحف عديدة في العالم الإسلامي تمجد حركة الجامعة الإسلامية والقائمين عليها، وعلى رأسهم خليفة المسلمين ومنقذهم عبد الحميد الثاني، وتتحدث بإكبار عن المشروع (محمد كرد علي).

وصدر في ذلك العام مرسوم سلطاني يقضي بتشكيل لجنة عليا في استانبول وأخرى دونها في دمشق، على أن تتولّى الأولى الإدارة العامة للمشروع، وجمع التبرعات، وعقد الصفقات التجارية، وتذليل الصعاب، وتأمين المواد اللازمة للبناء، وكانت هذه اللجنة بيد السلطان ومستشاره وسكرتيره الثاني عزت باشا العابد الدمشقي (التقارير الفرنسية). وتتولى لجنة دمشق تنفيذ المشروع، واختار السلطان أعضاءها الأساسيين ، وراعى فيهم أن يمثلوا مصادر القوة في الولاية السورية. فكان الوالي كاظم باشا رئيس اللجنة حتى سنة ١٣٢٦/١٩٠٨، (عُيّن بعدها واليًا على الحجاز لكفاءته في لجنة دمشق)، وكان أديب ناظم-سكرتير مجلس المدينة ومحرر جريدة سورية الرسمية- سكرتير اللجنة (ثمرات الفنون). واختير عبد الرحمن باشا يوسف أمير الحج السوري عضوًا في اللجنة لتأكيد الصفة الدينية للمشروع، وكان من أعضائها محمد فوزي العظم، وهو من عائلة دمشقية ذات نفوذ. وقد قامت لجنة دمشق بمسؤولياتها على أكمل وجه رغم التقارير القليلة التي تشير إلى سوء الإدارة المالية. وأما المسائل المعقدة فكانت لجنة استانبول تتولى حلها، وكان لعزت باشا- العقل المدبّر للمشروع- أكبر الأثر في التعاون بين اللجان المختلفة واتخاذ القرارات وتوصيلها بسرعة (التقارير الفرنسية).

كانت المرحلة الأولى من العمل تعتمد المسح والاستكشاف والدراسات اللازمة، وقام بهذا العمل أولاً علي رضا الركابي، ثم تولّته هيئة الجيش الخامس في دمشق برئاسة المهندس مختار بك (ثمرات الفنون).

وقد صادف المشروع صعوبات ومشاكل جعلت أكثر المتفائلين يتنبأون بإخفاقه، وقابلته الدوائر الأوروبية بالسخرية نظرًا لافتقار الدولة العثمانية إلى الخبرة في بناء الخطوط الحديدية، ولعجزها المالي وفساد جهازها الإداري (عيساوي). وكانت اكبر المشاكل تتمثّل في تأمين المال الكافي من خارج موازنة الدولة المثقلة بالديون للشركات الأجنبية وبالنفقات اللازمة للجيش. ووجهت اللجنة العليا نداءً إلى المسلمين أينما كانوا تشرح فيه الدوافع الدينية التي تستدعي النهوض ببناء السكة الحجازية، وتحث على التبرع لإنجاح هذا المشروع (أنطونيوس). وبثّت اللجنة الوعّاظ والمرشدين في جميع الأقطار للدعوة للفكرة، ولجمع الإعانات. فلقيت الدعوة كل تجاوب في كل الأقطار الإسلامية، وتشكلت اللجان في كل مكان. وقامت اللجنة العليا بسك الميداليات الذهبية والفضية، وعملت الأوسمة لتمنح للمتبرعين وفقًا لحجم

تبرعاتهم. وكانت أسماء المتبرعين تنشر مع مقادير تبرعاتهم في الصحف الإسلامية والعالمية (مجلة المنار). وافتتح السلطان عبد الحميد حملة التبرعات بمبلغ ٣٢٠ ألف ليرة تركية من ماله الخاص، وتبعه في ذلك الملوك والأمراء والهيئات والأفراد داخل الدولة وخارجها. وتعهّد خديوي مصر عباس حلمي الثاني بإرسال كمية كبيرة من مواد الإنشاء والبناء، وتبرع الشيخ مبارك الصباح، وسلطان المكلا والشّحر بمبالغ نقدية وكان موسم الحج مناسبةً عظيمةً لجمع التبرعات وشرح أخبار السكة وكل ما يتعلق بها، وساهم الجيش العثماني بالتبرعات فقدّم (سنة ١٣٢٠-١٣٢١/١٩٠٢-١٩٠٣) مبلغ (٨٥٣٢) ليرة تركية. وقام بتقديم التبرعات، البلديات وحكومات الولايات ومحرروا الصحف ورجال الدين (التقارير البريطانية). وجاء في قائمة المتبرعين التي نشرتها جريدة ثمرات الفنون أسماء الذين تبرعوا في ولاية بيروت، وكان مجموعهم (٦٤٠) شخصًا يتوزعون على سبع مدن أغلبهم من بيروت، وكان منهم محرر ثمرات الفنون: عبد القادر القباني رئيس بلدية بيروت والتاجران عبّود وحلبوني اللذان تعهّدا بدفع (٢٠٠٠) ليرة تركية بعد استكمال كل (١٠٠) كيلومتر من السكة. وبلغت الحماسة لدى بعض المسلمين لدرجة أنهم أوصوا بتركاتهم كاملة، أو بنصيب منها بعد الوفاة إعانةً لسكة حديد الحجاز، وأوقف بعضهم العقارات لصالح السكة (اوكسنوالد). و لم يقتصر التبرع على المسلمين فقد نشرت صحيفة (لبنان) نداءً للمطران الأرثوذكسي جرامسيوس حثّ فيه الرعايا النصارى على التبرع للسكة حفاظًا على قوة الدولة (ثمرات الفنون).

وعلى الرغم من حماسة المسلمين للتبرع أيقنت الدولة أن التبرعات غير كافية ولا تشكّل موردًا ثابتًا يمكن رصده للإنفاق. لذلك فرضت الحكومة مجموعةً من الضرائب الإلزامية بدأتها بمرسوم سلطاني يقضي بحسم راتب شهر من الأجرة السنوية للمستخدمين المدنيين والعسكريين، وأتبعت ذلك بتخصيص عشر راتب شهر أيار (مايو) من كل عام من رواتب المستخدمين الذين تزيد مرتباتهم عن خمسماية قرش، واخترعت طوابع وأوراق للاستعمال في بعض الأحوال والأشغال، وفرضت ضرائب جمركيةً على المعادن والأراضي الأميرية التي تباع، وعلى الموانئ (محمد كرد علي). وفرضت ضريبة خمسة قروش على كل رب أسرة عثماني قادر، وهذه الضريبة توفر حوالي (١٠٠) ألف ليرة تركية في السنة. وفرض على كل حاج مبلغ ريال يدفعه قبل مغادرة مكة. وفرضت ضرائب على جوازات السفر

وعلى بعض المهن والمصنوعات اليدوية والمناسبات، كما فرضت رسومًا على الحمّامات المعدنية (محمد كرد علي). وقامت الحكومة بنقل مخصصات دائرة الحج السابقة والبالغة (١٥٠) ألف ليرة في السنة لتمويل المشروع، وكذلك خصصت مبلغ ستين ألف ليرة، هي عطايا السلطان السنوية، وكانت تدفع سابقًا لإرضاء شيوخ القبائل البدوية الذين تمرّ طريق الحج إل أراضيهم (عبد العزيز عوض).

وأوعزت الحكومة إلى البنك الزراعي بتقديم قرض للمشروع في السنة الأولى بمقدار ١٥٠ ألف ليرة ليكون رصيدًا لإدارة السكة تستخدمه في الإنفاق الأولي (اوكسنوالد). وفرضت مبالغ محدّدة على المدن والقرى، وعلى بعض الموسرين (تريس) ومنحتهم شهادات تعفيهم من التبرع إذا ما طلب منهم ثانية.

أمّا التبرعات خارج حدود الامبراطورية فقد حمل لواءها الدبلوماسيون الأتراك، وبعض الشخصيات الإسلامية، وأصحاب الصحف الموالية لحركة الجامعة الإسلامية، وبعض الحركات الدينية مثل الحركة النقشبندية، وكانت الهند ومصر أوسع الأقطار الإسلامية نشاطًا لإعانة السكة. وقد قاد الحملة في الهند مجموعة من الرجال منهم: سيد عبد الحق الأزهري، إمام مسجد المنارات في بومبي، وعبد القيّوم من حيدر آباد، وقد أثنت عليه صحيفة (لسان الحال) التي تصدر في بيروت نظرًا لجهوده في جمع التبرعات (ثمرات الفنون)، وهناك شخص ثالث ارتبط اسمه أيضًا بسكة حديد الحجاز، وهو محمد إنشاء الله، الذي أصدر صحيفة الوكيل في أمرتسار، ثم أصدر صحيفة الوطن في لاهور. وكان محمد إنشاء الله يعتبر نفسه صاحب فكرة سكة حديد الحجاز وقائد حملة التبرعات في الهند، وألف لهذه الغاية كتاب: «تاريخ السكة الحميدية الحجازية» باللغات الأوردية والعربية والانجليزية، وقد افتتح باب الاكتتاب في صحيفة الوطن للتبرع للسكة، وأرسل خمسة آلاف ليرة تركية– دفعة أولى– من التبرعات التي انهالت عليه من قرّاء جريدته في الهند والصين والترانسفال (محمد كرد علي). وتأسس في الهند أكثر من مائة وستين جمعية لجمع إعانات السكة. ومع أن مجموع تبرعات الهنود غير معروفة، فقد أوردت المصادر أسماء بعض كبار المتبرعين مثل: الميرزا علي في كلكتا الذي قدّم خمسة آلاف ليرة تركية، وقدّم تاجران أخوان من كشمير، هما: حبيب الله وغلام الدين من أمرتسار مبلغ ألفي ليرة تركية، وتبرع عريف إسماعيل بهرام، وهو تاجر من كلكتا، بحوالي

ألف ليرة تركية. وارسل أهالي لكهنو مبلغ اثنين وثلاثين ألف ليرة تركية، وتبرع أهالي رانكون ومدراس بمبلغ ثلاثة وسبعين ألف ليرة (الوثائق البريطانية).

وفي مصر تزعّم حملة جمع الإعانات في الأوساط الشعبية الزعيم الوطني مصطفى كامل، وقد أثنى السلطان عليه ومنحه لقب «ميرميران». وتولّت الصحف المصرية مثل اللواء، والمؤيد، اللتان يحررهما مصطفى كامل في القاهرة. والصبا التي يحررها أحمد عبد الله حسين في الزقازيق، بالإضافة إلى صحيفة الأهرام، ومجلات المنار والمقتطف والهلال وغيرها- الحملة الإعلامية اللازمة لشرح أبعاد كل من حركة الجامعة الإسلامية وسكة حديد الحجاز، وكان محمد رشيد رضا- صاحب المنار- يعتبر التبرع للسكة دليل محبة الله ورسوله المفروضة على كل مسلم (الصحف المصرية).

وأخذت التبرعات تنهال من مناطق أخرى، فأسهم المسلمون في ناتال بمبلغ ألف ليرة تركية، وتبرع أمير بخارى عاصمة طشقند بمبلغ ٤٠٠ ألف جنيه استرليني، وساهم في التبرعات شاه إيراه بمبلغ خمسين ألف ليرة، وسلطان مرّاكش الذي بعث لجنة برئاسة «سي الحاج الطالب بنيسى» أمين الخزانة إلى الأستانة لتسليم السلطان عبد الحميد مبلغ ٧٥٠ ألف فرنك فرنسي حصة مرّاكش في تكاليف بناء الخط الحديدي الحجازي (التقارير الفرنسية). ويبين الجدول التالي (عن أوكسنوالد) الأموال التي جمعت من أجل سكة حديد الحجاز للسنوات ١٣٢١-١٣٢٦هـ/١٩٠٣-١٩٠٨م.

مصادر الدخل بالليرة التركية	١٩٠٣/١٣٢١	١٩٠٤/١٣٢٢	١٩٠٥/١٣٢٣	١٩٠٦/١٣٢٤	١٩٠٧/١٣٢٥	١٩٠٨/١٣٢٦
التبرعات الطوعية	٦٥١,١٨٤	٧٤٢,١٥٣	٧٣٨,٦١٦	٨٨٤,٤٨٢	١,٠٢٨,٧٧٣	١,١٢٧,٨٩٤
البنك الزراعي	١٥٠,٠٠٠	١٥٠,٤٤٦	٢٥٣,٧٧٧	٣٠٣,٩٩٣	٤١٩,٩٩٢	٤٨٥,٩٩٢
الحساب المدور	١٦٥,٥٣١	٢٥١,٤٣٩	٣٥٩,٦٦٥	٣٦٩,٩٩١	٣٩٣,٠٧٨	٤٠٢,٨٩٣
الضرائــب	–	١٩٢,٢١٧	٥٥١,١٢٠	٩٢٠,٥٤٨	١,٢٣٦,٩٠٥	١,٦٤٨,٦٩٢
عوائد العمل بدل الضريبة	–	–	٣٤,٦٩٠	٦١,٩٠٣	١٣٣,٤٢٨	٢٢٥,٣١٠
عوائد السخرة	–	–	١٢,٢٣٤	١٤,٦٧٥	١٩,٢٣٧	٢٤,١٣٣
المجموع	٩٦٦,٧١٥	١,٣٣٦,٢٥٥	١,٩٥٠,١٠٢	٢,٠٠٠,٠٩٢	٣,٢٣١,٤١٣	٣,٩١٤,٩١٥

اشتدت مخاوف بريطانيا من الحملة التي أثارها هذا المشروع بين المسلمين وبخاصة بين سكان مستعمراتها، وخشيت من تحوّل المسلمين في تلك المستعمرات إلى سلاح بيد العثمانيّين يمكن استخدامه في الوقت المناسب، لهذا عملت جاهدة على عرقلة جمع التبرعات وتأسيس الجمعيات، كما حدّت من حركة بعض الشخصيات الإسلامية في الهند ومصر، وحرّضت الحكومة المصرية على رفض دفع ضريبة الخمسة قروش المفروضة على العثمانيين، كما تفاهمت مع الدول الأوروبية الأخرى على عدم عمل أي شيء من شأنه تقوية الدولة العثمانية، وأثارت هذه الدول الاحتجاج على ألزام النصارى في الامبراطورية العثمانية باستعمال طوابع سكة حديد الحجاز، ومنعت بريطانيا المتبرعين الهنود من حمل الأوسمة والميداليات الممنوحة لهم لقاء تبرعاتهم (التقارير البريطانية).

وبهذا دخلت سكة حديد الحجاز حلبة المنافسة الدولية، فقد اعتبرت بريطانيا هذا المشروع تهديدًا لمصالحها، وأدخلت معها في الصراع، الإدارة المصرية (بعد ١٣٠٠/١٨٨٢)، وأدخلت في روع الحكومة المصرية أن الدولة العثمانية تبني السكة باتجاه حدودها تمهيدا للهجوم على مصر. وهكذا افتعلت بريطانيا أزمة (طابا) مع الحكومة العثمانية كما سنرى. وقد شكا السلطان عبد الحميد في مذكراته من بشاعة التنافس وتدخلات سفراء بريطانيا وفرنسا، وقال: «إن بريطانيا وفرنسا قد مزّقتا أثواب وقارهما»، ويبدو أن إصراره على تنفيذ سكة الحديد الحجازية كان احد ردوده على هذه الأطماع. وقد ازدادت مخاوف بريطانيا بشكل خاص بعد التقارب العثماني الألماني، وحصول ألمانيا على امتياز خط حديد بغداد (التقارير البريطانية).

ثم واجهت السكة مشاكل أخرى خطيرة، منها تأمين المياه إلى مواقع العمل، ومشكلة العمالة الفنية، ومشاكل البدو الذين اتخذوا منذ البداية موقفًا معاديًا للمشروع، ومشكلة السيول والرمال المتحركة. وكانت مشكلة تأمين المياه أصعب هذه المشاكل للحاجة إلى الماء ليس لغايات الشرب وحسب، بل أيضًا لعمل الخلطات الترابية والاسمنتية، وتثبيت الرمال المتحركة. ولهذا لجأت إدارة السكة إلى استصلاح الآبار والبرك القديمة، وحفر آبار جديدة، واستخدام الصهاريج المعدنية المنقولة بواسطة القطار وتوزيعها في مواقع العمل (التقارير البريطانية).

أصدر السلطان أمره بالشروع في العمل في جمادى الأول ١٣١٨ اليوم الأول من أيلول- سبتمبر ١٩٠٠، ويصادف هذا اليوم الذكرى الخامسة والعشرين لاعتلائه العرش. وبدأ المهندسون والعمال المسلمون بالإضافة إلى كتيبتين من الجيش العمل باتجاهين من درعا إلى المزيريب، ومن درعا باتجاه عمّان جنوبًا. وكانت المفاوضات جارية بين إدارة السكة الحديدية والشركة الفرنسية لشراء فرع دمشق - المزيريب الذي بني سنة ١٣١٢/١٨٩٤ لإلحاقه بالخط الحجازي. وطلبت اللجنة العليا من المعامل المختلفة داخل الامبراطورية، وبخاصة مصانع البحرية، لصناعة ما يلزم السكة الحجازية من عربات وقضبان وعوارض حديدية، وتقرر تأمين الأخشاب عن طريق عمال الغابات والمتعهدين داخل الامبراطورية، وتعهدت وزارة الحربية بصناعة ما طوله خمسة كيلومترات من القضبان الحديدية يوميًا، كما طلب من حكّام الأقاليم تقديم المواد الأولية المتوفرة في أقاليمهم، وقام صادق باشا بدوره بتمديد خطوط البرق بين دمشق والمدينة (ثمرات الفنون). وكانت لجان المسح والاستكشاف قد حدّدت مسار الخط والمحطات وعددها ومعدّل المسافات بينها، وتضمّن المخطط العناصر التالية: أن يبنى الخط من النوع الضيق بعرض متر واحد، وان تكون القضبان وفق نظام فغنولا (Vignola System) أي بطول ثمانية أمتار، ووزن خمسة وعشرين كيلوغرامًا، وأن تكون العوارض من الخشب والفولاذ، وأن تبنى قناة واحدة بين الزرقاء وعمّان، وقدّرت المنعطفات بمائة متر، والانحدارات في حدّها الأعلى بـ ٢٠٪ وقدر متوسط تكاليف بناء الكيلومتر الواحد بما في ذلك أثمان العربات بخمسين ألف فرنك، أي حوالي ١٧٥٠ ليرة تركية. وكانت تكاليف الكيلومتر الواحد في فرع حيفا- درعا، ضعف المبلغ السابق إذا أضيفت أثمان عربات الشحن.

وبعد فترة من سير العمل اتضح أنه لا يمكن الاعتماد على الموارد المحلية لتامين المواد اللازمة لبناء السكة، إذا أريد إنجازها بالسرعة المطلوبة، وتبين أن استيراد هذه المواد من أوروبا أقل كلفة وأفضل نوعية من صناعتها محليًا، لذلك حصل التحوّل إلى أوروبا والولايات المتحدة لتأمين هذه المواد عن طريق صفقات تجارية تتولى اللجنة العليا في استانبول عقدها، وكانت معظم هذه الصفقات مع الشركات الألمانية والبلجيكية، وبلغ حجم الإنفاق عند نهاية حكم عبد الحميد الثاني ١,٤٠٣,٨٠٥ ليرات تركية (التقارير البريطانية).

وبعد ثورة ١٣٢٦/١٩٠٨ وخلع السلطان عبد الحميد عن العرش، وجّهت اتهامات للسلطة السابقة بقبول الرشاوي وتبذير أموال الدولة، غير أن ذهني باشا وزير الأشغال العامة، وأحد أعضاء اللجنة السابقة البارزين، دحض هذه الافتراءات، وأوضح القواعد والأسس التي اتّبعتها اللجنة في مشترياتها، وقال :"إن مفوّضين عثمانيين مختصين كانوا يعاينون البضاعة قبل شحنها للتأكد من مطابقتها للشروط والمواصفات المتفق عليها" (ثمرات الفنون). وتبيّن من خلال العمل أيضًا انه لا يمكن الاستغناء عن العمالة الأجنبية، وبناءً عليه اتخذ القرار باستخدام العمال الفنيين من أوروبا، وتقرر تعيين مسنر (Meissner) – المهندس والخبير الألماني المشهور ببناء السكك الحديدية– كبيرًا للمهندسين ومديرًا فنيًا في لجنة دمشق، وقد دلت خدمات هذا المهندس على الخصائص الرفيعة التي كان يتمتع بها، مما كان له الأثر الكبير في إنجاح هذا المشروع.

لكن المفاوضات مع الشركة الفرنسية لشراء خط دمشق – المزيريب تعثرت بسبب تعنّت تلك الشركة وطلبها ثمنًا باهظًا مع تخصيص نصيب لها في سكة حديد الحجاز، لهذا تقرر على الفور بناء خط مواز من دمشق إلى درعا، وبدأ العمل فيه من دمشق ودرعا في آن واحد. وكان المهندس مسنر يشرف على العمل بنفسه، وفي نفس الوقت لا ينقطع عن استخدام العمال والمهندسين من أوروبا وبخاصة من ألمانيا (هكر). وكان عدد المهندسين العاملين في الخط ما بين ١٣٢١–١٣٢٥/١٩٠٣–١٩٠٧ أربعين مهندسًا نصفهم من المسلمين، والنصف الآخر من الأجانب، وقد اتبع مسنر أسلوب تدريب العمال المحليين أثناء العمل، وطلب السلطان من طلاب مدرسة الهندسة في استانبول القيام بتدريباتهم العملية في مشروع سكة حديد الحجاز لتأهيلهم للعمل فيه مستقبلاً. وقد أشادت مجلة المقتطف في بعض مقالاتها بكفاية المهندس العثماني وتنبأت بقرب الاستغناء عن الأجانب، وذكرت أسماء بعض المهندسين الأجانب والمسلمين ممن برزوا خلال العمل.

وكانت العمالة في الخط الحجازي تقسم إلى قسمين: الجند النظامي الذي سُخّر للعمل، وكان يشكّل الحجم الأكبر من العمالة الكلية. وعلى الرغم من عدم التدريب الأوّلي ألف الجند العمل الجماعي المنضبط. وكان عدد الجند في البداية (١٣١٨–١٣١٩/١٩٠٠–١٩٠١) يقدر بألفين وستمائة جندي ثم زيد العدد في السنة التالية إلى خمسة آلاف وستمائة

وخمسين، ثم ارتفع إلى سبعة آلاف وخمسمائة (١٩٠٧/١٣٢٥) ووصل إلى تسعة آلاف وخمسماية جندي (١٩١٣/١٣٣٢). (التقارير البريطانية). وكان الجند والعمال المحليون غير المهرة يقومون بالأعمال الأرضية وتحضير المسار والأساسات لمد القضبان الحديدية، وقد اختير الجنرال كاظم باشا رئيسًا للجنة دمشق، وكان يملك خبرة في التكنولوجيا الغربية العسكرية، ومن المؤيدين لاستخدام الفنّيين الأجانب في بناء الجسور والمنعطفات والأمور الفنية الأخرى، وقد منحة السلطان ثقةً كاملةً، وكان هو بدوره يعتمد على مسنر في اتخاذ قراراته. وتمكّن الأخير بلباقته وكياسته تجنّب أي صدام مع كاظم باشا أو مع لجنة دمشق، كما نجح في توجيه معظم الصفقات التجارية الرابحة وعقود استخدام المهندسين والفنيين نحو بلاده ألمانيا (التقارير البريطانية). ونظرًا لنجاح مسنر في إدارة العمل حظي بشرف مقابلة السلطان، كما كوفيء بطرق متعددة، ومنح مرتبًا عاليًا (التقارير الفرنسية).

أما القسم الثاني من العمالة فيتكون من عامة المستخدمين غير العسكريين من وطنيين وأجانب، وكان معظم هؤلاء يعملون بالأجرة اليومية والباقي يتقاضون أجورًا شهرية، وكانت الإدارة تلجأ إلى المناطق التي يعبرها الخط الحديدي لتأمين حاجاتها من العمال إذا كان ذلك متوفرًا، ولا توجد أية معلومات تفيد استخدام البدو في بناء الخط الحديدي (محمد كرد علي). وجاء في قائمة تعود إلى ١٣٣١/نهاية عام ١٩١٢ أن عدد المستخدمين المدنيين بلغ ثلاثة آلاف وثمانمائة شخص يعمل قليل منهم في القطاعات الفنية، ويعمل سائرهم في الأعمال المتفرقة الأخرى. وهذا العدد يبدو لطول الخط ضئيلاً، لكن يجب أن لا ننسى دور الجند (التقارير البريطانية).

وكانت وزارة الحربية تتولى الإنفاق على الجنود، كما أن الجيش كان يمنح العاملين النشيطين في السكة امتيازات وحوافز، كالترقيات الاستثنائية والأوسمة والنياشين والتعويضات عند الوفاة، والتأمين الصحي، والسفر المجاني بعربات السكة واعتبار خدمة ثلاث سنوات في السكة مساوية لخدمة أربع سنوات في أي مكان آخر. وإذا ما أضفنا إلى هذه الحوافز العامل الديني أدركنا سبب إقبال الجند على العمل تحت ظروف غاية في القساوة. حتى كان أحدهم يعمل عمل الجماعة من الأوروبيين كما جاء في شهادة احدهم. فكان هؤلاء العمال يمدّون ما طوله كيلومتر ونصف من القضبان في اليوم الواحد. ثم ارتفع

الإنجاز إلى كيلومترين، ثم إلى ثلاثة كيلومترات، مما أدهش الأهالي فشبّهوا الخطوط الحديدية في سرعة تمديدها بأنها: "سيل من حديد" (محمد كرد علي). وبلغت أجرة عامل المياومة حوالي عشر ليرات تركية في السنة، وقد كان دخل العامل الماهر يصل إلى عشرين أو ثلاثين ليرة، أما العامل الأجنبي الماهر فكان يبلغ دخله السنوي ستين ليرة تقريبًا، وهذا المبلغ كبير بالمقارنة مع أجور ضباط الجيش من ذوي الرتب المتوسطة.

وقد تعرض الجند والعمال لمشاكل المناخ وقلة المياه وضعف الرعاية الصحية، وتفشت بينهم الأمراض، وكانت نسبة الوفيات عالية بينهم في السنوات الأولى، كما لجأ بعض الجند إلى الهرب من الخدمة العسكرية. ومن أجل ذلك أرسل حوالي ألفي جندي من الجيش السادس من بغداد لتعزيز قدرة العمل (١٣٢٤/١٩٠٦) بينما كان سبعة آلاف وخمسمائة جندي يعملون في الخط الرئيسي (١٣٢٥/١٩٠٧) منهم ألف وثمانمائة من حامية المدينة (التقارير البريطانية).

ويدخل في حجم العمالة فئة المقاولين والمتعهدين المحليين والأجانب وكان هؤلاء يتعهدون ببناء أجزاء من الخط، أو إنجاز بعض المنشآت التابعة له بعقود محددة. وفي سنة (١٣٢٢/١٩٠٤) كان سدس العمال في خط حيفا- درعا من العاملين بعقود (اوكسنوالد)، وقد أنجز هؤلاء الأعمال الموكولة إليهم بكفاءة عالية وفي الوقت المحدد.

وبينما كان عدد العمال الأجانب في السنوات الأولى حوالي ستمائة، فإن عددهم تناقص في المراحل الأخيرة من المشروع بشكل ملحوظ (اوكسنوالد)، فقد ذكرت التقارير البريطانية أن عدد العاملين في هيئة السكة في دمشق (سنة ١٣٢٧/١٩٠٩) كان مائة وثلاثة وستين شخصًا، منهم فقط ثلاثة عشر عاملاً أجنبيًا ينتمون إلى جنسيات فرنسية وإنجليزية وألمانية وإيطالية ويونانية، وذلك لأن سياسة التدريب وإعداد العمال الفنّيين المحليين كانت تجري على قدم وساق، للتخلص من الأيدي العامله الأجنبية. وكان المهندسون يرسلون في بعثات إلى أوروبا لاكتساب الخبرة واللغة معًا، ومن هؤلاء المهندس ناطف الخالدي (١٢٩٢-١٣٣٥/١٨٧٥-١٩١٦) الذي عمل فترة في الأراضي الأردنية (أوكسنوالد).

وصل الخط إلى عمّان (١٣٢١/١٩٠٣) وإلى معان (١٣٢٢/١٩٠٤) وإلى قلعة المدورة (١٣٢٤/١٩٠٦) وإلى مدائن صالح وصلت القاطرات في السنة التالية، وذلك

أبعد مكان سمح للعاملين من النصارى بتجاوزه، وأنيطت إدارة العمل بعد ذلك بالمهندسين المسلمين. وفي شعبان ١٣٢٥/الأول من أيلول –سبتمبر ١٩٠٧ أقيم احتفال مهيب في العُلا بمناسبة الانتهاء من إنجاز ما طوله ألف كيلو متر من السكة، وفي التاريخ نفسه من السنة التالية افتتح خط المدينة– دمشق باحتفال كبير ارتفعت فيه الهتافات مطالبةً باستمرار العمل حتى مكة، وهكذا وصلت سكة الحديد إلى المدينة المنورة بعد ثماني سنوات. وبلغ طول الخط ١٤٦٥كم، وكان إنجازًا مثيرًا ونصرًا كبيرًا للسلطان العثماني على الرغم من كثرة المصاعب التي اعترضت بناءه. وكانت إدارة الخط تختار اليوم الأول من أيلول– سبتمبر ذكرى عيد الجلوس السلطاني لافتتاح أجزاء الخط المختلفة، كما طلب السلطان إطلاق اسم: "السكة الحميدية" على هذا الخط إمعانًا في ربطه باسمه، وأصبح البدو في الحجاز يطلقون على عربات السكة اسم : "جحشات السلطان" (لانداو).

غير أن الخط انتهى إلى رابغ و لم يصل إلى مكة. ويرجع الإخفاق في استكماله إلى عوامل أربعة، الأول : يتمثل بقيام الانقلاب وخلع السلطان عبد الحميد سنة ١٣٢٦/١٩٠٨، والثاني : يتصل بموقف القبائل البدوية المقيمة على طول الخط من المدينة إلى مكة، فقد كانت هذه القبائل وغيرها تقاوم بناء السكة لأنها ظاهرة افرنجية نجسة من جهة ولأنها من جهة أخرى تهدّد موارد رزقهم الناتجة عن تأجير الجمال وأخذ الأعطيات السلطانية مقابل خدمة الحجاج. والثالث: يتعلق بموقف أمير مكة الذي كان يتعاطف مع موقف القبائل البدوية وكان يخشى كذلك من ازدياد سلطة الدولة في الحجاز مما يهدد استقلاله النسبي ويسلبه الامتيازات المتوارثة، (العمرو). ويدخل في إطار هذا العامل مساعي بعض الموظفين الكبار في استانبول الذين حسدوا عزت باشا على مكانته لدى السلطان، وعملوا على إفشال مشروع السكة. أما العامل الرابع: فله علاقة بموقف الإنجليز الذين كانوا يرون أن المنطقة تقع ضمن دائرة نفوذهم، وأن السكة تهدد مصالحهم في المنطقة، فلجأوا إلى استخدام كل ما يمنعها من الوصول إلى مكة، والاقتراب من البحر الأحمر.

وبينما كانت المحاولات تجري لاستكمال الخط، انفجرت الحرب العالمية الأولى فصرف النظر عن هذا المشروع وغيره (الذقن). وللأسباب السابقة نفسها لم ينفذ فرع جدة– مكة (البتنوني)، أما فرع معان– العقبة فكان من المقرر إنجازه سنة

(١٣٢٣/١٩٠٥)، إلا أن الدراسات التي جرت حول الموضوع رأت أن يبدأ الخط من المدوّرة على الخط الرئيسي وينتهي بقرية طابا على الجانب الآخر من خليج العقبة، وذلك لأسباب أمنية وعملية. وكانت لا تزال قوات مصرية في طابا من أيام حملة محمد علي باشا على الجزيرة العربية وسورية، وبالرغم من أن القوات المصرية انسحبت تحت ضغط الدول الأوروبية التي قررت ذلك في مؤتمر لندن (١٢٥٦/١٨٤٠) فان مصر تجاهلت القرارات وأبقت على قواتها في عدة نقاط على ساحل البحر الأحمر بحجة حماية طريق الحج المصرية. ولما لم تستجب القوات المصرية لطلب الدولة العثمانية بالانسحاب من طابا، قامت القوات العثمانية تأكيدًا لسيادتها على طابا بطرد القوات المصرية، مما أثار غضب بريطانيا، فأرسلت بقواتها لاستعادة طابا، كما حركت أسطولها في البحر الأبيض المتوسط، وهددت استانبول وأنذرت السلطان، مما دعا الحكومة العثمانية إلى التراجع، وسحبت قواتها من سيناء في (ربيع الآخر ١٣٢٤/الحادي عشر من أيار- مايو ١٩٠٦) (أوكسنوالد). وكانت بريطانيا لا تنفك تحرّض الإدارة المصرية على تحديد حدودها الشرقية مع الدولة العثمانية، كما كانت تعتبر طابا من سيناء، وسيناء من مصر، لتمنع الدولة العثمانية من الاقتراب من قناة السويس. وهكذا توقف العمل في فرع المدوّرة "العقبة" بعد أزمة طابا لأن السلطان تحقق بعدها انه لا يمكن حماية أي خط يمتد جنوبًا قرب البحر الأحمر بدون قوة بحرية نظرًا لسيطرة القوات البريطانية التي تستطيع إغلاق هذا الخط في وجه القوات العثمانية متى شاءت (التقارير البريطانية).

وكان مفروضًا أن يلحق بسكة حديد الحجاز عدد من الفروع، أهمها فرع درعا- حيفا الذي يبلغ طوله حوالي ١٦٠كم، ويدخل وادي اليرموك الضيق المسالك، ثم يمر فوق نهر الأردن قرب جسر المجامع. ونظرًا لطبيعة المنطقة الجغرافية، فقد تطلب بناء العديد من الجسور والأقنية والسدود، وعهد بالقسم السهل من بنائه إلى المهندسين الأتراك برئاسة المهندس مختار بك، أما القسم الصعب ما بين بحيرة طبرية ودرعا فقد وزع بين المتعهدين الأجانب والمسلمين، وفي شعبان ١٣٢٣/تشرين الأول-اكتوبر ١٩٠٥) كان الخط جاهزًا تقريبًا للاستعمال. وأثناء العمل في الخط الرئيسي أرسلت بعثة من المهندسين لاستكشاف إمكانية بناء فرع صغير من نقطة متوسطة بين الزرقاء وعمّان إلى منطقة قرب السلط كان

يعتقد بوجود الفوسفات فيها، ولكن ما لبث أن صرف النظر عن هذا الفرع، عندما تبين أن كميات الفوسفات الموجودة قليلة (التقارير البريطانية). ونفذ خط من درعا إلى بصرى سنة (١٣٢٧/١٩٠٩)، ومن حيفا إلى عكا (بين ١٣٣٠-١٣٣٢/١٩١١-١٩١٣) بطول ثمانية وعشرين كم، ومن عكا إلى بلد الشيخ بطول سبعة عشركم، ومن العفولة إلى اللد بطول مائة كم وغيرها (EI) وفي سنة (١٣٣٣/١٩١٤) كان قد أنجز ما طوله ١٥٨٥كم من الخط الحجازي، ووضع قيد الاستعمال.

وكانت تكاليف بناء سكة حديد الحجاز منخفضة جدًا بالمقارنة مع تكاليف الخطوط الأخرى في الامبراطورية، وسبب ذلك يعود إلى أن معظم العمل أنجز بالسخرة، كما أن أجور العمال المحليين كانت رخيصة. ويعزى ارتفاع التكاليف في بعض الحالات إلى صعوبة التزود بالماء، وإلى أجور نقل التجهيزات لمسافات بعيدة، وإلى تكاليف الإنشاءات التي أقيمت على خط حيفا-درعا) لتسهيل مرور الخط في المناطق الوعرة. وطبقًا للتقرير المالي لسنة (١٣٢٨/١٩١٠) المنتهية في (ربيع الأول ١٣٣١/ شباط - فبراير ١٩١٣) كان مجموع التكاليف حتى ذلك التاريخ ٣,٢٥٠,٠٠٠ ليرة تركية، أي حوالي ٢١٢٠ ليرة لكل كيلو متر واحد، وإذا أضيف ثمن العربات فيكون المبلغ الإجمالي ٤,٢٨٣,٠٠٠ ليرة تركية، أو ٢٨٠٠ ليرة لكل كيلومتر، ويقابل هذا المبلغ ٧٤٤٠ ليرة تركية لكل كيلو متر من الخطوط العريضة في الأناضول، و ٧٠٠٠ ليره لخط رياق-حماة العريض التابع للشركة الفرنسية لخط دمشق- حماة- وامتداداته (D.H.P.)، و ٤٧٨٠ ليره لخط حيفا- القدس الضيق. وبلغ مجموع الأموال المدفوعة للسكة حوالي ١١٪ من مجموع المبالغ المصروفة على الخطوط الأخرى، مع أن طول سكة حديد الحجاز يساوي ٢٨٪ من مجموع أطوال الخطوط الحديدية في كافة أنحاء الإمبراطورية خارج الديار المصرية. وجدير بالذكر أن سكة حديد الحجاز هي من النوع الضيق الأقل كلفةً (التقارير البريطانية).

وقد بدأ تشغيل الخط كاملاً من دمشق إلى المدينة فور انتهائه (عام ١٣٢٦/١٩٠٨). وفي عام (١٣٣٣/١٩١٤) استعمل لأول مرة جدول مطبوع يبيّن حركة القطارات، فكان القطار يسير ثلاث مرات في الأسبوع بين دمشق والمدينة وبالعكس. قاطعا المسافة في حوالي ٥٦ساعة، وكان يسير قطار كل يوم بين دمشق وحيفا وبالعكس قاطعًا المسافة في

حوالي ١٢ ساعة. وقبل وصول السكة إلى المدينة كان الحجاج يقطعون المسافة من دمشق في أربعين يومًا، فأصبحوا بفضل السكة يصلون إلى المدينة في ثلاثة أيام (المرواني). واستمر نقل الحجاج بواسطة القوافل كما كان في السابق بين مكة والمدينة، ومكة وجدة. وحسب المعلومات المتوفرة فإن الحجاج الذين استخدموا سكة الحجاز باستمرار، هم على الترتيب من: روسيا وأواسط آسيا والأناضول وسورية ومصر وإيران والعراق. وكان معظم المسافرين من ركاب الدرجة الثالثة، ولم يشكل ركاب الدرجة الأولى والثانية أكثر من ٥,٧٪ من عدد المسافرين. وكانت أجرة الراكب تتراوح ما بين ليرتين إلى ثلاث ليرات ونصف تركية. وهو عشر المبلغ الذي كان يتكلفه الحاج قبل السكة (أوكسنوالد).

وكان يقوم بالخدمات داخل القطارات وفي المحطات عمال مسلمون، أصبحوا بفضل الخبرة والدربة في مستوى كافٍ للقيام بواجباتهم. أما الشحن فكان حجمه ضئيلاً إذا ما استثنينا فرع حيفا– درعا (هكر). وكان يشرف على تشغيل الخط أربعة أقسام للإدارة والشحن والسير والصيانة، وكان القسم الأخير يتولّى استكمال المباني والتجهيزات وصيانة الآليات، وإصلاح ما يلحق الخط وملحقاته من أضرار.

ونظرًا للدور المهم الذي أداه خط حديد الحجاز أثناء الحرب وقبلها أصبح هدفًا عسكريًا للانجليز الذين كانوا يتحينون الفرص للقضاء عليه، فقاموا بتحريض القبائل العربية الثائرة على الحكم العثماني، وانتدبوا للمنطقة الضابط العسكري (لورنس)، فقام هذا بتنظيم الهجمات على الخط الحديدي في الأجزاء ما بين معان والمدينة المنورة، فنزعت القضبان في بعض المناطق، كما دمّرت بعض المحطات وبعض القاطرات وأصبحت هذه الأجزاء غير صالحة للاستعمال.

وبعد انتهاء الحرب وانسحاب العثمانيين من بلاد الشام، ودخول جيوش الحلفاء، قسم الخط الحجازي في ثلاثة أقسام: فاستولت بريطانيا على فروع الخط في فلسطين، كما تسلمت الحكومة العربية الفيصلية القسم الواقع في الأراضي السورية، وظل القسم الباقي في حوزة الحكومة الهاشمية في الحجاز. وعلى الرغم من أن الجزء الحجازي هو أطول الأجزاء، فإن نصيبه من المعدات كان الأقل، بالإضافة إلى ما لحق أجزاءه من تخريب بين معان والمدينة. وعلى أي حال فقد كانت حالة الخط عند دخول الحلفاء جيدة، وأما حالته من حيث المعدات

فقد وصفت بأنها أفضل من مثيلاتها لدى الدول التي دخلت الحرب (محمد كرد علي). وقد حاولت الحكومة الفيصلية في دمشق إصلاح الخط، فأنشأت مديرية عامة له، قامت ببذل الجهود لإصلاحه، وعلى الرغم من قلة الموارد المالية الكافية لهذه الغاية فإن الفنيين تمكنوا من ترميم الأجزاء المعطلة بصورة سطحية ومؤقتة، ووصل القطار من المدينة المنورة إلى دمشق لأول مرة بعد الحرب في (١٣٣٨/أواخر ١٩١٩)، وقد استقل هذا القطار الأمير علي بن الحسين- الذي تولى ملك الحجاز بعد أبيه فيما بعد - أثناء زيارته لأخيه فيصل في دمشق، ولكن سير القطار لم يكن منتظمًا بعد ذلك، لعدم إتمام عملية الإصلاح بصورة فنية. وبقي الحال على ذلك حتى انتهاء الحكم العربي الفيصلي ودخول الجيش الفرنسي لسورية (ذي القعدة ١٣٣٨/ ٢٠تموز -يوليه ١٩٢٠) (الخيمي).

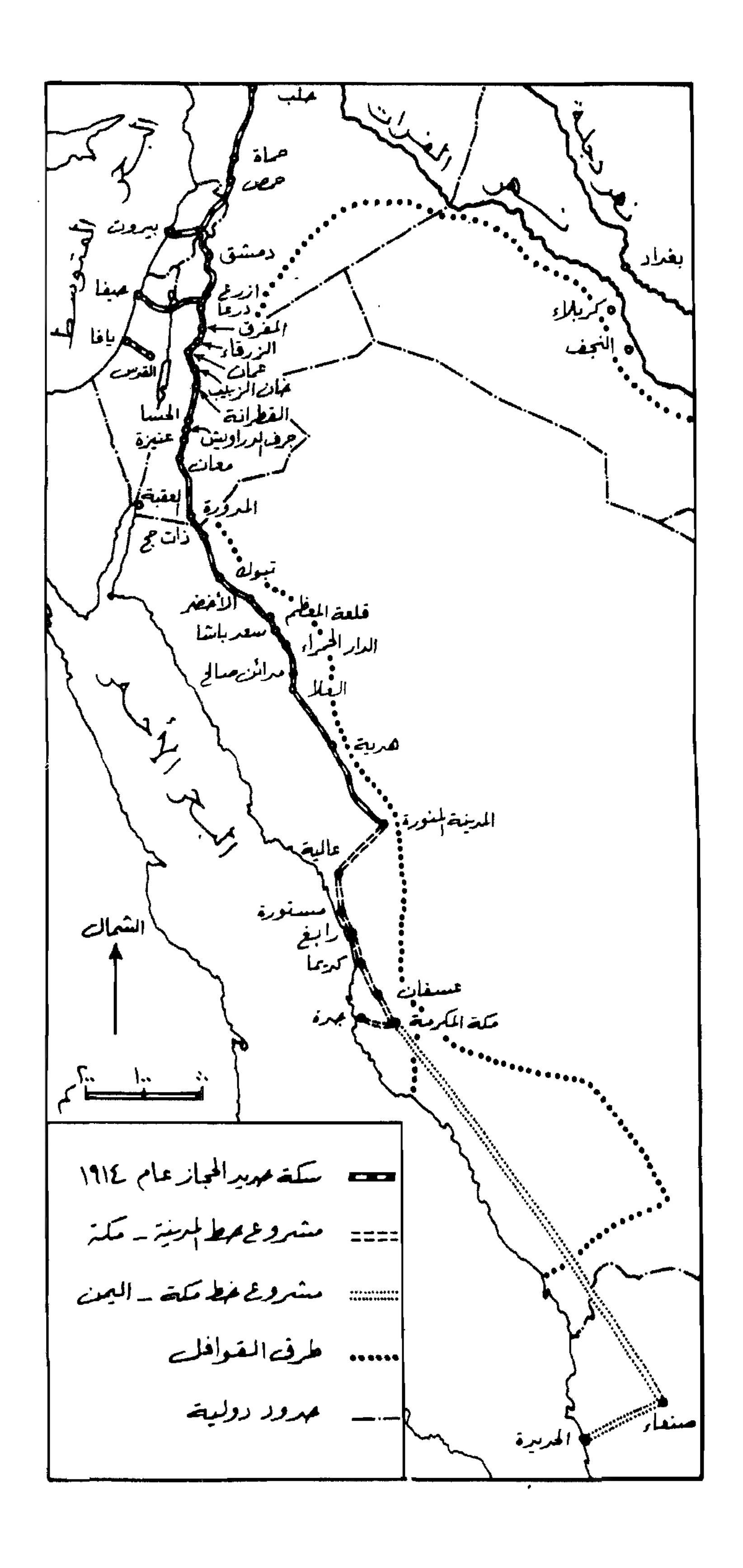
وفي سنة (١٣٤١/ ١٩٢٢) جرت محاولة ثانية لإصلاح الخط الحجازي، فقد بذل الملك الحسين بن علي جهوده لإعادة تسيير الخط واستثماره، ووصل إمارة الأردن بمملكة الحجاز، فأمر بتأليف لجنة يعهد إليها النظر في شؤون الخط، وعمل الترميمات اللازمة، فباشرت اللجنة عملها في شرق الأردن أولاً، وتبرع الملك حسين بمبلغ أربعة آلاف جنيه مصري للقيام بالإصلاحات الأولية، وقامت اللجنة بالفعل بإصلاح الجسور والمنافذ واستمرت في عملها إلى أن تمكّنت من إيصال الخط إلى المدينة المنورة، إلا أن هذه الإصلاحات لم تكن كافية نظرًا لقلة الأموال المتوفرة لذلك، ولهذا فرضت بعض الضرائب وخصصت بعض الموارد للتمكن من القيام بالإصلاحات الأساسية، فاقتطعت إعانات إجبارية من رواتب الموظفين، وخصصت واردات الطوابع الحجازية التي تستوفي داخل المنطقة لهذا الغرض، وقد بلغت جملة هذه الموارد خلال مدة إصلاح الخط أربعة آلاف جنيه بالإضافة إلى تبرع الملك حسين. وكانت الإصلاحات تحتاج إلى ١٠٠ ألف جنية على الأقل ليستأنف الخط سيرته الأولى (الذقن). وبالفعل استأنفت القطارات سيرها بين دمشق والمدينة وبالعكس، وتمكّنت في فترة وجيزة من نقل أكثر من أربعة آلاف زائر إلى المدينة المنورة ذهابًا وإيابًا، وقد بلغت الواردات من الزوار وعمليات النقل التجاري أربعين ألف جنيه مصري (محمد كرد علي). ونظرًا لحاجة الخط للإصلاحات وعدم وجود فنيين ماهرين، تراجع السير على الخط شيئًا فشيئًا حتى توقّف بعد ذلك.

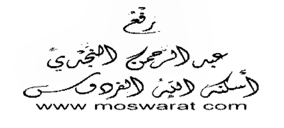
وقد توالت الجهود في أعقاب الحرب العالمية الثانية لإصلاح الخط، وشجع على ذلك قيام الجامعة العربية، وحصول بعض الدول العربية على استقلالها، وعقدت عدة اجتماعات بين ممثلي سورية والأردن والسعودية في السنوات (١٣٦٧/١٩٤٧و ١٣٧١/١٩٥٣، ١٣٧٤/١٩٥٤). وفي (جمادى الآخرة ١٣٧٤/ كانون الثاني- يناير ١٩٥٥) عقد مؤتمر في الرياض ضمّ وزراء مواصلات الدول الثلاث المعنية، وتبرعت السعودية بمبلغ مليوني ليرة سورية للبدء بالدراسات اللازمة لإعادة تشغيل الخط، وقدرت النفقات الكلية بأربعين مليون ليرة سورية، وتعهدت كل دولة بدفع حصتها من هذا المبلغ، غير أن الجهود تعطلت ثم جاءت كارثة (١٣٨٧/١٩٦٧) فانشغل العرب بنتائجها، وصرف النظر عن المشروع، ثم عادت المباحثات في أعقاب حرب (١٣٩٣/١٩٧٣) واتفق على مدّ خط من النوع الواسع بدلاً من الخط الضيّق، وطرح العطاء أمام الشركات للقيام بالدراسات اللازمة، فوقع الاختيار على شركة (دوش كنسول)، وقامت هذه الشركة في مدى سنتين بإعداد دراسة مطبوعة في عشرين مجلدًا كاملة الخرائط والتخطيطات والمصورات وسلّمت منها نسخة للهيئة العليا للخط الحديدي الحجازي- التي كانت الدول الثلاث قد شكلتها سابقًا- وعقدت اللجان اجتماعات بعد ذلك، اطّلعت فيها على الدراسة المذكورة، ثم انعقد اجتماع في (جمادى الأول ١٤٠١/آذار ١٩٨١)، قرر المجتمعون فيه اعتماد الدراسة السابقة وطلب من كل دولة تنفيذ الجزء المار من أراضيها وفقًا لما جاء في الدراسة السابقة وهكذا عادت الأمور من حيث بدأت.

ولقد كان لإنشاء سكة حديد الحجاز نتائج معنوية وأخرى مادية، ففي المجال المعنوي يمكن أن نرى في المشروع أداةً لبعث الحيوية في جسم مريض. كما أن مدّ السكة عزز الثقة في نفوس المسلمين، وحوّل حركة الجامعة الإسلامية إلى برنامج عمل أدّى إلى التفاف بعض المسلمين حول شخص عبد الحميد الثاني، فأقبلوا على التبرع للمشروع باعتباره تجربة تبيّن مدى قدرة المسلمين والدولة العثمانية معًا في الرد على أوروبا وتكنولوجيتها الحديثة (أنطونيوس). وأما النتائج المادية فتجدها ظاهرةً في الأقسام الشمالية من الخط، أي من دمشق إلى معان، ومن دمشق إلى درعا وحيفا، أكثر من الأقسام الجنوبية لكون الأجزاء الشمالية أكثر سكانًا وعمرانًا، وأرضًا صالحة للزراعة، وربوعها تشتمل على كثير من المواقع

الأثرية والسياحية. وقد ازداد النشاط التجاري لمدينة دمشق، إذ هي مركز تجمع الحجاج ومنطلقهم إلى الأماكن المقدسة، وساهمت محطتها والمرافق الكثيرة التابعة لها في عملية الانتعاش الاقتصادي للمدينة. وكان للسكة أثر بارز في نمو وتطور جميع المدن الواقعة عليها مثل درعا مركز حوران الغني بالحبوب، فقد سهلت السكة تصدير هذه الحبوب عن طريق ميناء حيفا، وكان لطريق السكة فضل في تشجيع الزراعة، وبخاصة في المناطق المجاورة للخط وحول المحطات، حيث كان السكان قادرين على تسويق منتوجاتهم الزراعية والحيوانية. وكذلك نمت وتطورت مدن المحطات مثل الزرقاء وعمّان ومعان وتبوك والعلا وغيرها (محمد كرد علي). وقد بني (فيما بين ١٣٢٦-١٣٢٧/١٩٠٨-١٩٠٩) المحجر الصحي في تبوك بالتعاون مع المكتب الصحي الدولي في استانبول، وكان يتّسع لأربعة آلاف حاج دفعة واحدة، وكان لسعة هذا المركز ورخصه أثر في زيادة عدد المسافرين بواسطة سكة حديد الحجاز (أوكسنوالد). وقد رافق هذا النمو والتطور حركة عمرانية تمثلت في المباني العامة كالمدارس ومراكز الصحة ومرافق المحطات بالإضافة إلى الخانات والمساجد والمطاعم والمتاجر ومراكز البريد وغيرها. وأحسن مثال على ذلك ما شهدته مدينة حيفا التي بلغت قيمة وارداتها لسنة ١٣٣١/١٩١٢مبلغ ٣٧٥,٠٠٠ جنيه استرليني (EI). وكان للسكة أثر بارز أيضًا في المدينة المنورة، فلا تزال محطتها الكبرى وبعض المنشآت الملحقة بها، شاهدًا على دور سكة حديد الحجاز في نمو المدينة وتقدمها الاقتصادي والعمراني والاجتماعي، وقد أنيرت المحطة والمسجد النبوي بالكهرباء قبل أي مكان آخر. وساهم الخط الحديدي في تنشيط الحركة السياحية وبخاصة إلى المواقع الأردنية حيث تكثر الأماكن الأثرية والسياحية، وساهمت السكة في استقرار الأمن، وتحوّل كثير من البدو نحو الحياة الحضرية، واستقر عدد كبير من مهاجري الشركس الذين كانوا هائمين في شمال بلاد الشام، فأسسوا القرى والمزارع في عدد كبير من الحواضر الأردنية مثل: عمّان وصويلح ووادي السير وجرش والسخنة. وكان للسكة نتيجة ربما لم تخطر على بال المسؤولين الأتراك، وتتمثل في دور السكة في نقل الأفكار بسرعة وسهولة، مما كان له أثر سلبي على نظام الحكم العثماني. وقد أسهمت السكة في استقرار الأمن فأصبح الثوار والمتمردون يخشون أن تبلغهم يد الدولة أينما كانوا. أما دور السكة في الحرب فقد ألمحنا إليه سابقًا، ويكفي القول بأن الفضل في صمود القوات العثمانية جنوب

فلسطين لمدة سنتين يعود لهذه السكة التي سهلت نقل التعزيزات والإمدادات إلى جبهات القتال في زمن يسير، كما يعود إليها الفضل في صمود الحامية التركية في المدينة المنورة إلى ما بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بشهرين (أوكسنوالد). ورغم كل ما يمكن أن يقال حول الخط الحديدي الحجازي، فإن دواعي توثيق الروابط العربية والإسلامية، وكل ما من شأنه خدمة المصالح القومية والوطنية تتطّلب العمل الجاد المخلص لإعادة بناء هذا الخط وتفريعاته بصورة جديدة تستوعب كل جديد في تكنولوجيا المواصلات الحديثة.


حلب
حماة
حمص
بيروت
دمشق
حيفا
يافا
القدس
ازرع
درعا
المفرق
الزرقاء
عمان
خان الزبيب
القطرانة
الحسا
عنيزة
جرف الدراويش
معان
العقبة
المدورة
ذات حج
تبوك
الأخضر
قلعة المعظم
سعد باشا
الدار الحمراء
مدائن صالح
العلا
هدية
المدينة المنورة
عالية
مستورة
رابغ
عسفان
مكة المكرمة
جدة
صنعاء
الحديدة
بغداد
كربلاء
النجف
الفرات
الشمال
سكة حديد الحجاز عام ١٩١٤
مشروع خط المدينة ـ مكة
مشروع خط مكة ـ اليمن
طرق القوافل
حدود دولية



المصادر والمراجع:

- محمد عارف بن السيد أحمد المنّير الحسيني الدمشقي: **السعادة النامية الأبدية في السكة الحجازية الحديدية**، نشرة لانداو (Landau) في كتابه: **سكة حديد الحجاز**.
- وجيه الخيمي: الخط الحديدي الحجازي، ماضيه وحاضره ومستقبله، **مجلة الفيصل** عدد (٣٨) السنة الثالثة يناير ١٩٨٠.
- سيد محمد الذقن: سكة حديد الحجاز، **المقتطف** (مج ٢٩)، ١٩٠٤ (٩٧٠-٩٨٠).
- أحمد المرواني: **الخط الحديدي الحجازي**، جامعة دمشق ١٩٥٩.
- سعيد الأفغاني: **قصة الخط الحديدي الحجازي لم تتّم فصولاً**، الباحثون الغربيون يخفون أن انجلترا وفرنسا وليس العرب هم الذين ضربوا الخط وأوقفوه، **مجلة العربي** ٢٨٠ (١٩٨٢).
- ابراهيم رفعت باشا: **مرآة الحرمين والرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية** (١-٢)، القاهرة ١٩٢٥.
- عبد الحميد الثاني: **مذكراتي السياسية ١٨٩١-١٩٠٨**، ط٣، بيروت ١٩٨٢.
- عبد العزيز محمد عوض: **الإدارة العثمانية في ولاية سورية** (١٨٦٤-١٩١٤)، القاهرة ١٩٦٩.
- محمد كرد علي: **خطط الشام** (١-٥)، ط٢، بيروت ١٩٧١.
- الملك عبد الله بن الحسين: **حقبة من تاريخ الأردن، الآثار الكاملة**، بيروت ١٩٧٣.
- جورج انطونيوس: **يقظة العرب، تاريخ الحركة القومية**، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، بيروت ١٩٦٦.
- ساطع الحصري: **البلاد العربية والدولة العثمانية**، ط٣، بيروت ١٩٦٥.
- سيد عبد المجيد بكر: **الملامح الجغرافية لدروب الحج**، الكتاب الجامعي ٦، ط١، جدة ١٩٨١.
- محمد لبيب البتنوني: **الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني، خديوي مصر**، ط٢، القاهرة ١٣٢٩.
- بروكلمان، كارل: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط٥، بيروت ١٩٦٨.
- سعد أبو دية: الدور التاريخي للخط الحديدي الحجازي، **مجلة المؤرخ العربي** ٣٤ (١٩٨٨) ص (٥٨-٦٦). **مجلة المنار**، الأعداد (٣) ١٩٠٠، و (٥) ١٩٠٣، و (٦) ١٩٠٣. **الهلال**، العدد (من أول تشرين الأول - اكتوبر ١٩٠٤ - آب - أغسطس ١٩٠٥) الأهرام، القاهرة تموز - يوليه ١٩٠٤. **ثمرات الفنون**، بيروت ١٨٩٨-١٩٠٨.

- Durham, University, School of Oriental studies: Sudan Archives, Reports and Papers relating to the Hijaz Railway including a secret report by H. Channer, June 1909 (5pp.) 1906-1909.
- Insha Allah, Muhammad: The History of Hamidian Hedjaz Railway project, Lahore, Central Printing works,
- n.d. Landau, Jacob M: The Hejaz Railway and the Muslim Piligrinage: a case of Ottoman political propaganda, Detroit; Wayne State Univ. Press 1971.
- Ochsenwald, William: The Hijaz Railroad, University Press of Virginia, U.S.A. 1980.
- Zaidi, Z.H.: The Hidjaz Railway, E12 1971. vol.III, pp. 364-65
- India office Archives (London) Political and Secret Department L/P and S. 10/12, 3142/1903 «Arabia; The Hedjaz Railway, 1901-1912» and associated papers.
- Lawrence, T.E.: Seven Pillars of Wisdom, Gardencity, N.Y. Double day, 1935.
- Tresse, Rene: Le Pelerinage Syrien auxvilles saintes del›Islam, Paris Chaumette 1937.
- Dominan, L. Rail Roads of Turkey, American Georgraphical Society of New York Bulletin, (47) 1915, pp. 934-40.
- Great Britain, Foreign Office: F.O., No. 78/5452, 368, 371, 618/3, 882/25-28.
- France Minister des Affairs Etrangeres: Turquie. Chemins de Fer:

Reseau Asiatique, 1898-1918.

- Indes, Politique interieure; Arabie- Yemen, 1806-1914.
- Turquie, Politique interieure; Syrie, Liban 1899-1914.
- Grant, C.B. The Syrian Desert, Caravans, Travel, and Exploration, London 1937.
- Hecker, M:Die Eisenbahnen in der asiatischen Turkei, Archive fur Eisenbahn wesen (Berlin), xxxvii (1914), 789-91, 797-98, 1062-69, 1306-7,1310-11,1315-16.
- Issawi, Charles: The Economic History of the Middle East 1800-1914. Chicago, 1966.
- Al-Amr, Saleh Mhammad: The Hijaz under Ottoman Rule 1869-1914; Ottoman Vali, The Sharif of Mecca, and The Growth of British Influence, Riyadh University Publications, 1978.
- Ali Vahbi Bey, Comp. Avent la debacle de la Turquie Pensees et souvenirs de l›ex Sultan Abdul- Hamid, Paris. Attinger freres, 1922.
- Bidwell R: (ed) correspondence respecting the Affairs of Arabia, 1905-1906, London, 1971.



أهمية حلب بين المتوسط والفرات

على طريق التجارة العالمية

نظراً لأهمية حلب عبر التاريخ، فقد حظيت بعناية الباحثين قديماً وحديثاً وتناولت الكتب والمقالات تاريخ هذه المدينة العريقة ومعالمها المختلفة[1]. وبالإضافة إلى عناية الباحثين بأنشطة المدينة ودورها في الحضارة العالمية، فقد تناول التأليف عبر العصور ذكر أعلامها ومن ذاع صيته فيها[2]، ومما يلفت النظر أن معظم المؤلفات عن حلب تحمل ألفاظ الذهب والدرر، مثل كنوز الذهب في تاريخ حلب أو نهر الذهب في تاريخ حلب، أو معادن الذهب، أو الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، أو در الحبب في تاريخ أعيان حلب أو اليواقيت والضرب في تاريخ حلب وغير ذلك كثير، ولعل ذلك يعكس الصورة الجليلة لمدينة حلب في عيون ناظريها. وحلب مدينة عريقة من أقدم مدن العالم، ويعود تاريخها إلى الألف الثالثة قبل الميلاد في بعض الأقوال، حيث كانت إحدى أكبر ممالك الأموريين في الشرق، كما كانت مركزاً لعبادة الآلهة (حدد)، وفي سبب تسمية حلب بهذا الاسم روايات متعددة، فقد ورد ذكرها في رقم مملكة إبلا باسم (أرمان) كما ورد اسمها (حلبا) في رقم ماري (١٧٥٠ق.م) عاصمة لمملكة يمحاض (يمحد)، وقيل بأن كلمة حلب تعني في اللغة الأمورية، معادن الحديد والنحاس، أما في الآرامية، فاسم حلب محرف من (حلبا) التي تعني البياض نسبة إلى بياض تربتها وحجارتها، وقد ذكر خير الدين ألأسدي أن كلمة حلب مؤلفة من كلمتين (حل-لب) أي مكان التجمع، وفي الأساطير ذكر أن المدينة أخذت اسمها من تكرار إبراهيم الخليل عليه السلام لحلب غنماته

---

(١) أنظر سبط بن العجمي الحلبي (ت٨٨٤هـ/١٩٧٩م) **كنوز الذهب في تاريخ حلب**، جـ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، دار القلم العربي، حلب ص ص ٧-٤٠. سيشار إليه عند وروده: سبط بن العجمي، كنوز. شوقي شعث، حلب في كتب البلدانيين العرب من القرن الثالث الهجري حتى الخامس عشر الهجري، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص٧-١٥. سيشار إليه عن وروده شعث: حلب.

(٢) أنظر محمد راغب الطباخ، ، **إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهبا**،المطبعة العلمية بحلب (عدة أجزاء).سيشار إليه عند وروده:الطباخ ،إعلام. كمال الدين ابن العديم، بغية الطلب بتاريخ حلب (عدة أجزاء)، كامل ألغزي **نهر الذهب في تاريخ حلب**، قدم له وصححه وعلق عليه. د. شوقي شعث، والأستاذ محمود حريتاوي ، دار القلم، العربي بحلب، (عدة أجزاء). سيشار إليه عند وروده:،ألغزي ، نهر الذهب.

وبقراته، وتوزيع هذا الحليب على المحتاجين[١]، وقيل أنها إنما سميت حلب باسم من بناها، وهو حلب بن المهر بن حيص بن عمليق من العمالقة[٢]. وسميت بالشهباء والبيضاء لبياض أرضها، لأنها محاطة بسهل أبيض طباشيري[٣].

ذكرت حلب لأول مرة في القرن العشرين قبل الميلاد بنفس الإسم Khalap في الحثية وفي المصرية Khrb وفي الأكادية Khalman ، Khalwan ولعلها تعود إلى عهود سابقة لهذا التاريخ[٤]. لذلك عاصرت هذه المدينة حضارات: الآراميين، والأكاديين، والحيثين، وحضارات الغرب، اليونانية، والهللنستية والرومانية.

وكانت نقطة لقاء بين حضارات الشرق والغرب، وساحة تلاقي بين هذه الحضارات، ورغم قساوة عوادي الزمان التي مرت بهذه المدينة، فقد كانت إرادتها للحياة أقوى من كل التحديات، فهي إن سقطت تنهض بسرعة، فارعة الطول بهية الطلعة، هذه حلب الشهباء المدينة المعطاءة عبر الزمان.

تقع مدينة حلب على درجة طول ٣٧,٦٨,٥ شرقاً و ٣٦,٢٠ شمالاً في الهضبة الداخلية السورية، على ضفة نهر قويق الذي ينحدر من منحدرات جبال طوروس[٥].

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، «حلب» The Encyclopedia of Islam, New Edition, Prepared by A Number of Leading orient lists, volume III, Leiden-London, 1971, Halab, p. 85-91 .284/2. سيشار إليه :E.I ، وانظر محمود الحريتاوي، **حلب أسواق المدينة من الفلكلور الشعبي** (٣) منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١، ص٥، ٩. سيشار إليه: حريتاوي، حلب. وانظر خير الدين الأسدي، **حلب، الجانب اللغوي من الكلمة، وأحياء حلب وأسواقها**. عبد الفتاح رواس، قلعه جي وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٦م. سيشار إليه عند وروده: الأسدي، حلب.

(٢) رضى الدين محمد بن إبراهيم بن الحنبلي الحنفي (ت٩٧١هـ/١٥٦٣م) **الزبد والضرب في تاريخ حلب**، تحقيق الدكتور محمد التونجي، الكويت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م. سيشار إليه: رضي الدين، الزبد، انظر شوقي شعث، مرجع سابق، ص١٦٥، وفي تسميتها وبنائها أقوال كثيرة.

(٣) رضى الدين الحنبلي، المرجع السابق. وأنظر شوقي شعث، المرجع السابق، ص١٦٥. E.I.Halab.P. 85

(٤) اعتماداً على ما كتبه: E.I.J. Sauvaget, Alep. P. 85

(٥) Ibid وقويق نهر صغير يجري في الشتاء والربيع ويقطع في الصيف، وقد ذكره الشعراء في أشعارهم كثيراً، خصوصاً أبا عبادة البحتري، فإنه كرر ذكره في عدة قصائد، أنظر ابن خلكان، أبي العباس محمد بن محمد (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**، تحقيق يوسف علي الطويل ومريم قاسم الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م. ج٥، ص٩٦-٩٧، سيشار إليه: وفيات الأعيان.

بنيت حلب في مكان تحققت فيه كل عوامل القوة والنماء، حيث توفر الماء والتربة الخصبة، مما أدى إلى إزدهار زراعتها، كما كانت ملتقى طرق القوافل بين الشرق والغرب، فنشطت تجارتها وعظمت ثرواتها، وزادت حسناً على حسن بطيب هوائها، وقد قيل إن الاسكندر الكبير مر بها وبصحبته الفيلسوف اليوناني أرسطو، فلما عرف الأخير صحة هوائها استأذن الاسكندر بالإقامة فيها(١). أما الموارد الأساسية لهذه المدينة في القديم فتأتي من الزراعة، ورعي المواشي، ففي أرضها يزرع التين والزيتون والعنب الذي تتعدد أنواعه، ثم جادت في حلب زراعة القطن والفستق المعروف باسمها «الفستق الحلبي» وهاتان المادتان أسهمتا بالتجارة الحلبية(٢). ذكر ياقوت بعد مشاهدات في حلب قائلاً: واستدللت أن الله خص حلب بالبركة، وفضلها على جميع البلاد، فمن ذلك أنه يزرع في أراضيها القطن والسمسم والبطيخ والخيار والدخن والكروم والذرة والمشمش والتين والتفاح عذباً لا يسقى بماء المطر، ويجيء مع ذلك غضاً روياً يفوق ما يسقى بالماء والسيح في جميع البلاد، وهذا لم أره فيما طوفت من بلاد في غير أرضها(٣)، وقد اشتهرت حلب بخزن زيت الزيتون في حباب كبيرة، ولما بلغ الروم إلى هذه المدينة عام ٣٥١هـ/١٩٦٢م عمدوا إلى هذه الحباب فصبوا فيها الماء حتى فاض الزيت على وجه الأرض(٤). ونظراً لقدم تاريخ حلب وموقعها الهام فقد شهدت صراعات وخضعت لأقوام شتى، وقامت فيها مملكات وإمارات، وهدمت أسوارها مرات، وخربت مساكنها وشرد سكانها، فقد مر بها الحيثيون والميتان والأشوريون والمقدونيون والفرس والرومان حتى جاء الإسلام، فأصبحت قلعة من قلاعه وترساً من تروسه تذود بما استطاعت عن شماله حتى عرفت بعاصمة الثغور(٥).

---

(١) شوقي شعث، حلب، ص٦.

(٢) E.I. O.P.Cit. P. 85

(٣) معجم البلدان، ٢/٢٨٤-٢٨٥ (حلب). القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر - بيروت ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص١٨٣. سيشار إليه: القزويني، آثار البلاد.

(٤) مسكوية، أبو علي أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ) **تجارب الأمم**. حققه وقدم له: أبو القاسم أمامي، طبعة طهران، ٢٠٠٢م، ج٦، ص٢٣٥. سيشار إليه: مسكويه تجارب الأمم. آدم متز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، نقلة إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي ط٤، بيروت ١٣٨٧/١٩٦٧، ص٢/٣١٠. سيشار إليه: متز، الحضارة الاسلاميه.

(٥) E.I.OP.Cit.P.85-86

إن تكالب الأمم على حلب له ما يبرره فهي مدينة غنية في محيط جاف، ومن هنا نجد أنها كانت سوقاً للقبائل البدوية الكثيرة والكبيرة التي كانت ترداد السهول الشاسعة في شمال سوريا.

خضعت حلب للرومان وأصبحت جزءاً من الولاية السورية، وتمتعت بفترة من السلم، مما ساعدها في بناء سوق كبيرة، وتحولت إلى مجتمع مسيحي، وتمتعت بنشاط اقتصادي خلال العهد البيزنطي، حيث استوطنها عدد من اليهود ثم تناموا بسرعة وانتشرت مساكنهم داخل المدينة. كانت القوافل التنوخية ذات الأصول العربية، والتي اتخذت مدينة (الحضر) قاعدة لها، لا تنقطع عن حلب لجلب حاجاتها وبيع منتجاتها(١).

تعرضت حلب لهجوم فارسي سنة ٥٤٠م بقيادة الملك خسرو الأول أسفر عن سقوطها وحرقها، ثم أعيد بناؤها على يد الإمبراطور الروماني جستنيان، الذي أقام كاتدرائية جميلة، لكن أطماع انتيوخس وتهديد الفرس حالت دون انتعاش المنطقة(٢).

في سنة ١٦هـ/٦٣٦م ظهرت القوات الإسلامية بقيادة خالد بن الوليد أمام حلب، ثم تبع ذلك جيوش أخرى بقيادة أبي عبيدة الذي أعطى أماناً لأهل حلب على حياتهم وحصونهم وكنائسهم مقابل دفع الجزية(٣).

وأقيم أول مسجد في داخل حلب في الشارع الرئيسي، ثم سورت ساحاته، وتبعت حلب إلى جند حمص ثم إلى جند قنسرين، و لم يكن لها أي دور إداري أو سياسي في العهد الأموي، لكن تزايد سكانها دعا الخليفة الوليد بن عبد الملك أو أخيه سليمان أن يبني فيها مسجداً عظيماً، لا زال قائماً حتى أيامنا هذه(٤).

وفي العصر العباسي الأول، ظلت كباقي سورية، لم تلق العناية اللازمة ثم وقعت بيد أحمد

---

(١) E.I, Ibid. P.85.

(٢) Op. cit. P. 85-86.

(٣) الأزدي، محمد بن عبد الله، (ت حوالي ١٧٨هـ/٧٩٤م) **فتوح الشام**، تحقيق عصام عقلة ويوسف بني ياسين، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية، اربد-الأردن، ٢٠٠٥م، ص٣٤٦. سيشار إليه: الأزدي، فتوح. البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م)، **فتوح البلدان** بعناية رضوان محمد رضوان المكتبة التجارية، مصر، ص١٥١ .سيشار إليه: البلاذري، فتوح.

(٤) E.I.P.86.

بن طولون، ثم أخذت من قبل القرامطة. سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م، وفي سنة ٣٢٥هـ/٩٣٦م تبعت لمحمد الإخشيدي الذي عين شيخاً لقبيلة كلاب، الأمر الذي شجع أفراد هذه القبيلة القدوم، إلى شمال سورية، والتغلغل داخل المدينة. استولى الحمدانيون على حلب سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م على يد الأمير الشهير سيف الدولة الحمداني، وهذا أول تاريخ تصبح فيه حلب عاصمة دولة ومركزاً للحكم، كما أصبحت مركزاً مزدهراً للأدب بفضل الأمير الحمداني، ولا يذكر سيف الدولة إلا ويذكر معه: المتنبي، وأبي فراس الحمداني، وابن نباته، وابن خالوية، وابن جني، وكثير غيرهم ممن هم أقل شهرة[١].

وممن ترتبط أسماؤهم بحلب الشاعر كشاجم الذي وصف بأنه بحر ماله شط، وقد تغنى كثيراً بحلب[٢]، واعتماداً على ما جاء عند الجغرافيين العرب في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين)، نجد أن بلاد الشام في العصر العباسي كانت تحظى بشبكة من الطرق الكثيفة والمنظمة لدرجة تبعث على الإعجاب، وبخاصة في الأجزاء الغربية المكتظة بالسكان، وقد قسم الجغرافيون بلاد الشام عند حديثهم عن دروبها ومسالكها إلى كور، بدأوها في الغالب بكور الثغور الشامية والجزيرية، ثم كورة حلب وما يتبعها، وكورة حمص وكورة دمشق وكورة الأردن، وكورة فلسطين وقد أوجز هؤلاء الحديث عن الطرق العرضية التي تقطع الصحراء الفاصلة بين إقليمي الشام والعراق، ومن أشهر الطرق العرضية التي تقطع الصحراء نحو البحر المتوسط تلك التي تخرج من منبج إلى الثغور الشامية، لتربطها بكل من حلب وقنسرين وأنطاكية والاسكندرونة على البحر الأبيض المتوسط[٣]. ولقد أورد كل من ابن خرداذبة وقدامة بن جعفر أسماء مدن الثغور ومقدار المسافات بين كل مدينة وأخرى وقدروها بالسكك (البرد)[٤]. وقد قدرها المقدسي بالأيام والمراحل والبرد[٥]، ويستدل من التقاء الطرق في

(١) E.I. O.P.Cit. P. 86

(٢) **ديوان كشاجم،** طبعة بيروت، ١٢١٣هـ/١٧٩٨م، ص١١٦. سيشار إليه: كشاجم، الديوان.

(٣) قدامه بن جعفر (٣٢٨هـ/أو٣٣٧/٩٤٨،٩٣٩م) **الخراج وصناعة الكتاب،** تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، ١٩٨١، ص١٢٩. سيشار إليه، قدامه، الخراج. وانظر في هذا الكتاب، البريد وطرق المواصلات في بلاد الشام في العصر العباسي.

(٤) البريد وطرق المواصلات، المرجع السابق.

(٥) المقدسي، محمد بن أحمد (٣٧٥هـ/٩٨٥م) **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم،** طبع في مدينة ليدن، بريل

حلب أن هذه المدينة كانت ملتقى المواصلات التي تربط مناطق الثغور وشمال بلاد الشام وجنوبها والبحر الأبيض المتوسط[١].

وقال الأصطخري عنها، أنها على مدرج طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات[٢].

ولعل الأبواب السبعة لحلب تشير إلى كثرة الطرق المؤدية إليها والخارجة منها، مثل باب حمص وباب الرقة وباب فنسرين، وباب اليهود – لعله كان يفضي إلى حي اليهود في المدينة – وباب العراق، وباب دار البطيخ، وباب أنطاكية، ومن ثم باب الأربعين[٣].

مر بالمدينة الرحالة ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي ووصف سورها، وقال أنه يرتفع خمسة وعشرين ذراعاً، كما وصف قلعتها العظيمة المنيعة، وقال إنها مدينة عامرة، وفيها تحصل المكوس عما يمر بها من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق، ويذهب إليها التجار من جميع هذه البلاد[٤].

ويلاحظ أن القوافل اتخذت الطرق القديمة، ما بين حلب والفرات، وذلك إما بإتباع نهر الفرات بالاتجاه الشمالي الغربي إلى مسكنه. وهي (ثباسكوس القديمة The Ancient Thapascus) ثم تتجه غرباً لتعبر الواحات القديمة لمدينة الطيبة(Taiyiba) ثم إلى حلب[٥].

وتوجد طريق أخرى أبعد شمالاً كانت مستعملة قبل الفترة الرومانية وتصل ما بين أعالي الفرات عابرة الفرات في زيوقما (Zeugma) أوتل الأحمر، وتعبر إلى شمال غرب

١٩٠٦، ص٥. سيشار إليه: المقدسي،أحسن التقاسيم. صالح درادكة، المرجع نفسه.

(١) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) **معجم البلدان**، بيروت، ١٩٧٩م ٢/٢٨٣–٢٨٤.

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري) المسالك والممالك، تحقيق محمد عبد الجابر ومراجعة محمد شفيق غربال، دار القلم، ١٣٨١هـ/١٩٦١م. ص٤٦. سيشار إليه: الحربي، المسائل.

(٣) البريد وطرق المواصلات، المرجع السابق، ص٢٠٣، وهناك خلاف حول عدد الأبواب وأسمائها.

(٤) ناصر خسرو (ت٣٧٥هـ/١٩٨٥م) سفر نامه، **رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري**، نقلها إلى العربية يحيى الخشاب،، ط٣، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٣م، ص٥٦، سيشار إليه: خسرو، سفرنامة، البريد وطرق المواصلات، المرجع السابق نفسه.

(٥) المرجع السابق.

حلب مباشرة إلى أنطاكية بطريق منبج (Herapolis)(١).

لقد أصبحت حلب بعد خراب فنسرين هي المركز التجاري المتوسط بين الشرق والغرب، ومنه تخرج القوافل إلى العراق المتصلة ببلاد فارس ثم بالهند ثم بالصين ثم باليابان وإلى الشام والحجاز واليمن وعُمان والبحرين وإلى مصر وما وليها من إفريقيا وغيرها من الممالك الغربية(٢). ولعظم تجارتها في الزمن السابق، كان يلقبها الفرنج بتدمر الجديدة. وكنت تجد فيها أنفس بضائع هذه البلاد.

ولم تزل حلب بهذه الحالة من النشاط والثراء إلى أن اكتشف البرتغال طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند وجنوب آسيا سنة (٩٠٣هـ/١٤٩٧م)، ولذلك تراجعت التجارة الحلبية، ولم تعد تجني تلك الأرباح السابقة. وتشير الخانات الكثيرة التي أقيمت في حلب والتي لا تقل عن أربعين خاناً، إلى حجم الوجود الأجنبي في عصرها الذهبي، فقد وصف أحد الرحالة هذه الخانات وقال إنها كانت تغص بالهنود والفرس والترك والفرنج وغيرهم(٣).

وقد ذكر ياقوت الحموي أن من عجائب حلب أن في قيسارية البز عشرين دكاناً للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون ألف دينار، مستمر ذلك منذ عشرين سنة وإلى الآن(٤).

تأتي أهمية حلب من كونها تتوسط رقعة زراعية خصبة تمنح المواد التموينية اللازمة لسكانها وللسكان المحيطين بها، وبخاصة البدو، مما شكل نواة للحركة التجارية المحلية، ثم نشأت فيها مجموعة صناعات لتلبي حاجات الناس من ملابس مستفيدة من محصولها من القطن وصناعات المواد الغذائية، بالإضافة إلى صناعة الزجاج وغير ذلك من الصناعات الأولية. ذكر القزويني أن من عجائبها سوق الزجاج، فإن الإنسان إذا اجتاز بها لا يريد أن يفارقها لكثرة ما يرى

---

(١) C.P.Grant, The Syrian Desert; Caravans, Travel and Exploration, London, 1937, p.35
سيشار إليه: Grant،

(٢) كامل ألغزي، نهر الذهب، ١/١٢٣.

(٣) كامل ألغزي، المرجع السابق، ص١٢٣.

(٤) معجم البلدان، ٢/٢٨٤.

فيها من الطرائف العجيبة، والآلات اللطيفة تحمل إلى سائر البلاد التحف والهدايا، وكذلك سوق المزوقين ففيها آلات عجيبة مزوقة[١]، وأصبحت هذه الصناعات بالإضافة للمنتجات الزراعية قاعدة للحركة التجارية، ثم جاء موقع حلب على الطريق التجاري العرضي الذي يربط بين العراق والشام لينقل التجارة الحلبية إلى مستوى إقليمي، ونظراً لنشاط أبنائها، نمت المدينة بسرعة وأصبحت مركزاً عالمياً للتجارة العابرة، حتى أن سلع الغرب والشرق والشمال والجنوب أصبحت ترد إليها وتصدر منها.

وقد أجمل ألغزي ما يدخل حلب وما يخرج منها من سلع تجارية، فقال: «أما ما يدخل حلب من غيرها من البضائع والسلع في هذه الأزمان فهو جميع بضائع أوروبا والهند والصين واليمن والحجاز والعراقين والروم والأناضول وافريقية والسودان والحبش وغير ذلك من بقية الممالك»[٢].

أما ما يخرج منها إلى غيرها فكثير أيضاً منه: (الحنطة وبقية الحبوب والحرير والصوف والقطن والكتان والقنب والزيت والسمن والتين والزبيب والجوز واللوز والجلود والفستق والدبس والعسل، وغالب أنواع الحيوان كالغنم والبقر والخيول وأنواع الأقمشة والمنسوجات الحريرية المعروفة بالجتارة التي تضاهي جتارة الهند، ونوع منها منقوش بالحرير والقصب على أنواع وأشكال بديعة يعرف الآن بالدوناتو نسبة إلى أسرة دوناتو التي اشتهرت بهذه الصنعة أكثر من سواها، وأنواع الغزلية المعروفة بالالاجة، والشال والنعال الحلبية والجلود والصباغ، وأنواع العقاقير كالسحلب والأفيون والسقمونيا والخشخاش والشوفيز والكسبرة واليانسون والسمسم والصابون والملح والعصفر والصنوبر والمناديل المطبوعة المعروفة بالبصمة، والشريط الفضي المعروف بالتيل)[٣].

وقد أثبت ألغزي جدولاً يبين قيمة الأموال الواردة إلى ميناء الإسكندرونة سنة ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م باعتباره ميناء مختصاً بولاية حلب، ومنه يمكن للدارس أن يتبين مقدار

---

(١) آثار البلاد وأخبار العباد، ص١٨٣-١٨٤.

(٢) نهر الذهب، ١/١٢٤.

(٣) ألغزي، المرجع السابق، ص١٢٤-١٢٥.

تجارة حلب من خلال الواردات والصادرات[١]:

القيمة بالقروش	اسم البلد
١٢٤٣٤٨٠٠	من اوستيريا
٠٢٤٠٩٩٧٥	من روسيا
٠٣٨٢٥٩٠٠	من ايطاليا
٠٢٥٨٠٤٢٣٧	من فرنسا
١٠٠٠٨٢٦٥٢٥	من انكلترا
٠٤٣٣٩٦٣١٢	من البلاد العثمانية
١٨٧,٩٥٧,٧٤٩ قرش	المجموع

الليرة العثمانية = ١٠٠ قرش

وأثبت ألغزي جدولاً آخر لنفس السنة بالصادرات.

القيمة بالقروش	اسم البلد
٤٨٣٣٠٠٠	إلى أمريكا
٠٠٤٣٣١٢	إلى اليونان
٠٠٦٣٠٠٠	إلى اوستريا
٠٠٨٤٨٢٥	إلى ايتاليا
٠٦٤٢٦٠٠	إلى فرنسا
٠٥٣٤٣٧٥	إلى انكلترا
١٣٤٦٧٩٤٢	إلى الممالك العثمانية
١٩٦٦٩٠٥٤ قرش	المجموع[١]

(١) نهر الذهب ١/١٢٦.

ومن المجموع الكلي للواردات والصادرات يتبين أن الواردات أكبر بكثير من الصادرات، وهذه الأموال هي غير الأموال الوطنية للصادرات من حلب عن طريق البر إلى بر الأناضول والجزيرة والعراقين، وبقية سوريا وفلسطين والحجاز واليمن، وغير الأموال المستهلكة في حلب وبرها، الواردة براً من الجهات المذكورة مما يعجز القلم عن إحصائه[١].

هذه المعلومات تعطينا صورة عن الوضع الاقتصادي لمدينة حلب، وهي ولا شك صورة جيدة. لا بد من أن يقوم العمل التجاري بتهذيب طباع أصحابه، فيعرفون بتسامحهم مع الآخرين. وهذه صورة المجتمع المتحضر، ولهذه الأسباب نجد في مدينة حلب عبر العصور أناس من مختلف الطوائف. ولعل وجود هذه الهيئات تعطي المدينة طابعاً خاصاً، إذ كان منها أحياء خاصة باليهود، ويقدر بنيامين التطيلي عدد سكان الحي الخاص باليهود بخمسة آلاف يهودي[٢]، وهذا رقم كبير في زمن التطيلي. وأحياء أخرى خاصة بالنصارى حسب مذاهبهم.

نبغ في المدينة عدد من العلماء في كل المعارف والفنون، كما استقطب العلماء لزيارتها أو الإقامة فيها، حيث كان يجد هؤلاء التكريم من حكام حلب، ولما كان المجال يضيق عن ذكر من ينسب إلى حلب من العلماء، أو من زارها وأقام بها، نكتفي بذكر وثيقة طبية (منشور سلطاني) لأحد أطباء حلب، توضح المستوى الطبي الذي بلغته حلب إبان فترة الحروب الصليبية، وهو من إنشاءات القاضي عماد الدين الأصفهاني الكاتب، جاء فيه:

«لما كان الحكيم فلان حرسه الله متفرداً بصناعة الطب متوحداً في علمه، منطلقاً في تدبيره بدرايته وفهمه، مجرّباً لمداواة الأمراض ومداراتها، واقفاً على أدلّتها في مبادئها وغاياتها، عارفاً بإماراتها، ماهراً في تشريح الأعضاء وحالاتها، عالماً بالعناصر الأربعة واستقصاءاتها ومتفطناً على الأمزجة على اختلافها، في أوقات انحرافها واعتدالها، متمرناً بالوقوف على ما يجب وينبغي لها في حفظ صحتها وإماطة اعتلالها، فارقاً بين الطبائع الغريزية والغريبة، ناظراً في القوى الآتية منها والمجيبة، متوسلاً في تسقيم السقيم وتقسيم

---

(١) المرجع السابق

(٢) آدم ميتز، الحضارة الإسلامية، ١/٨٢. بينما نجد عددهم ألف وخمسماية في رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد، بغداد ١٣٦٤/ ١٩٤٥م.

الأدوية بحسب العوارض على القانون المستقيم، وحماية الناقه بانقائه بالحمية حتى يعود بموفور حصة الصحة حالي البهجة بهيج الحلية، ذا دراية بالجواهر وأعراضها والأجسام وأمراضها، صناعة طبية اكتسبها بتجريبه، ومهر فيها بحسن تدبيره وترتيبه. وأمرناه بأن يواظب على الخدمة بقلعة حلب المحروسة لمداواة أهلها وحيازة مرضاة مرضاها، ومعالجة كل حالة بمقتضاها، ومداواة أهل البلد على حسب ما يكون فيه من الجلد، لمن لا بد من ملازمته، ولمن تتوفر الرغبات على حفظ صحته. وقد قرر له ما يعينه على استثمار صناعته، ويغنيه عن سواه بمواظبته. فليتولّ هذه الخدمة متوفراً على حفظ الصحة حاصلة، واسترجاعها بمشيئة زائلة، مقابلاً كل مرض بوزانه من قوة الدواء، مستقلاً بمعرفة الأدوية المركبة والمفردة على تغاير الأدواء، صائغاً في تركيبها ودفع ضرر بعضها ببعض، فارقاً بين السريع والمتواتر والمتخلف والمنتظم في النبض، مشفقاً على الأعضاء الرئيسة والأجزاء النفيسة بإمالة الخلط عنها قبل استفراغه، والإضافة إلى الدواء ما يعين على إيصاله وإبلاغه، وترجيح الأمر في العرض الهائج هل يستفرغ أو يبدّل مزاجه، والفرق بين ما يدارى فلا يحرك ساكنه وبين ما يبادر فيعاجل علاجه، ومعرفة الدواء الذي تنحل قوته بالطبخ أو الدق وما يصلح كيفيته بالتصويل والسحق، والإطلاع على ما يسهّل ويمسك أو يؤخذ أو يترك، والنظر في زيادة الخلط على مقداره الذي ينبغي بتنقص ضده عما ينبغي بفطنته وذكائه، والاجتهاد في ملاطفة أخلاق المريض في دوائه وغذائه، مؤدياً لأمانته في كفايته موفياً بالمحافظة على القوانين الصحيحة حق صناعته»[١].

وتعايش اليهودي والنصراني والسني، والنصراني والسني والشيعي والاسماعيلي والدرزي والماسوني وكل الطوائف في المدينة في جو من التسامح والإخاء[٢].

ولعل هذا الجو هو الذي أفرز العديد من العلماء، حيث وصفها ابن خلكان عند زيارته لها سنة (٦٢٣هـ) بأنها كانت أم البلاد. مشحونة بالعلماء والمشتغلين[٣]. ولا بد من لفت النظر إلى أن أسواق حلب ظلت من الأسواق العالمية المرموقة، وهي نموذج للأسواق المتشابهة

---

(١) **البرق الشامي**، ج٥، تحقيق د.فالح حسين، عمان ١٩٨٧م، ص١٣٨-١٣٩. سيشار إليه، الأصفهاني، البرق الشامي.

(٢) نظر ألغزي، المرجع السابق، ص ١٦٢-١٧٧.

(٣) وفيات الأعيان، ج٥، ص٤١١.

والمتميزة بذات البنية العمرانية، والتي تتميز بكونها مركزاً للمدن القديمة في العالم الإسلامي، وبخاصة في منطقة الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط، وقد اعتبرها الجغرافي الألماني (أوجين فيرت) تمثل الصلة الوحيدة بين عناصر الحضارة العربية الإسلامية وبين الأسس السامية والطابع الهللنستي القديم(١).

ونظام الأسواق في شرق البحر المتوسط خضع لمؤثرات السياسة والحرب والتقلبات الاقتصادية، والسوق رهن بأمان الطرق المؤدية إليها، لذلك كانت السوق الحلبية تخضع لهذه العوامل فهي تخبو وتذبل في أوقات الحروب والفتن وتنهض وتزدهر في حالات السلم والاستقرار، وهذه حالات تكررت في تاريخ المدينة، وخصوصاً في أيام الصراع بين المماليك والعثمانيين الأتراك ثم عادت إلى حالة الاستقرار بعد سيطرة الدولة العثمانية على بلاد الشام.

تعتبر سوق مدينة حلب سوقاً دائمة محلية ودولية، وأخذت صنعة التخصص منذ وقت مبكر في العصور الوسطى، فهذا سوق البزازين، وذلك سوق العطارين، وسوق الفرائين، وسوق الحريريين، وسوق العنبريين ... الخ(٢).

جاء في وصف ابن جبير لحلب ولأسواقها قوله: بلد واسع الأسواق كبيرها متصلة الانتظام مستطيلة، تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية، وكلها سقف بالخشب، فكأنها في ظلال وارفة، فكل سوق منها تقيد الأبصار حسناً وتستوقف المستوفز تعجباً(٣).

ويصف ابن جبير قيسارية حلب وصفاً ينم عن التعجب بجمالها وسعتها وطوافها بالجامع البديع، ويذكر بأن أكثر حوانيتها من الخشب البديع الصنعة(٤).

وللأهمية الفائقة للسوق في نظم التجارة كآخر مكان تصل إليه البضائع والسلع الشرقية

---

(١) محمود حريتاوي، مرجع سابق، ص٩. الباحث لا يوافق على المصطلح السامي وما يعنيه عند المستشرقين، وساقه هنا للتدليل على دور حلب في عملية التفاعل الحضاري.

(٢) فهمي، طرق التجارة الدولية، ص٢٨٢.

(٣) **رحلة ابن جبير**، دار التراث، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص٢٠٣. سيشار إليه: رحلة ابن جبير.

(٤) المرجع السابق نفسه.

المصدرة للغرب وبالعكس، كان لا بد من نظام ضبط وربط دقيقين للأسواق منعاً للتلاعب في الموازين أو الأسعار أو جباية الرسوم أو غش السلع، وقد أوكل هذا العمل للمحتسب وعماله، ويسير نظام الحسبة والقائمين عليه في الأسواق وفق قوانين عامة وثابتة وقوانين متطورة حسب ما يستجد، والمحتسب وأعوانه يشرفون على عمليات السوق ويفضّون النزاعات، ويضربون على أيدي المتلاعبين بقوانين السوق[١].

ولما زادت الوكالات الأجنبية في حلب، وحصل التنافس بين الدول على أملاك الدولة العثمانية، وحرصت كل وكالة على الحصول على امتيازات تجارية، وأخذت المعاهدات تعقد بين حكام حلب، أو الدولة العثمانية، وبين الدول الأوروبية، توضيحاً للعلاقات التجارية وتثبيتاً قانونياً لامتيازات هذه الدولة أو تلك، وبناء عليه أخذ دور القناصل الأجانب يتعاظم في كل مدن الدولة، في العهدين المملوكي والعثماني، وأصبح دورهم الاستعماري مألوف ومعروف، وكان قناصل جنوة والبندقية وفلورنسا أكثر القناصل نفوذاً في العهد المملوكي.

وقد اقتضى تطور الأعمال المالية والمصرفية في العصور الوسطى وما بعدها، تأكيد أهمية وجود المصارف التي سرعان ما أصبحت بنوكاً ضخمة لها فروع في كل المراكز ذات النشاط التجاري، وقد أسهمت جنوه والبندقية في هذا المجال منذ القرن الثاني عشر الميلادي[٢]. وكان أن تقدمت أساليب العمل التجاري نتيجة لهذا التفاعل بين تجار الشرق والغرب، وترتب على ذلك التقدم في طرق المحاسبة والضرائب وعمل الموازنات، ونظم الصرف والمعاملات التجارية، ونظام العملات وسبل مراقبتها وحمايتها من التزييف، وقد وقعت عدة اتفاقيات منذ سلاطين المماليك، وسلاطين الدولة العثمانية وحتى قيام الحرب العالمية الأولى وإنهيار الدولة العثمانية، ووقوع بلدان العالم العربي تحت النفوذ الأوروبي، وكانت هذه الاتفاقيات عبارة عن ذرائع لتدخل الدول الغربية في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية، واستغلال ثرواتها.

وقد أورد الدكتور نعيم زكي فهمي، في كتابه طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين

(١) فهمي، المرجع السابق، ص٢٨٣.

(٢) فهمي، المرجع السابق، ص٣٤٠.

الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) مجموعة من الوثائق الهامة، تمثل اتفاقيات وملاحق لها، ما بين المدن التجارية الأوروبية كالبندقية، وجنوه، وفلورنسا وغيرها، وهذه الاتفاقيات وملاحقها تعطينا معلومات وافية عن السياسات الاقتصادية الأوروبية، وعن مواقف سلاطين المماليك والعثمانيين (الأوائل) من هذه السياسات كما تبين لنا القوانين والأنظمة التي تحكم هذه العلاقات بالإضافة إلى الأساليب التجارية وأنواع السلع المتبادلة. ونظراً لأهمية هذه الوثائق واتصالها بموضوع البحث رأيت إيراد الملحق رقم (٩ ج) وهو اتفاقية خاصة بالتجار البنادقة المقيمين في حلب(١).

(١) انظر الصفحات ٤٢٦-٤٢٩.

ملحق رقم (٩ ج)

اتفاقية خاصة بالتجار البنادقة المقيمين في حلب

١. القاضي كاتب السر في حلب الزمنا في الرسوم الأولى المطلوبة منا بما قيمته ٢,٥٠٠ دوكات وأجبرنا على دفعها بالقوة ... ولكن لا نقبل بعد الآن أن ندفع أموالاً من هذا النوع وبهذه الطريقة.

٢. يجب أن يقف دائنونا أمام القاضي أو الحاكم بلا استثناء لأي فرد مهما كان مركزه.

٣. يحق لنا توزيع سكر قبرص في سوريا دون اعتراض مع مراعاة القوانين المحلية.

٤. ترد للسيد زينو القنصل (زانون Zanon) والذي كان قد اتهم في حادث التجسس لصالح الشاه إسماعيل ألصفوي، الـ ٣٠ بالة قطن التي أخذت منه لضمانة أحد الفرنجة الذي مات، ولا يدفع على هذا القطن أي رسوم لأنه من العدل ألا يدان فرد بسبب خطأ غيره، وفي بلادنا لا يسأل الأب عن خطا ابنه ولا يؤخذ الابن بجريرة الأب.

٥. تبقى لنا حسب المعتاد حرية وأمان كاملين داخل فندقنا طالما أننا لا نقلق ولا نثير غيرنا.

٦. قد يحدث أحياناً أن يفلس بعض المدينين لنا ويعلن الإفلاس أمام القاضي الوطني فيلزم من الآن أن يتم ذلك بحضور صاحب المال ألبندقي وإلا فإن هذا الإعلان يصير لا قيمة له بالنسبة لنا، ويصبح مالنا لا يزال في عنق المدين.

٧. منذ عامين فقد أحد تجارنا مبلغ ٢,٠٠٠ دوكات وبما أن الحكام ملزمون بحماية وسلامة الأقطار التي يحكمونها ومسؤولون عن الأمن فيها فإننا نطالب برد هذا المبلغ من الحاكم المتصرف في مقاطعتنا وإلا فجميع السكان في المنطقة مسؤولون عن سداد هذا الدين.

٨. الدار صيني –القرفة– لا نشتريه إلا مغربلاً– أما غير المغربل فلا ندفع عنه إلا ٥٠ أشرفياً لكل عبوة في كميات احتكار السلطان، أما الباقي من السوق الحر فالبائع مسؤول عن غربلته أولاً.

٩. نصف عوائد الدلالة أو السمسرة للسمسار والنصف الآخر لترجمان السلطان.

١٠. لا يسمح للأجانب من العرب أو المغاربة أو الفرنج المسموح لهم بإقامة دائمة في البلاد أن يحوزوا محلات لبيع الجوخ.

١١. لا يمكننا أن نزيد من عوائد الخفر أكثر من ٤ دراهم للفرد الواحد.

١٢. لا يحق لأي فرد وطني أو يهودي أن يقوم ببيع التوابل إلا إذا كان مصرحاً له بذلك من قبل.

١٣. إذا أدين أحد الفرنجة لأمر من الأمور فلا القنصل ولا باقي البنادقة مسؤول عن أخطائه أو عقابه.

١٤. إذا أدين أحد الفرنجة لأمر فالقضاء المحلي هو المسؤول عن محاكمته.

١٥. يصرح للبنادقة بإقامة الصلاة في منزل القنصل على أساس أنها عادتهم من قبل.

١٦. لا تجبر سفننا على حمل السلع لتجار آخرين أو أقطار أخرى كما يسمح لنا بالسفر وقتما نشاء.

١٧. إذا حدث أن غرقت إحدى السفن للبنادقة أو السفن التابعة لإحدى الدول التي تعتمد في تجارتها على البندقية فيصير إنقاذها وإنقاذ حمولتها وردها لأصحابها. (منذ وقت طويل وغنائم الغرق ملك للأمير التي تحدث الحادثة في حدوده).

١٨. لا يؤخذ الوالد بجريرة الابن ولا الابن بجريرة الوالد إلا إذا كانت هناك صلة بين جريمتهما.

١٩. يحق لتجارنا أن يبيعوا السكر كسابق عهدهم.



المياه والزروع في رقعة الأردن الحالي
عند الجغرافيين والرحالة العرب

يشكل الأردن الحالي الجزء الشرقي من جنوب بلاد الشام، ويمكن تقسيم هذه الرقعة إلى ثلاثة أقسام طبوغرافية طولية تمتد متوازية من الشمال إلى الجنوب. ففي الغرب يمتد إقليم الغور من بحيرة الحولة شمالا وحتى البحر الميت جنوبا، ومن ثم يتابع هذا المنخفض أمتداده باسم وادي عربة حتى البحر الأحمر.

ويطل على الغور من الشرق سلسلة جبال متصلة، هي امتداد لسلسلة جبال بلاد الشام الشرقية، وتسمى هذه الجبال في الشمال "جبال عجلون" وفي الوسط "جبال البلقاء" و"جبال موأب" وفي الجنوب "جبال الشراه" وتشكل هذه المرتفعات الإقليم الثاني من الأردن "موضوع الدراسة".

أما الإقليم الثالث فهو بادية الشام والبوادي المتصلة بها، والممتدة إلى الجنوب والشرق من المرتفعات الوسطى.

وهذا التقسيم يطابق إلى حدّ ما تقسيم المقدسي (ت بعد ٣٧٨/٩٨٨م) لفلسطين حيث جعلها أربعة صفوف طبغرافية طولية أولها: الساحل، ثم الجبل "الشجر". والثالث الأغوار، والصف الرابع هو" سيف البادية[١]. ومن المعروف أن فلسطين الإسلامية كانت تعني زمن المقدسي النصف الجنوبي لفلسطين والأردن الحاليين تقريبا.

علل الاصطخري (نبغ سنة ٩٥١م) سبب تسمية الغور بهذا الاسم لكونه غائر ما بين جبلين في الأرض، وذكر أن فيه عيونا وأنهارًا ونخيلا، ولا تستقر به الثلوج، وبعض الغور من حد الأردن إلى أن تجاوز "بيسان". فإذا جاوزته كان حد فلسطين، وأضاف: أن هذا البطن إذا أمتد فيه السائر أداه إلى "أيله" العقبة[٢].

---

(١) المقدسي المعروف بالبشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بعناية دي خويه، بريل ١٩٠٦م، ص١٨٦.

(٢) الأصطخري، أبي اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي، **كتاب المسالك والممالك** وهو معول على كتاب صور الأقاليم للشيخ أبي زيد أحمد بن سهل البلخي، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني، مراجعة محمد شفيق غربال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار القلم، مصر ١٣٨١هـ/١٩٦١م، ص٤٥.

أما ابن حوقل (كتب عام ٩٧٧م) فذكر أن في الغور فاكهة وأبٌّ، ونخيل وعيون وأنهارا، ويضيف قائلا: "وكأن الغور من بين البلاد لحسنه، وتبدد نخيله وطيبه ناحية من نواحي العراق الحسنة الجليلة"(١) .

وذكر ياقوت (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) وغيره أن أكثر ما يزرع في الغور قصب السكر(٢). وإذا ذكر الغور ذكر معه البحر الميت وزغر "صغر". وسمي البحر الميت، لأنه لا شيء فيه من الحيوان، كما سمي ببحيرة لوط. وديار قوم لوط: هي الأرض الملعونة، وليس بها ضرع ولا زرع ولا نبات(٣). ويسمى البحر الميت أيضا البحيرة المنتنة بسبب الروائح الكبريتية المنبعثة منه. يقذف البحر الميت مادة تعرف "بالخُمرية" يلقح بها أهل "زعر" والمناطق المجاورة كرومهم كما يلقح النخل بالطلع الذكر، وكما يلقح أهل المغرب تينهم بذكارهم(٤).

وأول وصف لدينا عن زغر "صغر" هو الذي خلفه لنا الاصطخري وابن حوقل في النصف الثاني من القرن العاشر وقد جاء فيه: "أن زغر مدينة حارة قرب الصحراء، ولكنها مليئة بالأشياء الجيدة، إذ تكثر فيها النيلة التي تستعمل في الصباغة، ولكنها لا تعادل في جودتها تلك التي تنتجها كابل. وزغر شهيرة بتجارتها وأسواقها العامرة، وفيها نوع من التمر الجيد يدعى الانقلا، وهو نوع لا شبيه له حتى في العراق وغيرها من البلدان، وذلك لحلاوة طعمه، وجمال منظره، ويشبه لونه لون الزعفران، وهو من النوع اللذيذ الفاخر، ويبلغ طول أربع حبات منه شبرًا، ويبلغ وزنها رطلاً انجليزيًا(٥).

أما المقدسي (ت٣٧٨هـ/٩٨٨م) الذي جاء بعد الاصطخري وابن حوقل، فقد ذم زغر وقال إن ماءها كرية وليس في الإسلام مدينة تشبهها في سوء مناخها ،ولكنه أثنى على

(١) ابن حوقل، أبي القاسم بن حوقل النصيبي، كتاب **صورة الأرض**، منشورات مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩، ص١٦٠.

(٢) ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت ابن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، **معجم البلدان**، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان ج٤، ص٢١٧.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض ص١٦٩.

(٤) المصدر السابق.

(٥) ابن حوقل، المرجع السابق، ص١٦٩. الاصطخري، المرجع السابق، ص٤٧. وانظر لي سترانج، **فلسطين في العهد الإسلامي**، ترجمة محمود عمايري، ط١/ ١٩٧٠، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دائرة الثقافة والفنون، عمان/ ١٩٧٠، ص٢٤١.

ازدهارها التجاري، وأطلق عليها"صغر البصرة الصغرى والمتجر المربح"[١].

وأورد البكري (ت بعد ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) "عين زغر" في معجمه مستشهدا ببيت الشعر التالي:

سقا الله رب الناس سحا وديمة جنوب الشراة من مآب إلى زغر[٢]

ومن المواقع التي اشتهرت في الغور بزراعة قصب السكر قرية قراوي[٣]، وكان في قرية قصير معين، قرب بلدة الشونة الشمالية في الغور،معاصر لقصب السكر[٤]. وذكر ياقوت إن أكثر مستغلات أهل الغور السكر الذي يحمل إلى سائر بلاد الشرق[٥].

إن تركز صناعة السكر في الغور يدل على إن زراعة القصب السكر كانت واسعة في غور الأردن في المنطقة الممتدة من نهر اليرموك شمالا حتى غور الصافي غرب الكرك جنوبا. فقد وجدت على امتداد هذه المنطقة آثار واضحة لمعاصر السكر الكثيرة، وتدل أسماء التلال والأودية التي تحمل أسماء مثل: تل السكر أو وادي السكر وحتى يومنا هذا على غنى هذه المنطقة بزراعة قصب السكر وتصنيعه[٦]. وقد كشفت المسوحات الأثرية عن العديد من معاصر السكر، ويعتقد أن تاريخ هذه المعاصر يعود إلى الفترة ما بين القرنين الثاني عشر وحتى الرابع عشر للميلاد، وقليل منها تعود إلى فترة متأخرة من هذا التاريخ، وجدير بالذكر أن واحدة من هذه المعاصر بقيت تستعمل حتى سنة ١٩٦٧، حيث تمّ تحويلها من معصرة للسكر إلى مطحنة للقمح[٧].

وفي منطقة الغور الحارة شاع استعمال القمح من النوع النعيمية البرقاء والسوداء

---

(١) أحسن التقاسيم، ص١٧٨.

(٢) البكري، أبي عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، تحقيق مصطفى السقا، ط٣، عالم الكتب- بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، مجلدان ١/٦٩٩.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، ٤/٣١٩.

(٤) ياقوت، معجم البلدان، ٤/٣٦٧ (القصير) وانظر لي سترانج، فلسطين ص٤٤٢.

(٥) معجم البلدان، ١/١٤٧، والأردن.

(٦) صالح الحمارنة، **زراعة قصب السكر وصناعته عند العرب والمسلمين**، حولية دائرة الآثار الأردنية، عدد ٢٢، (١٩٧٧-١٩٧٨)، ص١٢-١٩، ص١٥.

(٧) المرجع السابق.

والنورسي، فالأول (النعيمية) ذو حجم كبير وشكل طويل ولون البرقاء أحمر فاتح، والسوداء أحمر قاتم، النوري طويل وأسود(١).

وتنبت في الغور أشجار حرجية ونباتات برية لا حصر لها، وتدل الظواهر النباتية على أن الغور كان مليئًا بأشجار السدر(٢).

يشق نهر الأردن الغور من شماله إلى جنوبه، وينبع من قمم جبل الشيخ الثلجية البيضاء، وينحدر من سفوحه بغزاره لتشكل مجموعة من الينابيع التي تتجمع بدورها لتكون نهر الأردن. وقد قيل الكثير عن أصل تسمية نهر الأردن وتاريخه(٣).

وصف مؤرخوا اليونان والرومان وجغرافيوهم نهر الأردن وتعرضوا لجغرافيته، ومنهم تاسيتوس الذي قال: "لا يصب نهر الأردن في بحر وإنما يعبر البحيرة الأولى والثانية فتحبس مياهه في الثالثة"(٤).

وصف الجغرافي اليوناني سترابون (٥٨-٢٥ ق٠م)، كيف ينساب هذا النهر في أعماق انحدار في المنطقة التي تتواجد فيها البحيرات السابقة، وذكر المستنقعات وشجر القصب حول مجرى النهر.

ولم ينس الذي رسم خارطة مأدبا - التي يعود تاريخها إلى القرن السادس الميلادي - نهر الأردن فذكره في خارطته، ورسم معديتين لاجتياز هذا النهر، أحداهما عند مصب نهر الزرقاء، والثانية في المكان الذي يقوم عنده جسر الملك حسين الآن. وفي هذا إشارة لأهمية نهر الزرقاء وقوة مائه في القرن السادس الميلادي(٥).

---

(١) أحمد وصفي زكريا، **كتاب زراعة المحاصيل الحقلية في بلاد الشام وأمثالها**، ٢ج، دار الطباعة العربية دمشق، ج١، ص٦٦.

(٢) الشهابي، **الأشجار والأنجم المثمرة**، المطبعة الحديثة، دمشق ١٩٢٤، ص٤٢٥. وانظر فالح حسين، **الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي**، عمان، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص١١٦.

(٣) أ. لويس مخلوف، الأردن تاريخ وحضارة آثار، ط١، المطبعة الاقتصادية، عمان ١٩٨٣، ص٩٧.

(٤) ن.م، ص٩٨، ويقصد بالبحيرة الأولى، بحيرة «الحولة» التي جففها الإسرائيليون، والثانية بحيرة طبرية،، والثالثة البحيرة الميتة، أو المنتنة، أو لوط.

(٥) مخلوف، المرجع السابق، ص٩٨.

وقد أشار معظم الجغرافيين العرب لمجرى نهر الأردن ووصفوه، كما وصفوا منابعه والبحيرات التي يمر فيها مع إشارة إلى المياه والمناخ(١). ذكر ابن فضل الله العمري أن النهر لا يتسمى بالأردن إلا حيث خرج من بحيرة طبرية، ويسمى الآن الشريعة (مكان الشرب)، وقال بأن أصل هذا النهر من مرج عيون والهرماس وكلاهما تحت الشقيف وتل القاضي والملاحة، وهي عين بعيدة العمق جدًا، ونهر بانياس وتسمى هذه الأمواه كلها الشريعة الشمالية، وتمر تحت جسر يعقوب، وتجتمع في بحيرة طبرية، ثم تمتد فتتلاقى هي والشريعة بقرية تعرف بالبقارية "الباقورة الآن". ويأتيان إلى جسر الصغيرة إلى الجسر العادلي، وهي تحت عقبة فيق قرب الدير الأسود، ثم تأتي الأمواه إلى جسر شامه المقارب لقرية المجامع، وتمر فيلاقيها نهر الزرقاء دون دامية، وتمتد لتصب في البحيرة المنتنة(٢) أو بحيرة لوط، أو البحر المقلوب، نظرًا لأن مدن قوم لوط قلبت في أعماقه، كما عرف هذا البحر، ببحر زغر نسبة إلى المدينة الشهيرة الواقعة على شواطئه، والاسم "البحر الميت"، لم يرد قط في الكتاب المقدس، وورد هذا الاسم للمرة الأولى على لسان جوستين Justine وبوسانياس Pausanias(٣). يقول اليعقوبي: يقع البحر الميت (البحيرة الميتة) في قضاء بيت جبرين ومنها يؤخذ الاسفلت (الحمّر) والذي يدعى أيضًا المومية. كما يقول اليعقوبي(٤)، كانت بعض السفن الصغيرة تسير فوق مياه البحر الميت وتقوم برحلات فيها، ناقلة القمح وأنواع التمور من زغر والدارا إلى أريحا وغيرها من مناطق الغور، أما مساحة البحر الميت فهي ستون ميلا طولاً واثنا عشر عرضا(٥).

ويرفد نهر الأردن من الشرق مجموعة روافد من الأنهار والأودية والينابيع، وسنفصل

(١) انظر على سبيل المثال: ابن الفقيه الهمداني (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م)، **مختصر كتاب البلدان** بعناية دي غويه بريل، ٣٠٢هـ، ص١٢٣. المقدسي أحسن التقاسيم، ص١٨٤، الدمشقي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن طالب الأنصاري الصوفي الدمشقي شيخ الربوة، كتاب **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، بعناية A. Mehren ليبزغ عام ١٩٢٣، ص١٠٧.

(٢) مخلوف، المرجع السابق، ص١٠٠.

(٣) ي سترانج، فلسطين، ص٧٨.

(٤) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب (٢٨٤هـ/٨٩٧م)، **كتاب البلدان، ضمن كتاب الاعلاق النفسية**، تصنيف أبي علي أحمد بن عمر بن رسته (ت٢٩٠هـ/٩٠٣م). بريل ١٨٩١، ص٣٢٩.

(٥) الادريسي، نزهة المشتاق ٤/٣٦٤. الديومنيكي، بلدانية فلسطين/ ص١٩، لي سترانج، فلسطين، ص٨٠.

الحديث عن أهم هذه الروافد وغيرها من مصادر المياه، ونحن نستعرض المناطق الطبوغرافية الأردنية الواحدة بعد الأخرى. وأهم رافد لنهر الأردن هو نهر اليرموك الذي يشكل الحد الشمالي للأردن مع سورية. ظهر هذا النهر لأول مرة في التاريخ في مؤلفات المؤرخ الروماني "بلينوس" Plinus باسم هيرومشيش Hieromices وهي لفظة يونانية تعني الهوة المقدسة، وأطلق عليه العرب اسم "نهر اليرموك"، وأشتهر هذا النهر بالمعركة التي فيها هزم العرب البيزنطيين، في ٢٠ من آب سنة ٦٣٦م[١]. وينبع النهر من الأراضي السورية – شمال الأردن – الواقعة في محافظتي درعا والقنيطرة من مجموعة ينابيع تتحد كلها عند بلدة المزيريب السورية ثم تواصل سيرها في مجرى واحد جنوبًا حتى تلتقي بمنخفض اليرموك فتحول سيرها غربا في مجرى عميق ووعر إلى أن تلتقي مع نهر الأردن قرب بلدة الباقورة.

ورغم صعوبة مسالك اليرموك، يعتبر طريقا يربط ما بين منطقة حوران وطبرية التي كانت عاصمة لجند الأردن في صدر الإسلام. وتنتشر حول بحيرة طبرية القرى الجميلة، وأشجار النخيل، كما توجد في هذه المنطقة حمامات ساخنة، وهي غير حمامات طبرية المشهورة، وأعني الحمامات الأردنية حاليا، وهما في الحقيقة حمتان قامت عليهما قريتان هما (المخيبة الفوقا) بجانب الحمة الفوقا، والمخيبة التحتا، بجانب الحمة التحتا أو (السورية)، (وقد وقعت الأخيرة تحت الاحتلال الإسرائيلي) ويؤم الحمة كثير من الناس الذين يعانون من الأمراض الجلدية وأمراض المفاصل، وقد دأبوا عبر الزمان على الاستحمام بالمياه الساخنة، وكانوا يعتقدون أنهم إذا ما مكثوا بضعة أيام يتناوبون النزول في المياه الساخنة ثم يذهبون إلى نبع بارد قريب يختمون به استحمامهم، يشفون بإذن الله[٢]. ونقل لنا لي سترانج رواية غريبة حول هذه الحمامات فقال: "ولكن من العجيب حقا في العالم هو الحمام الواقع في أحد الأماكن التابعة لطبرية، والذي يقع في الجهة الشرقية منها، في قرية تدعى الحسينية في وادي اليرموك يوجد في هذا المكان مياه قديمة، وكان أحد هذه المباني هيكلا في الأصل، وينبثق الماء من مقدمة البناء من اثنتي عشرة فتحة، ويقال إن مياه كل فتحة تشفي نوعا معينا من الأمراض[٣].

---

(١) مخلوف، الأردن، ص١٠١.

(٢) انظر المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٥، الادريسي، نزهة المشتاق ٣٦٤/٤، لي سترانج، فلسطين، ص٢٧٥.

(٣) فلسطين، ٢٧٨.

ذكر ناصر خسرو (زار طبرية سنة ٣٣٨هـ/١٠٣٧م) أن حصر الصلاة تصنع في طبرية من عيدان القصب وهي تباع في المكان نفسه بسعر القطعة "الحصيرة" خمسة دنانير مغربية "أكثر من جنيهين"[١]، وذكر الإدريسي صناعة هذه الحصر المسماة "السامانية"، وهي غريبة الصنع وقال: "أن ما يصنع منها خارج المدينة قليل جدًا"[٢].

وفي شمال الأردن مجموعة روافد لنهر الأردن بعد اليرموك، مثل وادي العرب ووادي الطيبة ووادي زقلاب الذي أقيم عليه حديثا سد عرف باسم "سد زقلاب"، وتزرع على طول هذا الوادي الأشجار المثمرة ولا سيما الرمان. وبعد زقلاب جنوبا يذكر وادي اليابس (الريان حاليا)، ثم بعده وادي كفرنجه، ثم وادي راجب. وبعد هذه الأودية الفقيرة التي تسيل في فصل الشتاء يأتي نهر الزرقاء.

ذكر ياقوت الزرقاء وقال بأنها موضع بالشام بناحية معان، وهو نهر عظيم في شعارى ودحال كثيرة، وهو أرض شبيب التبعي الحميري وفيه سباع كثيرة مذكورة بالضراوة، وهو نهر يصب في الغور[٣]. وتشير المصادر إلى أن هذا النهر كان في الماضي غزير المياه تكثر حوله النباتات الملتفة وشجر القصب. ويشكل هذا الوادي الآن الحد الفاصل بين جبال عجلون في الشمال وجبال البلقاء جنوبا، وتسمى مدينة الزرقاء الواقعة على بعد نحو ٢٥ كم شمال شرق عمان باسمه.

لم يعد لوادي الزرقاء غزارته السابقة ولا أدغاله وحيواناته التي ذكرها الجغرافيون العرب، فقد استغل ماء هذا النهر في أعمال الزراعة والصناعة حتى أصبح شأنه شأن غيره من الأودية التي تسيل فقط في فصل الشتاء. وبعد وادي الزرقاء جنوبا تأتي مجموعة أودية تصب في نهر الأردن أهمها: (وادي شعيب، والكفرين، وحسبان). أما وادي شعيب فيبدأ من سفوح مدينة السلط، وينحدر غربا، وتكثر الأشجار المثمرة المختلفة حول مجراه، كما تكثر النباتات البرية.

---

(١) سفر نامه، **رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين، ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري** نقلها إلى العربية الدكتور يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، ط٣، بيروت ١٩٨٣، ص٥٣. وانظر لي سترانج، فلسطين، ص٢٧٦.

(٢) الادريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني (١١٠٠–١١٦٦م)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، النسخة الإيطالية، نابولي–روما. عام ١٩٧٤، ج٤، ص٣٦٣، لي سترانج، ص٢٧٧.

(٣) معجم البلدان، ٣/١٣٧.

وكان هذا الوادي في العهد الإسلامي موردا هاما لسكان المنطقة يعتمدون عليه في شربهم وشرب حيواناتهم، كما كانوا يعتمدون عليه في زراعاتهم. أما وادي الكفرين فقد أقيم عليه سد حديثا لتغذية مشروع الري الكبير المسمى "قناة الغور الشرقية" في فصل الصيف.

وإلى الجنوب من وادي الكفرين ينساب وادي حسبان، الذي يرتبط اسمه باسم "حسبان" البلدة التاريخية التي أقيمت على تلة ترتفع نحو ٨٨٣ مترًا عن سطح البحر حيث تواجد الإنسان منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، تاركا وراءه ذكريات حضارية خالدة. ومن هذا الارتفاع تنساب مياه وادي حسبان العذبة نحو الغرب لتمر من الرامة وتواصل سيرها إلى نهر الأردن مشكلة الحد الفاصل لحدود دولة مؤاب الشمالية في أحيان كثيرة(١).

لقد وصف أبو الفداء حسبان قائلا: "بحسبان أودية وأشجار وارحية وبساتين وزروع، ويتصل هذا الوادي بغور زغر"(٢). وهناك مجموعة أودية تصب في البحر الميت مثل وادي الزارة، والهيدان "الواله" والموجب والكرك، وبعدها يأتي وادي الحسا الهام الذي يصب جنوب البحر الميت.

وذكر إقليم في الغور يسمى "الخيط" يقع في الأردن الأعلى، وهو يشبه العراق في زراعة الأرز، وبطيوره وينابيعه الحارة وجودة محاصيله(٣). وذكر ياقوت عمتا وقال: "انها بلدة في وسط الغور فيها قبر أبي عبيدة وهي تشتهر بصنع النبال(٤).

وإذا ما انتقلنا إلى المنطقة الطبوغرافية الثانية في الأردن، فنأتي إلى المرتفعات الجبلية وما يتخللها من أحواض وسهوب وسهول.

أما سهولها فتتصل بسهول حوران في الشمال وتشكل جزءا منها. وكانت حوران والبثنية من الكور العظيمة التي كانت تتبع جند دمشق(٥). وفي شمال الأردن قام الرومان

(١) فان زايل A.H. Vanzil **المؤأبيون**، تعريب وأعداد د. خير ياسين، عمان ١٩٩٠م، ص٩٩.

(٢) لويس مخلوف، الأردن ١٠٢-١٠٣، لي سترانج، **فلسطين**، ص٦٠. أبو الفداء (٧٣٢هـ/١٣٣١م) عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفداء صاحب حماه، **تقويم البلدان**، اعتنى به وصححه: رينود، والبارون ماك كوكين وسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس ١٨٥٠، ص٢٢٧.

(٣) لي سترانج، فلسطين، ص٣٧٧.

(٤) معجم البلدان/ ١٥٣/٤ «عمتا».

(٥) بن حوقل، صورة الأرض، ص١٧٠.

بعمل هندسي عبقري بإنشاء قناة توصل المياه إلى مدينة إربد من تل الرميث الواقع على مسافة كيلو مترين جنوب مدينة الرمثا[١].

ويمكن تقسيم المرتفعات الأردنية من الشمال إلى الجنوب إلى: جبال عجلون، جبال البلقاء، جبال مؤاب، وجبال الشراة. وتشكل جبال عجلون المرتفعات ما بين الحدود السورية شمالا ونهر الزرقاء، جنوبا، وهي استمرار لجبل الشيخ حيث منابع نهر الأردن، وسمي الجزء المقام عليه قلعة الربض (جبل عوف). ويقول أبو الفداء عن هذه الجبال: "وجميع أراضي المنطقة خصبة جدا، ومغطاة بالأشجار، وتروى جيدا بمياه الأنهار"[٢]. وكرر الدمشقي وصف عجلون بالمياه الجارية والفواكه المتنوعة والحاجيات الرخيصة الكثيرة، أما قلعتها فتقع على مكان مرتفع يمكن رؤيته عن بعد أربعة أيام[٣].

وفي عام ١٣٥٥م زار عجلون ابن بطوطة (٧٦٧هـ/١٣٧٧م) وذكر أنها بلدة حسنة لها أسواق كثيرة وقلعة خطيرة ويشقها نهر صغير ماؤه عذب[٤].

وتقع في جبال عجلون مجموعة كبيرة جدًا من المدن والقرى العامرة، كما تغطي الجبال أشجار كثيفة هي حتى الآن أكثف الغابات الحرجية في الأردن، وتتخلل هذه الجبال مجموعة كثيرة من العيون والينابيع[٥]. ومن مدن منطقة عجلون المهمة ذات التاريخ العريق نذكر من الشمال إلى الجنوب مدينة "أم قيس" جدارا، بيت رأس وإربد وفحل، وهذه كانت من اتحاد المدن اليونانية العشرة "الديكابولس". وذكر ياقوت عن بيت رأس، أن هذا الاسم لقريتين، في كل واحدة منهما كروم كثيرة ينسب إليها الخمر[٦]. وفي ثنايا جبال عجلون تتناثر مئات القرى العامرة أيضا معظمها يعود تاريخه إلى بداية استقرار الإنسان في هذا البلد، نذكر منها على سبيل المثال قرية "ريسون" (رأسون حاليا) التي كان يقيم فيها محمد بن مروان الأموي، ولما ولاه أخوه هشام مصر اشترط محمد على أخيه أنه متى ما كرهها عاد

(١) أ.ل. مخلوف – الأردن، ص١١.

(٢) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٤٥، لي سترانج، فلسطين، ص٨٩، الدومنيكي، بلدانية فلسطين، ص١٥٤.

(٣) نخبة الدهر، ص٢٠٠.

(٤) المصدر السابق.

(٥) انظر خارطة المملكة الأردنية الهاشمية، المركز الجغرافي الأردني ١٩٧٩، أربعة لوحات بمقياس ١: ٢٥٠,٠٠٠.

(٦) معجم البلدان، ١/٥٢٠ (بيت رأس).

إلى مكانه، فلما ولي شهرين جاءه ما كره، فترك مصر وقدم إلى ريسون (راسون) ضيعته وكتب إلى أخيه: "ابعث إلى عملك واليا" فكتب إليه أخوه هشام:

أتترك لي مصرًا لريسون حسرة؟ ستعلم يوما أي بيعيك أربح

فقال محمد: انني لا أشك أن أربح البيعين ما صنعت(١). وكانت محافظات الشمال في العهد العثماني جزءًا من لواء عجلون، وهي على العموم مناطق زراعية مجزية تزرع فيها الأشجار والحبوب، فقد ذكر المقدسي أن الشعير ينمو في هذه الجبال وأن السكان يخلطونه بثمر البلوط ويعملون منه الخبز(٢). ومن الجدير بالذكر أن معظم الأشجار الحرجية هي من نوع شجر البلوط (السنديان).

ومن بين المواقع الأثرية في شمال الأردن موقع أم الجمال الموغلة في البادية الشمالية. ولا تزال خرائبها قائمة تشهد على الدور التاريخي الذي لعبته عبر التاريخ، فبالإضافة إلى أنها مركز هام على الطريق الروماني الشهير Via Nova Trijana والذي يربط بين بصرى في الشمال والبحر الأحمر في الجنوب، فقد كانت معسكرًا رومانيًا نتولى حماية المناطق المأهولة في الغرب من الغارات البدوية. لا توجد في أم الجمال عيون وينابيع ولكن استعيض عن هذه بعمل السدود والمستودعات والصهاريج الأرضية لحفظ مياه الأمطار وتخزينها لوقت الحاجة.

وجرش إحدى المدن التاريخية الهامة التي تقع على الأطراف الجنوبية لجبال عجلون، وهي مدينة عريقة في التاريخ، ولا تزال أثارها العظيمة تشهد على ازدهارها في الفترة الرومانية، ومن جملة آثارها الباقية الشبكة المائية التي كانت تمد المدينة بحاجتها من الماء. كانت المياه تصل بركتيها الرئيسيتين بواسطة قناة من (عين قيروان) الواقعة في شمال المدينة على بعد كيلو متر ونيف من البوابة الشمالية للمدينة، ومن البركة الجنوبية كانت المياه تتدفق متجهة إلى المدينة الأثرية الغربية. وتمتاز مياه عين القيروان بغزراتها وعذوبتها(٣).

---

(١) المرجع السابق ١١٢/٣.

(٢) أحسن التقاسيم، ص١٨٩، لي سترانج، فلسطين، ص٨٩.

(٣) انظر مخلوف، الأردن، ص٢٧-٣٥.

وتقع جبال البلقاء جنوب جبال عجلون دون انقطاع اللهم أن سيل الزرقاء يكون واديًا مميزًا بين الكتلتين، وهذه الجبال مكسوة أيضا بالأشجار الحرجية وسهولها تزرع من غير سقي، وليس فيها أنهار، وإنما تتخللها بعض السيول وتتناثر هنا وهناك العيون والينابيع. وفي هذه الجبال مدينة عمان ذات التاريخ الطويل، وهي عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية حاليًا، كما كانت عاصمة البلقاء سابقًا، وسميت ربة عمون في الفترة العمونية، كما سميت فيلادلفيا في الفترة الرومانية. كتب عنها المقدسي عام ٩٨٥م ما يلي[١] : «تقع عمان على سيف البادية، وتكثر حولها القرى وحقول القمح وتشتهر منطقة البلقاء بالحبوب وقطعان الماشية، وجداول المياه التي تدير طواحينها، وهي رخيصة الأسعار. وفاكهتها كثيرة، وجميع سكانها من الأمويين، وعلى الرغم من وعورة طرقها فهي تشبه ميناء في الصحراء، أو منتجعا يلجأ إليه بدو الصحراء». وأضاف أبو الفداء إلى وصفها السابق قوله: «يكثر حولها شجر البطم وأنواع الأشجار الأخرى، وتحيط بها الحقول من جميع الجهات وتربتها خصيبة جدًا»[٢].

كانت المياه تتدفق من رأس العين (وهو المكان الذي لا يزال يحتفظ باسمه) ويتجه إلى شمال شرق المدينة. وفي الموقع الذي كانت تصل إليه المياه إلى ما وراء سوق الخضار القديم في وسط منطقة السيل، بنى الرومان الحمامات الفخمة التي لا تزال آثارها شاهدة على فخامتها[٣].

ومدى (مكيال) عمان ست كيالج، وقفيزهم نصف كيلجة، وبه يبيعون الزبيب والقطين[٤].

ومن بين المدن الكثيرة في جبال البلقاء تذكر مدينة الصلت الواقعة على بعد عشر كيلو مترات إلى الغرب من عمان.

---

(١) أحسن التقاسيم، ص١٧٥، وأنظر اليعقوبي، البلدان (ملحق بالاعلاق النفيسة)، ص٤٨، وقارن لي سترانج، ص٤٢٤-٤٢٥.

(٢) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٤٧، لي سترانج، فلسطين، ص٤٢٦.

(٣) انظر مخلوف، الأردن، ص٨١.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨١.

وقد ذكرها أبو الفداء (٧٣٢هـ/١٣٣١م) وقال أن الصلت بليدة من جند الأردن وهي في منطقة جبلية في الغور الشرقي جنوب عجلون، وعلى مرحلة منها، وفيها قلعة حصينة، ينبع من تحتها عين غزيرة يجرى ماؤها ويدخل بلدة الصلت، وللصلت بساتين كثيرة وحب الرمان المجلوب منها مشهور في البلاد، ويصدر إلى جميع المناطق(١). وإلى الشمال الغربي من عمان تقع مدينة صويلح، وهي من المواقع المشهورة بمياهها وأشجارها، وتتصل بها من الشمال أيضا بلدة «عين الباشا» التي تجمعت مساكنها ابتداء حول ينبوع الماء(٢).

وإلى الجنوب الغربي من عمان على نحو ثلاثين كيلو مترا تقع بلدة مادبا المشهورة، ومادبا لفظة آرامية مركبة من كلمتين هما: (ميا ودابيا). فالأولى تعنى المياه، والثانية «أيبا» تعنى الفاكهة، وحرف الدال هو أداة الإضافة، فيكون معناها. مياه الفواكه، ونظرًا لعدم وجود ينابيع في مادبا فقد حفر الرومان فيها بركة كبيرة، كما حفرت آبار كثيرة(٣). وعلى بعد نحو اثني عشر كيلو مترا غرب مادبا توجد بلدة ماعين المطلة على البحر الميت، واسمها بعل ماءون، يعنى إله الينابيع أو إله المياه، وهي قريبة من مجموعة المياه الحارة في بلاد العرب، وتقع عند الحجر الألفي التاسع على بعد ثلاثة عشر كيلو متر ونصف إلى الجنوب من حسبان. وتنحدر المياه المعدنية الحارة من قمة جبل بازلتي وتصل سخونتها من (٥٥-٦٠) درجة مئوية مكونة حمامات ماعين الشهيرة. وعلى بعد أربعة كيلو مترات إلى الجنوب من حمامات ماعين وفي وسط سهل صغير على شاطئ البحر الميت، توجد عين زارة التي تقذف بمياهها المعدنية الساخنة إلى البحر، وقد أسماها الأقدمون كاليرو Kalliroe ورسمها الفنان المادبي على خريطة مادبا(٤).

ومن المواقع التي توحي اسماؤها بارتباطها بالمياه في منطقة البلقاء توجد بلدة القسطل، ويقول ياقوت(٥) أن كلمة قسطل تعني بلغة سكان سورية مكان توزيع المياه وأورد قول الشاعر:

---

(١) تقويم البلدان، ص٢٤٥، مخلوف، الأردن، ص٨٦، لي سترانج، فلسطين، ص٤٠١.
(٢) مخلوف، الأردن، ص٩٤.
(٣) المرجع السابق، ص١٢٢-١٢٦.
(٤) انظر مخلوف، الأردن، ص١٥٢.
(٥) معجم البلدان، ٤/٣٤٧.

سقى الله بالموقر دارهم — إلى قسطل البلقاء ذات المحارب
سواريّ تنحى كل آخر ليلة — وصوب غمام باكرات الجنائب

لا شك أن أهم سيل أو نهر يصب في البحر الميت من جهة الشرق هو نهر الموجب، كما أن هناك عددًا من الينابيع والسيول التي تلتقي مع نهر الموجب قادمة من الجنوب الشرقي والشمال الشرقي للبلاد التي تصب فيه مكونة جميعها وادي الموجب العظيم. من المحتمل أن وادي السلطاني وهو أحد فروع وادي الموجب العظيم هو الذي ذكر في العهد القديم باسم وادي زرد (فحل زرد)[١]. ويعتقد ترسترام وآخرون غيره أن اسم وادي الموجب اشتق من اسم الأعشاب التي تنمو على طرفي الوادي[٢]. وصفه الادريسي (١١٠٠-١١٦٦م) بقوله: «ان نهر الموجب واد عظيم عميق القعر ويمر فيما بين هذين الشعبين، ليس بمتباعدين وذلك يمكن أن يكون بمقدار ما يمكن أن يكلم إنسان إنسانًا وهما واقفان على ضفتي النهر، فيسمع بعضهما بعضا ينزل فيه السالك ستة أميال ويصعد ستة أميال»[٣]. والوادي الآن يكتظ بزراعة الأشجار والخضار، ولكنه ضعيف الجريان بفعل استغلال مياهه في الزراعة والري[٤]. وبعد أن نجتاز وادي الموجب السحيق جنوبًا نأتي أرض مؤاب، التي تشمل الآن محافظة الكرك. وهذه المرتفعات الجبلية هي الحلقة الوسطى في الإقليم الثاني الأردني. وجبال مؤاب شأنها شأن غيرها من حيث تسرب مياه الأمطار من على قمم الجبال عبر التربة الجيرية الهشة المخلخلة إلى الفجوات الداخلية، ثم تعود لتخرج منصبة فوق المنحدرات الغربية مكونة هذه الينابيع[٥]. تنساب هذه المياه في الشعاب الأخرى حتى تصل نهر الأردن في الشمال وإلى البحر الميت من مؤاب. ولما كانت هذه المياه تسير في هذه المنطقة الشديدة الانحدار، لذا يصعب استخدامها في الأغراض الزراعية، باستثناء وادي الواله، لأن مياهه تنحدر عبر واد واسع. أما مصادر المياه الواقعة عند سواحل البحر الميت فإنها غير صالحة للزراعة بسبب سخونتها ولاحتوائها

(١) فان زايل، الموأبيون، ص٩٦، وأنظر: Musil، A.P.I، pp.1-9.
(٢) فان زايل، الموأبيون، ص٩٤.
(٣) الادريسي، نزهة المشتاق، ٣٥٨/٤.
(٤) لي سترانج، فلسطين، ص٧١.
(٥) فان زايل، الموأبيون، ص٩٤.

على كمية عالية من أملاح السلفر. لهذه الأسباب أحجم الناس عن سكنى هذه المناطق[١].

ومدينة الكرك من أشهر المواقع في موأب (مآب) قال عنها أبو الفداء: الكرك بلد مشهور، وله حصن عالي المكان، وهو أحد المعاقل بالشام التي لا ترام، وعلى بعد مرحلة منه مؤتة التي حصلت فيها الوقعة المسماة باسمها، وفيها قبر جعفر الطيار وأصحابه، وتحت الكرك واد فيه حمّام وبساتين كثيرة وفواكة مفضلة من المشمش والرمان والكمثرى وغير ذلك[٢].

وذكر الدمشقي أن في الكرك رطبًا شبيه بالبرني والازاد بالعراق[٣]. يعتبر وادي لحسا الواقع إلى أقصى الجنوب من مؤاب الحد الفاصل ما بين مؤاب وايدوم. وبما أن سلسلة الجبال الواقعة على هذا الوادي تنحدر تدريجيًا باتجاه وادي الحسا، لذا فإن مصادر مياه الوادي تقتصر على المياه المنحدرة من منطقة ايدوم. والمياه المنصبة من الينابيع القليلة الواقعة في الزاوية الجنوبية الغربية من وادي الطيبة، حيث تصب هذه الينابيع في وادي الجديرة (والمعروف الآن باسم سيل النمرة) الواقع عند مصبة الأسفل[٤].

ويطلق على الجبال الواقعة جنوب الحسا اسم جبال الشراة، وهي نهاية السلسلة الجبلية في الأردن، وتستمر حتى تتصل بجبال الشراة في منطقة الحجاز. ذكر الادريسي الشراة، وقال أن مدينتها تسمى أذرح، وأما الجبال فإن مدينتها تسمى دراب (رواث عند الجغرافيين الآخرين)، وهما بلدان في غاية الخصب وكثرة أشجار الزيتون واللوز والتين والكروم والرمان وعامة سكانها من قيس[٥].

ومن المدن المشهورة في المنطقة الجنوبية والتي كانت عامرة في التاريخ، مدينة «معان» التي قيل إنها حصن من الشراة[٦]وقال الدمشقي إنها اليوم منزل الحجاج يقام بها سوق في غدوهم ورواحهم[٧].

---

(١) فان زايل، الموأبيون، ص٩٤.

(٢) اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٦، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٤٧، مخلوف، الأردن، ص٢١٨.

(٣) نخبة الدهر، ص٢١٣. وانظر (س مرمرجي الدومنيكي، **بلدانية فلسطين العربية**، مطبعة جان دارك، بيروت–لبنان ١٩٤٨، ص٥٤.

(٤) فان زايل، الموأبيون، ٩٤–٩٥.

(٥) الادريسي، نزهة المشتاق ٣٥٧/٤، وانظر ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٠.

(٦) البكري، معجم ما استعجم ١٢٤١/٢.

(٧) نخبة الدهر، ص٢١٣.

وفي الحد الجنوبي من الأردن تقع مدينة أيلة «العقبة» على طرف خليج العقبة، وهي بلدة عامرة جليلة ذات نخل وأسماك، فرضة فلسطين وخزانة الحجاز[١].

وذكر الجغرافيون منطقة حسمى في الجنوب من الشراة، وقالوا بأنها موضع من أرض جذام، وقيل أن الماء بقي بحسمى بعد نضوب الماء في الطوفان ثمانين سنة، وحسمى بلاد جبلية بين أيلة وصحراء التيه وأراضي أذرح[٢]، وقد دلت المسوح الأثرية التي أجريت فيها حديثًا أنها كانت غنية بالمياه والزروع[٣]. ومن جبال حِسمى جبل «رم» المشهور بعلوه وجماله، ويزعم أهل البادية أن فيه كرومًا وصنوبرًا[٤].

وأخصب جبال الشراة جبال الشوبك ذات العيون والجداول المنسابة بين بساتين الأشجار والفواكه المختلفة [٥]. وبمثل ذلك وصفها أبو الفداء فقال: أن في الشوبك قلعة مشهورة في أسفلها نبعان الأولى إلى يمين القلعة والثاني إلى يسارها[٦]. تجرى مياهها وسط البلدة، وتروي الحقول والبساتين الواقعة في الوادي في الجهة الغربية منها. ومن فواكه هذا الوادي المشمش وغيره، وهي ذات طعم لذيذ جدًا. وهي تصدر إلى مصر[٧].

ومن بين المواقع المهمة في هذا الإقليم مدينة الحميمة (الحمام الصغير) التي كانت قاعدة الدعوة العباسية السرية، وذكرت بخصبها وكثرة أشجار الزيتون فيها[٨]. ويذكر في هذه المنطقة حمامات «عفرى» التي يقال بأن فروة بن عمرو بن النافرة الجذامى صلب من قبل الروم عندها لما أظهر إسلامه للرسول صلى الله عليه وسلم[٩]. ووادي موسى من الأودية الخصيبة قال عنه ياقوت: هو واد حسن كثير الزيتون، وللتسمية علاقة بسيدنا موسى، الذي

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٧٨.

(٢) البكري، معجم المستعجم ٢/٤٤٦. ياقوت، معجم البلدان ٢/٢٥٩.

(٣) انظر حولية دائرة الآثار الأردنية – عدد ٢٠ لعام ١٩٧٥، ص٩٣، وعدد ٢٣ لعام ١٩٧٩، ص١٢١–١٢٧، وعدد ٢٦ لعام ١٩٨٢، ص٢٠٣، وعدد ٢٧، لعام ١٩٨٣، ص٥٤٩–٥٥٥.

(٤) ياقوت، معجم البلدان، ٣/٢٥٩.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى ٤/١٥٦. مخلوف، الأردن، ص٢٤٠، الدومنيكي بلدانية، فلسطين، ص٦٠.

(٦) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٤٧.

(٧) لي سترانج، فلسطين، ص٤٧.

(٨) الدومنيكي، بلدانية فلسطين، ص٦٣.

(٩) المرجع السابق، ص١٦١.

تنسب إليه مياه هذا الوادي الغزيرة (عيون موسى) التي انبجست من حجر موسى «اثنتا عشر عينا»، وتقول الرواية أن العيون الاثنتي عشرة تفرقت على اثنتي عشرة قرية[١].

أما الإقليم الطبيعي الثالث في الأردن فهو البادية الشرقية والجنوبية. وفي البوادي المترامية الأطراف توجد مناطق قليلة ذات مياه وغدران وآبار وعيون وتلال ورمال وقرى ونخيل ومن أشهر هذه المناطق الأزرق، وهو واحة غناء في وسط صحراء حارقة مترامية الأطراف - ويقول أبو الفداء: «أن الأزرق اسم حصن بناه الملك المعظم على طريق الصحراء حيث تمر به طريق الحجاز، وتمر عن يمينه الطريق المؤدية إلى العلا وتبوك، بينما تمر عن يساره طريق تيماء وخيبر»[٢]. وعرفه ياقوت بأنه ماء في طريق حاج الشام دون تيماء[٣]. ومن واحة الأزرق الغزيرة المياه، زودت مناطق عديدة في الأردن بالماء، كما أن عشرات المزارع في الأزرق تعتمد على المياه الجوفية المحيطة بالنبع، مما جعل مياه الأزرق تتناقص بشكل ملحوظ.

وفي الأزرق مياه مالحة أيضا، يستخرج منها المواطنون مادة ملح الطعام لذلك كانت هذه المنطقة مصدرًا للملح عبر الزمان. ومما يجدر ذكره أن واحة الأزرق كانت موردًا ومستقرًا للحيوانات البرية وتأوي إليها على اختلاف أنواعها، سواء منها المهاجرة أم المقيمة. وقد أعادت الجمعية الملكية لحماية الطبيعة مجموعة من الغزلان والنعام والحمر الوحشية من تلك السلالات التي كانت تعيش فيها، وأسكنتها محمية الشومري الواقعة إلى الجنوب من أزرق الشيشان على بعد خمسة عشر كيلو مترًا[٤].

وتعيش في البادية بعض الأشجار الحرجية كالسدر والطلح والصبار والرتم، وشجيرات أخرى رعوية، وذكر صاحب تحفة الغرائب في بادية الشام شجرة إذا نظر إليها الناظر رأي أوراقها كالسرج المشعولة، وكلما كان الليل أظلم كان الضوء أشد، وإذا هش الورق لا يرى

---

(١) انظر ياقوت، معجم البلدان ٣٤٦/٥. الدومنيكي بلدانية فلسطين، ص٢٣٥.

(٢) لي سترانج، فلسطين، ص٣١٦.

(٣) معجم البلدان، ١٦٨/١.

(٤) انظر مخلوف، الأردن، ص٥١-٥٢.

شيء من الضوء[١]. ومن الطبيعي أن تتفاوت الحياة النباتية في البادية من مكان لآخر، فهي أكثر وأغنى حول الواحات مثل: واحتي الأزرق والجفر والسخنة وفي أحواض الأودية كوادي السرحان الذي يبدأ من منطقة الأزرق ويتجه جنوبًا إلى شمال الجزيرة العربية.

وقد دلت تجربة المحميات في البادية الأردنية على غنى البادية بأنواع النباتات البرية وسرعة نموها، وهذا ما يفسر غناها في الماضي بأنواع الحيوانات المختلفة، ويفسر في نفس الوقت اهتمام الخلفاء والأمراء من الأسرة الأموية ببناء القصور في البوادي الأردنية، طمعًا في الصيد، والاستقلال والهواء النقي.

وجملة القول أن بلاد الشام يتشابه فيها المناخ كما تتشابه التضاريس، وإن كانت الأجزاء الغربية والشمالية منها أغنى بالمياه والزروع، ومع ذلك تكاد تتشابه الزروع والنباتات في أجزاء بلاد الشام، وقد أشار المقدسي وغيره إلى زروع بلاد الشام بشكل عام، وعدد أنواع الثمار والنبات في كورة فلسطين التي كانت تتكون من النصف الجنوبي لكل من فلسطين والأردن الحاليين[٢]. ويستدل من قائمة المقدسي أن سكان هذه البلاد كانوا يعرفون من الزروع والثمار أكثر مما نعرف اليوم.

وأورد ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار وصفًا آخر للزروع والفواكه والرياحين في بلاد الشام مما يعكس حال الزراعة في زمانه، ويكمل لنا الصورة التي رسمها المقدسي، فقال: «أما زروع الشام فغالبها على المطر ومنها ما هو على سقي الأنهار، وهو قليل، وفيه من الحبوب من كل ما يوجد في مصر من البر والشعير والذرة والأرز والباقلا والبسلة والجلبان واللوبياء والحلبة والسمسم والقرطم. ولا يوجد فيه الكتان والبرسيم، وبه من أنواع البطيخ والقثاء ما يستطاب ويستحسن، وكذلك غيرها من المزروعات كالقلقاس والملوخية والباذنجان واللفت والجزر والهليون والقنبيط والرجلة والبقلة اليمانية، وغير ذلك من أنواع الخضراوات المأكولة وقصب السكر في أغواره، إلا أنه لم يبلغ في الكثرة حد مصر».

وذكر العمري فواكه الشام المعروفة اليوم، وقارنها بفواكه مصر، وقال بأن الشام تزيد على مصر بالجوز والبندق والأجاص والعناب والزعرور والزيتون فيه الغاية في الكثرة.

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٠.

(٢) انظر أحسن التقاسيم، ص١٨١.

وقال: ان في أغوار الشام أنواع المحمضات كالاترج والليمون والكباد والنارنج ولكنه لا يبلغ في ذلك حد مصر. وكذلك الموز. وقال: ان في الشام فواكه تأتي في الخريف وتبقى للربيع كالسفرجل والتفاح والعنب. وأما ريحانه ففيه كل ما في مصر من الاس والورد والنرجس والبنفسج، ومنه ماء الورد، وينقل إلى سائر البلدان وقد تسمى به ما كان من ماء ورد جور ونصيبين(١).

وختاما يجدر بنا أن نثير إلى أن مناطق عديدة في الأردن الحالي كانت مكتظة بالسكان منذ العصر الحديدي الثاني، وعرف منذ القدم العديد من أبراج المراقبة التي أعيد استعمالها في الفترة البيزنطية وقد أعيد سكن المنطقة وبكثافة في الفترة الإسلامية وبخاصة (الفترة الأيوبية والمملوكي). وتدل المواقع الأثرية الباقية على أن التجمعات السكانية والمباني كانت تقام قريبة من مصادر المياه. وتقوم الحصون الدفاعية، والأبراج التي تعود إلى تلك العصور، ما بين أم الجمال شمالاً، وحتى العقبة جنوبًا، ويبدو أن هذه الأبراج والحصون كانت الحد الفاصل بين البادية والمناطق المستقرة وأقيمت لدفع البدو عن هذه المنطقة الغربية العامرة بالزروع. ولا شك أن الأردن الإسلامي كان أكثر ماء وأكثر زروعا، بخاصة النباتات البرية ولكن المناطق المستغلة زراعيا كانت أقل مساحة.

(١) **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (٧٤٩هـ/١٣٤٩م) تحقيق وتقديم: أيمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، باريس ١٩٨٥، ص٢٥.
وأنظر القلقشندي، صبح الأعشى ٨٦/٤. الدومنيكي، بلدانية فلسطين، ص١٠٩.

أسهم الرحالة المسلمون في رفد المكتبه الانسانية بنصيب وافر من المعرفة الجغرافية، ومنذ القرن الهجري الثالث/التاسع الميلادي، كثر التأليف في المسالك والممالك، وظهرت تصانيف في الاقاليم والتقاسيم، وصفت المدن والجبال والانهار، واعطت صورا لساكنيي هذه الاقاليم.

ومن هؤلاء الجغرافيين الرحالة او الرحالة الجغرافيين نجد الكندي (ت حول ٢٠٠هـ/٨٠٠م)، وابن خرداذبة ت (٢٧٢ او ٣٠٠هـ/٨٨٥ او ٩١٢م) واليعقوبي (ت أواخر القرن الثالث الهجري) وقدامة بن جعفر (ت٣١٠هـ/٩٢٢م) وابن الفقيه الهمداني (ت اوخر القرن الثالث الهجري) وابن رسته (ت٢٩٠هـ/٩٠٢م) وابن حوقل النصيبي(ت بعد ٣٦٧هـ/٩٧٧م) والاصطخري (ت٣٤٠هـ/٩٥١م) والمقدسي البشاري (٣٨٥هـ/٩٨٥م) وغيرهم.

ونحن اذا عرضنا للمكتبة الجغرافية العربية وجدناها تضم كتبا او اوصافا لاكثر من ثلاثين من الرحاله الذين وصلت الينا اثارهم[1].

لقد تعددت انواع واهداف هذه الرحلات، وتراوحت بين دوافع السياحة وحب الاستطلاع ، والدوافع الدينية كالحج الى الاماكن المقدسة، والتعرف على ملك الله الواسع ومخلوقاته في الارجاء الواسعة، والدوافع التجارية والتنقل بين البلدان جلبا للسلع التجارية من بلاد وبيعها في بلاد اخرى ، والدوافع الرسمية، وتتمثل بالوفود المرسلة لهذه الجهة او تلك لغايات سياسية او تجارية ، ولا ننسى الدوافع العلمية عند البعض ، وهذا النوع من الرحلات ساد في الحضارة الاسلامية، فكان العلماء والطلاب يتنقلون بين المراكز الاسلامية، طلبا للاستزادة من العلم من هذا الشيخ او من ذاك، او التحري عن خبر او روايه.

(١) نقولا زيادة (ت٢٠٠٧)،**الجغرافيا والرحلات عند العرب**،الاهلية للنشر والتوزيع–ط٣–١٩٨٢، ص٧ .سيشار اليه زيادة، الجغرافيا والرحلات.

وقد ساعد على ذلك اتساع رقعة الدولة الأسلامية وانضواء شعوب مختلفة فيها ونشاط حركة النقل والترجمه ، لذلك اتسع نطاق الرحلات مع توسع النشاط الاداري والتجاري حتى شمل بحار الصين وسواحل البلطيق والاندلس وجزر المحيط الهندي، وخلفوا في هذه الممالك ، نقودا واثارا تدل عليهم والى ما وصلوا اليه، والمكتشفات الاثرية تتزايد كل يوم لتكون شاهدا على ذلك.

وتتمثل قيمة كتب الرحلات في انها تمدنا بصورة حقيقية لشهود عيان عن الاحوال السياسية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمناخية والدروب والمسافات، وما الى ذلك من مكونات البلدان ارضا وناسا . بالاضافة الى انها توفر زادا وفيرا التراجم كثير من العلماء الذين غفلت عن ذكرهم كتب التراجم او لم توفهم حقهم من العناية.(١)

قيل ان الخليفة هارون الرشيد بعث الى اليمن اشخاصا ليتعرفوا من اين ياتي العنبر، واستطاع هؤلاء الرجال استقصاء احوال السكان في عدن وما حولها(٢) وأرسل الخليفة الواثق حوالي منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، بعثة برية الى سد ياجوج ومأجوج ،حفظ لنا الأدريسي أخبارها على لسان سلام قائد هذه البعثه(٣) كذلك تأتي رحلة ابن فضلان الشهيرة الى بلاد البلغار سنة(٣٠٩هـ/٩٢١م) ومن ذلك رحلة أبي دلف الى أرمينيا وآسيا الوسطى حوالي سنة (٣٣٣هـ/٩٤٤م)(٤). لسنا بصدد بيان اهمية الرحلة وفوائد السفر، ولكننا نتذكر عبارة الفيلسوف الانجليزي "فرانسيس بيكون" ان السفر تعليم للصغير وخبرة للكبير"(٥) ولعل العبارة "الرحلة عين الجغرافيا المبصرة "وهي

---

(١) النابلسي عبد الغني بن اسماعيل (ت١١٤٣هـ/ ١٧٣٠) الحقيقة والمجاز في الرحلة الى بلاد الشام ومصر والحجاز، تقديم واعداد.احمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٨٦،ص٧.سيشار اليه،النابلسي،الرحله.

(٢) ياسين ابراهيم الجعفري،اليعقوبي المؤرخ والجغرافي، دار الرشيد للنشر والتوزيع بغداد، ١٩٨٠،ص١٧٣.

(٣) آدم ،متز،الحضارة الأسلامية في القرن الرابع الهجري،٢م،ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريده ،ط٤ ،دار الكتاب العربي—بيروت ١٣٨٧ها/١٩٦٧م ص٢/١٤..سيشار اليه ،متز ،الحضارة الأسلاميه.

(٤) ن.م ص٢/١٥.

(٥) The Adventur of travel ,15 th,edi … , Longman,1960 C H Lockitt
الشامي صلاح،الرحلة عين الجغرافية المبصرة،منشاة المعارف ١٩٨٢ ص٢.

عنوان كتاب لاستاذ الجغرافيا صلاح الشامي ، ما يشير الى ان الرحلة ليست وسيلة استكشا ف فحسب بل ايضا"جزء اصيل من حركة الحياة على الارض" على حد تعبيره، ويعني الشامي "ان الرحلة قد رسخت كل العوامل والمفاهيم التي عليها مسالة وحدة البشر على الارض، بل لقد فجرت في الانسان استشعار المصالح المشتركة التي وثقت عرى هذه الوحده على الارض"[١] وفي الناحية الاجتماعية المستفادة من الرحلات، نراه في قول اعرابية لابنها:"خالط الناس بجميل البشر، واتق الله في السر"[٢].

وحتى تعطي الرحلة ثمارها وتصنف في التراث الانساني حيث ينتفع بها الناس، لا بد للرحاله من تمثل ما جاء في التراث الانجليزي: "يجب ان يكون للمسافر حقيبتان، واحدة للمال، والثانية للصبر" والرحالة المسعودي يقول: "ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمي اليه من الاخبار عن اقليمه، كمن قسم عمره، على قطع الاقطار، ووزع ايامه بين تقاذف الاسفار، واستخرج كل دقيقة من معدنه، واثارة كل نفيس من مكمنه[٣] ونكرر كيف ان كتب هؤلاء الرحاله، تحتوي على معلومات جغرافية وتاريخية وسوسيولوجية وادبية، لاتستغني عنها اليوم اية مؤسسة علمية او موسوعة جغرافية في العالم بسبب دقتها واهميتها العلمية. لذلك نجد تراثا لغويا عند رحالة القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، ونجد ماعرف بعلم الانواء، واوصلوا لنا العديد من الامثلة التي نجدها عند المؤرج السدوسي(ت ١٩٥هـ/٨١٠م) وهو جغرافي ومؤرخ بالاضافة الى كونه لغوي، وابي حنيفة الدينوري(٢٨٢هـ/٨٩٥م) وهو معروف ايضا كمؤرخ بكتابه "الاخبار الطوال.

"ومن بين هؤلاء الفلكيين، عبدالرحمن الصوفي(ت٣٧٦هـ/٩٨٦م) الذي يقول بصدد الدينوري سالف الذكر، وذلك بعد قرن منه. "ووجدنا في الانواء كتبا كثيرة اتمها واكملها في فنه كتاب: ابي حنيفة الدينوري فانه يدل على معرفة تامه بالاخبار الواردة عن العرب، وفي سياق ما عرف بالجغرافيين اللغويين نعد المؤرخ المشهور هشام بن محمد الكلبي(ت حوالي ٢٠٦هـ/٨٢٠م) وهو خبير ممتاز بالجاهلية وصاحب كتاب الاصنام

(١) فهيم ،حسين محمد ،**ادب الرحلات**،عالم المعرفة(العدد:١٣٨) ص٢٢

(٢) المسعودي ابي الحسن بن الحسين(ت ٣٤٦/٩٥٧) ،**مروج الذهب ومعادن الجوهر**،تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد.م.السعادة القاهرة،ط٤/١٣٨٤/١٩٦٤ ص١/١٢ .سيشارأليه،المسعودي،مروج.

الذي لم يسبقه احد في بابه، ويمكن ان نحسب الاعرابي الامي المدعو عرام الاصبغ من هذه الطائفة الذي لما راى الناس يقبلون على مثل هذه الموضوعات، املى في سن الشيخوخة(بعد عام ٢٣١هـ/٨٤٥م) كتابا اسماه: "جبال تهامة ومكانها معتمدا في ذلك على معرفته الجيدة بمواضيع جزيرة العرب، واخذ عنه من اتى بعده الكثير مما رواه[١] ولا ننسى أن نذكر الجاحظ في هذا السياق أيضا وتنوع الموضوعات التي تناولها، ومثل ذلك يقال عن القاضي وكيع الذي وضع رسالة في الأنواء[٢] .

لقد اتسع نطاق الرحلات وتنوعت الموضوعات، فقد تناقل الجغرافيون، كابن خرداذبه (ت٣٠٠هـ/٩١٢م) والمسعودي (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م) اخبارا عزيت لشخص يدعى (مسلم الجرمي)، ومنها ما له علاقة بالاتجاهات الفكرية لممارسات الساسة في العهد العباسي، فذكر ان بعض مبادلات الاسرى التي كانت تتم بين العرب والبيزنطيين كانت تتم بحضور القاضي العباسي في زمن الخليفة المأمون، وكان القاضي يفحص الاسارى بمسألة خلق القران فمن وافقه اخلى سبيله، ومن رفض أبقى في اسره. غير ان كراتشتوفسكي يقول: "والله اعلم بمدى صدق هذه الرواية"[٣] .

وبهذا الصدد ما روي عن رحلة الغزال المغربي الى بيزنطة وما نسب اليه من شعر عربي في البلاط البيزنطي. اصبحت المعلومات وفيرة عن صلات العرب بالصين سواء من خلال رحلة ابن فضلان في زمن المقتدر سنة (٣٠٩هـ/٩٢١م) او من خلال ما ذكره ابو زيد السيرافي عن زيارات تجار بين عمان والصين، او ما يذكره ابن رسته من حقائق عن الهند[٤] ويؤيد ما ذكرناه ما رواه ياقوت الحموي (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) في معجمه الجغرافي عن جغرافي (القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي).

لقد كان القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، فاتحة عهد جديد في تاريخ الادب

(١) ا. ي. كراتشكوفسكي،تاريخ الأدب الجغرافي العربي،نقله الى العربية:صلاح عثمان هاشم، قام بمراجعته ايغور بليايف،القسم الأول،،لجنة التأليف والترجمة والنشر ،٢جـ ص١/١٢٧ .سيشار اليه كراتشكو فسكي،الأدب الجغرافي.

(٢) المرجع السابق، ١/١٢٨.

(٣) كراتشكوفسكي، الادب الجغرافي في ١/١٣٤–١٣٥.

(٤) ابن رسته ابي علي ،احمد بن عمر(ت ٢٩٠ه/ ٩٠٢م)،**الاعلاق النفيسة**، طبعة ليدن،١٨٩١م، ص ١٣٢.

الجغرافي، وقدموا مادة كان لها دورها في بروز جغرافيي القرنين الرابع والخامس الهجريين، العاشر والحادي عشر الميلاديين، وظهور الجغرافيين الكبار الذين هم موضوع هذه الدراسة، وما نقلوه عن بلاد الشام. لذلك نقول وصلت الجغرافيا البشرية الى ذروتها في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، مع صورة الأرض لابي القاسم ابن حوقل(ت بعد ٣٦٧هـ/٩٧٧م)، واحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم لمحمد بن احمد المقدسي(٣٣٥-٣٩٠هـ/٩٤٦-١٠٥٥م)، ولعل جهود هؤلاء وامثالهم، اثمرت ظهور المعاجم الجغرافية، فابو عبيد البكري (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) لم يغادر مسقط راسه في بلاد الاندلس، واعتمد في كتاب المسالك والممالك على عدة مصادر سابقة، اما الشريف الادريسي (ت٥٦٥هـ/١١٦٠م) فقد اقتبس من كتاب صورة الارض لابن حوقل[١] .

ومن المقرر ان نضوج هذا العلم (علم البلدان او علم المسالك والممالك) قد حصل في القرنين الرابع والخامس الهجريين/العاشر والحادي عشر الميلاديين اللذين شهدا طفرة في المعرفة الجغرافية منهجا وعلما، كما شهدا ظهور النوابغ في الادب الجغرافي العربي، وفي مقدمتهم الرحالة العظام من امثال الاصطخري والمسعودي وابن جوقل والمقدسي والبيروني وابن فضلان وقدامة ابن جعفر وناصر خسرو.

لقد تحررت الجغرافيا العربية من التاثيرات اليونانية والفارسية والهندية، على يد هؤلاء النوابغ، فقد جاء في مقدمة كتاب المسالك والممالك للاصطخري "اني ذكرت في كتابي هذا اقاليم الارض على الممالك، وقصدت منها بلاد الاسلام بتفصيل مدنها وما يعود بالاعمال المجموعة اليها و لم اقصد الاقاليم السبعة التي عليها قسمة الارض"[٢] اما ابن حوقل فشغف بالاسفار وقرا كتب المسالك والممالك، فلم يجد فيها كتابا مقنعا،-كما يقول-فوضع

---

(١) محمد حسن، مساهمة كتب المسالك والرحلة في تاسيس معجم موحد للبلاد المغاربية، في كتاب: **بحوث مهداة الى محمد الطالبي في عيد ميلاده السبعين**، منشورات كلية الاداب-بمينوبه ١٩٩٣ م (١١-١٦). و انظر كراتشنكوفسكي، الأد ب الجغرافي ٢٣٧/١.

(٢) ابي اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري (ت ٣٤٠هـ/٩٥١م)، المسالك و الممالك، تحقيق محمد جابر عبدالعال الحيني، دار القلم، مصر ١٣٨١هـ/١٩٦١م ص ١٥. ومممايجدرذكره ان المدرسة اليونانية تقسم الأرض الى سبعة أقاليم .

كتابه بصورة جديدة[١]اما المقدسي فقال عن نفسه: "لم يبق شيئ مما يلحق المسافرين، الا وقد اخذت منه نصيبا، غير الكدية و ركوب الكبيرة وانفقت في اسفاري عشرة الاف درهم... و يقول ايضا في مقدمة كتابه واعلم اني اسست هذا الكتاب على قواعد محكمة فاعلي قواعده وارصف بنيانه بما شهدته وما عقلته وعرفته وعلقته، وعليه رفعت البنيان وعملت الدعائم والاركان..." [٢] تحدث هؤلاء عن مشاهداتهم ومنها ما خص بلاد الشام، فالاصطخري ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي المعروف (بالكرخي)المتوفى في النصف الاول من القرن الرابع الهجري/العاسر الميلادي، و لعل لقب الاصطخري لحق به اذ كان يعرف بالفارسي نسبة الى اصله، والأ صطخري نسبة الى بلده، والاصطخري له منهجه الخاص به، فهو لا يميل الى تجزئة البلدان، و يتحدث عنها موحدة، كذلك ينتقد بعض الاحاديث التي لا يقبلها العقل ويصرح، بانها خرافة، ومنهجه هذا يقوم على اسس ثلاث، اولا: المشاهدة والوصف وفق الرؤية، وثانيا: تحري الدقة جهد الطاقة مخالفا غيره تارة، ومتفقا تارة اخرى، وثالثا: سماع الاخبار والاقتصاد في روايتها، ولقد بين ذلك في مقدمة كتابة قائلا: "فقد يوجد في الاخبار ولا يتعذر على من اراد تفضيل شيء من ذلك من اهل كل بلد ولذلك تجوزنا ذكر المسافات والمدن و سائر ما نذكره"[٣].

ويرى المرحوم الاستاذ خدابخش، الذي ترجم كتاب الاصطخري الى الانجليزية ان اكبر مصدر رجع اليه الأصطخري هو كتاب صور الاقاليم لأحمد بن سهل البلخي[٤] . تحدث الاصطخري عن مشاهداته في بلاد الشام، فمر بالثغور ومن بين ما عرف بالثغور الشامية والثغور الجزرية، واعتبرهما جميعا من الشام، وذكر: ملطية ومرعش من ثغور الجزيرة، وقال بانها سميت بذلك لان اهل الجزيرة، يرابطون بهذه الجزر، وبها يغزون. وذكر فلسطين واصفا مناخها وزروعها ومدنها وقال فيها "فلسطين ازكى بلدان الشام" وتحدث عن الرمله باعتبارها قصبة فلسطين في زمانه، واكبر مدنها، وتاتي مدينة بيت

(١) ابو القاسم ابن حوقل النصيبي(ت بعد ٣٦٧إهإ/٩٧٧م)، صورة الارض، منشورات دار مكتبة الحياة،بيروت ١٩٧٧، ص ١٠.

(٢) احسن التقاسيم ، ص٣.

(٣) محمد جابر عبدالعال الحيني ،مقدمة كتاب المسالك والممالك ص ١٠.

(٤) متز،الحضارة الاسلامية ، ١٧/٢.

المقدس بعدها في الكبر، واعطى الاهمية لبيت المقدس لقداستها، وتحدث عن مسجدها، واصفا اياه، بان ليس في الاسلام مسجد اكبر منه"[١].

ذكر الاصطخري زروع فلسطين واصفا زيتونها وتينها وسائر اشجار الجميز والعنب وغيرها. وتحدث عن غزة وانها اخر مدن فلسطين مما يلي مصر، وقال بان بها قبر هاشم بن عبد مناف، وبها ولد محمد بن ادريس الشافعي، ومنها كان غنى عمر بن الخطاب في الجاهلية، لان غزة كانت متجر (مستطرق) اهل الحجاز[٢]. وأضاف أن فلسطين على صغر مساحتها بها عشرين منبرا، وهو بذلك يشير الى كثرة مساجدها، وكثرة طلبة العلم فيها، لانه يقصد بالمنبر المسجد الجامع، والذي يحوي في داخله عادةً حلقات الدروس.

وذكر بلاد الشراه وقال ان مدينتها اذرح، والجبال ومدينتها «رواث» ووصفهما بانهما بلدان في غاية الخصب والسعة، وان غالبية سكانها المتغلبون عليها من العرب[٣]. وتحدث عن الاردن وقال بان مدينته طبرية، وهي على بحيرة عذبة الماء طولها، ١٢ ميلا في عرض فرسخين او ثلاثة واشار الى مياهها وحماماتها المعدنية ذات المياه الحارة وتحدث عن غور الاردن وزروعه وذكر اشجار النخيل فيه[٤]. ومن الجدير ذكره، ان زراعة النخيل، عادت الى الغور بعد انقطاع ازمنة طويلة مضت[٥].

ووصف مدينة صور على ساحل البحر المتوسط، بانها احصن الحصون، عامرة خصبة، وانها اقدم بلد بالساحل. وكما هو منهج الاصطخري في تتبع الحديث عن بلاد الشام جندا بعد جند، فبعد حديثه عن جند فلسطين واهم مدنه، وكل خصائصه، انتقل لوصف جند دمشق، وان قصبتها دمشق وقال عنها: "اجل مدينة بالشام كلها" وقد فصل في حديثه عن مياه دمشق، وتحدث عن زروع دمشق وما حولها، مفصلا عن الغوطة، ثم

(١) المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبدالعال، دار القلم(٩٦١/١٣٨) يشار اليه الاصطخري، المسالك والممالك ص ٤٣.

(٢) ن.م ص ٤٣و٤٤. ابن حوقل،صورة الأرض، ص١٥٩.

(٣) الأصطخري، المرجع السابق،ص ٤٤. لازالت رواث تحتفظ بهذا الأسم قرب الرشاديه في محافظة الطفيله.

(٤) طول سواحلها ٥٣ كم،و طولها ٤٦كم، و عرضها ١٧كم.

(٥) الاصطخري، المرجع السابق، ص ٤٤.

خصص جزءا كبيرا من حديثه عن مسجد دمشق واصفا اياه "ليس في الا سلام مسجد احسن ولا اكثر عظمة منه"[١]. وتحدث عن تاريخ وموجبات بنائه بهذه العظمة.

وانتقل بعد ذلك للحديث عن جند حمص، واصفا المدينة وازقتها واهلها وقال "في اهلها جمال مفرط". كذلك تحدث عن جند قنسرين، ومدينة حلب، مشيرا الى كثافة سكانها وموقعها على طريق العراق والى الثغور وسائر الشامات، وذكر اهم المدن التي تتبع حلب مثل: قنسرين ومعرة النعمان وخناصره وانطاكية مركز العواصم. وكان الاصطخري حريصا على ذكر تفاصيل مشاهداته، ويلاحظ اهتمامه بالمياه والزروع والاثار ذات التاريخ، كما يبدي تعليله لبعض المشاهدات فهو عندما يتحدث عن «الرقيم» فيقول: «انها مدينة بقرب البلقاء وهي صغيرة منحوتة بيوتها كلها، وجدرانها من صخر كانها حجر واحد، والبحيرة الميتة من الغور بقرب زغر، وانما تسمى الميتة لانه ليس فيها شيء من الحيوان لا سمك ولا غيره»[٢] وتقذف بشيء يسمى الحمر، منه يلقحون كروم فلسطين كما يلقح النخيل بطلع الفحال منها، و بزغربسر يقال له الدنقلاء، لم ارى بالعراق ولا بمكان اعذب ولا احسن منظرا منه، كانه لون الزعفران، لا يغادر منه شيئ ويكون اربع منه شبرا، وديار قوم لوط على ارض تسمى الارض المقلوبة" وليس بها زرع ولا ضرع ولا حشيش"[٣].

وفي نهاية حديثه الجغرافي التاريخي عن كل اقليم، يبرز حديثا خاصا عن المسافات بين مدن الشام، محددا هذه المسافات بالمراحل والايام. تحدث عن جند الاردن بمثل حديثه عن بقية الاجناد وقال بان الاردن هو اصغر اجناد الشام و اقصرها مسافة[٤] .

ويعتبر المسعودي مؤرخا من طراز رفيع، كما اعتبر جغرافيا من نفس الطراز، لما حظي به من مصداقية عند المتأخرين، فقد تناول في كتابه: مروج الذهب ومعادن الجوهر، اخبار الامم الماضية والانبياء والرسل وكثيرا ممن وردوا في قصص القران الكريم، كاصحاب الاخدود، و ذي القرنين واهل الكهف، وبعض المشاهد من تاريخ العرب قبل الاسلام، وتعرض لبطليموس

---

(١) ن.م ص ٤٥.

(٢) الاصطخري، المسالك والممالك،ص ٤٧ .

(٣) ن.م، ص٤٩.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٩.

اليوناني وارائه الجغرافية وتحدث عن الانهار والتجار والممالك ومدنها واحوالها.

وخصص الجزء الثالث من كتابه للحديث عن الدولة الاموية اي ان الكتاب يجمع بين التاريخ والجغرافيا والسياسة والعمران، بل يتضمن معظم ضروب العلم في عصره [١].

وعلى الرغم من ان القرن العاشر الميلادي يعتبر عصر انحطاط سياسي بالنسبة للخلافة الاسلامية الا أنه عصر ازدهار الحضارة الاسلامية بما في ذلك ازدهار الادب الجغرافي، وهو القرن الذي أنجب المسعودي في مجال الأدب الجغرافي الذي امتاز برحلاته الواسعة و اتصاله بمعظم طبقات المجتمعات التي زارها وهو المتمثل بشعر أبي تمام:

فغربت حتى لم اجد ذكر مشرق و شرقت حتى قد نسيت المغاربا
خطوب اذا لاقيتهن رددنني جريحا كاني قد لاقيت الكتائبا [٢]

انفرد المسعودي في كتابه باتباع المنهج الحولي في التاريخ، كذلك المنهج الموضوعي في نفسس الكتاب وهو اسلوب تميز به عن سائر معاصريه من المؤرخين وعلى الرغم من انه رحاله الا انه لا يقف عند وصف المشاهد وانما ينقل اخبارا عن شخصيات البلد الذي يزوره. وعلى الرغم من الجهد العظيم الذي قدمه المسعودي الا ان كتاب المروج لم يسلم من النقد فأخذ عليه نقل الخرافات دون تمحيص والاستطراد في امور لا تستحق ذلك[٣].

ومن بين الجغرافيين والرحالة الكبار في هذا القرن أبوالقاسم ابن حوقل(ت بعد ٣٦٧هـ/٩٧٧م) الذي استعرض اقليم الشام كسابقيه فذكر الشراه والجبال واكد على ما ذكره من تقدمه من الجغرافيين من ان في الغور " فاكهة وأب ونخيل وعيون وانهار"[٤]. وكرر ما ذكره الاصطخري عن صور وقال بان "غالب الحكماء منها واشاد بدمشق وغزارة مياهها وذكر ان العتبة التي فوق محراب جامع دمشق عند المقصورة من

---

(١) زكي محمد حسين، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار المعارف،١٩٤٧ ص ٣٧

(٢) المسعودي ، التنبيه والأشراف دار االتراث ،بيروت ١٩٦٨م ص ٦. كراتشكوفسكي، تاريخ الادب الجغرافي ،ج١ ص ١٧٨.

(٣) انظر: نقولا زيادة، الجغرافيا و الرحلات ص ١٤٦–١٥٠.

(٤) ابن حوقل، صورة الارض، ص١٦٠.

أبنية الصابئين»[١]. وهذا قول غريب لا تؤيده المصادر على الرغم من وجود معبد وثني سابق على بناء المسجد والذي لا تزال اثاره امام الباب الرئيسي (الغربي) لساحة المسجد فالثابت ان المسجد من بناء الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ) وهو في الاصل مسجد اضيفت اليه كنيسة القديس يوحنا وكما تذكر بعض المصادر انه كان "في حائط المسجد" نقش يقول امر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبدالله الوليد امير المؤمنين" وجاء على لسان النابغة الذبياني في مدح الوليد:

قلعت بيعتهم عن جوف مسجدنا فصخرها عن جديد الأرض منسوف

يذكر مثل ذلك كل من ثيو فانس (ت٨١٨م) عام ٦١٩٩ من تاريخ الخليقة (٧٠٧م) والبلاذري (ت٨٦٨م) وابن قتيبة الدينوري (ت٨٨٩م) وابن الفقيه الهمداني (ت٩٠٣م) والطبري (ت٩٢٢م) نقلا عن المدائني وتيكيوس (ت٩٣٩م) والمنبجي اغابيوس في نهاية القرن العاشر الميلادي وميخائيل السوري (ابن البطريق) واليعقوبي(١١٦٦-١١٩٩) وقد دار جدل قديم جديد حول هذه المسالة وطرحت نظريات تقول بان زلزال (٦٠٢ م) والغزو الفارسي عام (٦١٣م) تسببا في هدم الكنيسة وليس الوليد، كما ان دراسة الطرز المعمارية لكنائس بلاد الشام لا تتطابق والطراز المعماري لمسجد دمشق[٢] .

و يجزم كرزويل بعد استخراجه لمختلف الروايات والاقاويل، الى ان حرم المسجد كان في الاصل معبدا، ولما جاءت المسيحية اخذ نصف حرم المعبد الغربي حيث بنيت فيه الكنيسة ولما جاء المسلمون بنوا مسجدهم في النصف الشرقي الذي كان للمعبد، ولما جاء الوليد فاوض النصارى على ضم الكنيسة للمسجد مقابل بناء كنيسة في اي مكان آخر من دمشق. وقد اكد الواقدي انه شاهد اتفاقية صلح دمشق التي كتبها خالد بن الوليد و لم يجد فيها ما يشير الى تقاسم المسلمين لمنازل دمشق وكنائسها، كما ذهبت الى ذلك بعض المصادر[٣]. ذكر ابن حوقل خراج الشام على عهد بني مروان، وقال انه بلغ الف الف دينار فوق ثمانمائة

(١) ن.م، ص١٦١.

(٢) انظر ك.كرزويل **الاثار الاسلامية الاولى**، نقله الى العربيةعبد الهادي ابو ريده واستخرج نصوصه وعلق عليه احمد غسان سبانو، دار قتيبة -دمشق ط١، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م ص ٨٨-١٠٤م.

(٣) انظر الرواية في البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، م. السعاده مصر ١٩٥٩م، ص١٢٩.

الف دينار[١] وتحدث عن بيروت وقال انها فرضة بعلبك وبها يرابط اهل دمشق وسائر جندها، وينفرون اليهم عند استنفارهم. وببيروت هذه كان مقام الاوزاعي، وبها من النخيل وقصب السكر والغلات المتوافرة، و تجارات البحر عليها واردة وصادرة[٢]وفي حديثه عن حمص، اشار الى دخول الروم اليها في زمانه، وما احدثوه من خراب و تدمير في المدينة، ولاحظ ظاهرة الزحف الصحراوي في جند حمص، واعتبر هذا السبب الذي جعل نكفور ملك الروم لا يقيم فيها[٣]. نقل ابن حوقل ما ذكره الأصطخري عن حلب وعزا تراجع حلب لسوء سياسة وتدبير سيف الدولة الحمداني لانه احرق جامعها وسبا ذراري اهلها واحرقها الروم و لم يغن عنها السور شيئا من سوء تدبير سيف الدولة. ويتابع القول: «هي الان بخسّة اميرها ودناءة نفسه مملوكة لجهتين: احداهن: انها في قبضة الروم، مجزية يؤدي كل انسان عن دكانه وداره جزيه والثانية: ان اميرها اذا وردها متاع من خسيس او نفيس اشتراه من جالبه وباعه هو لاهلها على اقبح صورة واحسن جهه، وما يستثار بها من خل وصابون، فهو يعمله ويبيعه وليس بها مبيع ومشترى الا وله فيه مدخل قبيح. وشرب اهلها من نهر يعرف بابي الحسن (قويق) وفيه قليل طفس و لم تزل اسعارها في الاغذية قديما وجميع الماكل والمشارب واسعة رخيصة، وعليهم الان للروم في كل سنة قانون يؤدونه...[٤].

وكأي جغرافي اخر تحدث عن حواضر بلاد الشام مسجلا اهم ما لفت نظره من خبر تاريخي او مظهر جغرافي، فذكر معرة النعمان، ثم تحدث عن جبلة على ساحل بحر الروم و كان رؤساؤها من بني وزير، فافتتحها نكفور وسبى منها خمسة وثلاثين الف امراة وصبي ورجل بالغ بلقاء العدو وبمانع عن نفسه[٥] .

اما ابن الفقيه الهمداني والذي ينسب اليه "مختصركتاب البلدان" فهناك خلاف في تاريخ وفاته ما بين اواخر القرن الثالث الهجري واواسط القرن الرابع وقد جاء حديثه عن بلاد الشام مختصرا على وصف سطح البلاد، وينقل الرواية التي تقول من عجائب الشام

(١) ابن حوقل،صورة الارض (ص ١٦١-١٦٢)
(٢) ن.م (ص.١٦٢).
(٣) ن.م ص ١٦٣.
(٤) ابن حوقل ١٦٣-١٦٤.
(٥) ابن حوقل ص ١٦٤.

اربعة اشياء: بحيرة طبرية والبحيرة المنتنة واحجار بعلبك ومنارة الاسكندرية، ولا ادري لماذا ادخل الاسكندرية وهي ليست من الشام، وتكلم عن زروع الشام ومياهها وعجائب عادات اهلها، وشيئا من تاريخ المكان كما فعل عند حديثه عن بيت المقدس.

وقد استعرض قدامة بن جعفر(ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) تاريخ فتوح الشام بالتفصيل معتنيا بتاريخ الحوادث معتمدا في معلوماته على ما جاء في كتب الفتوح، وما اورده الامام الطبري من روايات الفتح. وكان يذكر رواته احيانا واحيانا أخرى يلجا الى الرواية الجمعية "قالوا" وكانت متابعته الى حد المطابقة لكتاب فتوح البلدان للبلاذري، وقد اشتمل الكتاب على بعض المعلومات الاحصائية المعتمدة على القيود الرسمية لكونه كان يعمل في الديوان، فالارقام التي يوردها ماخوذة من القيود الرسمية لسنة ٢٠٤هـ وهو يذكرها بالحنطة والشعير[١] .

يعتبر أبو المعين ناصر بن خسرو القبادياني المروازي(٣٩٥-٤٧٠هـ/١٠٠٤-١٠٧٧)، المعروف بناصر خسرو أديبا وشاعرا فارسيا بليغا، وفيلسوفا عميقا، وقد ترك لنا نماذج عديدة تشهد على براعته، وحبه للبحث والاستقصاء في حياته الواقعيه، والذي يراه أساسا لأغناء حياته الروحيه.

ففي كتابه سفر نامه يبدو لنا خسرو رجلا ذا اهتمام وجداني بالطريقة التي تتحصن بها المدن وكيفية معالجة شؤونها الاداريه، اذ يركز خسرو على ايراد المعلومات التي تدور حول عدد أبواب كل مدينة، وسماكة أسوارها ومن أين تصلها المياه[٢] وكذالك طول وعرض المدينه[٣] كما يتجول في الأسواق مسجلا أسعار عينات من بضائعها، ويقدم بعد ذالك مقارنات بين الأسعار التي توصل اليها، كما يذكر الجماعات التي تقطن بلده الأم خراسان[٤].

وتشير المعلومات التي يحرص خسرو على ايرادها الى دقته وقوة ملاحظته، فهو كمن

(١) قدامه بن جعفر، (ت ٣١٠ه/٩٢٢ م) الخراج وصنعة الكتابة ص٥٩.

(٢) ناصر خسرو، سفر نامه، ص٤١،٣٦.

(٣) ن.م ص٣٨.

(٤) ن.م أماكن متفرقه.من الكتاب.

يسجل أرقاما في سجل تجاري لايحتمل الخطأ، الا أنه حين يعرض للخلفيات التاريخية نجده يميل الى الغموض فكأنه يخفي أسرارا، ولعل ذالك عائد لتكوينه الاسماعيلي.

ففي حديثه عن زيارته للبحرين القرمطية في زمانه أزعجه ما أقدم عليه القرامطه من مهاجمتهم مكة ونهبهم الحجر الأسود من مكانه بالأضافة الى سوء سلوكهم مع الحجيج. فقد اتخذ خسرو من هذه الحادثة فرصة لألقاء الخطب والمواعظ الدينية التي تناقض هذه الأفعال وتنعكس على سمعة القرامطة لاسيما وأن موسم الحج فرصة للدعاية الحسنه، فكيف اذا جاء هذا الأعتداء على مكة أقدس مكان عند المسلمين.

زار خسرو الشام قادما من المشرق من ميافارقين الى حلب وقال بأن المسافة مائة فرسخ، وذكر ان حلب هي مركز مكوس وهذا يشير الى نشاطها التجاري في تلك الحقبة، حيث يرد اليها التجار من مختلف البلدان. وذكر خسرو ان الوزن في سوقها بالرطل الظاهري وهو اربعمائة وثمانون درهما، وهو الرطل الذي اعتمد في مصر ايام الظاهر لاعزاز دين الله (٤١١-٤٢٧هـ/١٠٢٠-١٠٣٥م).

تحدث عن معرة النعمان وقال ان بالمدينة رجلا اعمى اسمه ابو العلاء المعري، وهو حاكمها واسع الثراء، عنده كثير من العبيد وكان اهل البلد كلهم خدم له، اما هو فقد تزهد يصوم الدهر و يقوم الليل ولا يشغل نفسه بامر دنيوي، وكان هذا الرجل حيا وانا هناك"[١] وهذه الشهادة ان صحت ترد التهم التي وجهت لابي العلاء المعري بالزندقة والالحاد. ووصف ناصر خسرو مباني طرابلس وقال بان ارتفاعها يصل الى ست طبقات، ويقال بان بها عشرين الف رجل، وهذه الاحصائية لا نجدها عند غيره ممن زاروا طرابلس، وعلى العموم قليلا ما يتحدث الرحالة عن تعداد السكان. وقد اهتم خسرو بالتوجهات المذهبية للسكان، ونلاحظ انه ينسب سكان المدن التي زارها الى المذهب الشيعي. تحدث عن بيت المقدس ووصف قبة الصخرة والدكه والمدافئ وقبر الخليل بما لا يخرج عن حديث سابقيه، وعن كنيسة القيامة وتعظيم ملك الروم له وذكر ان ملك الروم يزورها متخفيا، كما اكد هدم الحاكم بامر الله الفاطمي لها سنة ٤٠٠هـ/١٠٤٧م ووصف لنا زخارفها وما ركب

(١) ناصر خسرو، سفر نامة (ص٤٤).

فيها من صور، وما يقوم عليها من خدمة، وقال لو وصفت كل ذلك لطال الوصف[١]، اما اوصافه الاخرى للبلدان فلا تخرج عما ذكره سابقوه.

والمقدسي هو شمس الدين ابو عبدالله بن احمد بن ابي بكر البناء الشامي المعروف بالبشاري (ت ٣٣٥–حوالي ٣٨١هـ/٩٤٦/٩٤٧–٩٩١/٩٩٢) ويطلق عليه مقدسي او مقَدسي نسبة الى بيت المقدس، وقد لقب بعدة القاب في حياته واثناء اسفاره ذكرها لنا في مقدمة كتابه "احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» مثل: مقدسي، مصري، مغربي، خرساني، فقيه، صوفي، زاهد، عابد، سائح، وراق، شامي.....الخ. استخدم المقدسي مصطلحات لتوضيح طبيعة مناخات الاقاليم التي زارها، ووصف بعضها بطيبة الهواء ومنها: حمص، وبيت المقدس، واخرى معتدلة الهواء مثل دمشق، واحيانا صحيحة الهواء او رقيقة الهواء و متوسطة الهواء و ذكر الشام على العموم جيدة الهواء، والهواء السجسج جعله لهواء بيت المقدس. اما مصطلح الهواء الشامي وهو نسبة الى اقليم الشام. ووفق تصنيف المقدسي فان هواء الشام متوسط اي معتدل الحرارة[٢] ويعد المقد سي خاتمة الجغرافيين الكبار من المدرسة العربية التي بلغت اوجها في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، فالرجل يمثل العا لم الصحيح الدقيق الملاحظة العالي الهمة الصبور الجلد لذلك جاء كتابه «احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» نموذجا للكتاب المرتب والمنظم، يقدم للقارئ الاسماء المتفقة اسما المختلفة صقعا، وينتقل الى خصائص الاقاليم فيجملها. و يمكن اعتبار كتابه من الكتب الادبية الجميلة وقد ذكر اسباب تاليفه ابتداء، ووصف ما لاقاه من اهوال في اسفاره. وقد اثنى عليه من كتبوا في ادب الرحلات قديما وحديثا، واعتبره شبرنجر «اكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة»[٣] . .

(١) احمد بن علي، اتعاض الحنفاء باخبار الفاطمين الخلفاء ٣ج،تحقيق جمال الدين ا لشبال ،منشورات المجلس الاعلى للشوؤن الاسلامية القاهرة ١٩٧١–١٩٧٣، ج٢، ص٦ ١٧. محمد الحافظ النقر،ندوات القدس٥٠٠٠) عام من الحقوق العربية ،الندوة الثانية، جامعة ال البيت (٢٤/١١/١٩٩٧). القدس في كتا بات بعض الرحالة الاوروبين في فترة الغزو الفرنجي،مقالة غير منشورة،عمان ١٩٩٧م.

(٢) المقدسي (ت ٣٨٥ه/٩٨٥م)، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، (ص ٤٩).

(٣) كرانشكوفسكي، الادب الجغرافي ٢٠٨/١. (انظر كراتشكوفسكي ٢١٤/١) وبارثولد، تركستان (ص٧٢–٧٤) نقولا زيادة، الجغلرافيا والرحلات عند العرب، الاهلية للنشر والتوزيع، بيروت ط١٩٨٢،٣ بيروت ص ٤٧–٥٥. صلاح الدين الشامي، الأسلام و الفكر الجغرافي العربي منشأ ة المعارف بالاسكنرية القاهرة

ويرى "كرامرز" ان المقدسي اكبر الجغرافيين العرب اصالة، ومصنفة من اكثر الكتب الجغرافية في الادب الجغرافي قيمة[١].

تناول المقدسي اقطار الاسلام واحدا بعد الاخر، يقسم الحديث في القطر الى ثلاثة اقسام ، القسم الاول يرد الكلام على اقسام المنطقة ومدنها والمواضع العامرة منها، اما القسم الثاني فيبحث في المناخ والزرع والطوائف واللغة والتجارة والاوزان والنقود والعادات، اما القسم الثالث فيتناول ذكر المسافات وطرق المواصلات، ويقدم لنا المقدسي معلومات هائلة عن التجارة والمعتقدات والعادات[٢].

والمقدسي مثال للرحالة الاثنوجرافي وذلك لمزجه الجلي بين الرحلة والاثنوجرافيا في وصفه اقليم المشرق[٣] لا بل اعتبره البعض واضع اساسيات منهج الاثنوجرافيا عند الرحالة المسلمين في العصور الوسطى، وهو كغيره من الرحالة قصر معظم حديثه على بلاد الاسلام وبخاصة التي زارها واطلع على احوالها، لان ما جاء في كتابه انما هو ثمرة رحلاته وملاحظاته الناتجة عن المشاهدة[٤] فهو يقول: "وفي كتابنا هذا اختصار لفظ يدل على معان...."[٥].

وعندما يتحدث المقدسي عن اقليم الشام، يبدو الحماس في حديثه واضحا عن مناقب الشام وفضائله وما يشتمل عليه من مفاخر الانبياء والصالحين، وماثر الامم من يهود ونصارى ومسلمين، ليظهر تميز هذا الاقليم على غيره من اقاليم الارض، فهو يفتتح حديثه قائلا "اقليم الشام جليل الشان ديار النبين ومركز الصالحين ومعدن البدلاء ومطلب الفضلاء، به القبلة الاولى وموضع الحشر والمسرى، والارض المقدسة والرباطات الفاضلة،

١٩٧٨ ص ١٢٨-١٢٩، صباح محمود محمد، دراسات في التراث الجغرافي العربي، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، سلسلة دراسات دار الرشد للنشر (٢٥٢) ١٩٨١ ص ٤٣-٤٥. احمد ابو سعد، ادب الرحلات، منشورات دار الشرق الجديد ط١، بيروت ١٩٨٠ ص ٨٠.

(١) كرانشكوفسكي، ٢٠٨/١. Kramer، Al-Mukaddasi، p.765

(٢) زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار المعارف، ١٩٤٧، ص٤٣.

(٣) حسين محمد فهيم، ادب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة(١٣٨)الكويت ص٦٣-٦٥

(٤) نفيس احمد، الفكر الجغرافي في التراث الاسلامي، ترجمة فتحي عثمان، مراجعة :علي ادهم ،دار العلم ط٢ الكويت ١٣٩٩هـ/١٩٧٨م ص ٧٢.

(٥) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص٦.

والثغور الجليلة والجبال الشريفة، ومهاجر ابراهيم وقبره، وديار ايوب وبئره ومحراب داوود وبابه، وعجائب سليمان ومدنه، وتربة اسحق وامه، ومولد المسيح ومهده، وقرية طالوت ونهره، ومقتل جالوت وحصنه، وجب ارمبا وحبسه، ومسجد اوريا وبيته، وقبة محمد وبابه، وصخرة موسى وربوة عيسى، ومحراب زكريا ومولد يحيى، ومشاهد الانبياء وقرى ايوب ومنازل يعقوب والمسجد الاقصى وجبل زيتا ومدينة عكا ومشهد صديقا، "ورغم ذلك تبدو في كتاباته نظرته المتوازنة للغير، فلا نلمح عنده اي انحياز لبني دينه او جنسه، وهذا يؤشر على طبيعة الطبقات الاجتماعية التي كانت سائدة في عصره ، فهو عندما ينقد انما ينقد واقعا بغض النظر عمن يشغله دينا ام عرقا.

قسم المقدسي بلاد الشام الى اربعة صفوف الاول: يلي بحر الروم وهو يعني به السهل الساحلي والصف الثاني الجبل، ويقول عنه مشجر ذو قرى وعيون، والصف الثالث الاغوار، والصف الرابع سيف البادية ويتبع ذلك وصف لكل صقع بكل مافيه ويذكر االمسافات والطرق[1] مع مشاهد لا تحصى وفضائل لا تخفى، وفواكه ورخاء واشجار واميا واخرة ودنيا، به يرق القلب وتنبسط للعبادة الاعضاء، ثم به دمشق جنة الدنيا... وليسوا كالاعاجم في العلم والدين والنهي... يقدمون طاعة المخلوق على طاعة رب السماء، عامتهم جهال او غوغاء لا نهضة في جهاد ولا حمية على الاعداء"[2]، ويقصد بذلك الأعاجم.

تحدث المقدسي عن احوال الشام قاطبة عن الطبيعة واحوالها والمدن واهلها، فهو عندما يتحدث عن دمشق يذكر موقعها واهميتها وشيئا من تاريخها، ويتحدث عن قصورها واثارها ومواد عمرانها من الخشب والطين، ووصف حصنها (القلعة) ويقول بانه أحدث وانا به «وقال بان معظم اسواقها مغطاة، وان لهم سوق على طول البلد مكشوف...ويتحدث عن الناس ويصف احوالهم ومستوى فكرهم وعقولهم ويصف الماء والهواء والزروع والفواكه.

---

(١) المقدسي البشاري ،ص١٨٤.
(٢) ن.م،ص ١٥١–١٥٢.

يصف الجامع ويقول بانه "احسن شئ للمسلمين"[١] وهو في عرض مشاهداته يتميز بدقة الملاحظة وجمال الوصف وفي معرض حديثه عن مسجد دمشق يقول: «قلت لعمي يا عم: لم يحسن الوليد حيث انفق اموال المسلمين على جامع دمشق، ولو صرف ذلك في عمارة الطرق والمصانع ورم الحصون لكان اصوب وافضل، قال لا تفعل يا بني، ان الوليد وفق وكشف له عن امر جليل وذلك انه راى الشام بلد النصارى، وراى لهم فيها بيع حسنة قد افتتن بزخارفها، وانتشر ذكرها كالقمامة (القيامة) وبيعة لد والرها، فاتخذ للمسلمين مسجدا اشغلهم به منهن. وجعله احد عجائب الدنيا، الا ترى ان عبدالملك لما راى عظم قبة القمامة وهيئتها خشي ان تعظم في قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبة على ما ترى»[٢] وهو بهذه المعلومات يضع حدا لتفسيرات اسباب بناء قبة الصخرة والمسجد الاقصى.

وعندما يصف المقدسي المكان كأنه يرسم له لوحه دقيقة التفاصيل تبدو فيه المعرفة التاريخية والجغرافية، وتبين عن معرفة في فنون العمارة وذوق في تميز مواطن الجمال، وعلم في احوال السكان، ولننظر وصفه لمدينة الرملة «بهية حسنة البناء، خفيفة الماء، مرية واسعة الفواكه، جامعة الاضداد، بين رساتيق جميله ومدن سريه ومشاهد فاضلة وقرى نفيسه، والتجارة بها مفيدة ليس في الاسلام ابهى من جامعها ولا احسن ولا اطيب من حواريها ذات فنادق رشيقة وحمامات انيقة واطعمة نظيفة، وادامات كثيرة ومنازل فسيحة ومساجد حسنة وشوارع واسعة وامور جامعة قد خطت في السهل وقربت من الجبل والبحر، وجمعت التين والنخل، غير أنها في الشتاء جزيرة من الوحل، وفي الصيف ذريرة من الرمل، كثيرة البراغيث عميقة الابار مالحة، وماء المطر في جباب مقفلة، فالفقير عطشان والغريب حيران»[٣] فهو ينقل مشاهداته وانطباعاته، وكأنه آلة تصوير تعكس الواقع بما فيه من متناقضات، على الرغم من أن البعض يرى ان الرملة هي بلد المقدسي حيث وضع كتابه القيم[٤] وخلفه لنا مصدرا قيما لدنيا المسلمين في القرن الرابع الهجري/

(١) ن.م،ص١٥٧

(٢) ن.م،ص١٥٩

(٣) ن.م،ص١٦٤.

(٤) نقولا زياده، **الجغرافيا والرحلات عند العرب**،الأهلية للنشر والتوزيع ط١٩٨٢،٣ ص٥(.ويقال بأنه كتبه وهو بمدينة شيراز.)

العاشر الميلادي، وفي معرض حديثه عن الرملة يوثق دروبها فيقول «الذي أعرف من دروبها درب بئر العسكر، درب مسجد عنبه، درب بيت المقدس، درب بيلعه(بالعه)، درب لد، درب يافا، درب مصر، درب داجون تتصل بها مدينة اسمها داجون، فيها جامع[١]، ويصف الجامع بما عهد عنه من تفاصيل.

وفي تناوله لبيت المقدس يقرر: «ان ليس في مدائن الكور أكبر منها ...لاشديدة البرد وليس بها حر[٢]، وقليلا ما يقع فيها الثلج، وأشاد ببنائها وقال « فيها كل حاذق وطبيب، وأليها قلب كل لبيب، ولا تخلو كل يوم من غريب» وعن المكاييل في الرملة يقول: «فلأهل الرملة القفيز والويبة والمكوك والكيلجة، فالكيلجة نحو صاع ونصف، والمكوك ثلاث كيالج والويبة مكوكان والقفيز اربع ويبات، وينفرد أهل ايليا بالمدى وهو ثلثا القفيز والقب وهو ربع المدى، ولا يستعمل المكوك الا في كيل السلطان. ومدى عمان ست كيالج،...الخ»[٣] وهو حيثما نزل وسئل عن بلده أفاض في ذكر فضائلها، وفي معرض تفسيره لذلك قال: «وأما كثرة الخيرات فقد جمع الله فيها فواكه الأغوار والسهل والجبال والأشياء المتضادة كالأترج واللوز، والرطب والجوز، والتين والموز» ... [٤].

ولا يتورع المقدسي من ذكر عيوب المدينة ونقل ماقيل من أنه «مكتوب في التوراة بيت المقدس طشت ذهب مليء عقارب»..ثم لاترى أقذر من حماماتها، ولا أثقل مؤنة، قليلة العلماء كثيرة النصارى، وفيها جفاء. على الرحبة والفنادق ضرائب ثقال على ما يباع فيها...وليس للمظلوم فيها أنصار، والمستور مهموم والغني محسود، والفقيه مهجور، والأديب غير مشهود، لامجلس نظر ولا تدريس، قد غلب عليها النصارى واليهود وخلا المسجد من الجماعات والمجالس، وهي أصغر من مكة وأكبر من المدينه[٥] وهذه الأوصاف لاتنسجم مع عواطفه تجاه الشام ولاتتسق مع حديثه العام.

(١) المقدسي،المرجع السابق ص ١٦٥.
(٢) ن.م ص١٦٤.
(٣) ن.م،ص ١٦٧.ذكر الأصطخري فيما سبق أنها تأتي بعد الرمله.
(٤) ن.م،ص١٧٥.
(٥) ن.م،ص١٧٤.

يتابع المقدسي وصفه لكل أجزاء المدينة فيذكر تفاصيل عن السور وأبوابه ويسمي كل باب كما يصف البرك. يفصل المقدسي الحديث عن المسجد الأقصى من عمارة وأعمدة وقباب وأبواب ورخام وزينته وخدمه ومماليكه... وهكذا يتناول بقية المدن الفلسطينيه وكأنه يلتقط صورا جوية للأماكن التي يمر بها، فذكر سلوان وجبل زيتا وبيت لحم وحبرى (الخليل) وبيت جبريل واريحا وعمان معدن الحبوب والأغنام، بها عدة أنهار وأرحية يديرها الماء، ولها جامع طريف بطرف السوق مفسفس الصحن، وقد قلنا أنه شبه مكة. وقصر جالوت على جبل يطل عليها، وبها قبر أوريا عليه مسجد، وملعب سليمان، رخيصة الأسعار كثيرة الفواكه، غير أن أهلها جهال وطرقها صعبة[١].

وفي حديثه عن الرقيم نجده يروي قصة أهل الكهف بسند كامل يتصل بعبدالله بن عمر رضي الله عنه. وكذلك يصف عسقلان بأنها كثيرة المحارس والفواكه ومعدن الجميز وقراها فائق وخيرها دافق والعيش بها رافق. وعن قيسارية يقول بأنه ليس على بحر الروم أجل ولا أكثر خيرات منها[٢].

وعن أريحا يقول بأنها كثيرة الحيات والعقارب، أهلها سمر وسودان، كثيرة البراغيث، غير أن ماءها أخف ماء في الاسلام، كثيرة الموز والأرطاب والريحان[٣]. ويروي خبرا طريفا، أن شلنديات الروم تقلع الى رباطات المسلمين على البحر، ومعهم أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار، ويستخدم سكان الرباطات المناور ليلا والمحارق نهارا ليدلوا على هذه الشواني والشلنديات، وهذا الأسلوب كان معروفا عند المسلمين في ايصال الأخبار الهامةأيام الحروب الصليبية[٤]. وبعد أن فصل الحديث عن معظم المواقع التي مر بها في تجواله ببلاد الشام يعود ويتحدث عن جمل شؤون هذا الاقليم فيجمل وصف الاقليم وهوائه ومائه وارضه وزروعه وعمرانه وسكانه واصنافهم ومذاهبهم واعمالهم، فيقول ان اكثر الصباغين والجهابذه والصيارفه والدباغين بهذا الاقليم يهود، واكثر الأطباء والكتبة نصارى، واتى على وصف الملابس في الصيف والشتاء، كما

(١) ن.م،ص١٧٥.

(٢) ن.م،ص١٧٧.(قصة بيع الأسارى لاتؤيدها المصادر.

(٣) انظر المرجع السابق ص ١٧٩-١٩٢.

(٤) ن.م ص١٨٠.

تحدث عن الجنائز والقبور وعن الخبز والتنور(الفرن). وذكر معادن البلاد وحجارتها والخمر والملح والعسل والمياه وخواصها ومصادرها الى غير ذلك من التفاصيل التي لا يوردها الا اللبيب الفطين". والمقدسي في اجماله لاحوال اقليم الشام يستدرك مافات من تفاصيل، ويركز على الغلات والتجارات فيعدد مايرفع من كل بلدة من تجارات بشكل يثير الأعجاب، ويذكر العادات والتقاليد، وخلاصة القول ان كتب الرحلات مصدر هام للمعرفة بعامة والمعرفة التاريخية بخاصة، فهي مصادر موسوعية لا يستغنى عنها في دراسة احوال البلاد والعباد.

رحالة القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي وجهودهم بالتعريف بالأصقاع الشمالية للعالم الإسلامي

إن محاولة الإنسان استكشاف محيطه والتعرف على عناصر المكان، هي غريزة إنسانية مدفوعة بالفطرة، ويتساوى فيها البشر على اختلافهم في الزمان والمكان.

لعل هذه الخاصية تنبه إلى أهمية المكان في حياة الأفراد والجماعات، إذ أن طبيعة المكان بموقعه وخصوبته ومناخه، كان مقصد الحركة الاجتماعية عبر التاريخ من أجل توفير ظروف أفضل للحياة.

ومع الزمن ازداد الاهتمام بالتعرف على المكان سواء لأغراض تجارية، بما في ذلك معرفة الطرق والمدن والأسواق، وما في هذه الأماكن من أمور تجب معرفتها وأخذ احتياطات الأمان فيها، وأغراض عسكرية تجعل العسكر على معرفة بالأماكن التي يستهدفونها، والطرق التي يسلكونها بما فيها من عقبات وصعاب، وما يجب أن يتوفر فيها من عوامل مساعدة على الحصول على الماء والمأكل إلى غير ذلك من المتطلبات التي أصبحت الآن من أهم متطلبات العلوم العسكرية.

ومن بين الدوافع الكثيرة التي تجعل الإنسان يرحل من مكانه أو يتوق إلى رحلة الحج إلى الأماكن الدينية، لقضاء المقاصد التي يفرضها عليه دينه أو معتقده، ومنها أيضاً الرحلات الاستطلاعية حباً بالتعرف على الآثار أو تأمل طبائع المكان، بالإضافة إلى عوامل أخرى سياسية أو استخبارية.

لما جاء الإسلام تزايدات الرغبة بالرحلة واستكشاف المجهول، ذلك أن الارتحال أصبح مطلباً دينياً، لاستكشاف عظمة الخالق سبحانه وتعالى، بالنظر في ملكوت الله وعجائب مخلوقاته، لأن في ذلك تعظيم للخالق وبرهان على جدارته بالطاعة والعبادة، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[آل عمران: الآية (١٣٧)].
وقوله ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾[غافر: الآية (٨٢)].

وقوله ﴿ فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ... ﴾[التوبة: الآية (٢)]. وقوله ﴿ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾[الرحمن: الآية (٣٣)] إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تدعو إلى الحركة في المكان والنظر في هذا الكون والتدبر والتذكر واستخلاص الحكم والدروس.

مثلت حركة الفتوحات الإسلامية دفعاً قوياً لعلم الجغرافية، حيث الرحلة من أهم مقوماته، فقد امتدت الفتوحات العربيه الإسلامية ما يزيد على قرن من الزمان بعد وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وكانت ممتدة في مختلف الاتجاهات، وفي تنوع من البيئات المناخية والطبيعية، كانت فتحاً عسكرياً واجتماعياً وثقافياً، امتد شرقاً حتى الهند والصين، والمحيط الأطلسي (بحر الظلمات) غرباً، فقد انتشر العنصر العربي في هذه الأرجاء الواسعة، ونشر معه لغته ودينه، ونشطت في ظل الدولة العربية الموحدة حركة التجارة والحج والسياحة في طلب العلم والمعرفة(١)، وأصبح التعرف على عادات الشعوب وتقاليدها وثقافاتها مطلباً مرافقاً لمعرفة المكان.

أصبح أدب الرحلة في الثقافة الإسلامية يقدم في الغالب وصفاً موضوعياً لمجموعة من المعطيات الجغرافية والإثنية والمعمارية واللغوية والاجتماعية للأماكن التي جال فيها الرحالة، وتتحدد درجة الموضوعية في الأخبار بشخصية الرحال ومعرفته ومستوى ثقافته وحقيقة اهتماماته وأهدافه، كما تحددها المعرفة العامة لأبناء زمانه وأهل عصره، إذ من الطبيعي إن المجتمعات البسيطة تميل بطبعها إلى تقبل الأساطير والخوارق، كما أن المغترب أو الرحال يميل بطبيعته ومجاراته لمجتمعه إلى تهويل أخباره ومشاهداته(٢)، اللهم يُستثنى من هؤلاء الرحالة المثقفون الذين كانت دوافعهم الذاتية علمية، وفي كل الأحوال أصبحت المعطيات المعاصرة تتجاوز مثل هذه المرويات المبالغ فيها نتيجة إتساع دائرة الثقافة، وانحسار العالم إلى مساحة صغيرة بفعل تقدم وسائل الاتصال الحديثة، وفي كل الأحوال يشهد للرحالة

(١) أنظر مقدمة نقولاً زياده، في كتابه رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، هدية المقتطف السنوية، سنة ١٩٤٣ ص٥. سيشار إليه، زياده، رواد.

(٢) جاء في مثل شعبي متداول عند العرب عامة وفي بلاد الشام بخاصة: ما أكذب من عجوز ماتت أجياله، وغايب (مغترب) قلت أمثاله.

والجغرافيين العرب بأنهم قدموا اسهامات بارزة في علوم الجغرافية على اختلاف ميادينها، الوصفية والعملية والفلكية والرياضية، وعللوا الظواهر الكونية، وتركوا لنا مكتبة حغرافية متنوعة، أسهمت بقدر واسع في المعرفة الإنسانية.

إن من المفارقات التي تواجه أبناء عصرنا، أن نجد أحد مواطني الاتحاد السوفييتي القديم يُعرِّف بمزايا حضارتنا، ويشيد بجهود رموز العلوم المختلفة فيها، ويذكر بالفضل سجايا علمائنا، ذلك هو العلامه الروسي أغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكي[١] ومما ذكره في مقدمة كتابه المعروف في قوله: "تعرفت خلال إقامتي في الشرق العربي إلى كثير من علماء العرب، وأدبائهم وصحافييهم، ولا أنسى لطفهم وعنايتهم[٢] مدى الدهر، وكان هذا اللطف العربي المشهور من الأسباب التي جذبتني إلى الشرق جذبة لا أتخلص منها ما دمت حياً. تعرفت على الكثير من العلماء الذين صاروا من أعضاء المجمع العلمي المكرمين فيما بعد. ففي القاهرة عرفت جرجي زيدان الذي اخترمته المنية سنة ١٩١٤، وأحمد زكي باشا عضو المجمع العربي الحالي، والأستاذ نالينو الإيطالي (Carlo Alphonso Nallino)، وفي فلسطين السيد خليل السكاكيني والشاعر الفاضل اسعاف النشاشيبي، وفي بيروت حضرت دروساً للأب لويس شيخو، وفي دمشق زرت إدارة مجلة المقتبس الغراء، واستفدت في هاتين السنتين أكثر مما استفدت طول حياتي ...[٣]"

أردت من هذا الاقتباس أن أبين كيف يعترف هذا العلامة بالجميل كما يُعرِّف ببعض من أعلام العرب في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. يعتبر عمل كراتشكوفسكي رائداً في مجال الاستعراب، وقد لفت النظر إلى جهود الرحالة العرب بالتعريف بأصقاع الأرض قاطبة وليس بعالم الإسلام فحسب، بل فتح مجالاً لعلماء الاستعراب للولوج في ميدان منجرات العرب والمسلمين في التاريخ الجغرافي على الإطلاق.

(١) ولد في ولنا (Vilna) عاصمة لتوانيا سنة ١٨٨٣ وتوفي سنة ١٩٥١م. زار البلدان العربية وأتقن اللغة العربية وكتب عن الشعر والأدب العربي، كما ألف كتابه المشهور: "تاريخ الأدب الجغرافي العربي" نقله إلى العربية المرحوم صلاح الدين عثمان هاشم، وقام بمراجعته: ايغور بلياييف، ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر التابعة للجامعة العربية، عن النسخة الأصلية الصادرة في موسكو سنة ١٩٥٧م، القاهرة.

(٢) في الأصل لطفكم وعنايتكم (٣) ن.م.ص ٤. سيشار إليه كراتنكوفسكي، تاريخ

(٣) ن.م ص ٤.

نبغ عدد كبير من الجغرافيين العرب الرحالة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وسيقتصر البحث على أولئك الذين زاروا الأقاليم الشمالية من البلاد الإسلامية ودخلوا بلاد الروس والبلغار وغيرها، وزودونا بمعلومات فريدة عن هذه البلاد وأهلها.

ومن أبرز هؤلاء الجغرافي المؤرخ المشهور بالمسعودي، علي بن الحسين بن علي، ابو الحسن، من ذرية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[١].

نشأ المسعودي[٢] في بغداد وجاء مصر، ورحل في طلب العلم إلى أقصى البلاد، فطاف فارس وكرمان سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م، حتى استقر في اصطخر، وفي السنة التالية قصد الهند إلى ملتان والمنصورة، ثم عطف إلى كنباية فصيمور فسرنديب (سيلان)، ومن هناك ركب البحر إلى بلاد الصين وطاف البحر الهندي إلى مدغشقر، وعاد إلى عُمان، ورحل رحلة أخرى سنة ٣١٤هـ/٩٢٦م إلى ما وراء أذربيجان وجرجان ثم إلى الشام وفلسطين، وفي سنة ٩٤٣/٣٣٢م جاء أنطاكية والثغور الشامية إلى دمشق واستقر أخيراً بمصر، ونزل القسطاط سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م، وتوفي السنة التالية ٣٤٦هـ/٩٥٧م.

كان المسعودي في تجواله عيناً مبصرة، لا تفوته ملاحظة، كما كانت اذناه صاغية، فجمع من الحقائق التاريخية والجغرافية ما لم يسبق إليه أحد، وألف كثيراً من الكتب التي تشهد على سعة معرفته وتوقد ذهنه.

ومن تجواله الواسع سيهمنا ما سجله من انطباعات عن الأقاليم الشمالية، فقد لاحظ أن أهل الربع الشمالي هم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين في الشمال كالصقالبة والافرنجه ومن جاورهم من الأمم، فإن سلطان الشمس ضعف عنهم لبعدهم عنها، فغلب على نواحيهم البرد، وتلبدت أفهامهم، وثقلت ألسنتهم وابيضت ألوانهم حتى أفرطت، فخرجت من البياض إلى الزرقة، ورقت جلودهم وغلظت لحومهم وازرقت أعينهم أيضاً، فلم تخرج من طبع ألوانهم، وسقطت شعورهم، وصارت صهباً لغلبة البخار الرطب، ولم يكن في مذاهبهم

(١) من مقدمة محقق كتاب: مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط٤، ١٩٦٤م.

(٢) هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) عداده في البغداديين، وأقام بمصر مدة، وكان أخباريا علامة صاحب غرائب وملح ونوادر، له مجموعة مؤلفات، وصلنا منها: مروج الذهب، وكتاب التنبيه والإشراف.

متانة، وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة، ومن كان منهم أوغل في الشمال والغالب عليهم الغباوة والجفاء والبهائمية، وتزايد ذلك فيهم في الأبعد فالأبعد إلى الشمال(١).

تحدث المسعودي عن الروس وأممهم وعن علاقتهم التجارية مع الأندلس وروميه، وقسطنطينية والخزر، وذكر أن الترك (الغز) يعبرون بخيولهم على نهر الخزر في حال انجماده، ليغيروا على بلاد الخزر(٢). تحدث عن حروب المسلمين والروس من بلاد برطاس على شاطئ نهر الخزر(٣).

تحدث عن الجبال فقال: "وهذا جبل دنباوند بين بلاد الري وطبرستان، يُرى من مائة فرسخ لعلوه وذهابه في الجو، ويرتفع في أعاليه الدخان، والثلوج مترادفة عليه .. ويخرج من أسفله نهر كثير الماء أصفر كبريتي ذهبي اللون، مسافة الصعود إليه في نحو ثلاثة أيام بلياليها، وقال الفرس إن الضحاك ذا الأفواه موثق في أعاليه بالحديد، وهذه الأطم التي في أعالي هذا الجبل أطم عظيمة من آطام الأرض وعجائبها(٤)

وفي عام ٣٣٢هـ/٩٤٣م "ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والقلزم، واليمن، وأصابني فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة، فلم أجد أهول من بحر الزنج(٥)". يفتخر المسعودي بكثرة تجواله حتى أصبح حاله حال من تمثل شعر أبي تمام قائلاً:

فغربت حتى لم أجد ذكر مشارق ... وشرقت حتى قد نسيت المغاربا

خطوب إذا لاقيتهن رددنني ... جريحاً كأني قد لقيت الكتائبا(٦)

يقول المسعودي أنه لقي كثيرين ممن رحلوا إلى الصين، وعرف منهم أن الطريق من خراسان إلى بلاد الصين تمر ببلاد الصغد، وأنه يمر بالجبال التي يؤخذ منها النشادر، ويؤخذ من هذا أن طريق الصين كان في القرن الرابع، هو الطريق الذي وصفه سوين–تانج

(١) كراتشكوفسكي، الأدب الجغرافي ١٨٢/٣.
(٢) مروج الذهب ١٨٢/١–١٨٣.
(٣) ن.م ص١٨٣–١٨٥. ربما قصد الحروب التي كانت تقع بين سكان القوس القوقازي من الترك والخزر.
(٤) ن.م ص ٩٢–٩٣.
(٥) ن.م ٢٣٤/١.
(٦) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي ١٨١/١.

والجردوزي، لأن في الروايات الصينية ما يدل على أن هذه الجبال داخلة ضمن سلاسل تيان شان شمالي كوشا، و لم يوصف هذا الطريق إلا بعد ذلك بمائتي عام[١].

تحدث المسعودي عن الأمم المحيطة بالباب والأبواب[٢]، وسور المدينة (دربند) وجبل القبخ وبلاد الخزر واللان، وعرض للعلاقات التي تسود بين هذه الأمم من حرب أو سلم، وأشار إلى وجود تجار العرب في هذه البلاد، ووصف أحد انتصارات الترك على الروم ومحاصرة القسطنطينية، وتحدث عن حجم الغنائم التي غنمها الترك، وأثر ذلك في معنويات الترك، قال: "فاتصلت غاراتهم إلى نحو بلاد الأندلس والإفرنجه والجلالقة[٣].

وصف الأبخاز بأنهم أمة عظيمة، انقادت إلى دين النصرانية، كان يحكمهم ملك سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م، فقال: "يلي ملك الأبخار ملك الجورية، وهي أمة عظيمة منقادة إلى دين النصرانية تدعى أو "خزران"، وقال إن في الخزران مسجد يعرف (بمسجد ذي القرنين)[٤] وكان أهل الأبخاز والخزرية يؤدون الجزية إلى صاحب ثغر تفليس، منذ فتحت تفليس وسكتها المسلمون إلى أيام المتوكل[٥]، وهكذا نجد المسعودي يحاول أن يغطي كل الأخبار التاريخية والجغرافية للبلدان التي يزورها.

لا ينسى المسعودي الحديث عن تاريخ النبات، فذكر أن شجر النارنج والأترج المدور جلب من أرض الهند بعد الثلاثمائة، فزرع بعمان ثم نقل إلى البصرة والعراق والشام، حتى كثر في دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغر الشامي وأنطاكيه وساحل الشام وفلسطين ومصر وما كان يعهد ولا يعرف، فعدمت منه الروائح الطيبة واللون الحسن، الذي يوجد فيه بأرض الهند لعدم ذلك الهواء والتربة والماء وخاصية البلد الأصلي[٦].

---

(١) متز، الحضارة الإسلامية ص ٤١٦/٢.

(٢) المسعودي، مروج ٢٠٣/١. يطلق على مدينة دربند اسم باب الأبواب، لكونها باباً للدخول إلى بلاد الخزر، يافوت الحموي، معجم البلدان، ٤٤٩/٢.

(٣) ن.م ٢٠٠/١-٢٠٣.

(٤) ن.م ص ٢٠٣.

(٥) ن.م ص ٢٠٥.

(٦) المسعودي، مروج ٤٣٨/٢-٤٣٩. متز، الحضارة الإسلامية ٣٠٦/٢.

وقال: "لولا تصدير العاج إلى عمان والهند والصين لكان كثيراً في بلاد الإسلام"(١)، وذكر أن أهل أنطاكيه يستخدمون الفيلة على طريقة أهل الهند(٢).

وتعرض إلى حوادث نقل السكان، فقال: "منذ غزا سابور ملك فارس بلاد الجزيرة (الفراتية) وآمد وغيرها من بلاد الروم، نقل من أهلها خلقاً كثيراً، أسكنهم مدناً من فارس وصار الديباج يعمل بتستر والخز بالسوس حتى عصر المسعودي(٣).

ينقل المسعودي انطباعاته عن تاريخ المكان وجغرافيته في آن معاً، ويحاول أن لا يدع ظاهرة من ظواهر المكان إلا ويستقصي خبرها، فعندما يتكلم عن نهر الخزر الذي يمر بمدينة (إتل)، يقول بأنها دار مملكة الخزر في وقتهم، وكانت دار مملكتهم قبل ذلك بلنجر، وإليها يصب نهر برطاس، وهي أمة عظيمة مضافة إلى أمة الخزر، وقال: "تجري في هذا النهر السفن العظام والتجارات وأنواع الأمتعة من بلاد خوارزم وغيرها، ويتحدث عن منتجات هذه الأقاليم الشمالية، كالجلود والفراء، والأوبار، ويذكر أنساب الأقوام الذين يمر بهم فيقول أن بخارى دار مملكة آل اسماعيل بن أحمد بن أسد بن أحمد بن سامان خداه صاحب خراسان ثمانية عشر فرسخاً منها خمسة عشر إلى السور الأعظم المحيط ببخارى وعمائرها(٤). هذه الملاحظات وغيرها تشير إلى أن المسعودي كان على اتصال مباشر بأخباره.

يقول كراتشكوفسكي " من المستحيل إنكار ما يمتاز به المسعودي من تنويع النشاط العلمي وما يتصف به من موضوعية في الحكم على ما يتعلق بالشعوب والأديان، فهو يسأل باهتمام ممثلي مختلف العقائد، ويفحص بانتباه فائق كتبهم، ويتعرف جيداً علىآدابهم"(٥).

ومن الرحالة العرب الذين أجادوا وصف البلدان الشمالية في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، العالم والأديب والشاعر أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد ابن حماد، وهذا وصف موجز لأسباب الرحلة.

(١) ن.م ٣/٨. متز، ن.م ص ٣٣٢.

(٢) المسعودي، ن.م، متز، ن.م ص ٣٤٦.

(٣) متز، ن.م ، ص ٣٥٨.

(٤) المسعودي، كتاب التنبيه والإشراف، دار التراث، بيروت ١٩٦٨م، ص ٥٥-٥٧. (خداه: أي منحه). سيشار إليه، المسعودي، التنبيه.

(٥) تاريخ الأدب ١٨٣/١.

كان الخليفة العباسي المقتدر بالله أبو الفضل جعفر (٢٩٥-٣٢٠ هـ/٩٠٧-٩٣٢م) قد بويع بالخلافة وعمره ثلاث عشرة سنة، كانت بغداد حينها كعبة الحضارة الإنسانية، لما تمتعت به من ثروة وجاه ومنعة وقوة كما يصفها المؤرخ مسكويه في تجارب الأمم[١].

قدم وفد من قبل ملك الصقالبة (الروم) سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م إلى بلاط الخليفة المقتدر يحمل رسالة من ملكهم (ألمش بن بلطوار)، وقد رتب لاستقبال الوفد ترتيباً مهيباً يعكس عظمة الخلافة والخليفة، ويسهب مسكويه كما يسهب محقق رسالة ابن فضلان في وصف هذا الاستقبال بالعساكر المسلحة والحاشية المزركشة، ومظاهر القوة والمنعة والترف.

والتمس الوفد الوصول إلى المقتدر بالله لإبلاغه الرسالة وتقديم الهدايا، فأعلما بأن ذلك متعذر صعب، لا يجوز الا بعد لقاء الوزير، ومخاطبته فيما قصد إليه وتقرير الأمور معه، والرغبة في تسهيل الاذن عليه، وبعد لأي سمح للوفد بمقابلة الخليفة. وسط هذا الاستقبال والذي نوهنا إليه، والذي يظهر عراقة التقاليد التي تتفوق على أعرق ما في الممالك في الحفاظ على التقاليد القديمة من دول أوروبا المعاصرة، فقد ظهرت بغداد كأغنى عواصم الملك في الغرب[٢].

وقف الرسولان أمام عرش الخليفة بعد أن قبلا الأرض، وقدما رسالتهما التي تضمنت طلب ملك الصقالبة من أمير المؤمنين أن يرسل له بعثة تفقه الملك وقومه في الدين وتعرفهم شرائع الإسلام، وتنشئ لهم مسجداً، وتبني لهم حصناً يتحصن فيه الملوك من أعدائهم ملوك الخزر[٣]. وما كان في وسع الخليفة أن يرفض مثل هذا الطلب، وجاراه في ذلك وزيره حامد بن العباس، فرأى الإثنان أن في مثل هذا التحالف خيراً، فانتدبا وفداً للقيام بما طلبه ملك الصقالبة[٤]. تكون الوفد من أربعة أشخاص هم: سوسن الرسي مولى نذير الخرمي، وتلين التركي، وبارس الصقلابي، وأحمد بن فضلان، ومعهم دليل هو رسول

---

(١) مسكويه، (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م) تجارب الأمم، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٢، ص ١/٥-١٠. سيشار إليه، مسكويه، تجارب.

(٢) ن.م. ص.

(٣) مقدمة محقق الرسالة ص ٢٢-٢٣.

(٤) ن.م ص ٢٣.

الصقالبة[١]. يقول ابن فضلان: "فندبت أنا لقراءة الكتاب عليه (أي ملك الصقالبة) وبتسليم ما أهدي إليه، والإشراف على الفقهاء والمعلمين"[٢].

يخيل إلينا إن اثنين من أعضاء الوفد يعرفان الروسية[٣]، وربما أن أعضاء منهم خبراء في الاحتياجات التي طلبها الصقالبة، قد يكون منهم معماري لبناء المسجد والحصن، كما أن إشارة ابن فضلان بأنه الذي عهد إليه بقراءة كتاب الخليفة على ملك الصقالبة وتسليمه الهدايا، توحي بأنه كان رئيس الوفد.

رحل الوفد من بغداد يوم الخميس ١١ صفر سنة ٣٠٩هـ/٢١ حزيران ٩٢١م واتخذ الطريق على إقليم الجبال فهمذان فالري قرب طهران اليوم، وعبر نهر جيحون فبلغ بخارى، ثم أوغل في البراري والبوادي حتى وصل إلى الفلجا (الفولغا) عند ملك الصقالبة يوم الأحد ١٢ محرم سنة ٣١٠هـ[٤] الموافق ١١ أيار ٩٢٢م، فاستغرقت الرحلة أحد عشر شهراً في الذهاب، وقد حفظ لنا ياقوت في أكثر من مكان من "معجم البلدان" مقتطفات من هذه الرحلة، وعنى المستشرقون بها كثيراً لأنها أحد المصادر النادرة للتعريف بالحالة في تلك المنطقة المنعزلة عن العالم نسبياً يومها، غير أنه أصبح الآن ميسراً قراءة الرسالة بلغتها العربية الأصلية، بعد أن حُقق النص بفضل المرحوم الدكتور محمد سامي الدهان[٥].

وصف ابن فضلان رحلته وصفاً رائعاً، عرض فيها إلى ما لاقاه من مصاعب وأهوال بأسلوب جعله في الصف الأول من الرحالة الأدباء[٦].

يتحدث ابن فضلان بتفصيل شديد ودقيق عن العديد من نواحي الحياة لأهل الشمال، وعاداتهم وتقاليدهم، خاصة الوثنية منها في حالات السلم والحرب، والعلاقات الاجتماعية المتعددة.. وهذا ما جعل الباحثين الاسكندنافيين المعاصرين، يشيدون برسالة ابن فضلان،

(١) ن.م.
(٢) ن.م ص ٢٤.
(٣) ن.م .
(٤) ن.م ص ٢٥.
(٥) دمشق، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.
(٦) ن.م ص ٢٥.

ويثنون على دقة ملاحظاته وصدقها، مما جعلها منسجمة مع كتاباتهم عن شعبهم.

وعن أهمية هذه الرحلة يقول المستشرق الأستاذ "فرين" (Frin) حين قدم لدراسة ابن فضلان في الألمانية، أن تاريخ روسيا وما جاورها في العصور القديمة غير معروف، وهو ما يزال غامضاً مبهماً في أكثر نواحيه، لم يضئ من جوانبه أحد من الأوروبيين، فإذا كان الروس قد أغفلوا تاريخهم، فإن العرب والشرقيين تحدثوا عنها، وبخاصة عن البلغار وروسيه في عهدها البعيد، وبذلك فتح العرب عيون الغرب على معلومات نافعة، وخاصة عن البلغار وروسيا، وما في الكون من عجائب من أقصى الهند والصين إلى المحيط الأطلسي(١).

يقدم ابن فضلان صورة حية لأوضاع العالم الإسلامي زمن الرحلة وأشار إلى العلاقات السائدة في العالم الإسلامي والبلدان المتاخمة لها في آسيا الوسطى والأصقاع النائية إلى الشمال، وهي التي كانت تمثل أطراف العالم المتمدن أنذاك، مثل حوض الفولجا، وتحفل الرسالة بمادة أثنوغرا فيه قيمة جداً ومتنوعة بصورة فريدة، وهي تمس عدداً من القبائل التركية البدوية القاطنة آسيا الوسطى وعدداً من الشعوب التي كانت تلعب آنذاك دوراً أساسياً في تاريخ أوروبا الشرقية كالبلغار والروس والخزر، كما لا يمكن إنكار قيمتها الأدبية وأسلوبها القصصي السلس، ولغتها الحية المصورة التي لا تخلو بين آونة وأخرى من بعض الدعاية التي ربما لم تكن مقصودة(٢).

أضاف ابن فضلان إلى معلوماتنا ما نقله من عادات وتقاليد بين الشعوب الاسكندنافيه، وذكران عادتهم في حرق الموتى تشبه ما يفعل الهندوس في موتاهم.

وصف الروس وقد وافوا في تجارتهم على نهر إتل، وقال "بانهم شقر حمر لا يلبسون القراقط ولا الخفانين، ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على أحد شقيه، ويخرج إحدى يديه منه، ومع كل واحد منهم فأس وسيف وسكين، لا يفارقه جميع ما ذكرناه، وسيوفهم صفائح مشطبة إفرنجية، ومن حد ظفر الواحد إلى عنقه مخضّر شجر وصور وغير ذلك"(٣).

(١) ن. م ص ٢٩.

(٢) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي ١/١٨٦.

(٣) أحمد أبو مطر، رحلة ابن فضلان في بلاد الصقالبة، موقع، منبرحر للثقافة والفكر، ١٣ كانون الثاني (يناير ٢٠٠٦). جوجل.

وكل إمرأة منهم على ثديها حقّة مشدودة إما من حديد وإما من فضة وإما من نحاس وإما من ذهب على قدر مال زوجها ومقداره. وفي كل حُقّة حلقة فيها سكين مشدودة على الثدي أيضاً، وفي أعناقهن أطواف من ذهب وفضة، لأن الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهم، صاغ لأمرأته طوقاً فربما كان في عنق الواحدة منهن الأطواق الكثيرة(١).

انتبه ابن فضلان إلى ظاهرة العناية الصحية، وقال بأنهم أقذر خلق الله، لا يستنجون من غائط ولا بول، ولا يغتسلون من جّنا به، ولا يغسلون أيديهم من الطعام، بل هم كالحمير الضالة، يجيئون من بلدهم، فيرسون سفنهم بإتل وهو [نهر] كبير ويبنون على شطه بيوتاً كباراً من الخشب.

تحدث ابن فضلان عن العلاقات الجنسية بين الرجال والنساء، ويذكر أن المرأة لا تجد غضاضة في الكشف عن فرجها أمام الحضور، كما لا يتورع الرجل من أن يجامع امرأته أو جاريته أمام الجميع، وربما دخل التاجر عليهم ليشتري من بعضهم جارية، فيصادفه ينكحها فلا يزول حتى يقضي إربه"(٢).

ذكر ابن فضلان وصفاً لطقوسهم فقال: "وساعة توافي سفنهم إلى هذا المرسى يخرج كل واحد منهم، ومعه خبز ولحم وبصل ولبن ونبيذ، حتى يوافي خشبة طويلة منصوبة، لها وجه يشبه وجه الإنسان، وحولها صور صغار، وخلف تلك الصور خشب طوال، قد نصبت في الأرض، فيوافي إلى الصورة الكبيرة، ويسجد لها، ثم يقول لها: "يارب قد جئت من بلد بعيد، ومعي من الجواري كذا وكذا رأساً من السمور وكذا وكذا جلداً" حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته، ثم يقول: "وجئتك بهذه الهدية" ثم يطلب ما بنفسه يريد من معبوده أن يقضيه له(٣).

ولهم عادات عجيبة غريبة في حرق ميتهم وبخاصة إذا كان زعيماً، إذ لابد من أن تتطوع إحدى جواريه لتحترق مع سيدها، ومن أجل ذلك تجري مراسيم جنائزية تنتهي بقتل الجارية بعد أن تشرب عدداً من كؤوس النبيذ، وتمارس الجنس مع عدد من الرجال

(١) ابن فضلان، الرسالة ص ١٥٠.
(٢) ن.م ص ١٥١.
(٣) ن.م ص١٥٣.

بإشراف إمرأة تسمى ملكة الموت، التي تتولى قتل الجارية في سفينة ثم تحرق السفينة بما فيها، وتوضع مكانها خشبة يكتب عليها اسم الميت(١).

ومع غرابة سلوك الروس، يتحدث ابن فضلان عن اهتمام أهل الشمال بالضيف والقيام بواجباته من طعام وشراب وثياب ويعتبرون ذلك شرفاً، وهم يميلون إلى الفرح والمرح والشراب والجواري، ويعتقدون أن الله ينظر بعين الرضا إلى المسرات المفتوحة، ويأخذ عليه بعضهم قائلاً: "إنكم يا معشر العرب مثل عجائز النساء، توجفون وترتجفون أمام منظر الحياة..."(٢).

يرون في حرق موتاهم استعجالاً لدخول الجنة، بعكس المسلمين الذين يضعون موتاهم في التراب فتأكله الهوام والدود، ولعلها نفس الخلفية الفلسفية التي تحكم مسألة حرق الميت حتى اليوم عند الهندوس في الهند(٣).

سارع ابن فضلان لتفسير هذه العادات عند أهل اسكندنافيه ومعتقداتهم فقال: "لا يجد هؤلاء الاسكندنافيون سبباً للحزن على موت أي إنسان ولا فرق في ذلك أن يكون الميت فقيراً أو غنياً، وحتى موت شيخ العشيرة، لا يثير حزنهم أو دموعهم(٤).

رافق ابن فضلان مكرهاً حملة حربية نحو الشمال عبر نهر الفولجا، إلى بلاد الثلج (النرويج). وهناك لاحظ ابن فضلان الظاهرة الفلكية، وهي أن النهار يكون طويلاً في الصيف وقصيراً في الشتاء، ونادراً ما يتعادل الليل والنهار، ولاحظ في توغله إلى الشمال كثرة الغابات وغزارة الأمطار... ويصف إقامة المعسكرات والمستوطنات لمواجهة الأعداء، وتُشَكِّل الجيوش المحاربة، وبعض المعتقدات الخاصة بالآلهة. ولهم تعويذاتهم التي يواجهون بها تقلبات الطقس وهجوم القوى المعادية وغيرها.

يصف ابن فضلان أشكال النساء الاسكندنافيات الشقراوات، وسلوكهن الجنسي

---

(١) ن.م ص١٥٥-١٥٦.

(٢) ابن فضلان، ن.م ص١٤٩-١٥٠، أحمد أبو مطر، رحلة أحمد بن فضلان، الحلقة الثانية، تاريخ النشر ٢٠٠٦/١/١٣ موقع جوجل.

(٣) بن فضلان، الرسالة ص ١٦٤.

(٤) مواضع متفرقة من الرسالة.

المتحرر بشكل علني فيقول: "إن نساء أهل الشمال شقراوات كرجالهم، ويعادلنهم في طول القامة، ولهن عيون زرقاء وشعورهن طويلة جداً وناعمة تتشابك بسهولة ... كما لا تظهر النساء أي مراعاة أو سلوك للاحتشام، فلا يتحجبن مطلقاً، ويعرضن أنفسهن في الأماكن العامة، كلما ألحّت عليهن الحاجة الجنسية، فيتقدمن إلى الرجل الذي يستحوذ على إعجابهن بطلب هذه الحاجة(١).

وهناك رحالة آخر تجوّل في الشمال ونسبت إليه أقوال في صفة بعض البلدان الشمالية التي تجوّل فيها، ووصلت رسالتان منسوبتان لهذا الرحالة العربي، الأولى تتحدث عن رحلته إلى الصين، والثانية تتحدث عن رحلته إلى بلاد الترك والروس وغيرها، وكلاهما نسبتا إلى ابي دلف مسعود بن مهلهل أو المهلهل، ويضاف إلى هذا الاسم نسبة الينبوعي الخزرجي، وهذا يشير إلى أصله العربي فاسمه من الأسماء الواسعة الانتشار في وسط الجزيرة العربية منذ أقدم العصور إلى أيامنا هذه، أما نسبة الينبوعي، فتشير إلى علاقة بميناء ينبع، وهو ميناء مكة على البحر الأحمر، كما أن الخزرجي نسبة إلى قبيلة الخزرج المدنية التي كان لها شأنها عند ظهور الإسلام.

من غير المعروف زمن ومكان مولد ووفاة ابي دلف لكنه عاش بدون شك في القرن العاشر في الجزء الشرقي من الخلافة(٢).

وتحيط شكوك فيما إذا كانت الرسائل المشار إليها لواحد أم لاثنين وذلك لأن إحدى الإشارات تفيد أن إحدى الرحلات إلى بلاد النورمان، كانت زيارة يعقوب الطرطوشي (أبو دلف) رسولاً من أمير قرطبة إلى الإمبراطور "أوتو الأكبر"، امبراطور المانيا وصف فيها جانب من الحياة الثقافية ببوهيميا والمانيا والفرنجة (فرنسا)(٣).

والإشارة الثانية أوردها كراتشكوفسكي، تفيد بأن أبي دلف كان على الأغلب

---

(١) مواضع متفرقة من رسالة ابن فضلان.

(٢) **الرسالة الثانية لأبي دلف**، رحالة القرن العاشر، نشر وتحقيق: بطرس بولغاكوف وأنس خالدوف، ترجمة وتعليق «دكتور محمد منير مرسي، عالم الكتب ١٩٧٠، ص٨. وتوجد طبعة أخرى لهذه الرسالة تعود إلى سنة ١٩٦٠ في موسكو دون تعليقات. .

(٣) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب، ص١/١٨٨ .

شاعراً مداحاً متجولاً، قادته تجوالاته إلى بلاط "نصرا لثاني بن أحمد الساماني (٣٠١-٣٣١هـ/٩١٤-٩٢٣م) وهو نفس الحاكم الذي سافر ابن فضلان في عهده إلى بلاد البلغار.

ففي أواخر حكمه وصلت إلى بخارى (عاصمة السامانيين) سفارة من الصين حوالي عام ٣٣١هـ/٩٤٢م، فاغتنم أبو دلف الفرصة وصحبها في طريق العودة، فعبر تركستان الغربية والشرقية والتبت عن طريق غير معروف، ثم غادرها إلى الهند[١].

والذي يزيد من غموض حقيقة مؤلف الرسائل، فيما إذا كان واحداً أم اثنان، فقد أورد النديم إشارة إلى رحالة مسيحي عراقي لعله كتب رحلة لم تصلنا[٢]، ومن المعروف أن النديم قتل (سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م، ويمكن الاستفادة من المعرفة الشخصية للنديم بأبي دلف، وأن معلوماته عنه حقيقية، كما تثبت معاصرته له.

وحسب معلوماته وأخبار الثعالبي (٣٥٠-٤٢٩هـ/٩٦١-١٠٣٧م) في أشعاره في "يتيمة الدهر" نجد أبا دلف يتردد على قصر الوزير البويهي إسماعيل بن عباد بن الصاحب (قتل سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م)[٣]. وقد اشتهر أبو دلف كرحالة وجغرافي وشاعر. ووصفه النديم "بالجوالة"، "وقال لي أبو دلف الينبوعي، وكان "جوالة". يعقد النديم المسألة فأحياناً يشير إلى أبي دلف باسمه "وقال لي أبو دلف" وأحياناً "ذكر لي الراهب النجراني.. أو الراهب"[٤]، يقيم النديم من بعيد توازناً بين معلومات أبي دلف ومعطيات الراهب النجراني، فيذكر أنه ورد من الصين سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧-٩٨٨م مرسلاً من طرف الجاثليق قبل سبع سنوات، والجاثليق لفظ يوناني يقصد به الرئيس الديني الأعلى عند الكلدان النساطرة، ويقابله حالياً "البطريرك"[٥]، وكان معه خمسة عارفين بالدين المسيحي، فلم يعد سواه، وعاد شخص آخر بعد ست سنوات. التقى النديم بالراهب في

---

(١) شاكر لعيبي ، مجموعة مواقع المدى، تلويحة المدى: رحلة مسيحي عراقي إلى الصيف في القرن العاشر ٢٠١٠/١١/٢٧.. جوجل.

(٢) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٣، دمشق ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م ص١٧٤-١٧٥ .

(٣) كتاب الفهرست، ص ٣٤٦.

(٤) انظر ن.م، الصفحات، ٣٤٥-٣٥٠.

(٥) عرف هذا المنصب بنفس الاسم عند يهود العراق منذ بداية حركة الفتوح الإسلامية.

دار الروم وراء البيعة في بغداد: "فرأيت رجلاً شاباً حسن الهيئة"(١)، ودار بينهما حوار.

بعد ذلك يعرج النديم للمرة الأخيرة إلى أبي دلف مستشهداً بقوله أن اسم مدينة الملك الأعظم تسمى حمدان ومدينة التجار والأموال "خانقو" وطولها أربعون فرسخاً، مقارناً هذا التقدير بتقدير الراهب العراقي: "وليس كذي قال الراهب، حال دون هذا بكثير هذه المعطيات لا توجد كذلك في متن رحلة أبي دلف"(٢).

ولا أرى هذه خلافات ذات جدوى في تقصي شخصيات الرحالة، فمثلاً يورد النديم خبر بالصيغة التالية: "قال أبو دلف: وكان الملك على "الصنف" يقال له "لاجين" وقال لي النجراني أن الملك في هذا الوقت ملك يعرف باسم "لوقين" قصد الصنف فأخربها وملك جميع أهلها"(٣)، ويمكن أن يكون حصل تصحيف للاسم لأن ما بين لاجين ولوقين من خلاف لا يتعدى أن الجيم في اللفظ الثاني (لوقين) جاءت بالجيم المصرية، وكما يلفظها سكان جنوب الجزيرة العربية. وقد ناقش كراتشكوفسكي ما قيل عن هذه الرحلة وصاحبها، وما شابهما من غموض، وانتهى إلى أنها رحلة حقيقية تنسب لصاحبها "إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوشي(٤)، وفي كل الأحوال نجزم بوجود شخصية أبي دلف الرحال "الجوال" وأنه رحل عدة رحلات جمعها في ما أطلق عليه الرسالة الثانية، التي وصف لنا الأصقاع الشمالية وأجزاء من أوروبا.

لم يكن وصف رحلة أبي دلف معروفاً بشكل مباشر حتى أواخر القرن التاسع عشر، حين كشف اللثام عن هذه الرسالة العلامة الروسي غريغوريف (Groigoriev) (١٨٧٢) كما يعود الفضل إلى ياقوت الحموي الذي حفظ لنا شذرات من هذه الرحلة وكذلك تقل عنه القزويني ثم تناول المستشرقون رسالة أبي دلف وبخاصة الروس منهم، وذلك لما تضمنته الرسالة من أخبار عن بلادهم(٥).

---

(١) الفهرست، ص٣٤٩.

(٢) ن. م، ص٣٥٠.

(٣) الفهرست ص ٣٤٧، تلويحة المدى .

(٤) الأدب الجغرافي ص١٩٢.

(٥) ن.م .

يقدم لنا الباحث شاكر لعيبي تعريفاً بتلك البلدان التي زارها أبو دلف واسمائها كما وردت في كتاب الرحالة، لاسيما الأسماء الصينية التي وقع فيها بعض الخلط لدى نساخ الرحلة إضافة إلى ما تشير إليه المصادر السريانية والإسلامية المبكرة من تشابه بين هذه الرحلة والرحلة التي قام بها "سلام الترجمان" بالنسبة للعلاقة بين اليمن والصين...".(١)

لم يبق من وصف رحلة أبي دلف سوى شذرات عرفت منها الأقسام الخاصة بألمانيا والصقالبة، وهي التي حفظها لنا العذري والبكري والقزويني ثم انتقلت منهم إلى مؤلفين متأخرين(٢).

أما بالنسبة لزمن كتابة الرسالة الثانية فيمكننا الحكم عليه بالإشارة التالية لأبي دلف: "وكتب هذا التصنيف عند توجهه إلى طبرستان تحت اسم مستعار "السائر" وتحت مثل هذا الاسم المستعار في الأدب يذكر "أبو الفضل السائر" إلا أن تاريخ توجهه هنا غير معروف بالضبط، وبناء على ما يذكره اسفنديار، فإن أبا الفضل السائر العلوي كان موجوداً في أواسط القرن العاشر، ويذكر أمدروز أن تاريخ وفاة أبي الفضل السائر هو ٣٤٥هـ/٩٥٦-٩٥٧م(٣).

ويبدو من الرسالة أن طريقاً واحداً اتخذ في عدة رحلات، حيث يبدأ من مدينة "الشيز" في جنوب أذربيجان، ويمتد في البداية إلى الشمال حتى مدينة "باكو" ثم إلى "تفليس" ومن هناك عبر" مضيق الدردنيل" في شهرزور، وفي النهاية يسير بدرجة تقل أو تكبر إلى الشرق عبر كرسين – همدان – الري– طبرستان– قومس– طوس– نيسابور إلى هيرات، ثم بعد وصفها ينتقل إبو دلف إلى معالم اصفهان ومدن خوزستان وعندها ينتهي الكتاب(٤).

ويبدو من الأخبار التي يسردها "ابو دلف" أنها جاءت نتيجة مجموعة زيارات لأماكن مختلفة ثم ذكرها بغير ترتيب، وربما أضاف إليها أوصاف بلدان لم يزرها لأن أسلوب

(١) مفيد نجم، «موقع تلويحة المدى»، بقاء المدن وخرابها، أوروبا كما راودت خيالات الرحالة العرب وحضرت في مدوناتهم . جوجا.
(٢) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب، ١٩٢/١.
(٣) الرسالة الثانية، المقدمة ص٢٢.
(٤) الرسالة ، ص١٩ .

الوصف وحيويته تختلف عند وصف الأماكن التي يُشك بوصوله إليها. مثل أخباره عن الديلم وخوارزم، كما نجده في أماكن أخرى لا يتقيد بالترتيب الزمني للأحداث، فحينما تحدث عن حوادث شهرزور ذكر تاريخ ٣٤١هـ/٩٥٢-٩٥٣، ثم بعد ذلك يذكر أنه كان في "كرسين" في عام ٣٤٠هـ/٩٥١م، وهذا يعزز القول بأن المؤلف عند قيامه بأسفار كثيرة وفيما بعد جمعها ورتبها على الصورة التي هي عليها[١].

يتحدث أبو دلف عن تجواله، فيذكر الدروب التي سلكها، والظواهر التي شاهدها في طريقه، ويصف الأشجار والنبات والمعادن التي أكثر من ذكرها والتعريف بخصائصها حتى يحسبه القارئ جيولوجياً أو متخصصاً بدراسة المعادن، وكذلك يصف المدن ويسمي من يحكمها، ويتحدث عن ظواهرها العمرانية، فوصف أصفهان وسورها وانهارها ومعبدها الذي تذكى فيه النيران، ويذكر ما نسج حوله من قصص وأساطير. تحدث عن مدينة الران، فذكر أنها تحتوي على معادن الذهب ومعادن أخرى متعددة، وذكر نباتات فيها لها خصائص طبية.

وصف قلعة ملك الديلم المعروفة "بسميران" ووصف بناءها ، كما تحدث عن صاحبها "محمد بن مسافر"[٢] فذكر طباعه ونظامه، ونجد مبالغة أحياناً في أوصافه، فيذكر: "ثم إني رجعت إلى أذربيجان في الجبل إلى "موقان" فكان مسيري ثمانين فرسخاً تحت الشجر على ساحل بحر طبرستان العظيم، حتى أتيت موضعاً يُقال له "باكويه" من أعمال "شروان" فألفيت فيه عيناً للنفط، تبلغ قبالتها كل يوم ألف درهم، إلى جانبها عين أخرى تسيل نفطاً أبيض كدهن الزئبق لا ينقطع ليلاً ولا نهاراً يبلغ ضمانه مثل ذلك"[٣].

"وسرت من هناك في بلد الأرمن حتى انتهيت إلى تفليس وفيها حمامات شديدة الحرارة، ولا إسلام وراءها.."[٤].

يذكر المعادن التي توجد في كل منطقة يزورها، ويوضح أساس أو أصل مختلف المعادن التي يصادفها، ويرجع ذلك حسب قوله إلى أعماله في الصيدلة والكيمياء، وأبو دلف

---

(١) انظر ن. م، ص٢٠.

(٢) مؤسس عائلة الديلم من بني مسافر «القريني ١٠-١١».

(٣) الرسالة ص٤٥-٤٦، سلسلة جبال موقان في أذربيجان وباكويه هي باكو الحالية عاصمة أرمينية .

(٤) الرسالة، ص٤٦.

يذكر أكثر من (٤٠) مكاناً يوجد فيها المعادن أو الأحجار الطبيعية كالذهب والرصاص والزئبق والنحاس والألمنيوم ومعادن أخرى كثيرة[١].

كذلك يتعامل مع النبات - فيذكر الرمان حول نهر الرسّ بأنه رمان عجيب لم ير في بلد من البلدان مثله، وقال بأن فيها تين عجيب، وزبيبها يجفف في التنانير لأنه لا شمس عندهم لكثرة الضباب[٢]، ذكر النخل والزيتون والجوز والثلج وفواكه الجبل والسهل[٣].

ولا ينسى أن يذكر الحيوانات التي يشاهدها مثل: قرن البقر والجواميس والبغال والبراذين وغيرها. [٤]. ويذكر طيب هواء بعض المدن التي يزورها فيصف مثلاً أصبهان بأنها صحيحة الهواء نقية الجو خالية من جميع الهوام، ولا تبلى أجساد الموتى في تربتها ولا تتغير فيها رائحة اللحم[٥].

ويقول بأن جرجان مدينة حسنة على واد عظيم في ثغور بلدان السهل والجبل والبر والبحر، وبها النخل والزيتون والجوز والرمان وقصب السكر والأترج وبها ابرسيم (حرير) جيد لا يحل صبغه، وبها أحجار كثيرة لها خواص عجيبة، وبها ثعابين تهول الناظر ولا ضرر بها[٦].

رحل أبو دلف إلى أرمينية وأفاض بالحديث عن أهلها وحكامها وسهولها وجبالها وكثرة ينابيعها، وعن أسواقها، كما تحدث عن بلاد الحرانية (ونريز) وبلاد طي، ويقول بأن طرق هذه البلاد مألوفة فصدها الشاعر أبو تمام والبحتري وغيرهما[٧]، وكان علي ابن مر الطائي صاحبها (اي مدينة نريز)[٨]، ممدحاً يقصده الشعراء، فيتصرفون باللهى حتى غلب

(١) ن.م ص٢٢.
(٢) ن.م ص٤٩.
(٣) ن. م ص٤٨، ٦٤، ٨٧.
(٤) ن.م ص٧١.
(٥) ن. م ص٩٠.
(٦) ن. م ص ٨٧ .
(٧) ن. م ص٥٦-٥٧.
(٨) (نريز) بليدة بأذربيجان من نواحي أردبيل، ياقوت، معجم البلدان، دار الكتاب العربي، ص٢٨١.

على البلد صنف من الأكراد يعرفون بالهذبانية[١].

ويقول "بأن شهرزور مدينات وقرى وفيها مدينة كبيرة، وهي قصبتها في وقتنا هذا يقال لها: "أزراي" وأهلها عصاة على السلطان، قد استطعموا الخلاف واستعذبوا العصيان[٢].

وفي رحلة إلى بلاد الأتراك يعكس من خلال وصفه اختلافاً ثقافياً عبر وصف عاداتهم وتقاليدهم، إذ هو ينظر إلى الغير من موقع الذات فيقدم مادة غنية عن الأقوام التي يراها في اساليب معيشتها وتفكيرها والحياة الاجتماعية التي يحيونها، ويجمل بشكل شمولي نظرتهم إلى الأشياء.

وقد أسهب في الحديث عن معابد البلدان التي زارها، وبخاصة تماثيل بوذا، ويقول عن "البد"[٣]، الموجود في الباميان: "وهذا بيت عظيم يحله الزهاد والعباد وبه من الأصنام الذهب المرصع، ما يجاوز القدر، ولا يبلغه النعت والصفة، يحجه الناس من الهند من أقاصي بلادها براً وبحراً، للتفرج على بيت الذهب العجيب، ويقول أن العرب لما فتحوا هذا الموضع في أيام الحجاج الثقفي، أخذوا منه مائة بهار ذهباً، وينقل النديم ما قاله له أبو دلف الينبوعي: "أن البيت الذي يعرف ببيت الذهب ليس هو هذا والبيت في براري الهند من ارض مكران والقندهار، لا يصل إليه إلا العباد والزهاد من الهند، وأنه مبني بالذهب يكون طوله سبعة أذرع وعرضه مثل ذلك، وارتفاعه اثني عشر ذراعاً، مرصع بأنواع الجواهر وفيه من البددة (مفردها بد) المعمولة من الياقوت الأحمر وغيره من الحجارة الثمينة العجيبة المرصعة بالدرر الفاخر الذي الدرة منه مثل بيضة الطائر..."[٤].

تتفاوت المصادر في ذكرها لبيوت العبادة سواء عند هندوس الهند أو عند أتباع زرادشت من الفرس، ويظهر أن هذه البيوتات بتماثيلها المختلفة كانت منتشرة في الأرجاء الواسعة في بلاد فارس والهند، ولا شك أن أبا دلف قد بالغ في وصف هذه البيوت مما

---

(١) الرسالة ن. م ص٥٧.

(٢) ن. م ص٥٨.

(٣) انظر الفهرست، ٣٤٦-٤٧.

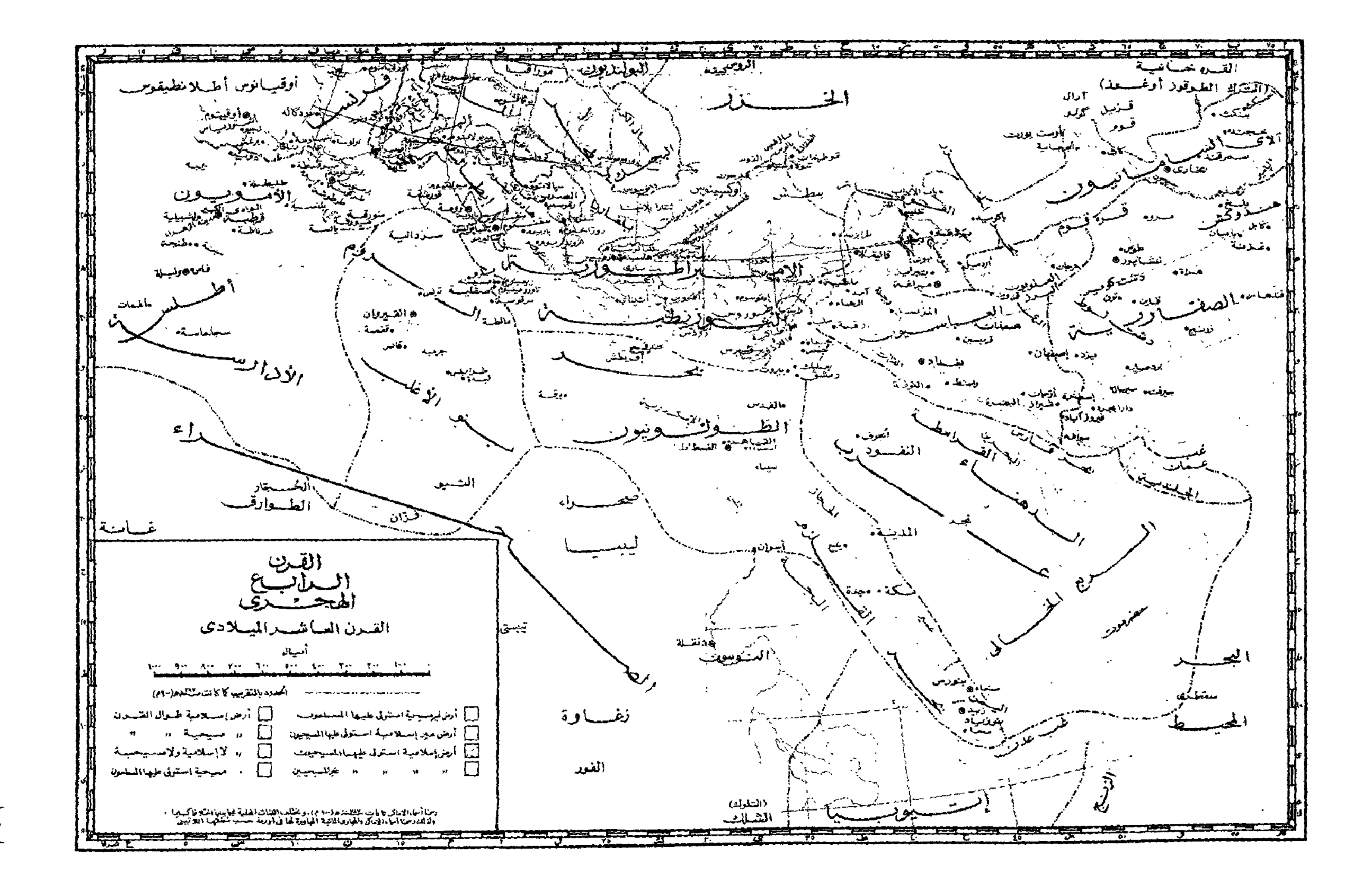
(٤) الفهرست ص٣٤٦-٣٤٧ .

جعل المحققان للرسالة يشيران إلى ما وقع به أبو دلف من أوهام ومن زيادات[١].

وهكذا نرى أن القرن العاشر الميلادي الرابع الهجري، هو قرن منجزات في مجال العلوم والآداب بشكل عام، ومنجزات في مجال الأدب الجغرافي على الخصوص، على الرغم من أن هذا القرن كان يمثل انحطاطاً سياسياً، نظراً لتمزق العالم الإسلامي إلى كيانات سياسية هزيلة متعددة، تسلط عليها مغامرون بفرض استغلال هذه الكيانات لمصالح المغامر وعصابته، وبالمقابل يمثل القرن عصر نهوض حضاري، إذ بلغ عدد الرحالة في هذا القرن أوجه وقدم لنا شخصيات جغرافية ذات جوانب ثقافية متعددة من بينهم هؤلاء الذين سبق لنا التنويه بجهودهم.

وقد تجول الرحالة العرب شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، وكانت الرحلات إلى الأقاليم الشمالية من العالم القديم هي الأصعب لكون شعوب هذه البلدان غير معروفين جيداً للعرب، لبعدهم وبرودة أصقاعهم، واختلاف عقائدهم ومذاهبهم يضاف لذلك وعورة مسالكهم وصعوبة دروبهم، ومع ذلك أصر الرحالة على استكشاف هذه البلاد والتعريف بها حتى لأهلها.

(١) انظر الرسالة، ص٣٥-٣٧، ٦٥، ٧٢.


القرن الرابع الهجري
القرن العاشر الميلادي
أميال
أوقيانوس أطلانطيقوس
الخزر
الروسية
البولنديون
فرنسا
الأمويون
قرطبة
الأدارسة
الأغالبة
القيروان
الطولونيون
القدس
الفسطاط
القاهرة
سيناء
صحراء
ليبيا
الحجاز
المدينة
مكة
جدة
نجد
القرامطة
بغداد
البصرة
الكوفة
الموصل
أصفهان
الصفارية
السامانيون
سمرقند
بخارى
الإمبراطورية البيزنطية
الربع الخالي
حضرموت
عدن
خليج عدن
إثيوبيا
دنقلة
زغاوة
الطوارق
غانة
الشيعة
فزان
عمان
بحر العرب



الرحلة والرحالة في حياة نقولا زيادة

إن الرحلة ضرب من ضروب النشاط البشري، تمتد جذورها إلى بدايات الجنس البشري، فالإنسان مفطور على حب الاستكشاف والاستطلاع ومضطر إلى التنقل والارتحال بدوافع الحاجة، فقد رحل البشر سعياً وراء الرزق، حصولاً على الماء والكلأ. ثم تتالت الدواعي تبعاً لتعدد الحاجات وتزايد البشر وتقدم وسائل التنقل والاتصال، وكانت بذلك الرحلات التجارية، كما في رحلتي الصيف والشتاء في مكة قبل الإسلام، والرحلات في المواسم الدينية نحو المقدسات، فظهر الرواد الذين رحلوا بقصد المعرفة والاستكشاف، ولا تكاد سير الرواد والنابغين في كل علم تنفصل عن تاريخ العلم نفسه، فعلم الرحلة أو ما يسمى أدب الرحلات نما مع بقية العلوم الإسلامية، وأصبحت له مدرسة مميزة، ما تزال شواهدها ظاهرة أمام الكافة في المكتبات العربية.

ومن أقدم الرحلات التي وصلتنا أخبارها رحلة «سنوحي» الخيالية التي تحكي قصة أمير مصري هرب اثر انقلاب سياسي إلى بلاد الشام في القرن العشرين قبل الميلاد، وجاء في هذه المدونة وصف لأحوال بلاد الشام الاقتصادية والاجتماعية[1].كذلك وردتنا أخبار الرحلة التي قام بها المصريون القدماء عام ١٤٩٣ق. م. باسطول مكون من خمسة مراكب أبحر في النيل باتجاه الجنوب على متن كل مركب واحد وثلاثين مصرياً، لتسويق بضائعهم النفيسة (البخور والعطور) وكان ذلك أول إتصال بين المصريين وأقزام افريقيا، كما تشير إلى ذلك نقوش الدير البحري من استقبال ملك وملكة «بويني» لمبعوث مصري، والرسوم تشير إلى الخصائص الجسمية[2].

---

(١) نقولا زيادة، عربيات، **حضارة ولغة**، الأهلية للنشر والتوزيع، مصر ١٩٦٦، ص١٦٢-١٦٣. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده، زيادة، عربيات.

(٢) أنظر نجيب ميخائيل ابراهيم، **مصر والشرق الأدنى القديم**، دار المعارف، مصر ١٩٦٦م، ص١٦٢-١٦٣. سيشار إليه عند وروده، نجيب ميخائيل، مصر.

وهكذا تتابع الجهد الإنساني في مجال الرحلة والاستكشاف، ولما جاء الإسلام، أثار غرائز المعرفة، وحث على كشف المجهول، والسير في الأرض، كما هو واضح في العديد من الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[العنكبوت: الآية (٢٠)]. وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾[الملك: الآية (١٥)]. ومثل ذلك كثير.

كما وأن فرائض الإسلام استدعت قيام المسلم بالإرتحال، وفي طليعة هذه الفروض "حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا" والرحلة في طلب العلم، "اطلب العلم ولو في الصين"، ثم تعددت الدواعي وشاعت الرحلات وأصبح في مكتباتنا عشرات المؤلفات النادرة في الجغرافيا والرحلات، هذا التراث الغني الذي نملكه في مجال الجغرافيا والرحلات، أنجب أعلاماً رواداً في هذا الميدان. والدكتور زيادة من الذين استهوتهم الرحلة، وشغفوا بالتنقل حتى أصبحت الرحلة بأشكالها العملية والفكرية والجمالية، جزءاً أساسياً من حياته، والذين عاصروه أو اطلعوا على أعماله الواسعة والمتنوعة يدركون هذه الحقيقة، ففي أعماله دائماً جنوح إلى زيارة المكان والتغني بجماله وقوفاً على اطلاله، فإن لم يتيسر له الوصول إلى المكان والمشاهدة العينية، عرضه بعيون من سبقوه من الرحالة، وأحياناً نجده يقوم برحلة خيالية يعبر فيها الزمان ليرسم صورة تاريخية للمكان الذي يصل إليه، كيف كان وكيف اصبح، إنه في مشاهداته العينية والخيالية يحرص على نظم الماضي بالحاضر برؤية المؤرخ الذي يعي بشكل كامل صورة المكان عبر الزمان.

ومن يقرأ أعمال زيادة، يشعر بالإصرار على ربط مغرب الوطن العربي بمشرقه، وكأنه يؤكد على الوحدة الحضارية التي تجمع أطراف الوطن العربي، فقد عقد مقارنة تاريخية أبرز فيها فن العمارة كواحد من أمجاد الماضي العربي –بين مدينتي وليلي في المغرب الأقصى ومدينة بعلبك في المشرق (فهما نتاج عصر واحد، ومع أن اليد التي أقامت بعلبك كانت أمهر، فإن الآله الذي صنعهما واحد في الأساس)[١].

(١) نقولا زيادة، **الأعمال الكاملة "صفحات مغربية"** الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٢م، ص١٣٢، سيشار إليه عند ورود، زيادة، صفحات مغر بية .

هكذا تصل الرؤيا بزيادة إلى استخلاص عبر التاريخ فيقول:"هنا انتهت حضارة وابتدأت أخرى انتهت حضارة الروم لتبدأ حضارة العرب وإنتهت الوثنية والنصرانية ليبدأ الإسلام»[١].

وفي قصة سنوحي السابقة نجده يستخلص العبرة المتمثلة بما قاله الوالد لولده سنوحي الصغير: "يا سنوحي الصغير لا تظن بأن النبل والشرف دم يجري في عروق الإنسان، ولكن النبل والشرف طين وأبقار وعمل»[٢].

وهو بهذه العبر يلخص الأهمية التاريخية للرحلات ويجعلها من المكونات الأساسية للمعرفة اللازمة للحياة.

لقد سقت هذه المقدمات لأوضح أن الدكتور زيادة رحالة وجغرافي فوق كونه مؤرخ وأديب لا بل نجد أدبه يطغى على كل أعماله عذوبة أسلوب وسلامة لغة، ورقة إحساس، إنها ملكات الأديب المتمرس الباحث عن المعرفة تلك التي نلحظها في كتاباته حيثما تنوعت، وهذا كان دأب الجغرافيين الكبار في حضارتنا.

يدعو صاحبنا باستمرار إلى السفر والترحال والتغرب عن الأوطان، ويردد ما قاله رمضان العطيفي (ت ١١٠٥ هـ/ ١٦٩٣ م) في فوائد السفر:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا ... وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفرج هم واكتساب معيشة ... وعلم وأدب وصحبة ما جد

فإن قيل في الأسفار هم وغربة ... وقطع قفار واقتحام شدائد

فموت الفقير خير له من مقامه ... بأرض هوان بين واش وحاسد[٣]

يستطرد زيادة فيقول «ولاني كثير الرحلة فإني أؤيد العطيفي فأقول: إذا استثنيت

(١) زيادة، صفحات مغربية .

(٢) زيادة، عربيات، ص١٧ –٣٣.

(٣) نقولا زيادة، الأعمال الكاملة " **لبنانيات**" الأهلية للنشر والتوزيع . بيروت، ٢٠٠٢م، ص٢٧٦، سيشار إليه عند وروده، زيادة، لبنانيات.

اكتساب المعيشة، فقد نعمت بالأمور والفوائد الأربعة الأخرى، وكم آمل أن أكتب يوماً من الأيام عن إفادتي من الرحلة في تفرج الهم والعلم والأدب وصحبة الماجد»[١].

تحدث زيادة في مذكراته (أيامي) عن شغفه بالرحلة والسفر منذ طفولته، فكثيراً ما كان يصطحب اصحابه في رحلات إلى الأماكن الأثرية والطبيعية القريبة وهو ما زال في الصفوف الأولى، ثم كيف التحق بفرق الكشافة والرياضة وكان المحرك لها للقيام بالرحلات[٢].

روى لنا تفاصيل إحدى رحلاته التي قام بها سنة ١٩٢٥م برفقة صديقه درويش المقدادي، مشياً على الأقدام، من فلسطين إلى لبنان وشمال سورية، وسنه لا تتجاوز الثامنة عشرة[٣].

بدأ الرفيقان الرحلة من صفد شمال فلسطين – وكان خط سيرهما: صفد منطقة الحولة بانياس جباتا الزيت – قمة جبل الشيخ – شبعا – صيدا – جزين – عماطور – بعقلين – دير القمر – بيروت (زيارة لجبيل) صوفر – ضهور الشوير – صنين – العاقورة – حصرون وبزغون – الأرز – وطرابلس – تلة كلخ – قلعة الحصن – صافيتا – جبله – اللاذقية – (٤ أيام في جبال النصيرية) تم بحراً إلى انطاكية. والعودة من أنطاكية عن طريق حلب – حماة – حمص – بعلبك – زحلة – دمشق – وإلى القاهرة (بالسيارة والقطار)[٤].

وروى لنا تفاصيل رحلة ثانية إلى لبنان سنة ١٩٣٥م، وبأسلوب الأديب البارع، وصف لنا قلعة جبل الشيخ ووصوله إلى (القرنة السوداء) وهي أعلى قمة في بلاد الشام، وقد اختلط أدب الرحلة بالتاريخ والسياسة والماضي بالحاضر، فكان هذا الرحالة يريد إدخال كل شيء في ذهن القارىء حتى لا تفوته فائدة، ذكر في عرضه المشاق والمعاناة التي واجهها في رحلته، وذكر في نفس الوقت المتعة التي حصلت له وهو يتجول في ثنايا الطبيعة الخلابة، مستسلما لصحبتها، مطمئناً لامنها وأمانها، ويرى في ذلك ما يفوق أمان

---

(١) زيادة، لبنانيات، ص٢٧٦.

(٢) نقولا زيادة، **أيامي – سيرة ذاتية** – ٢ ج، هزار – لندن، ١٩٩٢، ج١، ص١٠٥، سيشار إليه عند وروده، زيادة، أيامي.

(٣) ولد نقولا زيادة في دمشق عام ١٩٠٧م، من أبوين اصلهما من الناصرة، بفلسطين، انظر نقولا زيادة، الأعمال الكاملة، **في سبيل البحث عن الله**، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٢ م، ص٧، سيشار إليه عند وروده، زيادة، في سبيل البحث.

(٤) زيادة ،لبنانيات، مقدمة الكتاب.

الإنسان، ومن جميل تعبيره عن هذا الانطباع قوله: « لما وصلنا مكاناً - قبل شبعا - عوى كلب، فاستشهد صاحبي درويش بالبيت القائل:

عوى الكلب فاستأنست بالكلب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطير[١]

تركت هذه الرحلات انطباعاً أثر في نفسية الدكتور زيادة، فهو يقول عند ذكرها: «هاتان الزيارتان لا تزال آثارهما منطبعة في ذهني»[٢] ويقول «ثمة أمور ادركتها وأخرى ملأت قلبي غبطة وسروراً جاءتني من الصلة الأولى بلبنان، فالوقوف على قمة جبل الشيخ وقمة صنين وظهر القضيب علمني معنى كلمة « الجبل الأشم» و « الرفعة» و «الصمود» والتنقل على مهل في ربوع الجمال ومعانيه في لبنان، يومها كان له معنى غير المعنى الذي صار له فيما بعد»[٣].

وكما فعل الرحالة العظام من قبله، فهو يصف كل ما يمر به في رحلته من البشر والحجر والشجر والهواء والماء، وتظهر إنفعالات الرجل مع الرؤيا سلباً أو إيجاباً حسبما يرى في المنظر، فعندما يتجول في آثار قلعة جبيل وتأخذه المشاهد المعبرة عن حضارة الأجداد فيقول:

«إن كل شخص يقيم في المشرق العربي يشاركني يومها في أننا نحمل على اكتافنا وزر تاريخ يمتد على الأقل، سبعة الاف سنة، وما أثقله من حمل»[٤].

لا يكتفي نقولا زيادة بالوصف الجغرافي للمكان الذي يزوره، بل يجمع كل مكوناته التي تيسر الحياة لساكنيه، فعندما يصف ارز لبنان مثلاً، يتذكر دور لبنان القديم في تجارة الأخشاب[٥]، ولا ينس الدور، المتنوع للطبيعة اللبنانية في تنوع المحاصيل، وبين مكان وآخر يقف متأملاً ومستوحياً تاريخ المكان وجماله، فتثير في نفس الشيخ الأشجان والاطمئنان في آن معاً، فيعقد المقاربات التاريخية بين هذه الصورة الحالمة والمعبرة عن عظمة الماضي وارتباطه بالحاضر، وكأنه يعطي دروساً بالوطنية للأجيال التالية، كي يقدروا

(١) زيادة، لبنانيات، المرجع السابق.

(٢) نفس المرجع.

(٣) نفس المرجع. ص١٠٦-٢٢

(٤) زيادة، لبنانيات، ص١١.

(٥) نفس المرجع ص٦٦

جهود من سبقوهم ويحافظوا على ما أنجزوه. تخيل وهو على اطلال انطاكية لقاءاً مع الطبيب العربي الرحالة (ابن بطلان)[١]. الذي رحل من بغداد إلى مصر والقسطنطينية مروراً بحلب حيث أقام مدة في رعاية حاكمها (معز الدولة بن ثمال صالح) ويظهر من تصور زيادة أن ابن بطلان كان على علم بالأماكن التي زارها والمجالس التي حضرها، ولعل اختيار ابن بطلان بالذات لهذا اللقاء مرتبط بانتشار الوباء سنة (٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤م) ففي هذه السنة دفن في كنيسة لوقا بعد أن امتلأت جميع المدافن التي في القسطنطينية اربعة عشر الف نسمة في الخريف ...، ومات في الفسطاط والشام أكثر أهلها، وجميع الغرباء، الا من شاء الله، وابن بطلان الطبيب واحد من الذين تصدوا لهذا الوباء، بعلمهم ونصائحهم، فكأنه بذلك يؤكد على ضرورة العلوم لبقاء الحياة.

فهذه المقاربة التاريخية تجعل المرء يتساءل، هل الرحلة بما فيها من شواهد هي التي جعلت صاحبنا يستحضر ابن بطلان من قلب التاريخ، أم هو نزع التاريخ في عقل المؤرخ، يأبى إلا أن يظهر في الوقت المناسب ليؤدي دوره ؟!

فإبن بطلان الى جانب كونه طبيباً ورحالا، فهو مؤرخ يتحدث عن أحوال الناس في البلدان التي زارها، كما لا ينسى من باب الوفاء أن يؤرخ للعلم والعلماء في زمانه، فيترجم للفقهاء والقضاة والأدباء والكتاب الذين ذهب بهم الوباء، ويقول: « فانطفأت سرج العلم وبقيت العقول بعدهم في ظلمة»[٢].

تتكرر مثل هذه الصورة التي تربط بين الماضي والحاضر في كتابات زيادة الرحالة، الكاتب والأديب، فهل كان يضع هذه الصورة امام القارىء لاستخلاص العظه والعبرة؟[٣].

---

(١) هو ابو الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان، نصراني من أهل بغداد قام برحلته من بغداد إلى مصر سنة (٤٣٩ هـ/١٠٤٧م) وكان دخوله الفسطاط في مستهل جمادي الآخرة من سنة (٤٤١ هـ/ ١٠٤٩ م) وأقام بها ثلاث سنين، وذلك في دولة المستنصر بالله الفاطمي، انظر ابن أبي اصيبعه موفق الدين ابي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي (ت ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩ م) **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، د. ت. ص٣٢٥ – ٣٢٦، سيشار إليه عند وروده، ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء.

(٢) ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٢٧ – ٣٢٨.

(٣) انظر، نقولا زيادة، الأعمال الكاملة، **لمحات من تاريخ العرب**، الأهلية، للنشر، بيروت، ٢٠٠٢م، ص١١–١٥، سيشار إليه عند وروده، زيادة، لمحات من تاريخ العرب.

يحث زيادة الرحالة على المشي ليصل إلى ما لا تصل إليه وسائل النقل الحديثة، ويرى في المشي متعة بجمال المكان، وراحة للنفس، فالمشي يوصل إلى قمم الجبال، حيث تسرح العيون في كل الجهات، فقد استوحي رؤية ذلك الفلاح وقد بلغ به التعب مبلغه من الحصاد في يوم حار، فلاذ إلى ظل شجرة قريبة، بعد أن أكمل عمله يستريح من العناء ويستمتع بالظل والهواء ويسرح ناظريه عبر الجبال والوديان، ويترجم مشاعره مغنياً بعد غبطته بنعمتي الظل والراحة ويقول:

لا طلع لراس الجبل	واشرف على الوادي
وأقول يا أهل الجبل	نسم هوى بلادي
ايمتى يسيل النهر	تيجر الوادي
لحط صدري جسر	لتعبر البنية[1].

كرر الشيخ زيادة هذا المشهد، وكأنه يختزل أماني الفلاح اللبناني، لا بل الفلاح أينما كان حيث يرى السعادة بوجود الحب والماء.

وهذه الأغنية تتكرر في بلادنا بصيغ مختلفة ولكنها تحمل نفس المعنى فمن الصيغ التي لا زالت تتردد:

لا طلع عراس الجبل	واشرف على الوادي
واقول يا مرحبا	نسم هوى بلادي
يا ربي تشتي الدنيا	ويسيل الوادي
وامد ايدي جسر	تاتعبر البنيه

أحب زيادة بلاد العرب وخصها جميعاً بأعماله، وأبرز مفاتن كل بلد بأسلوبه الأدبي الرائع، لكن حبه للبنان كان فوق كل حب، فهو متيم بجباله وسهوله، مأخوذ بسحر جماله، فكتب عنه الكثير، ولم ينقطع عن التغني به حتى فارق الحياة. أحب لبنان لأنه عرفه جبالا وهضاباً وسهولاً وآثاراً وثقافة وشعباً وشعبيا، فكتب في خريف ١٩٩٠م «هذه المعرفة الحقيقية لهذا البلد وعاصمته هي أساس حبي وهذا الكتاب «لبنانيات» الذي اضعه بين يدي

(١) زيادة، لمحات، من تاريخ العرب، ص٧٢-٧٨

القارىء إنما هو عربون لهذه المحبة أو لهذه الصداقة »[١]. وهذا وفاء رجل قدر للبنان وأهله إحتضان لبنان له معززاً مكرماً طيلة سبع وخمسين سنة أقامها فيه (١٩٤٩ - ٢٠٠٦م) « ولذلك فأنا أقول أن بيروت ولبنان واللبنانيين أعجوبة، وإنني أحب بيروت لمئة سبب وسبب، وان كنت لا أستطيع أن أعد أكثر من عشرة أسباب»[٢].

وكما أحب زيادة لبنان أحب الأردن، وكرر الزيارات للأردن، محاضراً، ومشاركاً في البرامج الثقافية المختلفة، ورحالاً بين سهوله وجباله، فوصف لنا في إحدى زياراته الطريق من عمان إلى جرش، ويستثيره المشهد فيروي تاريخ الأردن وبلاد الشام ويفصل في تاريخ جرش، وكأنه يؤكد بأن تاريخ بلاد الشام وحدة لا تتجزأ، وفي إحدى رحلاته إلى بترا، يصف رحلته بالقطار من عمان إلى جنوب الأردن، ويتحدث عن الركاب الذين كان فيهم التجار الذين جمعوا سلعهم من حوانيت دمشق وعمان، لينقلوها، إلى أهل الكرك .

وقد امتدت محبته وعشقه من لبنان ليشمل بلاد العرب من أقصى مشرقه إلى أقصى مغربه، وتحدث عن بلدانه حديث الرحالة المشاهد والمعاين، لا حديث السامع والقارىء، لأن زيادة زار كل رقعة في دنيا العروبة مرة ومرات، وأقام فيها وتنقل بأرجائها، وتغنى بمعالمها الجميلة، وبعث تاريخها التليد واشاد بعلمائها وأدبائها وشعرائها، وأهل كل فن فيها.

تحدث عن فلسطين موطن أهله ومدرج صباه، ونظر إلى حالها من خارج الحدود، فأدرك أن العروبة هي الحاضنة لفلسطين، وأن لا دواء لآلام فلسطين إلا بالعروبة، لذلك عاش زيادة عروبياً حتى النخاع، واعتبر جهده وعلمه ديناً في عنقه تجاه وطنه، فكتابه «عالم العرب، جغرافيته، تاريخه، ومصادر ثروته»[٣]، اشتمل على عرض تاريخي جغرافي لاثنتين وعشرين دولة عربية، ابتداء بالمغرب وإنتهاء بلبنان». هذا العشق لدنيا العروبة جعله يطير إلى تونس ويزور جزيرة جربه المقابلة للساحل التونسي، ويجول بها عرضا وطولا ويبعث تاريخها ويتعرف أهلها وأسلوب عيشتهم، ويعود إلى بيروت، ثم يعاود السفر إلى

---

(١) زيادة، لبنانيات، ص٢٤

(٢) نفس المرجع، ص٢٢

(٣) الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٢، سيشار إليه عند ورود زيادة، عالم العرب، وهو مجموعة مقالات، نشرتها مجلة " شؤون عربية " التي كانت تصدرها، الجامعة العربية، وذلك ابتداء من آذار، مارس، ١٩٨١م.

طرابلس في ليبيا، ويتجشم السفر إلى الصحراء الليبية ليروي لغيره الحقائق التي يجدها في اسفاره. يقول زيادة: وقد أتيح لي فيما بعد من السنين أن اشرق في دنيا العرب وأغرب ووصل به التغريب إلى بلاد شنقيط ليروي أخبارها، ويثني على آدابها، ويقرظ علماءها وفقهاءها ويرسم لهذا البلد –الذي كنا لا نعلم عنه إلا القليل – صورة تبعث على الأمل لنشاط هذا الشعب العربي الذي حافظ على حضارته وعروبته رغم فقره وعزلته.

كذلك أفرد كتاباً[١] تحدث فيه عن أربع وعشرين مدينة عربية من مراكش إلى بغداد، استعرض فيه تاريخ هذه المدن ومعالمها الحضارية وذكر فترات ازدهارها والشواهد على آثارها وعمرانها، وهو في حديثه يجمع ما بين رواية التاريخ ومشاهدة العين.

ومن بين أعماله الكثيرة في الشأن العربي، كتاب اسماه بـ «مشرقيات» وأخر سماه «مغربيات» صفحات مغربية وثالث اسماه «متوسطيات»، بالإضافة إلى «لبنانيات وشاميات» وكأنه يؤكد على وحدة الوطن والأمة بعد ما أصاب هذا الوطن من إنقسام وهذه الأمة من تفرق، وهو يوزع حبه وعشقه على اقطار الوطن بالتساوي حتى لا يفسح المجال للعتب عليه، ما نذكره من نشاط للراحل هو قليل من كثير في ميدان العروبة، حضارة، وقومية، فقد عرض قضايا الأمة عرض الخبير بآلام الأمة وأدوائها، فهو حين يتحدث عن المغرب يشعرك وكأنك تعيش في المشرق العربي وبالعكس، كان يبحث عن عناصر الوحدة في التاريخ والوجدان، ويعرضها للأجيال بعين الرحالة الفنان، خشية عليها من التآكل والنسيان.

وبما أن صاحبنا رحالة وجغرافي يجوب البلدان شرقاً وغرباً، فقد عرفناه لا يستقر في مكان، فكل أرجاء الوطن الكبير مقره، وكل الناس في هذه الأرجاء أهله، وقد حققت له الرحلات الكثير من الأصحاب الأماجد، ويسرت له الإطلاع على ما خفى من الكنوز، فزاده هذا حباً في الرحلة والمغامرة واتقدت في نفسه جذوة الإطلاع على أعمال الذين سبقوه، فهل يا ترى كان اطلاعه هذا هو الذي ولّد لديه هواية الرحلة والسياحة، أم أن الرحلة والسياحة هما اللتان ولدّتا فيه حب الإطلاع والمعرفة؟

(١) نقولا زيادة، الأعمال الكاملة (**مدن عربية**) الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٢م، (التصدير) سيشار إليه عند وروده، زيادة، مدن عربية.

وأرى أن كل العوامل السالفة مع عامل حب الاستكشاف، دفعت صاحبنا للتأريخ للرحالة والرحلات إلى بلاد العرب، ويعتبر بحق من أوائل العرب الذين ولجوا هذا الباب في العصور الحديثة، ومن المؤسف أن دراسة تاريخ الجغرافية العربية الحديثة لم تقم بسواعد العرب في الأساس وإنما يعود الفضل في ذلك للأوروبيين، من أمثال : نالينو (Nailino) ومينورسكي (Minorsky) ومجيك Mzik وهونجمان Honigmann، ومن قبلهم رينو Reinaud وغيرهم[١]، وهؤلاء وأمثالهم لفت نظرهم التراث الجغرافي الضخم الذي خلفه العرب من عصور الإزدهار، فانكبوا عليه ترجمة ودراسة ومن ثم تأليفاً حتى اصبحت اسماء الاعلام العرب في الجغرافيا معروفة ومألوفة في المدارس الغربية والشرقية من المتخصصين في ميدان الجغرافيا التاريخية عند الغرب. ففي عام ١٨٧٠م، بدأ العلامة الهولندي دي خوية Degueje تنفيذ فكرته بنشر سلسلة (مكتبة الجغرافيين العرب) Bibiotheca Geographopum Arabicorum التي اكتمل عقدها بظهور الجزء الثامن في عام ١٨٩٤م وتضم في صفحاتها مصنفات مؤلفي عهد ازدهار الأدب الجغرافي العربي في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، الثالث والرابع الهجريين، وفي عام ١٨٤٢م عمل فستنفلد wuistinfeld موجزاً ببلوغرافيا للأدب الجغرافي العربي معتمداً في ذلك على كتاب حاجي خليفة (كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون) فأورد أسماء ماية وستة وعشرين مؤلفاً، وهو رقم لا يمكن اعتباره في الآونة الأخيرة (الحاضرة) وافياً بالغرض[٢]. ومنذ نهاية القرن التاسع عشر تتابع الاهتمام بالجغرافيا وأدب الرحلات عند العرب بفضل تقدم وسائل الاتصال وحركة الترجمة واضطراد حركة الاستشراق (الاستعراب). وكذلك زاد الاهتمام بهذا الميدان في القرن العشرين وشاركت به دول جديدة، فكان بارتولد Bartold الروسي ومن ثم كراتشكو فسكي صاحب كتاب: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، الذي اشرنا إليه سابقاً، وهو بحق افضل مؤلف في ميدانه حتى الآن .

وإذا كان كتاب كراتشكوفسكي قد ظهر عام ١٩٥٧ م فإن الدكتور زيادة سبق هذا

---

(١) انظر، ا.ي، كراتشكو فسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، نقله إلى العربية : صلاح الدين عثمان هاشم، قام بمراجعته، ايغور بليايف، القسم الأول. اختارته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، لجنة التاليف والترجمة والنشر. ٢ ج، ج١، ص٦–١٠ . سيشار إليه عند وروده كراتشكوفسكي، الأدب الجغرافي.

(٢) كراتشكوفسكي، الأدب الجغرافي، ص٢٩

العالم، إذ نشر أول كتاب له بعنوان "رواد الشرق العربي في العصور الوسطى"[١]. سنة ١٩٤٣م وتحدث في هذا الكتاب عن الرحلة والرحالة فذكر الحج إلى القدس واثره في سياحة الأوروبيين إلى الشرق العربي، وذكر أسماء عدد من الذين تركوا وصفاً لزياراتهم وإنطباعاتهم.

كما تحدث عن الجغرافيا والرحلات في الإسلام، موضحاً دور الإسلام في حفز الناس على الرحلة، واستعرض عدداً كبيرا من الرحالين المسلمين، قديماً وحديثاً حتى عصره، وفي عام ١٩٦٢م، صدر له كتاب ثان بعنوان: «الجغرافيا والرحلات عند العرب» تحدث فيه عن العرب والجغرافيا، متتبعاً المدارس الجغرافية من الدور اليوناني العربي، حيث كان التأليف متأثراً ببطليموس اليوناني، ويمثل هذه المدرسة ابن خرداذبه (ت ٣٠٠ هـ/٩١٢م) صاحب كتاب «المسالك والممالك». واليعقوبي في (٢٨٤هـ/٨٩٧م) مؤلف كتاب «البلدان» وابن رسته (٢٩٠هـ/٩٣٠م) صاحب كتاب «الأعلاق النفسية» والخوارزمي الذي الف كتاب « صورة الأرض» وابن الفقيه (٣٣٤هـ/٩٤٥م) صاحب كتاب «البلدان» ويعقوب الكندي صاحب كتاب «صورة الأرض» وقدامه بن جعفر (٣٢٩هـ/٩٤٠م) صاحب كتاب «الخراج وصنعة الكتابة»[٢].

وقد أفرد كراتشكوفسكي فصلا من كتابه تحدث فيه عن جغرافيي المدرسة اليونانية والزيجات الكبرى، ولم يذكر من الذين ذكرهم زيادة سوى الخوارزمي الرياضي ويعقوب الكندي[٣]. وتشير كتابات زيادة أنه نقل هذه المعلومة عن الأوروبيين[٤].

أخذ زيادة بما أجمع عليه أهل التاريخ الجغرافي «بأن القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي يمثل فترة النضج في البحث الجغرافي عند العرب» الذين أنتجوا مدرسة عربية في الجغرافيا، وابرز ممثليها: الأصطخري (توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي) وابن حوقل (٣٦٧هـ/ ٩٧٧م) والمقدسي (٣٧٨هـ/ ٩٨٨م)، وذلك في بحوثهم المبنية على

(١) نشر لأول مرة سنة ١٩٤٣ م، هدية المقتطف السنوية، سيشار إليه عند وروده، زيادة، رواد الشرق.

(٢) زيادة، الجغرافية والرحلات، ص١٧.

(٣) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، (ج١ من ثبت المحتويات). انظر ترجمة الكندي، في ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٥٨.

(٤) اشار زيادة في احدى حواشيه إلى : ميلر Miller, Mappae Arabicae Band Band 1/1 p.10
أنظر رواد الشرق، ص٥٧.

الاختبارات والمشاهدة الناتجة عن السفر والارتحال[١].

ومن الجغرافيين المسلمين من اختص بأقليم واحد بعينه كالهمداني (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) الذي الف كتاب «صفة جزيرة العرب» والبيروني (ت حوالي ٤٤٠هـ /١٠٤٨م) في كتابه عن الهند. يستعرض زيادة جهود الجغرافيين العرب موضحاً مميزات كل جغرافي وما له وما عليه والمكتبة العربية تزخر بعشرات الكتب في مجال الجغرافية والرحلات، ولا شك أن رحلات هؤلاء الجغرافيين تستهوي صاحبنا، لايمانه بأن معلومات الرحالة تمعن في التفاصيل الدقيقة المعتمدة على المشاهدة.

كان وصف البلدان من عمل المؤرخين، ولكن الأمر ما لبث أن استقل فتولاه كتاب الأقاليم، وكان منهم ابن خرداذبه (٣٠٠هـ/ ٩١٢م)، وكتابه من أقدم الكتب عن جباية الدولة العباسية في أواسط القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، حيث كان يتولى ديوان البريد والخبر بنواحي الجبل في بلاد فارس، وكذلك برز قدامة بن جعفر صاحب كتاب الخراج الذي بين فيه الطرق والمسافات، فضلاً عن قيمة جباية الدولة[٢]، ومثل ذلك يقال عن: اليعقوبي وابن الفقيه وابن رسته.

يتفق كراتشكوفسكي مع زيادة بالقول بغنى الحضارة الإسلامية في ميادين علم الجغرافية، ولا سيما الجغرافية الوصفية التي تعتبر أدباً من نتاج الرحالة[٣].

وممن أعجب بهم زيادة، وأكثر الاستشهاد بهم المقدسي (٣٧٨هـ/٩٨٨م) صاحب «كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» ولا نكاد نجد كتاباً من كتبه الا وفيه نقول من المقدسي، فمن ذلك ما نقله عن الشام: «والتجارات به مفيدة يرتفع من فلسطين الزيت والقطن والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والفوط - ومن بيت المقدس الجبن والقطن وزبيب العينوني ... »[٤].

(١) زيادة المرجع نفسه. والجغرافيا والرحلات، ص٣٠.

(٢) زيادة، رواد الشرق، ص٥٦.

(٣) كراتشكوفسكي، الأدب الجغرافي، ج١ ص١٩-٢٠.

(٤) زيادة، رواد الشرق، ص١٢٥، أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي (ت ٣٧٨ هـ / ٩٨٨م). "**أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**"، مكتبة مدبولي، ط٣، القاهرة، ١٤١١ هـ/ ١٩٩١م. ص١٨٠-١٨١، سيشار إليه عند وروده، المقدسي، أحسن التقاسيم.

واقتبس من المقدسي بعض تقاليد وعادات أهل اليمن، ويذكر كيف انهم يوقدون مصابيحهم بدهن السمك، كناية عن تأثير البحر فيهم، كما ينقل عنه مقدار الضرائب في مدينة (ميناء) جده[١].

وذكر شيئاً عن أهل العراق مما أورده المقدسي، عن ملابسهم ودكاكينهم وبعض مواسمهم[٢]. والمقدسي أهل لثقة شيخنا الذي يحسن تقدير عمل الرحالة، فقد عانى في رحلاته، واكتسب مهارة وأدب الرحال، وآمن أن المعلومة القائمة على الوصف والمشاهدة هي أصدق الأخبار. هذا من جهة، ومن جهة أخرى تعززت الثقة لكون المقدسي شامي خبر بلده ارضا وناساً.

واخذ زيادة وصف ابن حوقل لبرقة وطرابلس في ليبيا، فذكر أن برقة أول محطة ينزلها القادم من مصر إلى القيروان، ومدح منتوجات برقة من القطران، ووصف كثرة التجار الغرباء فيها، وقال في اسواقها الجلود والتمور ويصلها الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت[٣]. يكثر زيادة الاقتباسات التي تتعلق باقتصاد البلدان، ومعايش الناس، وبعض العادات المميزة للسكان، فهو ينقل وصف ابن حوقل لأهل جزيرة « أوجله» و سرت في ليبيا، فيقول « هم قوم مرموقون بنظافة الأعراض والثياب والأحوال ولهم في الخير مذهب من طريق العصبية لا يدانيهم أهل بلد »[٤].

نقل زيادة كذلك عن ابن حوقل بعض احاديثه عن أهل الأندلس وما فيها من نفائس البحر، ووصف مدنها العامرة والزاهرة، ووصف صقلية، وما في هذه البلدان من العجائب والغرائب[٥]. وكذلك فعل في أوصاف مدن الجناح الشرقي من العالم الإسلامي، وبعد

(١) زيادة، رواد الشرق، ص١٢٦، المقدسي، احسن التقاسيم، ص٨٥، ٩٧، ١٠٠، ١٠٤.

(٢) زيادة، رواد الشرق، ص١٢٦، المقدسي، المصدر نفسه، ص١٢٩

(٣) ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م) **كتاب صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩م، ص٦٩، سيشار اليه عند وروده، ابن حوقل، صورة الأرض. زيادة، الجغرافية والرحلات ص٣٢.

(٤) زيادة، الجغرافيا والرحلات، ص٣٢–٣٣ . ابن حوقل، صورة الأرض ،ص ٧١. أنظر ما ذكره زيادة عن رحلة ابن حوقل في الجغرافية والرحلات، ص٣٢ وما بعدها.

(٥) أنظر ما ذكره زيادة عن رحلة ابن حوقل في الجغرافية والرحلات، ص٣٢ وما بعدها.

هؤلاء الجغرافيين تأتي طبقة اصحاب المعاجم الجغرافية وعلى راسهم ياقوت الحموي، ثم اصحاب الموسوعات فيما بعد كالنويري والقلقشندي، وابن فضل الله العمري، وفي الفصل الثامن من كتاب الجغرافية والرحلات تحدث عن « طلائع الرحالين» بدأ فيه برحلة ابن فضلان(١)، ثم تحدث عن المسعودي(٢).

وبعد ذلك تناول الرحالة وفقاً لأوطانهم، فتكلم تحت عنوان " رحالون من الشرق(٣)» عن ناصري خسرو ورحلته، ثم الهروي ورحلته (٤)، وتحت عنوان : رحالة من المغرب، تحدث عن ابن جبير ورحلته(٥)، وابن سعيد ورحلته(٦) ،ثم العبدري ورحلته(٧)، ثم أفرد عنوانا « رحلة عالم»، تحدث فيه عن عبد اللطيف البغدادي (٨)، وبعد ذلك تحدث عن شيخ الرحالين ابن بطوطة(٩)، وبعد ابن بطوطة تحدث عن التجاني ورحلته(١٠).

وفي كتابه الأول « رواد الشرق العربي « تناول الرحالين المسلمين، ناصري خسرو، وابن سعيد، وابن جبير، واسامة بن منقذ والهروي، والبغدادي، وابن بطوطة، وقايتباي الملك الأشرف(١١)، هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الرحالة الأندلسيين والمغاربة الذين

---

(١) نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، ط٣، بيروت، ١٩٨٢، ص١٤١، سيشار إليه عند وروده، زيادة الجغرافية والرحلات .

(٢) المسعودي هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧م) من ذرية عبد الله بن مسعود الصحابي رضي الله عنه، واعتبر من البغداديين، انظر ترجمته في مقدمة كتابه " مروج الذهب ومعادن الجوهر"، ٤ ج، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط ٤، ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤م. سيشار إليه عند وروده، المسعودي، مروج.

(٣) زيادة، الجغرافية والرحلات ص١٥١

(٤) نفس المرجع ص١٥٦

(٥) نفس المرجع، ص١٦٠

(٦) نفس المرجع ص١٦٢

(٧) نفس المرجع ص١٧٤

(٨) نفس المرجع ص١٨٠

(٩) نفس المرجع ص١٨٨

(١٠) زيادة، رواد الشرق، ص٦٢

(١١) نقولا زيادة، الأعمال الكاملة، لبنانيات، الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢م، سيشار إليه عند وروده، زيادة لبنانيات.

زاروا الشرق بقصد الحج وطلب العلم.

ويلاحظ المطلع على أعمال الدكتور زيادة الاستشهاد المتكرر بأقوال الرحالة المسلمين في وصف البلدان التي يتحدث عنها، ففي كتابه « لبنانيات « يتحدث عن جغرافيي العرب ولبنان، فيورد ما قاله ناصري خسرو، وابن جبير وابن بطوطة، كما يورد أقوال رحالة من غير العرب كوليم الصوري، ويعقوب الدفتري ودولابروكييه والأب دنديني وجون ساندرسون وهنري مندرل وفولني وجون كارن... الخ(١).

ومعظم الرحالة النصارى جاءوا فلسطين بغرض الحج، ومن ثم توسعت سياحتهم في المنطقة، ومعظم معلوماتهم مفعمة بالروح العدائية للعرب والمسلمين، وإن كان بعضها لا يخلو من فائدة وبخاصة في وصف الكنائس والأديرة.

وفي كتابه « ابعاد التاريخ اللبناني » يقتبس الكثير مما ذكره المقدسي (٢)، وهكذا يفعل في معظم مؤلفاته، وبأنه لا يمل من تأكيد دين الماضي على الحاضر، ولذلك فهو دائم التذكر والتذكير تساعده في ذلك ثقافته التاريخية .

لن نتمكن من عرض كل ما كتبه عن الرحلات والرحالة، فالمجال لا يتسع لذلك سنوجز ما أورده من تأريخ لأشهر الرحالة الذين ترجم لهم واستفاض في عرض رحلاتهم مراعين في ذلك ترتيبه المتبع في كتابه الثاني الذي سبقت الإشارة إليه ممن اسماهم الرحالة.

أورد زياده أخبار ابن فضلان ورحلته، واشاد بنتائجها، وابن فضلان كان على رأس وفد رسمي للخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥- ٣٢٠ هـ / ٩٠٧-٩٣٢م) إلى ملك الصقالبة من شعوب البلغار عند حوض نهر الفولجا في بلاد الروس (٣)، وقد استغرقت الرحلة من بغداد إلى بلاد الصقالبة أحد عشر شهراً(من ١١ صفرسنة ٣٠٩ هـ/ ٢١

(١) نقولا زيادة، المرجع السابق.

(٢) نقولا زيادة الأعمال الكاملة، ابعاد التاريخ اللبناني الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٢ م، ص١٢١، سيشار إليه عند وروده، أبعاد التاريخ.

(٣) انظر زيادة، الجغرافية والرحلات ص١٤٢، ورواد الشرق. ص ٦١، وانظر **رحلة ابن فضلان** تحقيق محمد سامي الدهان، نشر المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٥٩م.

حزيران/ يونيو ٩٢١م إلى ٢ محرم سنة ٣١٠هـ/ ١١ أيار / مايو ٩٢٢ م)[١].

وصف ابن فضلان ما شاهده في رحلته من عجائب وغرائب في العادات والتقاليد للشعوب التي مر بها، و لم ينس حتى وصف الليل والنهار وما يصيبهما من طول وقصر، والجو وما يتبدل فيه الحر والقر من مكان لآخر.

وبعد ابن فضلان تحدث زيادة عن المسعودي ت (٣٤٦هـ / ٩٥٧م) المؤرخ والجغرافي، ويعتبره واحداً من أعلام الفكر العربي الاسلامي، فيقول: « فهو واحد من أولئك الذين أحاطوا بالمعرفة، إحاطة وافية، وتمثلها تمثلاً صحيحاً »، كتب المسعودي عشرات من الكتب اشهرها في مجال الجغرافية والبلدانيات مما وصل إلينا، « كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر». وكتاب « التنبيه والإشراف ». والمسعودي مثل غيره ممن تعلموا وألفوا وتنقلوا من مكان لاخر في العالم الإسلامي براً وبحراً، وهو بالإضافة إلى كونه جغرافي فهو مؤرخ بارع وناقد نافذ، إذ نقد الكثير ممن تقدموه وأثنى على بعضهم من أمثال : ابن قتيبة الدينوري والطبري المؤرخ ونفطويه والصولي وقدامة بن جعفر [٢].

وصف المسعودي الأماكن التي زارها وصفاً دقيقاً وشاملاً لذلك اعتبره من جاء بعده،الوحيد الذي تحدث عن الشعوب والبلاد المجاورة لعالم الإسلام في عصره[٣]. وفي تناوله رحالة من المشرق تحدث عن ناصري خسرو (ق ٥ هـ/١١ ق م) وقال أنه كان « إسماعيلياً شديد التعصب لمذهبه » كما شهد له بدقة ملاحظاته وعنايته ببعض الأخبار وروايتها، لذلك جاءت رحلته المعروفة باسم « سفر نامه» غنية بالصور المليئة بالمعلومات عن البلاد التي زارها [٤] . وكان خسرو قد تجول في أقطار بلاد الشام، متنقلاً في مدنه الواحدة بعد الأخرى، كما زار مصر والحجاز، وخص مكة المكرمة ومناسك الحج ومشاعره فيها بقسط كبير من جهوده ووقته وكتابه[٥] .

---

(١) زيادة، الجغرافية، والرحلات، ص١٤١ – ١٤٢.

(٢) المسعودي، سبقت الإشارة إليه . انظر زيادة، الجغرافية والرحلات، ص١٤٦– ١٥٠.

(٣) زيادة، المرجع السابق، ص١٥٠

(٤) زيادة، رواد الشرق، ص٦٣–٦٤

(٥) الهروي هو ابو الحسن علي بن أبي بكر، (ت ٦١١هـ/ ١٢١٤م) وكتابه، **الإشارات** نشره، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، وعنيت بنشره وتحقيقه، جانين سورديل، طومين، دمشق، ١٩٥٣م. سيشار إليه عند

استدل زيادة على دقة ملاحظة خسرو بما ذكره عن المد والجزر في الخليج العربي، وعلاقة ذلك بالفيضان في شط العرب . والهروي هو الرحالة الثاني الذي تحدث عنه صاحبنا، وهو معاصر للرحالة الأندلسي ابن جبير (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) وتتبع تجواله في كل من سوريا والعراق واليمن والحجاز ومصر وبلاد الروم وجزر البحر الأبيض المتوسط وحتى صقلية، وذكر زيادة أن الهروي يمتاز عن غيره بمعرفته بعلم السيما.

زار الهروي القسطنطينية وشمال سوريا، والتقى بقادة المسلمين في هذه البلاد. وأورد خبر حمله لرسائل، من القائد ابو القاسم بن حمود إلى صلاح الدين الأيوبي، يطلب إليه تجهيز حملة ضد صقلية، وقد دون الهروي معلوماته في كتابه« الإشارات إلى معرفة الزيارات»[١]، واشتمل الكتاب على ذكر لمئات الأماكن الدينية، ومن لطيف ما جاء به أيضاً، وصفه لزهور مصر ونباتاتها[٢].

أما عن الرحالين من المغرب فتحدث عن ابن جبير[٣] (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) الذي قام بثلاث رحلات، أهمها رحلة استغرقت اكثر من ثلاث سنوات (٥٧٨-٥٨١هـ) وجاءت معلوماته حافلة في المشاهدة والتجارب التي اكتسبها اثناء تجواله في عجائب البلدان والمدن، ورؤيَته لغرائب الأشياء واطلاعه على الشؤون والأحوال السياسية والإجتماعية والأخلاقية التي كانت سائدة في تلك الفترات[٤].

رحل ابن جبير للمشرق مرتين وحج في كل واحدة منها، وفي طريقه إلى الشرق زار مصر، وسواحل البحر المتوسط، وركب البحر من عكا إلى صقلية بمركب فرنجي وجاءت اخباره في البداية على شكل مذكرات و رحلته فيها كثير من الصور التي توضح العلاقات بين أهل البلاد والصليبيين في سوريا، كما كان شديد العناية في البحث عن

وروده، الهروي، الإشارات. زيادة، رواد الشرق، ص٦٩-٧٠.

(١) الهروي، المرجع نفسه.

(٢) المرجع نفسه، ص٥٠-٥١. انظر زيادة، رواد الشرق. ص٧١.

(٣) هو أبوالحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي الشاطبي، ولد ببلنسية سنة ٥٣٩هـ /١١٤٤م، وكتابه عرف باسمه هو (رحلة بن جبير) . دار التراث، - بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، سيشار إليه عند وروده، ابن جبير، الرحلة.

(٤) ابن جبير الرحلة، ص٥، زيادة، رواد الشرق، ص٦٧.

المدارس والمساجد والمارستانات، وهو في كل هذا دقيق الملاحظة سهل العبارة واضح الأسلوب « وقد أثر ابن جبير في كثير من الكتاب الذين جاءوا بعده، فنقلوا أجزاء كبيرة من رحلته، وليس أدل على ذلك من أن ابن بطوطة نفسه نقل عنه وصف كل من حلب ودمشق وبغداد »[١]، وفي كتابه « لمحات من تاريخ العرب» أتى زيادة على وصف ابن جبير لتجواله في البحر المتوسط، وعودته من عكا إلى الأندلس ووصفه للمركب الذي حمله[٢].

زار ابن جبير دمشق ووصف جامعها ومدارسها، ومارستاناتها، وأهلها، وانتقد بعض عادات اهلها، ومن ذلك تحيتهم وصفة سلامهم، فقال عنهم :« وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام، كما عهدناه لقينات النساء، فيا عجبا لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربات الحجال»[٣].

وابن سعيد رحالة أندلسي ولد سنة (٦١٠ هـ/ ١٢١٤م) في اسرة عريقة في الحسب والنسب، عمل لوزير الموحدين بافريقية ابن جامع [٤]،

وقد ترجم له الدكتور زيادة وقال عنه « لقد ترك لنا ابن سعيد وصفاً نفيسا لمصر والفسطاط »[٥]. ارتحل إلى المشرق سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧ م وفي مصر تلقى اخبار الهجوم المغولي على حلب بقيادة هولاكو، وما تركه هذا الهجوم من خراب وتدمير. له تواليف كثيرة وتسمياتها عجيبة مثل « المغرب في حلي المغرب» و المشرق في حلي المشرق» و« المرقصات والمطربات»[٦].

والعبدري هو محمد بن علي وينسب إلى عبد الدار، واسم العبدري مرتبط ببلنسيه، فهو رحالة اندلسي رحل إلى المشرق عبر الشمال الإفريقي وعاد برا إلى بلاده، وفي رحلته

(١) زيادة رواد الشرق، ص٦٨-٦٩

(٢) نقولا زيادة، الأعمال الكاملة، لمحات في تاريخ العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٥٢-٥٥، سيشار إليه عند وروده، زيادة، لمحات.

(٣) زيادة، رواد الشرق ص٦١، ابن جبير، الرحلة ص٢٤٢

(٤) زيادة، الجغرافية، والرحلات، ص١٦٢

(٥) نفس المرجع

(٦) نفس المرجع ص١٦٣

التي بدأت في شهر ذي القعدة من عام ٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩م، وصف فيها المدن المغربية التي مر بها في طريقه إلى الشرق، مثل: تلمسان– الجزائر – وحل بتونس واستطرد بوصف كافة معالمها وقال :» تونس مطمح الآمال، ومصب كل برق، ومحط الرحال من الغرب والشرق»[١]. وقال عنها « وما زالت تونس كلاها الله دار ملك وفخامة، وهي الآن دار مملكة افريقية»[٢]. ووصف الجامع الأعظم (جامع الزيتونة) وماء زغوان والحنايا (القناطر)، ومدح أهل تونس وقال: « ما رأيت لأهلها نظيراً شرقاً وغرباً »[٣]. كما اثنى على علماء تونس وقضاتها وعدولها، ومؤدبيها وتجارها.

وكما اسلفنا أفرد زيادة عنوان « رحالة عالم» تحدث تحت هذا العنوان عن عبد اللطيف البغدادي وذكر مولده في بغداد سنة ٥٢٧هـ/ ١١٦٢م جاء دمشق في عهد صلاح الدين، وحصلت مناظرات بينه وبين علمائها فانتصر عليهم، ثم توجه إلى القدس وجاء معسكر صلاح الدين والتقى بظاهر عكا مع بهاء الدين بن شداد، قاضي عسكر صلاح الدين وعماد الدين الكاتب والقاضي الفاضل. لم تطل إقامة عبد اللطيف البغدادي في مصر حيث أكمل كتابه: » الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» [٤]. زار البغدادي القدس ودرّس في الجامع الأقصى، ومكث بدمشق حيث اشتهر بصناعة الطب ودرّس في المدرسة العزيزية، وتنقل بعد ذلك بين حلب وأذربيجان في بلاد الروم، وأرزن الروم وبغداد وتوفي بها [٥].

أما ابن بطوطة فأطلق عليه الدكتور زيادة لقب:«شيخ الرحالين» [٦]. ويقول: « إن الرجل الذي يقضي ثمان وعشرين سنة من حياته، يتنقل في أجزاء العالم المعروف، فتحمله أسفاره من طنجة إلى مصر عبر شمال افريقية، ثم إلى الشام، وبعد أن يقضي فريضة الحج

(١) نفس المرجع ص١٦٦

(٢) نفس المرجع ص١٦٧

(٣) نفس المرجع، ص١٦٨

(٤) عبد اللطيف البغدادي، (٥٥٧هـ– ٦٢٩هـ/ ١١٦١–١٢٣١م)، (الأفادة والاعتبار ...). تحقيق المحامي أحمد غسان سبانو، دار ابن زيدون، بيروت، دار قتيبة، دمشق، ط٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، انظر زيادة، الجغرافيا والرحلات، ص١٧٥.

(٥) زيادة، نفس المرجع، ص١٧٦

(٦) نفس المرجع، ص١٨٠– ١٨٧ . زيادة ،رواد الشرق، ص٧٦–٧٨

يزور إيران وبلاد العرب وشرق افريقيا ويدخل القرم وحوض الفولقا الأدنى ويعرج على القسطنطينية، وبعد ذلك يمعن بالرحلة شرقاً إلى خوارزم وبخارى وكردستان وافغانستان والهند والصين وجزر الهند الشرقية، ثم يزور الأندلس والسودان، والذي يقطع في اسفاره ما لا يقل عن ١٢٠,٠٠٠ من الكيلومترات، أن رجلا هذا شأنه يعتبر بحق شيخ الرحالين العرب، وسيد الرحالين اطلاقاً في عصره أي في القرن الثامن الهجري « الرابع عشر الميلادي» [١]، ومما يجدر ذكره أن ابن بطوطة فقد الأوراق التي كان يسجل فيها ملاحظاته، لذلك أملى رحلته من الذاكرة. استعرض زيادة تفاصيل الرحلات التي قام بها ابن بطوطة عبر العالم المعروف آنذاك، واقتبس الكثير مما ذكره عن اسفاره ومعاناته، وتقلب الأحوال به، وذكر وصف الظواهر العمرانية والاجتماعية والسياسية. ويذكر زيادة بعض خصائص الرحلة لابن بطوطة، منها : أنه كان قليل الحفاوة بالأرض والمدن، ولكنه كان عظيم الاهتمام بالناس وخاصة بالعلماء والأولياء، ومن ثم فالرجل بالإضافة إلى كونه رحالة من الطبقة الأولى، يمكن اعتباره مؤرخاً اجتماعياً للمسلمين في عصره»[٢].

إن الملاحظات التي يبديها الدكتور زيادة على أدب الرحلات تشير إلى وعيه بأهمية الرحلة بما تحققه من أهداف شمولية، تصور المجتمع بشكل كلي، وتبرز كل مكوناته، وتعطي كل الوانه، وتسمى الأشياء باسمائها، دون خوف أو وجل، هذه هي صورة ادب الرحلات في عقل زيادة، وهذا ما نجده في رحلاته، يستنطق الحجر والشجر والبر والبحر والأنسان والحيوان ويستخلص الصورة الحقيقية للحالة التي يقف عليها في تجواله.

بعد ابن بطوطة تحدث زيادة عن رحالة آخر اكتسبت رحلته ايضاً شهرة واسعة، ذلك هو التجاني التونسي[٣]، وعندما يتحدث الدكتور زيادة عن التجاني الرحالة، يتحدث كعادته عن الأحوال العامة لبيئة الرحالة السياسية والاجتماعية والعلمية ولذلك عرض

(١) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي (ت٧٧٠هـ/ ١٣٦٨-١٣٦٩م)، **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، دار الكتاب المصري . سيشار إليه عند وروده، ابن بطوطة، الرحلة.

(٢) زيادة، الجغرافية، والرحلات، ص١٨٢.

(٣) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني، ولد في مدينة تونس، عاصمة الدولة الحفصية آنذاك بين سنتي (٦٧٠ و٦٧٥هـ / ١٢٧٢ - ١٢٧٦ م)، من اسرة عريقة بالعلم والأدب والفقه . انظر زيادة، الجغرافيا والرحلات، ص١٨٨.

لعلاقة التجايي باللحياني الذي استولى على الملك في تونس فترة من الوقت وكان التجاني يتولى رئاسة دواوين رسائله، ولما لم يستطع اللحياني الصمود في الحكم، غادر تونس تاركاً مصيرها لخصومه، فوقع التجاني وغيره من أفراد اسرته في أيدي الخصوم وانتهت حياتهم بالقتل. زار التجاني في إتجاهه شرقاً المدن التونسية كما زار جزيرة جربة المقابلة للساحل التونسي ثم طرابلس ومصراته، ثم عاد بطريق أقرب إلى الساحل أي أنه لم يعرج إلى الأماكن الداخلية.

تحدث زيادة عن نشاط التجاني الأدبي وعن رسائله ومراسلاته كونه كان رئيساً لديوان الرسائل ويقول بأن رحلته هي أدب وتاريخ وجغرافية، ووصف المجتمع الذي رآه وخالطه ويرى زيادة أن أحداً لم يصف جربه من رجال العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة، بمثل الدقة التي وصفها بها التجاني، ومما قاله: « وجزيرة جربه من أعظم الجزائر خطراً، وأشهرها في سالف الزمن عمارة وذكراً، وطولها من المغرب إلى المشرق ستون ميلاً... وأما عرضها فمختلف فعرض الراس الغربي منها عشرون ميلاً، وهو الطرف الواسع، ومن هذا الموضع إلى جزيرة قرقنة في البحر ستون ميلاً...»[(١)]. وهكذا يستمر التجاني بذكر كل التفاصيل للمكان الذي يزوره وهذا يلاقي الاستحسان لدى زيادة، الباحث عن استكشاف المجهول ليكون أمام القارىء حتى يشعر بأنه يقف في ذات المكان. تحدث التجاني عن المدارس والعلماء والأدباء وأورد زيادة الاقتباسات الكثيرة من هذه الرحلة الغنية باسماء العلماء الذين قابلهم وأخذ عنهم[(٢)].

ويظهر من خلال أعمال الدكتور زيادة، أنه كان مستوعباً لكافة رحلات الرحالة، وأن مشاهداتهم ورواياتهم حاضرة في ذهنه، يستحضر مادتهم عند الحاجة، فعندما يتحدث عن الخليج العربي في العصور الوسطى يستحضر تاريخ الصراع على التجارة وطرقها وموانئها[(٣)]. ويستشهد بما ذكره المؤرخون والجغرافيون والرحالة لذلك يورد اخبار البصرة وسيراف وعمان ويصف متاجرها ومراكبها، من خلال مشاهدات الأصطخري وابن

(١) زيادة، الجغرافية، والرحلات، ص ١٨٨-١٩٨

(٢) المرجع نفسه

(٣) زيادة، الجغرافية، والرحلات، ص٢١٤-٢٢٢

جوقل والمقدسي والمسعودي، فلا يتحرج من الاستحضار المتكرر لبعض الرحالة، فهو حين يتحدث عن الاحساء في العصور الوسطى ويلحظ أنه لم يتعرض للحديث عنها عند حديثه عن ناصري خسرو، يعاود ما ذكره خسرو عن وصف الإحساء وما يتبعها من سواد وما فيها من زنوج كما يتحدث عن قلعتها وعن كل وسائل العيش فيها، ويتنقل خسرو في أرجاء الخليج فيتحدث عن الشواطىء الشمالية والشمالية الشرقية منه ويذكر كيف عمل أهل الخليج المنارات كي لا تصطدم السفن بالمياه الضحلة. وكيف يوقدون السرج في زجاجات بحيث لا تطفئها الرياح، وتحدث عن مدينة مهروبان وأهميتها كمركز تجاري ذات سوق كبير، ويترك زيادة الحديث عن المدن والعمران ليتحدث عن المروزي من أهل القرن الثاني عشر، وما قدمه من معلومات قيمة عن الصين والأتراك وغيرهم من شعوب المشرق»[١] وفي هذا الاطار يورد زيادة ما ذكره كل من بنيامين بن البلخي(القرن الثاني عشر) وياقوت الحموي(القرن الثالث عشر) وما ذكره ابن بطوطة عن أجزاء اخرى من الخليج وشطآنه، ووصفه مدينة ظفار والبحرين والمغاص على اللؤلؤ[٢]. وهكذا يستمر جهد زيادة دون ملل في البحث عبر العصور عن تاريخ المكان وما أصابه من تطور، وما امتاز به وما تعرض له من أهوال.

تحدث زيادة عن اسامة بن منقذ[٣] الأمير الفارسي الذي تنقل في مصر وسوريا وبغداد ويقول: « إنما ادخلناه في عداد الرحالين لأن كتاب الاعتبار نسيج وحده في الأدب العربي ومذكرات صاحبه تشمل صفحات مجيدة في تاريخ الفروسية والقومية العربية[٤]»، وبالإضافة إلى البعد الأدبي في الكتاب فإن فيه إشارات كثيرة إلى أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية[٥]، جاب أسامة انحاء الشرق العربي وصرف معظم شبابه في البلاط النوري بدمشق وفي مصر زمن الخليفة الفاطمي بالقاهرة (١١٤٤ – ١١٥٤م) وأما

(١) المرجع نفسه ص٢١٧

(٢) زيادة، الجغرافيا والرحلات، ص٢٢١ –٢٢٢.

(٣) ولد اسامة بقلعة شيزر في ٢٧ جمادى الأولى ٤٨٨هـ / ٤ تموز (يوليو) ١٠٩٥، وقلعة شيزر تقع على بعد (٢٤) كم شمال حماة، كانت حصن بني منقذ انتزعوها من الصليبيين سنة ٤٧٤ هـ/١٠٨١م.

(٤) زيادة، رواد الشرق، ص٧٢

(٥) المرجع نفسه ص٧٣

كهولته فصرفها عند اتابكة الموصل وفي حصن كيفا [١]. زار بيت المقدس وحج وتنقل بين معظم العواصم الإسلامية وتعرف إلى كبار الأفرنج فضلا عن صداقته للخلفاء والملوك. وبين الرحلات التي ذكرها زيادة في الفترة المملوكية رحلة رسمية قام بها الملك الأشراف قايتباي (٨٧٢-٩٠٢ هـ / ١٤٦٨-١٤٩٦م) في سورية سنة ٨٨٢هـ/ ١٤٧٨ م، حين كان شمال سوريا مهدداً من قبل الدولة العثمانية، تفقد برحلته القلاع والتحصينات الدفاعية الحدودية، وزار معظم مدن ديار بكر وسوريا في طريقه . وقد كتب رحلة قايتباي ابو البقاء بن جيعان، وهو أحد الذين رافقوا السلطان وسماها «القول المستطرف في رحلة مولانا الملك الأشرف » [٢].

يتابع الدكتور زيادة أخبار الرحالة ويحرص أن لا يفوته ذكر أحدهم، فذكر رحلة أبو القاسم الزياني وكتابه» الترجمانه الكبرى « فرغ من تأليفه سنة (١٢٢٣هـ/١٨٠٨م) « الذي جمع فيه أخبار المدن المعمورة في البر والبحر، و لم يقتصر على ما جمعه عبد المنعم الحميري في « الروض المعطار» وما جلبه ابن الجوزي من أخبار البحار والقفار وما في « خريدة العجائب» من الجزر والعيون والآبار والأنهار. وما في « عجائب المقدور من نفائس الأخبار وما كان بعدهم من الحوادث والآثار .. »[٣].

وعرض لرحلة محمد بن عثمان الحشائشي التونسي إلى ليبيا، الذي دون اخبار رحلته في كتاب يعرف باسمين، الأول : « جلاء الكرب عن طرابلس الغرب « والثاني» النفحات المكية في أخبار المملكة الطرابلسية « سنة ١٣١٣ هـ/ ١٨٩٥م[٤].

وفي كتاب لبنانيات ذكر زيادة عددا كبيراً من الرحالة وأصحاب المذكرات وما دونوه من أوصاف وإنطباعات عن لبنان، ومن الذين ذكرهم رمضان بن موسى العطيفي (ت ١٦٩٣م) وعبد الغني النابلسي (ت ١٧٣١م)، قام الأول برحلته سنة ١٦٣٧م، أما النابلسي فقد قام برحلتين إلى المناطق اللبنانية ويمتاز النابلسي « بدقة ملاحظاته عما شاهده

(١) المرجع نفسه ص٧٢-٧٣

(٢) المرجع نفسه، ص٧٨-٨٠

(٣) نقولا زيادة، الأعمال الكاملة، **افريقيات، دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي**، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٢٥٥.سيشار إليه عند وروده، زيادة، افريقيات.

(٤) المرجع نفسه، ص٢٧٣

في الموانيء من المراكب في طرابلس وغيرها »[١]

ومن اصحاب المذكرات تحدث شيخنا عن مذكرات شكيب أرسلان « الإرتسامات اللطاف» وهي ذكريات حجه وإنطباعاته التي خلفتها في نفسه زيارة الأماكن المقدسة [٢]. وتحدث عن الشيخ محمد رشيد رضا ورحلاته في المناطق اللبنانية، ثم رحل إلى مصر، وزار بلاد الشام بعدها مرتين الأولى بعد ١٩٠٨م، والثانية بعد الحرب العالمية الأولى، زار الهند والقسطنطينية وأوروبا، وكان ينشر اخبار رحلاته في مجلة « المنار»[٣].

استعرض زيادة الحجاج المسيحيين الرحالة، الذين زاروا الشرق العربي وما خلفوه من قصص وأخبار، فعدد رحالة القرنين الرابع والخامس، فذكر جيروم، والقديسة سلفيا (اثريا) وداود الولشي، وقال بان ابرز رحلات القرن السابع رحلة «اركولف» الذي قدم من بلاد الغال إلى الأراضي المقدسة ودمشق وصور والإسكندرية والقسطنطينية، وقد قص اخبار سياحته على راهب انكليزي اسمه « ادفنان» وهذا دونها فيما بعد، واشتملت على ثلاثة أقسام، أولها عن القدس، والثاني عن بقية الأراضي المقدسة ومصر، والثالث عن القسطنطينية، والرحالة يعني بامور كثيرة لها علاقة مباشرة بجغرافية البلاد في أيامه[٤].

تابع زيادة الحديث عن رحالة القرن الثامن فذكر ليبولد الانكليزي الذي زار سوريا ما بين (٧٢١-٧٢٧م) وبرنارد الحكيم في القرن التاسع، الذي يعتبره القرن الأخير من عصر التفاهم والتسامح بين والشرق والغرب الذي سبق الحروب الصليبية [٥].

وقد شهدت فترة الحروب الصليبية سياحاً وحجاجاً أوروبيين من جنسيات مختلفة «بينهم الولشي والنرويجي والروسي والألماني واليوناني والفرنسي

---

(١) زيادة، لبنانيات، ص٢٧٥- ٢٨٠

(٢) المرجع نفسه، ص١٥٣

(٣) نفسه، ص١٦٥

(٤) زيادة، رواد الشرق العربي، ص٤٩-٥١.

(٥) المرجع نفسه ص٥٣.

والأسباني»[١]، وكانت عناية حجاج الفترة الأولى منصبة على مشاهدة الأماكن المقدسة، ولذلك لا نجد في كتابات سيولف الولشي (على سبيل المثال) سوى جدول يحوي اسماء الكنائس التي زارها في القدس[٢].

تحامل كتاب القرن الأول من العصر الصليبي على العرب والإسلام، ولكن ذلك تبدل في أوائل القرن الثالث عشر كما يقول زيادة، وقد عرض زيادة لرحلات عدد كبير من الأوروبيين، منهم الكهنة ومنهم المطارنة، وتحدث عن رحلة السائحين اليهوديين بنيامين التودلي الأسباني (١١٦٠ –١١٧٣م) وبتاحيا بين (١١٧٠ و ١١٨٧م) وهذان يمثلان الحجاج واليهود الغربيين الذين قدموا إلى الشرق لزيارة بني جنسهم فيه.

ومن أشهر الرحلات التي تمت في هذه الفترة « رحلة ماركو بولو» الذي يعتبر أكبر رحالة القرن الثالث عشر ويقول عنه زيادة:« ولو كنا نؤرخ للرحلة أو للكشف الجغرافي لكان لزاماً علينا أن نخصه بأكبر قسط من هذا الكتاب »[٣]. وهذه الشهادة تدل قبل على كل شيء على روح العدل والانصاف لدى زيادة . .

انطلق ماركو بولو بصحبة أخيه نحو الشرق، مروراً بالموانىء العربية حتى وصل بلاد الصين، وهو في نظر زيادة « دقيق الملاحظة، كثير العناية بالمتاجر وموارد الثروة، ومن هنا كانت اخباره وصوره ذات قيمة خاصة»[٤].

وآخر رحالة الفترة الصليبية هو بركارد الراهب الدومينيكاني الألماني الذي كتب عن الأرض المقدسة سنة ١٢٨٣م وكان قد أقام بالقدس وسكن عكا وتجول كثيراً في البلاد المجاورة، ويمتاز عمن سبقه بعنايته بالآثار[٥].

نلحظ من خلال ما كتبه زيادة عن الرحالة، خصائص متفردة، أولها نظرة الاحترام

(١) زيادة، زواد الشرق، ص٨١

(٢) المرجع نفسه، زار فلسطين بعيد مجيء الصليبيين (١١٠٢م أو ١١٠٣م).

(٣) زيادة، رواد الشرق، ص٩٢ . (وماركو بولو وأخوه كانا يشرفان على تجارتهما بالقسطنطينية).

(٤) المرجع نفسه، ص٩٣

(٥) زيادة، رواد الشرق، ص٩٣.

* لقد قدر للباحث أن يرافق المرحوم زيادة في بعض السفرات العلمية، وأن يتعرف عليه من قرب . فوجده نعم الباحث ونعم صديق السفر.

والتقدير التي يكنها لكل رحالة مهما اختلف جنسه أو مذهبه، وثانيها الدقة في اختياره ابرز المعلومات التي سجلها الرحالة فيما يختص بالعرب وبلادهم، وثالثها هذا الحياد الذي يبديه تجاه النوازع والاتجاهات الكثيرة التي حملها الرحالة، فظل عالماً شامخاً يترفع عن توافه الأمور، مستخدماً المنهجية العلمية في اختيار نصوصه من هذا أو ذاك، ورابعها هذا النفس الطويل الذي تمتع به، وهو يرحل بفكره ونظره مع عشرات وربما مئات الرحالة الذين تعامل معهم، ولا شك أن هذا كله جاء من شخصية الرحال، الذي تمرس على تحمل الشدائد بروح رياضية.

هناك رحلات كثيرة أشار إليها صاحبنا، إذ لا يكاد يخلو عمل من أعماله الكثيرة من ذكر لرحلة من الرحلات أو لرحال من الرحالين، وكم كنت أتمنى لو أنه أهدى كتابه رواد الشرق العربي، وباكورة أعماله إلى روح المقدسي « شيخ الرواد المسلمين في الرحلات» والذي حرص على صحبته طيلة اعماله*.

فليرحمهما الله جزاء خدمتهما لأمة العرب والإسلام



المصادر والمراجع

أ - المصادر العربية

* **القرآن الكريم.**

* **كتب الحديث الشريف.**

١- ابن الأثير، ابو الحسن عز الدين بن أبي الكرم (٥٥٥-٦٣٠هـ) **التاريخ الباهر في الدولة الاتابكيه بالموصل**، تحقيق: عبد القادر احمد الطليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٣م.

٢- **الكامل في التاريخ** ١٣م، دار صادر، بيروت ١٩٨٢م.

٣- الأزدي، أبو اسماعيل محمد بن عبد الله، **فتوح الشام**، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٠م.

٤- الازرقي، الوليد محمد بن عبد الله بن احمد (٢٥٠هـ/٨٦٤م) **أخبار مكة**، الطبعة الهندية ١٢٦٥هـ.

٥- الاصطخري، ابو اسحق ابراهيم، **كتاب الأقاليم**، مكتبة المثنى، بغداد.

٦- الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد، **تاريخ دولة آل سلجوق**، اختصار الشيخ الامام، الفتح بن علي البنداري الأصفهاني، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١٩٨٠.

٧- الاصفهاني، ابو الفرج، الأغاني، ٢٤ ج، **الهيئة المصرية للكتاب**، القاهرة.

٨- الأصفهاني، الحسن بن عبد الله، **بلاد العرب**، تحقيق حمد الجاسر، والدكتور صالح العلي، منشورات دار اليمامة.

٩- الألوسي، محمود شكري، **بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب**، تحقيق محمد بهجة الأثري، ط٣، مصر ١٣٤٢هـ.

١٠- البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م) **صحيح البخاري** ٩ ج/٣م. دار احياء التراث العربي، بيروت.

١١- البدري، **نزهة الأنام**، المكتبة العربية، بغداد ١٣٤١هـ.

١٢- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، ت ٧٦٧هـ/١٣٤٩م، **رحلة ابن بطوطة** المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة.

١٣- أبو البقاء، هبة الله الحللي، المناقب **المزيدية في اخبار الملوك الأسدية**، ٢ ج تحقيق: صالح درادكه ومحمد خريسات، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان ١٩٨٤.

١٤- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، ت ٤٨٧هـ، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، ٤ ج، تحقيق: مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

١٥- البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م) **فتوح البلدان**، تحقيق رضوان محمد رضوان، م. السعادة، مصر ١٩٥٩م.

١٦- ابن تغري بردي، أبي المحاسن يوسف، (٨١٣-٨٨٧هـ) **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر د.ت.

١٧- الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م، **رسائل الجاحظ**، جمع حسن السندوبي، القاهرة ١٩٩٣م.

١٨- الجزري، عبد القادر محمد الحنبلي، **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**، تحقيق: حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض ١٩٨٣م.

١٩- أبو جعفر، محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي، ت٣٢٨هـ/٩٣٩م، **كتاب الكافي**، مطبعة طهران.

٢٠- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، **فضائل القدس**، تحقيق جبرائيل جبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٢١- ابن حبيب محمد، ت ٢٤٥هـ/٨٥٩م، **كتاب المحبر**، رواية أبي سعيد السكري، تحقيق ايلزه ليختن شتيتر، منشورات المكتب التجاري، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٢٢- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م، **تهذيب التهذيب**، طبعة حيدر أباد، الدكن، ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م.

٢٣- الحربي، أبو اسحق ابراهيم بن اسحق الحربي، **كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم**

الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق: حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض ١٣٨٩/١٩٦٩م.

٢٤- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي ت ٤٥٨هـ/١٠٦٣م، **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

٢٥- الحميري، محمد عبد المنعم ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦ **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ط٢، ١٩٨٤م.

٢٦- الحلبي الشافعي، علي بن برهان الدين، **إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون**، المعروفة بالسيرة الحلبية، وبهامشه **السيرة النبوية والآثار المحمدية**، لأحمد زيني دحلان، المطبعة الأزهرية، ط٣، ١٣٥١هـ/١٩٣٢م.

٢٧- ابن حنبل، أحمد، ت ٢٤١هـ/٨٥٥م، **مسند أحمد بن حنبل** ٦ ج المكتب الإسلامي - بيروت.

٢٨- ابن حوقل، أبو القاسم محمد، **صورة الأرض**، منشورات مكتبة الحياة، بيروت.

٢٩- ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، **المسالك والممالك**، مطبعة بريل ١٩٦٨م.

٣٠- الخطيب البغدادي، **الإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي**، ت ٤٩٣هـ/١٠٧٠م، **تاريخ بغداد**، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت.

٣١- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ٨٠٨هـ/١٤٠٦م، **تاريخ ابن خلدون** المسمى «**العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**» بتصحيح وعناية: علال الفاسي، وعبد العزيز بن ادريس المغربي، تعليق الأمير شكيب ارسلان، مصر ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

٣٢- ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ٦٨١هـ/١٢٨٢م، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق يوسف علي طويل، ومريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٣٣- خليفه بن خياط (٢٤٠هـ/٨٥٤م) **تاريخ خليفه بن خياط**، تحقيق أكرم العمري، النجف الأشرف ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م.

٣٤- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٢١هـ/٩٣٣م) **الاشتقاق**، تحقيق: عبد السلام هارون، مؤسسة مصر ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

٣٥- الديار بكري، حسن بن محمد بن الحسن، **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس**، المطبعة

الوهيبية، القاهرة ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م.

٣٦- الدينوري، أبو حنيفه (ت٢٨٢هـ/٨٩٥م) **الأخبار الطوال**، تحقيق، عبد المنعم عامر، ومراجعة جمال الدين الشيال، ط١، القاهرة، ١٩٦٠م.

٣٧- الزرقاني، أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي، **المواهب اللدنية**، المطبعة الأزهرية، القاهرة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م.

٣٨- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م) **الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ**، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٩- ابن سعد، محمد بن منيع البصري (ت٢٣٠هـ/٨٤٤م)، **الطبقات الكبرى** ٨ ج، دار بيروت ودار صادر، بيروت ١٣٧٩هـ/١٩٥٧م.

٤٠- السمهودي، نور الدين علي بن أحمد (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، **وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى**، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، ١٩٧١.

٤١- السهيلي، **الروض الأنف**، ضبط وتعليق طه عبد الرؤوف، مكتبة الكليات الأزهرية.

٤٢- ابن سيد الناس، فتح الدين أبو الفتح، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، دار الجيب، بيروت، ط٢، ١٩٧٤م.

٤٣- السيوطي، جلال الدين (ت٩١٠هـ-١٥٠٤م) **تاريخ الخلفاء**، مطبعة المدني، ط٢، القاهرة ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م.

٤٤- الشافعي، أبو عبد الله محمد بن ادريس (ت ٢٠٢هـ/٨١٧م)، **كتاب الأم**، كتاب الشعب ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

٤٥- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، **جامع البيان عن تأويل القرآن**، تحقيق: محمود محمد شاكر، ٣م، دار المعارف، القاهرة.

٤٦- **تاريخ الرسل والملوك** ١٠ ج، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، مصر ١٩٦٠م.

٤٧- ابن عبد ربه، احمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م)، **العقد الفريد**، تحقيق: محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، بيروت.

٤٨- أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٣٢٤هـ/٩٣٥م) **كتاب الأموال**، تحقيق: محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٨٨م.

٤٩- أبو عبيده معمر بن المثنى، **النقائض**، الطبعة الأوروبية.

٥٠- ابن العديم، كمال الدين عمر (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م)، **زبدة الحلب في تاريخ حلب**، تحقيق: سهيل زكار، دار الكتاب العربي، ١٩٩٧م.

٥١- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م)، **الزهري، أبو بكر محمد بن مسلم**، بعناية: نعمة الله قوجاني، مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٥٢- .... **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق: شكري فيصل وروحية النحاس ورياض عبد الحميد مراد، مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق.

٥٣- العليمي، أبو اليمن القاضي مجير الدين (ت ٩٢٧هـ/١٥١٢م) **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ٢ ج، المطبعة الوهيبية، القاهرة ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م.

٥٤- أبو الفدا عماد الدين اسماعيل بن محمد صاحب حماه (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) **المختصر في أخبار البشر**، ٢ ج، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

٥٥- **تقويم البلدان**، بعناية رينود والبارون ماك كوهين ديسلان، باريس ١٨٥٠م.

٥٦- الفسوي (البسوي)، أبو يوسف يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧هـ/٨٩٠م)، **المعرفة والتاريخ**، تحقيق: أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة ١٩٨١م.

٥٧- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحي (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، **مسالك الإبصار من ممالك الامصار، ممالك مصر والشام والحجاز واليمن**، تحقيق، أيمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، الجزء الخاص بقبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين، بيروت ١٩٨٥م.

٥٨- ابن قتيبه، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م)، **كتاب المعارف**، تحقيق: ثروة عكاشه، ط٢، دار المعارف، مصر ١٩٦٩م.

٥٩- قدامه بن جعفر، **الخراج وصنعة الكتابه**، شرح وتعليق محمد حسن الزبيدي، دار الرشيد، بغداد ١٩٨١م.

٦٠- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ-١٤١٨م) **صبح الأعشى في صناعة الأنشا**، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة.

٦١- .... **مآثر الانافه في معالم الخلافه**، تحقيق: عبد الستار احمد فراج، صورة بالاوفست، عالم الكتب، بيروت ط١، ١٩٨٠م.

٦٢- ابن كثير، عماد الدين اسماعيل (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، **البداية والنهاية**، ١٤ ج، ط. بيروت ١٩٦٦م.

٦٣- ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد (ت ٢٠٤هـ/٨١٩م)، **كتاب الأصنام**، تحقيق: أحمد زكي، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م.

٦٤- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، **التنبيه والإشراف**، دار التراث، بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

٦٥- .... **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ٤ ج، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعاده، مصر، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

٦٦- أبو المعالي المشرف بن المرجا المقدسي، من رجال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، **فضائل بيت المقدس والخليل عليه السلام وفضائل الشام**.

٦٧- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م)، **مختصر تاريخ دمشق**، تحقيق: محمد راتب حموش ومحمد ناجي العمر راجعه رياض عبد الحميد مراد، حيدر أباد - الدكن ط ١، ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م.

٦٨- .... **لسان العرب**، دار صادر، بيروت.

ب - المراجع العربية:

١- أحمد عادل كمال، **الطريق إلى دمشق**، دار النفائس، بيروت، د.ت.

٢- أحمد عرموش، **الفتنة ووقعة الجمل**، دار النفائس، بيروت، د.ت.

٣- أحمد أمين، **ضحى الإسلام**، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٣، ١٩٥٢م.

٤- أسد رستم، **الروم وصلاتهم بالعرب**، بيروت، ط١، ١٩٥٥م.

٥- إسرائيل ولفنسون، **تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام**، القاهرة، ١٩٢٧م.

٦- جبرائيل جبور، **مكانة القدس لدى المسلمين** بحث منشور في المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام وفلسطين، ١٩٨٠م.

٧- جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ١٠ مجلدات، دار العلم للملايين، بيروت، ومكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٨م.

٨- جورجي زيدان، **العرب قبل الإسلام**، منشورات دار الحياة، بيروت، ١٩٧٩م.

٩- حمد الجاسر، **المنازل من روافد الدراسات عن جغرافية جزيرة العرب** ضمن كتاب **مصادر تاريخ الجزيرة العربية** ٢ ج، جامعة الرياض، ١٩٧٩م.

١٠- سعيد الأفغاني، **أسواق العرب في الجاهلية والإسلام**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٤م.

١١- سعيد عبد الفتاح عاشور، **تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦م.

١٢- شاكر مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، ٢ ج، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، د.ت.

١٣- صالح درادكه، **طريق الحج الشامي في العصور الإسلامية**، مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي، ط٢، ٢٠٠٧م.

١٤- عبد العزيز الدوري، **نشأة علم التاريخ عند العرب**، دار الشروق، ١٩٨٣.

١٥- .... **مقدمة في تاريخ صدر الإسلام**، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦١م.

١٦- .... **التكوين التاريخي للأمة العربية دراسة في الهوية والوعي**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٨٤م.

١٧- .... **العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام**، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٤م.

١٨- عبد المالك خلف التميمي، **التبشير في منطقة الخليج العربي**، الكويت، ١٩٨٢م.

١٩- عز الدين التنوخي، **الرحلة من الزرقاء إلى القريات**، جمع وتحقيق يحيى عبد الرؤوف حبر، ط١، ١٩٨٥م.

٢٠- عفيف عبد الرحمن، القدس **ومكانتها لدى المسلمين وانعكاس ذلك من خلال كتب التراث**، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام؛ ١٩٨٧م.

٢١- عون الشريف، **نشأة الدولة الإسلامية على عهد الرسول (ص)**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١م.

٢٢- فواز طوقان، **الواقوصة**، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام في صور الإسلام، مج٢، تحرير محمد عدنان البخيت وإحسان عباس، عمان، ١٩٨٧م.

٢٣- كامل العسلي، **مخطوطات فضائل بيت المقدس**، دراسة وببلوغرافيا، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، ط١، ١٩٨١م.

٢٤- محمد حميد الله، **الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة**، دار الإرشاد، بيروت، ط٣، ١٩٦٩م.

٢٥- محمد عزة دروزه، **تاريخ الجنس العربي**، ٨ ج، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ت.

٢٦- محمد ناصر الدين الألباني، **تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق للربعي ومعه مناقب الشام وأهله**، تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ.

٢٧- محمود شيت خطاب، **الرسول القائد**، دار الفكر، بيروت، ط٤، ١٩٧١م.

٢٨- ناجي حسن، **القبائل العربية في المشرق خلال العصر الأموي**، ٤٠هـ/٦٦٠م، ١٣٢هـ/٧٤٩م، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، ١٩٨٠م.

٢٩- مرتضى العسكري، **خمسون ومائة صحابي مختلق**، ترجمة عدد من الصحابة اعتماداً على رواية سيف بن عمر.

٣٠- ملكة أبيض، **التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة في القرون الثلاث الأولى**، دار العلم للملايين، بيروت.

٣١- ناصر الدين الأسد، **واقعة أجنادين**، دراسة تحليلية للمصادر والروايات، م٢، بلاد الشام في صدر الإسلام، الندوة الثانية من أعمال المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، تحرير محمد عدنان البخيث وإحسان عباس، عمان، ١٩٨٣م.

جـ - المراجع المعربه

١- اجناس جولد تسيهر، **العقيده والشريعه**، ترجمة وتعليق محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق، وعلي حسن عبد القادر، دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٦م.

٢- ادوارد سعيد، **الإستشراق**، ترجمة كمال أبو ذيب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط٤، ١٩٩٥م.

٣- استيفان رنسيمان، **الحضارة البيزنطية**، ترجمة عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م.

٤- **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٨١م.

٥- بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، ٦ ج، ترجمة عبد الحليم النجار وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٧م.

٦- **تاريخ الشعوب الإسلامية**، نقله إلى العربية، نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨م.

٧- برنارد لويس، **العرب في التاريخ**، تعريب نبيه أمين فارس، ومحمود يوسف زايد، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨م.

٨- توماس آرنولد، **الدعوة إلى الإسلام**، ترجمة حسن ابراهيم حسن ، وعبد الحميد عابدين وإسماعيل النحراوي، مصر، ط٣، ١٩٧٠م.

٩- جي. ١٠ ج، كرامرز، **الجغرافية والتجارة**، تراث الإسلام، تأليف فتح الله بإشراف سير توماس آرنولد، دار الطليعه، بيروت، ١٩٧٨م.

١٠- ديسو **العرب في سوريا قبل الإسلام**، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومراجعة محمد مصطفى زياده، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٥٩م.

١١- الراوندي، محمد بن علي بن سليمان، **راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدول السلجوقية**، نقله إلى العربية، ابراهيم أمين الشواري، وعبد المنعم محمد حسن، وفؤاد عبد المعطي الصياد، دار القلم، القاهرة.

١٢- فؤاد سيزكين، **تاريخ التراث العربي**، ترجمة عبد الحليم النجار وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٧م.

١٣- فوشيه الشارترى، **تاريخ الحملة إلى القدس**، ترجمة زياد العسلي، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٩٠م.

١٤- فيليب حتي، **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين** (٢ ج).

١٥- .... حتي وإدوارد جرجي، وجبرائيل جبور، **تاريخ العرب مطول**، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، ط٤، ١٩٩٥م.

١٦- كلود كاهن، **الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية**، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر والتوزيع، ١٩٩٥م.

١٧- القس لامنس، **دائرة المعارف الإسلامية**، ترجمة أحمد الشناوي ورفاقه، وزارة المعارف العمومية.

١٨- السترانج، **بلدان الخلافة الشرقية**، نقله إلى العربية تستيتر فرنسيس وكوركس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.

١٩- موسكاتي، سبتنيو، **الحضارات الساميّة القديمة**، ترجمة يعقوب بكر، مراجعة محمد القصاص، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.

٢٠- هوست كلينكل، آثار سورية القديمة، ترجمة قاسم طوير، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، ١٩٨٥م.

٢١- وليم الصوري، **الحروب الصليبية**، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٢- ي، أ. بليابيف، **العرب والإسلام والخلافة العربية**، نقله إلى العربية ، أنيس فريحه، وراجعه وقدم له محمود زايد، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٢م.

د - المراجع الأجنبية:

1 - a.G.W. Bowersock, Roman Arabia Harvard University Press, Mass 1983.

2 - Anderw D.petersen, Early ottoman forts on the Hajj Road in Jordan, Thesis Rembroke college oxford, Trinity Term, 1986.

3 - A. Smith, Historical Geography of the Holy Land, London (1894-1988).

4 - A.N. Stratos, Byzantium in the Century, trans. by Harry f. Hionides, vol.2.

5 - Caetani, Leonel, Annali dell› Islam, Lovds, Milani U.Hoeplis 19.5-1926.

6 - Conder. The Latin kingdom.

7 - F. M.donner, The Early Islamic conquests, Princeton, new Jerrsey, 1981.

8 - H.E. Glidden, The Encyi of Islam 2ed vol 1.

9 - H.E. Glidden, The Mumluk origin of the Fortified New York, 1952.

10 - J. Horovits, Islamic culture , 1928.

11 - King. Knight Hospitallers?

12 - N. Glueck, Detities and Dolphions, New York. 1965.

13 - N. Glueck, Bulletin of the American Schools of oriental Research , 1938.

14 - Ph, Grant, The Syrian Desert Caravans Travel and Ezploration, New York, The Macmillan company, 1938.

15 - Ph, Mayerson, The Desert of southern Palestine according to Byzantine Sources, P.A.PH.S. 1907.

16 - Prawer, J The latin kingdom of Jerusalem, London, 1972.

17 - R.F. Burton, Personal Narrative of Apligrimage to Al. Madina and Mecca, 2 vols, 1964.

18 - R.G. Good Child, The coast Road of Phoenicia and its Roman Milestones Archaeol gical Studies Berytus, LX, 1949.

19 - Stevenson, W.b, The Crusaders in the east.

20 - Trimingham, Christanity among, Arabs in Pre- Islamic times, London, New York.

21 - Y.Ahoroni, The Roman Roads to Aila I.E.J, IV. 1954.



الفهارس العامة

١ - فهرس الآيات

٢- فهرس الأحاديث

٣- فهرس الشعر

٤- فهرس القبائل

٥- فهرس الأعلام*

(أ)

* حا: تعني الاسم في هامش الصفحة المثبت رقمها إلى جانب حا

ب

ش

و

ي



٦- فهرس الأماكن

ب

ح

خ

د

ك



٦- فهرس الموضوعات





دراسات في الجغرافيا التاريخية
لبلاد الشام

أ.د صالح موسى درادكه

